الياس خوري

رواية

يالو

دار الآداب

إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول شراء النسخة الورقية
تذكر أن الكتاب العرب معترون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن إستمرار عطائهم
(أبو عبدو)

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

الياس خوري

يالو

رواية

دار الآداب - بيروت

يالو

الياس خوري/روائيّ لبنانيّ

الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢

جميع الحقوق محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 123 4-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

الأحداث والشخصيّات والأماكن والأسماء، في هذه الرواية، هي من خلق الخيال. وإذا وجد أيّ شبه بين أشخاصها وأسمائهم وبين أناس حقيقيّين، أو بين أماكنها وأحداثها، وأماكن وأحداث حقيقيَّة، فلن يكون ذلك إلّا محض صدفة، ومن غرائب الخيال، وخاليًا من أيّ قصد.

«ومثلما سار المسيح على البحيرة
سرت في رؤيايَ
لكنّي نزلت عن الصليب
لأنّني أخشى العلو
ولا أبشر بالقيامة...»

محمود درويش

لم يفهم يالو ماذا يجري.

وقف الشّاب أمام المحقّق وأغمض عينيه، وكذلك كان يفعل دائمًا. يغمض عينيه حين يواجه الخطر، ويغمضهما حين يكون وحيدًا، ويغمضهما حين أمّه... في ذلك اليوم أيضًا، صباح الخميس ٢٢ كانون الأوّل ١٩٩٣، أغمض عينيه بحركة لا إراديّة.

لم يفهم يالو لماذا كلّ شيء أبيض.

رأى المحقّق الأبيض، يجلس خلف طاولة بيضاء، والشمس تنكسر على النافذة الزجاجيّة وراءه، ووجهه يغرق في الضوء المعاكس. لم يرَ يالو سوى هالات من الضوء وامرأة تمشي وحيدة في شوارع المدينة وتتعثّر بظلّها.

أغمض يالو لحظة، أو هكذا اعتقد. كان هذا الشاب بحاجبيه المقفلين ووجهه الأسمر المستطيل، وقامته النّحيلة الطويلة، يغمض عينيه لحظة قبل أن يفتحهما ويرى. لكنّه هنا، في مخفر جونية، أغمض عينيه فرأى خطوطًا تتقاطع عند شفتين تتحرّكان بما يشبه الهمس. نظر إلى يديه المكبّلتين، وأحسّ أنّ الشمس التي تمحو وجه المحقّق تضربه في عينيه، فأغمضهما.

وقف الشابّ أمام المحقّق في العاشرة من صباح ذلك اليوم البارد، ورأى شمسًا تنكسر على الزجاج، وتشعّ في رأس الرّجل

الأبيض، الذي فتح فمه بالأسئلة، فأغمض يالو عينيه.

لم يفهم يالو لماذا صرخ به المحقّق.

سمع صوتًا يصرخ به: «افتح عينيك يا رجل»، فتحهما، دخل الضّوء إلى أعماقهما مثل أسياخ ملتهبة، فاكتشف أنّه أغمض عينيه طويلاً، وأنّه قضى نصف عمره مغمضًا، ورأى نفسه كالأعمى ورأى اللّيل.

لم يفهم يالو لماذا أتت، لكنّه حين رآها سقط على الكرسيّ.

حين دخل إلى الغرفة لم تكن تلك الفتاة التي لا اسم لها. دخل بخطوات متعثّرة لأنّه كان عاجزًا عن الرؤية في ضوء الشّمس المنكسر على الزجاج. وقف داخل البياض، يداه مكبّلتان وجسمه يرتعش بالعرق. ولم يكن خائفًا، رغم أنّ المحقّق سوف يكتب في تقريره أنّ المتّهم كان يرتعد خوفًا. لكن يالو لم يكن، كان فقط يرتجف بالعرق. كان العرق يتصبّب من كلّ أنحائه، وثيابه تتبقّع بالسائل الذي يخرج من مسامه، وله رائحة غريبة. شعر يالو أنّه يتعرّى داخل معطفه الأسود الطويل، وشمّ رائحة شخص آخر. واكتشف أنّه لا يعرف هذا الرّجل الذي يدعى دانيال، ويلقّبونه يالو.

جاءت تلك الفتاة التي لا اسم لها. ربّما كانت هنا في غرفة التحقيق، لكنّه لم يرها حين دخل. رآها فسقط على الكرسيّ، وشعر أنّ رجليه تخونانه، أخذه دوار خفيف، وصار عاجزًا عن فتح عينيه، فأغمضهما.

صرخ به المحقّق: «افتح عينيك يا رجل». ففتحهما، ورأى طيفًا يشبه تلك الفتاة التي لا اسم لها. هي قالت أن لا اسم لها. لكنّ يالو عرف كلّ شيء. تركها تغفو قرب جسدها المنمنم

العاري. فتح حقيبتها الجلديّة السوداء، وكتب الاسم والعنوان ورقم الهاتف وكلّ شيء.

لم يفهم يالو لماذا قالت إنّه لا اسم لها.

كان تنفّسها يرتجف، الهواء حول وجهها كأنّه يخنقها، وكانت عاجزة عن الكلام، لكنّها استطاعت أن تقول تلك العبارة: «أنا ما إلي اسم». فأحنى يالو رأسه وأخذها.

هناك في الكوخ، أسفل ڤيلّلا «غاردينيا» التي يملكها الأستاذ ميشال سلّوم، هناك حين سألها عن اسمها، قالت بصوت مليء بفجوات نقصان الهواء التي تخلق الرئتين: «أنا ما إلي اسم، دخيلك بلا أسامي». فقال: «طيّب، أنا اسمي يالو، ما تنسي اسمي».

لكنّها تقف هنا واسمها إلى جانبها. وحين سألها المحقّق عن اسمها لم تتردّد في الجواب، «شيرين رعد»، قالت. لم تقل للمحقّق «دخيلك بلا أسامي»، ولم تمدّ يديها إلى الأمام، مثلما فعلت هناك في الكوخ حيث نام معها يالو بعد أن مدّت يديها وأشرقت منهما رائحة البخور. أخذ كفّيها، وأغلق بهما عينيه، ثمّ بدأ تقبيل زنديها الأبيضين، وشمّ رائحة بخور ومسك. شمّ رائحة شعرها الأسود، وأغرق فيه وجهه وسكر. قال لها إنّه سكران بالبخّور، فابتسمت، كأنّ القناع انزاح عن وجهها. رأى يالو ابتسامتها من خلال الظلال التي صنعها ضوء الشّمعة على الحائط. وكانت هذه ابتسامتها الأولى في ليلة الخوف تلك.

ماذا تفعل شيرين هنا؟

عندما فتح عينيه بعدما صرخ به المحقّق، رأى نفسه في بلّونة. قال لها تعالي، فمشت خلفه. مشيا من غابة الصنوبر التي

تقع تحت كنيسة مار نقولا، وتسلّقا التلّة إلى الڤيلّلا. الفتاة سقطت أرضًا، أو هكذا بدا ليالو، فانحنى يلمّها، أمسكها من يدها ومشيا، وحين سقطت للمرّة الثانية، انحنى فوقها من جديد من أجل أن يحملها، لكنّها تملّصت من يديه. وقفت، أمسكت جذع شجرة صنوبر وجمدت في مكانها، وكان لهاثها مرتفعًا. أعطاها يده فأمسكتها، ومشت إلى جانبه، وكان يستمع إلى صوت تنفّسها ولهاث خوفها.

وحين وصلا إلى الكوخ، تركها أمام الباب، دخل وأضاء شمعة، حاول ترتيب ثيابه وأغراضه المبعثرة، لكنّه اكتشف أنّ هذه المهمّة تحتاج وقتًا، فعاد إليها ليجدها قد أسندت رأسها إلى درفة الباب المفتوح، وهي تصدر أصواتًا تشبه البكاء.

«ما تخافي»، قال لها، «تعالي، ستنامين هنا، سأفرش لك على الأرض، ما تخافي».

دخلت متردّدة، وقفت في وسط الغرفة، كأنّها تبحث عن كرسيّ تجلس عليه. قفز يالو، انتزع بنطلونه عن الكرسيّ ورماه على طرف السّرير، لكنّها لم تجلس، بقيت واقفة وحائرة.

«بتشربي شاي»؟ سألها.

لكنّها بدل أن تجاوب مدّت يديها كالمستغيثة. وحين أمسك يالو يديها الممدودتين، ورأى الخوف يتحوّل دوائر متداخلة في عينيها الصغيرتين، تراجع إلى الوراء. قال إنّه خاف، سوف يقول إنّه شعر بالخوف، لكنّه في تلك اللّحظة لا يدري، فهو لم يشعر أنّه شعر بالخوف قبل أن يكتب تلك الكلمة. قالها فأحسّ بها، ثمّ كتبها. وهو اليوم، حين يتذكّر العينين الصغيرتين في ظلال ضوء الشمعة، حين يرى كيف بدأ البؤبؤان يصغران ويتحوّلان

دوائر متداخلة، يشعر بالخوف، ويقول إنّه خاف من عينيها.

حين تراجع رآها تتقدّم نحوه. كانت يداها معلّقتين في الهواء، كأنّها تستنجد به، أو تطلب مساعدته. اقترب منها، أخذ كفّيها وأغلق بهما عينيه فهدأت. أمسك يديها، فأحسّ ارتجافة تسري فيهما، كأنّ خطوط الخوف التي كانت تنبض في داخلهما صارت كالشرايين التي تنقل توتّرًا يسري في الجسد كلّه. وضع كفّيها على عينيه، ورأى الظلام، وشعر كيف بدأ جسدها يسكن ويهدأ، وطلعت رائحة البخور.

«شو هالرِّيحة الحلوة؟» قال يالو، متراجعًا إلى الوراء. جلس على الكرسيّ، وغطّى وجهه بيديه كأنّه شعر بالتعب، وبقي جالسًا دون حراك. وكانت الشمعة تترنّح بضوئها الذي يرتجف بهواء الصنوبر الطالع من الغابة. وكانت الفتاة التي لا اسم لها تقف إلى جانبه وتستعيد الهواء الذي سرقه الخوف منها حين رأت الشبح الأسود يقترب من السيّارة المتوقّفة على زاوية حرج الصنوبر، تحت الكنيسة الأرثوذكسيّة.

لماذا تلبس تنّورتها القصيرة، وتظهر فخذيها؟

تجلس الفتاة أمام المحقّق، بتنورتها الحمراء القصيرة، وتضع رجلاً على رجل، وتحكي كأنّها تبتلع هواء غرفة التحقيق كلّه.

قال لها يالو أن لا تلبس تنانير قصيرة. «شو هيدا، ولو»! لكنّها لم تجاوب. نظرت إلى ركبتيها حيث كان ينظر، وارتسمت سحابة ابتسامة على شفتيها، وهزّت رأسها. خرجا معًا في الصباح، أوقف لها سيّارة تاكسي إلى بيروت، وعاد إلى كوخه.

لكنّها تجلس الآن، وتلبس تلك التنورة نفسها، أو تنورة تشبهها، وتضع رجلاً على رجلٍ، وتحكي دون أن تتلعثم أو

تتأتئ مثلما فعلت هناك.

كانا في السيّارة كظلّين. لم يرَ يالو الرابض على قمّة تلّته منهما سوى الشعر الرماديّ الذي يغطّي رأس الرّجل. أطلق يالو ضوء بطّاريّته على السيّارة كمن يُطلق الرّصاص. كان يشعر، عندما يتسلّل بين أشجار الصنوبر، حاملاً بندقيّة الكلاشينكوف الروسيّة، والبطّاريّة، أنّه ذاهب إلى الصيد. كانت السيّارات أفخاخًا لطرائده. وكان مثل صيّاد العصافير، يعرف المواسم، ويتمتّع بها. وهذا ما حاول شرحه للمحقّق. قال إنّ المسألة بالنّسبة إلى صيّاد مثله، لم تكن السرقة أو النساء، بل المتعة. متعة صيد الحبّ المسروق داخل سيّارات مقفلة النّوافذ، ومتعة اللّحظة الأولى، لحظة سقوط الضّوء على الوجهين، أو على يد تمتدّ إلى الفخذين، أو على رأس ينحني للنهدين الخارجين من ثنايا الثوب.

الضوء الذي يطلقه يالو، يصيب الهدف مباشرة. لم يكن يالو يتلاعب بالضوء، كان يضرب في المكان المناسب، منذ اللّحظة الأولى. وحين كان الضوء لا يصيب هدفه، تكون المغامرة قد فشلت، فيعود أدراجه، أو يكمن في انتظار أن تمضي السيّارة، فينسحب بهدوء مجرجرًا فشله خلفه.

الضربة الأولى أو لا شيء. هذه كانت عقيدته في الصيد. وأجمل شيء بالنّسبة إليه كان الشعر الرماديّ الذي يشتعل بالضوء. أجمل اللّحظات كانت رؤوس الرجال المغطّاة بالشعر الأبيض وهي تنحني فوق نهد أو فخذ. كان ضوء البطّاريّة يخترق الشعر الأشيب ويشعله بالضوء ويجمّده في مكانه. الضّوء يتغلغل في الأبيض المنحني ويرسم حوله دائرة كاملة. يرتفع الضّوء عن

الشعر الرّماديّ، ويذهب إلى الجهة الثانية، ويرسم العيون، فتنبثق عينا المرأة المفتوحتين على مزيج الخوف والشهوة.

ويقترب الضّوء. ينزل الشبح، بعد أن يفتح ضوء البطّاريّة ويتركه ينتشر على السيّارة. في لحظات الصّيد الأولى، كان يالو يركّز الضوء ويجعله حادًا ورفيعًا وأشبه بخيط. أمّا بعد أن تجمد العيون فكان يفتح الضوء ويبعثره ويهبط. يقترب من النافذة المقفلة ويقرعها ببوز البندقيّة، فينفتح الشبّاك على الهلع. يقترب رأس الشبح من نافذة الرّجل، لكنّه لا يسمح لعينيّ المرأة بأن تغيبا عن عينيه الصقريتين المفتوحتين على أقصى الظلام. يرى في العتمة، ويبعثر ضوء بطّاريّته، فتعلو الظلال. يقترب داخل الظّلال، ويقرع النافذة ببوز بارودته، ويأمر بفتحها. ينظر في عيني المرأة، ويتأمّل اتّساع العينين على الخوف واختفاء البؤبؤين. ثمّ ينسحب بهدوء حاملاً غلّته: ساعة يد، خاتم، سلسلة ذهبيّة، إسوارة، وقليل من الدولارات، ولا شيء آخر. بلى، مرّة طلب من رجل خلع ربطة عنقه، لأنه شعر بأنّ الخوف قد يخنق الرّجل بتلك الربطة التي تدلّت فوق الحزام المفتوح، وكأنّها حبل مشنقة. ومرّة طلب من امرأة أن تعطيه شالها الأصفر، هكذا دون سبب. لكنّه لم يكن يريد أكثر، الأكثر كان يأتيه دون عناء أو تعب. لم يكن يالو يسعى إلى الأكثر، لكنّه كان يأخذه حين يأتي، لأنّه تعلّم من عذابه في تلك المدينة التي اسمها باريس، أن لا يرفض النعمة.

أمّا مع شيرين، فقد كانت الأمور مختلفة.

لماذا تقول إنّه اغتصبها في الغابة؟

«أنا لم»، قال يالو، لكنّه سمع صراخ المحقّق:

«أنت اعترفت يا كلب، وهلّق بتقول لا، بتعرف شو بصير بالكذّابين».

لكن يالو لم يكن يكذب. صحيح أنّه وافق على أنّ ما قام به يمكن أن يُسمّى اغتصابًا، لكنّه... لكنّ المسألة لم تكن تلك اللّيلة. شيرين لم تقدّم شكوى ضدّه من أجل تلك اللّيلة، بل من أجل الأيّام التي تلت.

معها، هناك، كانت الأمور مختلفة. ويالو لم يكن يعرف الكلمات المناسبة كي يقول لها إنّ رائحة البخّور التي ارتفعت من زنديها، في تلك اللّيلة، انتشرت فوقه مثل غمامة بيضاء، ثمّ انحدرت لتستقرّ في عموده الفقريّ.

حين قال لها إنّه يحبّها من عموده الفقريّ، بعد ثلاثة أشهر على حادثة الحرج، غرقت في الضّحك حتّى سقط الدّمع من عينيها، وصارت تتمخّط دون توقّف. اعتقد في البداية أنّها تبكي، فانحنى فوق الطاولة المليئة بالمازات في مطعم «البير» في الأشرفيّة، لكنّه حين دنا منها اكتشف أنّها تضحك.

«عم بضحك عليك»، قالت، «أنت مجدوب، طول بلا غلّة، شو هالحكي الترسو».

وصارت تتكلّم بالإنكليزيّة لتقول له: «فينيش، يومست أندرستاند، أڤريثينك إذ فينيش».

قال إنّه لا يفهم الإنكليزيّة، فقالت بالفرنسيّة: «سي فيني مسيو يالو».

«شو هو الفيني؟» سأل.

«هالقصّة». قالت.

«يعني بدّك تفنشيني»، قال.

«دخيلك يا مسيو يالو، أنا ما بقدر ضلّ هيك، دخيلك حلّ عنّي وخلّصني، خلّينا نتفاهم، قول شو بدّك وأنا بأمرك».

فتحت حقيبتها وأخرجت كمشة دولارات.

لماذا قالت للمحقّق إنّه صفعها لأنّها رفضت أن تأكل؟

لا، لم يصفعها لأنّها رفضت أن تأكل العصافير، مثلما ادّعت أمام المحقّق.

«حدن بياكل موسيقى!» قالت، حين رأت صحن العصافير المقليّة التي تسبح في مرق مصنوع من الحامض والثّوم.

«أنا ما باكل عصافير، هيدا حرام».

أعدّ يالو لقمة مؤلّفة من عصفور صغير. لفّ العصفور بالخبز، غمس الخبز بالمرق، وأدنى اللّقمة من فمها.

«نو، نو، الله يخلّيك».

لكنّ اليد التي تحمل العصفور المغطّى بالخبز ظلّت ممدودة، ثمّ بدأت تقترب من الفم وتحوم حوله، قبل أن تغطّ على الشفتين المقفلتين. فتحت الفتاة فمها، وبدأت تمضغ، فيما عضلات وجهها تتقلّص بشدّة.

ابتلعت العصفور وتوقّفت عن الأكل والكلام.

تابع يالو شرب العرق والنظر إلى وجهها. كان وجهها الصغير كأنّه قمر أبيض معلّق فوق عنقها الطويل. أراد أن يخبرها عن القمر. أراد أن يروي لها كيف اكتشف القمر والنجوم ودرب التبّانة الذي يشبه مسحة من الحليب في السماء، هناك في بلّونة، في أسفل الفيلّلا التي قاده إليها القدر من باريس. لكنّه خاف من أن تضحك عليه.

«هيئتك ما بتحكي بالعربي، وما بتحبّي عبد الحليم حافظ».

قال لها ذلك أو شيئًا من هذا القبيل، لكنّها لم تجاوب. بقي القمر الصغير الأبيض جامدًا فوق العنق الطويل، ثمّ انهمرت الدموع من عينيها. أمسكت محرمة ورقيّة، ومسحت دموعها وتمخّطت. لكنّ الدموع لم تتوقّف. فبدأ يروي لها الحكايات عن «العندليب الأسمر» وعن سعاد حسني وشادية، وعن أغنية «جبّار» التي يحبّها كثيرًا.

قال لها إنّه صار يحبّ شعر نزار قبّاني من أجل عبد الحليم حافظ، وأنّ «رسالة من تحت الماء»، حين يغرق الرّجل تحت ماء الغرام، هي أجمل قصيدة سمعها في حياته. وأنّه لم يقتنع بأنّ عبد الحليم لم يكن هو من يكتب كلمات أغنياته إلاّ حين قرأ ذلك في الجريدة.

«مش ممكن يا شيرين، الكلام بدوب بتمّه مثل السكّر، كأنّو بيخلّي الكلام يصير خيطان مغزولة غزل، مش ممكن ما يكون هو يلّلي ألّف القصيدة، وبعدين اقتنعت، ورحت واشتريت كتاب اسمه «الرّسم بالكلمات»، بس ما فهمت ولا كلمة، الشعر ما بيزبط إلاّ لمّن بغنّيه عبد الحليم، إنت ما بتحبّي عبد الحليم؟»

كان القمر ساكتًا، والتقلّصات العضليّة تجتاحه، ورأى العينين الصغيرتين المعلّقتين فوق تلك الصفحة المستديرة البيضاء.

يالو لم يلاحظ أنّ عينيها صغيرتان قبل أن يأتيا إلى مطعم «البير». هناك في بلّونة رأى، لكنّه لم يرَ، لأنّ الرائحة اجتاحته وجعلته عاجزًا عن النّظر.

«بتتذكّري كيف، ما بعرف إنتِ شو حسّيتي، بسّ هونيك، أنا حسّيت حالي عم بغرق، كانت ريحة البخّور، وكنت مش قادر شوف شي، اتطلّعي فيّي منيح حتّى شوف لون عيونك».

شيرين اختارت هذا المطعم، ذهبا في سيّارتها «الغولف البيضاء»، جلس إلى جانبها ولم يجد ما يقوله. قالت له على التلفون أن ينتظرها في ساحة ساسين، أمام نصب بشير الجميّل، في الواحدة بعد الظّهر. وقف هناك وانتظر، وكان المطر، لكن يالو لم يتزحزح من مكانه، احتمى من حبال المطر بأجزاء من النّصب، لم يذهب إلى مقهى «تشايس» المجاور. خاف أن لا تجده، خاف أن لا تعرفه، وخاف أن لا يعرف سيّارتها. قالت إنّها ستأتي في سيّارة بيضاء، فوقف تحت المطر منتظرًا السيّارة البيضاء التي تجلس في داخلها، وحين أطلّت السيّارة لم يرها. بحلق في كلّ السيّارات، لكنّه لم يرَ، توقّفت السيّارة إلى جانبه، فتحت الباب وأشارت إليه، رآها فسقط على المقعد الجلديّ داخل السيّارة، وامتلأت الأرضيّة ببقع الماء المتساقط من معطفه الأسود الطويل.

«بعدك لابس هالكبّوت؟» سألت.

لم يجد ما يقوله. فلقد لبس هذا المعطف من أجلها، من أجل أن يذكّرها بتلك اللّيلة. لكنّه كان يكذب حتّى دون أن يحكي. فهذا معطفه الذي لا يطيق فراقه. لبسه في بيروت، ولبسه في ثكنة الحرب قرب العدليّة، ولبسه في باريس، ويلبسه في بلّونة، ولا يطيق خلعه، حتّى أنّه كان يكره الصيف من أجله. لكن حتّى في الصّيف، كان هذا المعطف لا يفارقه في رحلات الصّيد إلى الحرج. لكنّه لم يجد ما يقوله. خطرت له فكرة العمود الفقريّ، وأراد أن يخبرها عن الحبّ الذي يفكّك الظهر، لكنّه لم يقل شيئًا. انتظر صامتًا حتّى وصلا إلى مطعم «البير». أوقفت السيّارة ونزلا. دخلت أمامه، وجدت زاوية منعزلة حيث

جلسا. وقبل أن يفتح فمه من أجل أن يقول لها إنّه مشتاق، مثلما خطّط أن يفعل بعد موافقتها على الخروج معه إلى المطعم، جاء النادل فسألته ماذا يشرب؟

«عرق»، قال يالو.

«عرق»، قالت شيرين متردّدة، «ليش لا».

وبدأ يالو يطلب المازات، وكانت شيرين وكأنّها لا تبالي بأصناف الطعام، أو لا تسمع. ويالو كان متأكّدًا من أنّ موافقتها على تناول الغداء معه سوف تقودها في النهاية إلى بيته في بلّونة، أو إلى بيتها في الحازمية.

عندما تحمّم في الحادية عشرة قبل الظّهر، ووضع على شعره الشمبوان الأخضر، ووقف تحت الدّوش السّاخن وأغمض عينيه، رأى شيرين. انهمر الماء فوقه وانهمر حبّه. أحسّ بأنّ كلّ شيء يتساقط عن كتفيه، كلّ عمره تساقط تحت الماء الساخن، وأحسّ نشوة غريبة. مارس العادة السرّيّة دون أن يدري، وتساقط كلّ شيء وجاء إليها. ترك الرّغبة الجنسيّة في البيت، وجاء هكذا عاريًا دون رغبة، وقف تحت الدّوش وأنهى المسألة، ترك رغبته في بيته وجاء إليها بالحبّ. الحبّ وحده قال في نفسه، الحبّ من أجل الحبّ، مثل عبد الحليم. حبّ لا يدري كيف يقوله، لكنّه سيقوله. فهو منذ لقائه الأوّل بشيرين لم يتوقّف عن سماع أغاني عبد الحليم، صحيح أنّه تابع حفلات صيده، لكنّه كان يقوم بها من دون رغبة حقيقيّة. أمّا مدام رندة، فقد توقّف عن مضاجعتها، نام معها ثلاث مرّات فقط خلال ستّة أشهر، وفي كلّ مرّة كانت تضع فيلمًا جنسيًّا على جهاز الڤيديو، فلا ينام معها إلاّ عبر الفيلم.

قالت شيرين إنّها ستمرّ على ساحة ساسين وتأخذه بسيّارتها. فركن سيّارة المدام في زاوية «مطعم لالا» للفراريج المشويّة، ومشى في اتّجاه ساحة ساسين.

كان يالو يعتقد أن شيرين لا تملك سيّارة. فحين اصطادها مع ذلك الرّجل الأشيب، الذي انحنى شعره الرّماديّ فوق رقبتها، اعتقد أنّها لا تملك سيّارة. الأشيب غادر بسيّارته، وتركها وحيدة مرتجفة في الغابة، ويالو أخذها إلى كوخه لأنّه لم يكن يملك حلاًّ آخر.

لماذا قالت للمحقّق إنّه أمرها بالخروج، وطلب من الرّجل أن يغادر؟

«إنّها تكذب يا سيدنا».

عندما قال إنّها تكذب، فرقع الكفّ على خدّه الأيمن، وشعر بدوائر صغيرة بيضاء تخرج من عينيه، وغام كلّ شيء.

صحيح ماذا جرى؟

سوف يقضي يالو أيّامًا طويلة في زنزانته، محاولاً إعادة تركيب الحادثة كما حصلت بالضّبط، لكنّه سوف يفشل.

عندما ضرب الضّوء على الضحيّتين، ثمّ مشى مهرولاً باتّجاههما، لم يسمع شيئًا. كان وقع قدميه وصوت ارتطام جزمته البلاستيكيّة بالأرض يملأ أذنيه. كذلك كان يحصل معه دائمًا. يعلو طنين قدميه، فيما يتقدّم من صيده، فلا يسمع شيئًا.

أطلق عليهما ضوء بطّاريّته، ثمّ تقدّم، وعندما وصل إلى السيّارة، رأى الرّجل الأشيب يرفع رأسه مذعورًا، قبل أن يخرج من السيّارة ويقف أمام يالو. نظر يالو إلى الفتاة، وأشار ببوز بندقيّته. إشارته لم تكن أمرًا بالخروج من السيّارة، لكنّ الفتاة

فتحت الباب وخرجت، فاستدار يالو ومشى نحوها، وفي تلك اللّحظة قفز الأشيب إلى السيّارة، وأقلع بها بسرعة إلى الوراء، ثمّ استدارت السيّارة ومضت فوق عجلات تئز بالتراب المتطاير حولها. رفع يالو بندقيّته في اتّجاه السيّارة سحب الأقسام استعدادًا لإطلاق النار، أو هكذا أوحى، فسمع بكاء الفتاة. التفت فرأى الفتاة جاثية على الأرض، وتتنهّد بالبكاء. أحنى بندقيّته ووقف إلى جانبها وسقط الصّمت بينهما.

قاد يالو الفتاة إلى بيته بعد أن طلب منها خلع سكربينتها ذات الكعب العاليّ. أمسكها من يدها وأوقفها، ثمّ مشى بها، وعندما اكتشف أنّها تتعثّر بسبب الكعب العالي، نظر إلى سكربينتها، ففهمت الفتاة، وخلعتها دون أن يطلب منها ذلك. حملت السكربينتين بيدها اليمنى ومشت إلى جانبه. لكنّها تعثّرت مرّة جديدة وكادت تسقط على الأرض. انحنت كأنّها تسقط، فانحنى يالو فوقها، لكنّها استعادت توازنها ووقفت، فأمسكها من يدها اليسرى، وقادها إلى حيث التمعت رائحة البخّور من زنديها الأبيضين الجميلين.

لماذا كذبت على المحقّق، وقالت إنّها كانت مع خطيبها؟

لا يذكر يالو أنّه قال لها إنّ زنديها مثل الرزّ بحليب، لكن هناك في المطعم، وبعد أن صفعها، ثمّ انتهيا من أكل الطعام، طلب يالو رزًّا بحليب. فابتسمت شيرين، لأنّها تذكّرت أنّه قال لها إنّ زنديها أطيب من الرزّ بحليب.

لا، لم يصفعها من أجل العصافير، كما ادّعت أمام المحقّق، بل لأنّها عرضت عليه مالاً، وهو يحتقر المال. أكل دزّينة عصافير مقليّة، وشرب نصف قنّينة عرق بلدي، قبل أن يصفعها

لأنّها أهانت كرامته.

لا، ليس صحيحًا ما قالته. فهو لم يأمرها بالرّكوع هي وخطيبها. هي ركعت بعد أن غادر الرّجل الأشيب. كما أنّها لم تكن مع خطيبها. فهذا الشابّ الذي جلس في غرفة التحقيق لم يكن معها هناك في الغابة.

قالت للمحقّق إنّه أمرهما بالرّكوع وصوّب نحوهما بندقيّته، وكان يريد قتل خطيبها إميل شاهين، لكنّها توسّلت إليه أن يتركه، فتركه.

«أنت إميل؟» سأل المحقّق.

«نعم، نعم، إميل شاهين»، أجاب الشابّ.

«هل عندك ما تضيفه؟»

«شيرين قالت كلّ شيء»، أجاب إميل.

قالت إنّه أمر إميل بأن يتلو صلاته الأخيرة قبل أن يقتله أمام عشيقته، «ساعتها صرت أترجّاه وأبكي، بسّ ضلّو متيّس، والبارودة مصوّبة على رأس الزلمة، فصرخت، ما بعرف منين إجتني القوّة، فزّ إميل على السيّارة وزمط والحمد لله، خطيبي هرب، وأنا وقعت بين إيدين هالنصّاب».

«شو جوابك يا دانيال؟» سأل المحقّق.

شعَر يالو بالتأتأة والعجز عن الكلام. عادت البحصة إلى فمه، أمّه كانت تضع له بحصة صغيرة تحت لسانه من أجل أن يحكي دون أن يتأتئ. ثمّ نسي التأتأة حين رأى الدم، هكذا كان سيكتب لو استطاع النظر إلى حياته في مرآة الأيّام، لكنّه يقف هنا، يشعر ببحصة أمّه تحت لسانه، ولا يجد كلمات يقولها.

«لماذا لم يبلّغ خطيبك فورًا عن الحادثة؟» كان سيقول.

«لماذا كان أشيب وفي الخمسين، وصار اليوم شابًّا؟» كان سيقول.

«لماذا تركك وهرب؟» كان سيقول.

لكنّه لم يقل. والمحقّق لم يلحّ عليه من أجل أن يجاوب. اعتبر صمته جوابًا واعترافًا.

«هيدا يلّلي اغتصبك، وبعدو لاحقك، وعم يبتزّك، وياخد منّك مصاري؟» سأل المحقّق.

أحنت شيرين رأسها بالموافقة.

نظر إميل إلى ساعته وسأل المحقّق إذا كانا يستطيعان المغادرة الآن.

«طبعًا طبعًا»، قال المحقّق، ورافقهما إلى باب المخفر.

أمّا في مطعم «البير»، فلا.

صفعها فخرست. ثمّ حين طلب رزًّا بحليب ابتسمت. فقال لها إنّه يحبّها.

«أنا مخطوبة يا يالو»، قالت.

«أنا بحبّك»، قال.

«دخيلك»، قالت.

جاء النادل بفاتورة الحساب، فصرفه يالو وطلب كأس عرق من جديد. شرب شفّة من كأس العرق، نظر في عينيّ الفتاة، قبل أن يغمض عينيه طويلاً.

«دخيلك ما تنام»، قالت.

«اسكتي»، جاوبها، «اتركيني عم بحكي مع الله».

وبدأت الفتاة تحكي، ويالو يستمع إليها بعينيه المغمضتين.

«أنا بحترم مشاعرك، بس متل منّك شايف، أنا مخطوبة وما

بقدر»، قالت.

«هيدا الخرا يلّلي تركك بالحرش وهرب؟» سأل.

«لا، لا، هيدا تركته، خطيبي واحد تاني».

وروت الفتاة، واستمع يالو.

«متل الأفلام المصريّة» قال، «كإنّي عم بحضر فيلم للأستاذ وحيد».

قالت إنّها سوف تستمع إلى الأغاني العربيّة من أجله، وقالت إنها تقدّره، وقالت إنّها تعتذر، وقالت إنّه كان محقًّا في صفعها لأنّها أساءت إلى مشاعره عندما عرضت عليه المال.

«خلص هالحكي»، صرخ يالو.

وقف ومثّل مشهد فريد شوقي عندما صفع هند رستم في فيلم «فتاة النيل»، وكيف ركعت الممثّلة وقالت: «بحبّك يا وحش».

«هيك بدّي ياكي تكوني»، قال: «لازم تحبّي رجّال حقيقيّ، مش هالخراوات، واحد، ختيار قد بيّك، والتاني بخاف من أمّو».

«معك حقّ»، قالت شيرين، «بس شو بقدر أعمل، بحبّو، كان طالب معي بالجامعة الأميركيّة ونمنا سوا، أنا كنت آخد حبوب منع الحمل، بسّ يومها نسيت، ما بعرف ليش، ولمّن خبّرتو إنّي حبلى ولازم نتزوّج، هرب، وقال إنّو بخاف من أمّو، وبعدين دبّرت حالي، عملت «ديبريسيون»، وأخذتني واحدة صاحبتي عند الدكتور سعيد يلّلي عملّلي «الكورتاج»، وحبّني، قال إنّو حبّني قد ما بكيت. وصلت لعندو على العيادة، وصرت أبكي، ما قدرت إحكي، قعدت على الكرسي، وحطّيت راسي بين إيديّ وصرت أشهق والدّموع تكرج من عيوني، والدكتور ما

قال شي، تركني أبكي وقعد يتفرّج عليّي. هو بعدين قلّلي إنّو قعد يتفرّج، قلّلي إنّو انغرم فيّي من أجل الدموع، هيك قالها بالعربي الفصيح، قال من أجل الدموع وعبطني. بكيت ما بعرف قدّيش، بعدين قلّلي يلّله قومي، قومي على الغرفة الجوّانيّة. قمت على الغرفة التانية وسمعتو عم بقلّلي، اشلحي، شلحت التنّورة وبقيت واقفة. قلّلي لا، وأشّر بإيديه على كلّ شيء. وشلحت كلّ شيء، وصار يتطلّع بصدري، حسّيت مدري كيف، نظراتو كانت عم تنغرس بصدري كأنّها دبابيس، وسمعتو قال: حلو كتير. بس ما ردّيت، كنت عم برجف من الخوف، قلتلّلو بردانة يا حكيم، قلّلي تلقّحي، تلقّحت على تخت غريب، نصف تخت، نمت على ضهري وتدندلو إجريّي لتحت، قرّبت الممرّضة منّي ومعها إبرة، وهو صار يتطلّع تحت، وعيونو مدري كيف كانوا، خفت يكون في مشكلة، حاولت إحكي، بس لساني صار تقيل بتمّي، متل شي قطعة كاوتشوك، وبعدين ما بتذكّر. لا، قبل ما غيب عن الوعي، قلتلّلو بردانة، الله يخلّيك عطيني غطاء، كنت خايفة ومستحيّة، وعيونو كانوا كأنّن شايفين أشيا، وبعدين لمّن فتّحت عيوني، كان كلّ شيء خلص. سمعت الممرّضة عم تقول الحمد الله على السلامة، البسي وفوتي عند الحكيم».

روت شيرين، انطلق لسانها دفعة واحدة، كانت تروي وتبكي وتتمخّط، ويالو يعطيها أوراق الكلينكس ويشتعل، كلّ شيء فيه اشتعل. نصف السّرير أشعله، وإشارة الطبيب بيديه لها بأن تخلع ثيابها أشعله، ومشهد الممرّضة وهي تشكّها إبرة البنج أشعله.

قالت إنّها خلعت كلّ ثيابها، ورسمت ما يشبه الدّوائر حول

نهديها الصّغيرين، فشمّ رائحة النهدين، وشمّ العري، لكنّه كان كالمشلول. هي تحكي وهو يستمع ويشعر بعينيه ثقيلتين كأنّهما في النّوم. روت عن النزيف الذي أصابها بعد الإجهاض بيومين، وكيف أخذها الدكتور سعيد الحلبي إلى عيادته الخاصّة، حيث أقامت ثلاثة أيّام حتّى شفيت، وكيف أنّها أحبّته في اليوم الثالث.

«تركتو ينام معي من دون ما أشعر برغبة حقيقيّة. لا، ما نام معي مزبوط». قالت إنّه في اليوم الثالث، والساعة تشير إلى السّادسة مساء، وهي وحيدة في الغرفة، تغالب النعاس، وتشعر بالشّوق إلى إشعال سيجارة، رأته قادمًا. كان غبش المساء يلّون كلّ شيء بالرّماديّ الذي ينوص فيه الضّوء، حين دخل الغرفة برأسه الذي يلتمع بالشيب، جلس إلى جانبها على السّرير، وقال، «خلص، الحمد لله على سلامتك، هلّق صار فيكي تروحي على البيت». أزاحت الغطاء عنها من أجل أن تنهض، فأمسك بيدها.

«لمّن مسك إيدي حسّيت إنّي بحبّو».

قالت إنّها أحبّته من يده. كانت أصابعه الطويلة مثل أصابع عازف البيانو مشبوكة بأصابعها، حين شعرت بالحبّ.

«وضع يده اليمنى على يدي، وترك يده الثانية تتغلغل في شعره الأبيض، فأحببته». قالت إنّها أحبّته، وتمنّت أن يضمّها إلى صدره.

«قلتلّو ما بدّي روح، تعوّدت عليك يا دكتور».

قالت شيرين عن المساء، كان اللّيل يزحف فوقهما، وأنّها لا تعرف ماذا جرى بعد ذلك.

«وما بعرف شو صار، ما بتذكّر. بتعرف أنا ما بتذكّر هالأشيا،

مش بسّ مع الدكتور سعيد، مع الكلّ يعني، معك ما بتذكّر، ومع إميل ما بتذكّر. مبلى، بتذكّر الغرفة والدكتور حدّي، وإنّي نمت معو، بسّ ما بتذكّر التفاصيل، وما بعرف شو صار، ليش قولك بصير معي هيك؟»

«شو بعرّفني»، قال يالو.

«غريب، والله ما بتذكّر شي»، قالت.

«يعني هلّق ما بتتذكّري كيف نمتي معي؟» سأل يالو.

...

«ما بتتذكّري كيف تاني مرّة، صرت تقولي إنّك عم تشمّي ريحة الصنوبر كأنّو الصنوبر دخل على الغرفة».

«أنا قلت هيك؟!»

«طبعًا».

«مش معقول».

«أنت تحكي عن ريحة الصنوبر، وأنا حسّ إنّو سلسلة ظهري عم تتفكّك».

«أنا ما قلت شي»، قالت شيرين، «مش ممكن، أنا معك كنت رح موت من الخوف، بعدين الله يخلّيك خلّينا ننسى».

لماذا نسيت كلّ شيء؟

نسيت كيف أخبرته في مطعم «البير» عن الدكتور سعيد، وعن خطيبها الجديد ـ القديم إميل. جلست كالغريبة، وخرج من عينيها الصغيرتين شيء يشبه وحشيّة الشّباب في ذلك اليوم الذي قرّر يالو أن ينساه، ونسيه. حين أخذوا الرّجال الثلاثة إلى المقبرة، وصلبوهم على الأرض تحت شجر السرو في مقبرة مار متر. صلبوهم قبل أن يطلقوا عليهم النّار، ثمّ صاروا يشتمون

ويصقون، والرّعب يسكن في عيونهم. يالو تقيّأ يومها ثمّ بكى، ثمّ ذهب إلى البيت، ثمّ... لا، لا يريد أن يتذكّر الآن، فأغمض عينيه.

قالت إنّها قبّلت الطبيب، رفعت عنقها قليلاً من أجل أن تلتقي شفتاها بشفتيه، وأنّها أحبّته.

«تركته ينام معي من دون رغبة، بسّ هو ما نام...» قالت.

قال لها الطّبيب إنّ الممارسة الجنسيّة الكاملة، حرام الآن.

«ونام مع صدري»، قالت وهي تبكي وتتمخّط.

«كيف يعني؟» سأل يالو بصوت متهدّج.

«يعني هيك»، قالت، ورسمت بإصبعها خطًّا بين نهديها.

«وأنا ما حسّيت شي، مبلى، حسيت بالحرارة».

قالت إنّها أقامت مع الطبيب علاقة طويلة، وإنّه كان غريب الأطوار، وإنّه كان ينام معها «دايمًا هيك».

«كيف يعني هيك؟» سأل يالو.

«يعني هون»، ورسمت خطًّا وهميًّا بين نهديها.

«كلّ الوقت هيك؟!»

«تقريبًا»، قالت، «قال إنّو بحبّ بزازي».

«ما تقولي هالكلمة»، قال يالو. «مش حلو النسوان تقول كلمات هيك».

«طيّب شو بدّكْ ياني قول، عم قول الحقيقة».

«قولي سهرو».

«شو يعني سهرو»، قالت.

«نسيتي! أنا علّمتك هالكلمة لمّن كنتِ عندي بالبيت».

«قلتلّك إنّي ما بتذكّر شي».

«وقتها اسألتيني شو يعني وشرحت لّك».

«طيّب، اشرح لي هلّق».

«هلّق لا»، قال يالو، «بسّ ما تستعملي هيديك الكلمة».

قالت إنّ الطبيب لم ينم معها ولا مرّة. كان يكتفي بالغزل و«بهيدول». «كان يقلّلي إنّو بخاف ينام معي مزبوط لأنّا بالعيادة، قلتلّلو طيّب منروح عالأوتيل، قال، كلّ النّاس بتعرفوا وهو رجّال متزوّج، وصرنا نقضّيها بين العيادة والسيّارة، وهونيك ببلّونة وقت يلّلي اغتصبتني...».

«أنا اغتصبتك؟ شو هالحكي!».

«يعني وقت يلّلي أخدتني لعندك ونمت معي، وقتها كنّا بالسيّارة، قلّلي وطّي راسك».

«يمكن شافني».

«لا، ما شافك، كان بدّو ياني...».

«بدّو ياكي شو؟»

«بدّو ياني وطّي راسي، وساعتها شرّفت حضرتك، ومتنا رعبة، وما بعرف كيف علّيت راسي، وكيف هو ضبضب حالو».

«أنا أهبل»، صرخ يالو، «أهبل وحمار».

«وطّي صوتك»، قالت شيرين، «أرجوك، المطعم مليان ناس، عمول معروف ما تعلّي صوتك».

فقال يالو بصوت منخفض إنّه أهبل وحمار.

أين رائحة البخّور؟

لماذا لم يشمّ يالو رائحة البخّور، حين رآها جالسة في غرفة التحقيق؟

في مطعم «البير»، شمّ الرّائحة، كان بخورها أقوى من العرق والعصافير المقليّة وكلّ شيء. أمّا هنا، في غرفة التحقيق البيضاء، فلم يشمّ شيئًا. بلى كان في أنفه ما يشبه رائحة الكاوتشوك. وعندما سيجبره المحقّق على كتابة قصّة حياته، فإنّه سوف يكتب عن رائحة الحبس، سوف يقول إنّ رائحة السّجن تشبه الكاوتشوك المبلّل بالماء. رائحة نفط ومازوت ومطّاط يشتعل بالدخان.

عندما رآها أمام المحقّق، سقط على الكرسيّ، وأغمض عينيه بحثًا عن رائحة البخّور. رأى إميل الجالس إلى جانبها، ورأى فخذيها الرفيعتين العاريتين بالتنّورة القصيرة، ورأى استدارة النهدين الصغيرين، وانتظر البخّور. لكنّ البخّور لم يطلع، بل ازدادت الرّائحة قوّة، وأصبحت أشبه برائحة مطّاط محروق مغطّى بالماء، وشمس تخترق كلّ شيء وتجعل الرؤية مستحيلة.

وشيرين قالت.

قالت ومدّت يدها وأمسكت يد يالو، في المطعم، قبل أن تسحب يدها من يده وتقول: «دخيلك».

«دخيلك خلّيني فلّ. أنا ما بدّي منّك شي، بعتذر، سامحني، وخلّيني فلّ».

«لوين بدّك تروحي؟» سأل يالو.

«بدّي روح على بيتي وحياتي»، أجابت.

«فلّي، ليش أنا رابطك؟»

«نعم رابطني، دخيلك فكّني وخلّيني روح، أنا ممنونتك على كلّ شي، بسّ لازم تفهم إنّو خلص، كلّ شي خلص».

شعر يالو برغبة في صفعها من جديد، لكنّه لم يفعل. الصّفعة كانت منطقيّة عندما فتحت جزدانها وأخرجت منه كمشة من الدولارات ودفعتها إلى يالو، تاركة جزدانها مفتوحًا على الطاولة، وطلبت منه أن يحلّ عنها.

«خود كلّ شي»، قالت، «وإذا بدّك أكتر أنا مستعدّة إدفع، بس حلّ عنّي».

ساعتها، وقف يالو وصفعها، سمع أصوات أقدام تقترب، فخمّن أنّ عمّال المطعم سيأتون. وضع يده في جيبه متحسّسًا السكّين، واستعدّ للمعركة. لكن صوت الأقدام تدحرج بعيدًا وغاب. جلس في مكانه، وشرب كأسه كلّه دفعة واحدة، وخيّم الصّمت الذي لم يقطعه سوى سعال شيرين وبكائها.

أعطاها ورقة كلينكس، فأعادت المصاري إلى الجزدان، ثمّ أعطاها لقمة كبّة نيئة، فأكلتها، وعاد الكلام إلى الكلام.

روى لها عن الأفلام المصريّة التي يحبّها، لأنّ المدام جعلته يحبّها. كانت تطلب منه النّزول إلى بيروت مرّة في الأسبوع، من أجل أن يجلب لها الأفلام العربيّة من محلّ ڤيديو في حيّ «السوديكو». وكانت تقضي صباحاتها في التفرّج على هذه الأفلام. وكانت تدعوه في بعض الأحيان إلى مشاهدتها معه. أمّا الأفلام الأخرى، فلم يخبر شيرين عنها، عدا أنّه لم يكن يعلم من أين تجلبها المدام، لكنّها كانت لا تتفرّج عليها إلاّ في اللّيل. النّهار للأفلام العربيّة، واللّيل لتلك الأفلام التي كانت لا تشاهدها إلاّ مع قنّينة ويسكي «بلاك ليبل». ويالو لا يريد أن يتكلّم الآن عن تلك الأفلام، لأنّه منذ شيرين صار يرى الحياة بعينين جديدتين.

لماذا لم تصدّقه شيرين؟

لماذا تصرّ على الاعتقاد بأنّه يبتزّها، وأنّ حبّه لها وأغنيات عبد الحليم حافظ لا معنى لها؟

في المطعم، حين روت عن علاقتها بإميل أحسّ بحاجة إلى صفعها من جديد. قالت إنّها صارت تعتقد أنّ الدكتور سعيد لا يحبّها.

«يعني كيف بدّي قلّك، ما بعرف، بسّ حسّيت إنّو ما بحبّني مزبوط».

قالت إنّ علاقتها بالطبيب انقطعت بعد تلك اللّيلة الجحيميّة.

«متل كأنّو كلّ أبواب جهنّم انفتحت. رحت لعندو على العيادة متل العادة. يعني الساعة ستّة المسا، على أساس منقضي ساعة زمان قبل ما يرجع على بيتو، قعدنا نتحدّث، قرّب صوبي، مدّ إيدو حتّى يفكّ ازرار القميص، وسألني عن إميل. أنا وقتها كنت رجعت إضهر مع إميل، زهقت حياتي من عيشة السرّ والكذب والمواعيد الناقصة، وبعدين ما كان ينام معي إلاّ متل ما قلتلّك. رجعت لإميل وصرت إضهر معو، ما بخبّرك كيف صار لمّن قبلت إحكي معو، قال إنّو حاسس بعقدة ذنب، وإنّو وإنّ، وقال إنّو راح يجيب إمّو تخطبني. أنا ما خبّرت الدكتور سعيد عن إميل، مدري كيف عرف، مبلى خبّرتو إنّو إميل اتّصل، بس ما خبّرتو إنّي رحت معو على السّينما، وإنّا نمنا سوا.

«نمتِ معو!» سأل يالو.

«شوفيها، ما هو رح يصير خطيبي».

«يعني كنتِ تنامي مع رجّالين بنفس الوقت؟»

لم تجاوب شيرين، خفضت رأسها وسكتت.

«شو بك سكتّ؟»

قالت إنّها لم تعد تفهم عليه، أخذها واغتصبها وصار يلاحقها بالتلفونات، ويفرض عليها أن تلتقي به في المقاهي، وينتظرها أمام بيتها وأمام عملها، ويبتزّها، ويهدّدها، ويأتي الآن ليعطيها دروسًا في الأخلاق لأنها نامت مع رجلين.

«وأنت مع كم واحدة نمت من نسوان الحرش؟»

«لا، أنا مش هيك».

«إنت شو؟ إنت مين؟ والله ما بعرف شو الله علّقني فيك؟»

«وبعدين؟» سأل يالو.

«بعدين شو؟»، قالت شيرين.

«خبّرتيه عن إميل، وبعدين؟»

«آه، عم تسألني عن الحكيم».

قالت إنّها أصيبت بالدّهشة عندما رأت ماذا حلّ بالدكتور سعيد. عندما سألها عن إميل، قرّرت شيرين أنّ الوقت قد حان من أجل أن تخبره الحقيقة. وعندما سمع أنّها ذهبت معه، بعد أن حضرا فيلم «سكارفيس»، إلى المطعم الإيطالي حيث تعشّيا، ثمّ ذهبت إلى شقّته وقضت اللّيلة معه، لم يغضب ويطردها من العيادة مثلما توقّعت، بل صار يأكل أظافر أصابع يديه بنهم ودون توقّف، ثمّ اقترب منها، وأمسكها من صدرها.

«لا لا»، قلت له، «لا، ما بقى بدّي هيك».

«بعرف كيف بدّك»، أجابها، وبدأ يمزّق ثيابها، ثمّ قادها إلى الكنباية، خلعت كلّ ملابسها وساعدته على خلع ملابسه، وبدأ الجحيم.

قالت شيرين إنّها لا تعرف ماذا جرى، هل نام معها أم لم

ينم. قالت إنّه كان منتصبًا، وأنّها أمسكت به، وأنّه دخل، لكنّه، لا تدري، ربّما قذف بسرعة، لكن لم يكن هناك أثر، ربّما ارتخى فجأة فادّعى أنّه انتهى، وبدأ يحاول من جديد. كان حدّها كلّ الوقت، كأنّه ينام معها، لكنّه لم... ثمّ قال إنّه لا يستطيع، لأنّها خصته. «أنتِ امرأة تخصين الرجال».

نظرت شيرين إلى يالو وسألته «معقول هالحكي».

قال يالو إنّه لم يفهم بالضبط ماذا جرى.

«وأنا كمان ما فهمت»، قالت شيرين.

«الله لا يجرّبنا»، قال يالو ضاحكًا.

«يعني مزبوط أنا بخصي الرجال؟» سألت شيرين.

«مع غيري ما بعرف، بس معي أنا مستعدّ برهنلك هلّق».

«ليك بشو بالك».

«بشو لازم يكون بالي؟» قال يالو وهو يرتشف من كأس العرق.

قالت شيرين إنّه نهض، لبس ثيابه، وتركها وحدها في العيادة ومضى.

«لبست تيابي بسرعة بلا ما إتحمّم، خفت إنّو يكون قفل الباب، وزربني هونيك، لمّن فتحت الباب انفتح، حملت حالي ورجعت عالبيت وخلص».

«خلص؟».

«لا، بعدين صارت القصّة ببلّونة. ترجّاني وطلعت معو، وصار يلّلي صار وخلص».

«وإميل؟» سأل يالو.

«لا، لا إميل ما عرف شي عن علاقتي بالدكتور سعيد، بعدين

شو هالعلاقة يلّلي ما إلها طعمة».

قالت إنّها مع إميل، لا تشعر أيضًا بطعم الأشياء، لكنّها سوف تتزوّجه. تنام معه دون أن تشعر بالرّغبة، لكنّها تشعر نحوه بالحنان، وخصوصًا أنّه يحمل شعوره بالذنب نحوها على كتفيه، ويظلّ منحنيًا. كأنّه خائف عليها.

قالت شيرين إنّها سوف تتزوّج إميل وتريد من يالو أن يفهم وضعها، ويتوقّف عن ملاحقتها بالتلفون، لأنّ موعد الخطبة صار قريبًا.

«الخطبة؟ أيّ خطبة؟»

«خطبتي من إميل»، قالت شيرين «نحنا قرّرنا نخطب، الله يخلّيك خلص».

«هلّق ظهرت الحقيقة»، صرخ المحقّق.

لماذا قال المحقّق إنّ الحقيقة ظهرت، هل لأنّها جاءت مع إميل وكذبت، أهكذا تظهر الحقيقة؟

قال المحقّق إنّ الحقيقة ظهرت، «وما بقى ينفع الكذب».

«نعم يا سيّدي»، قال يالو، وأراد أن يعترف. أحنى رأسه وأغمض عينيه فشعر بالاعتراف، وسمع صوت جدّه الكوهنو، وهو يقول بصوته المبحوح الذي تبتلعه حنجرته: «اعترف». كان يالو يخاف حين يستمع إلى أمّه وهي تقول إنّ أباها ابتلع صوته، يخاف ويتوقّف عن بلع ريقه، كي لا يبتلع صوته ويصبح مثل جدّه.

«اعترف يا ولد»، يصرخ الكوهنو.

لا يرى يالو سوى لحية بيضاء، تنتشر حولها رائحة غريبة.

«هذه رائحة البخّور»، قالت الأمّ. «جدّك كوهنو يا ابني، بيعلك البخّور والمسك قبل ما يباشر بالصلاة، وأنت كمان، بكرا بس تكبر إنشالله بتصير كوهنو متل جدّك».

«أنا بكره كلّ الكوهنوات»، قال دانيال.

لكنّ الجدّ، الخوري أفرام مثلما صار اسمه بعد أن دخل في سلك الكهنوت، نسي كلّ شيء. نسي اسمه الأول هابيل، واسمه الثاني الذي أطلقه عليه الملاّ الكرديّ، ونسي عمله كبلاّط في ورشات البناء التي كانت منتشرة في بيروت، ونسي أمّه التي ماتت في قرية بعيدة اسمها عين ورد، ونسي زوجته التي قتلها مرضها الطويل.

الكوهنو أفرام لا يذكر من أمّه سوى شعرها الأسود الطّويل الذي تجمّدت فوقه بقع الدّم، وصارت مثل العيون المفتوحة. أفرام يمضغ صمغ شجر الصنوبر، ويعطّر لحيته بالبخّور، ويخاف من العيون المفتوحة.

«غمّض عيونك يا ولد واعترف».

«عيون هالصّبي بخوفوني، ليش عيونو كبار هلقد ورموشو طوال، منين جايب هالعيون، نحن بالعيلة ما عنّا عيون كبار هيك».

لم يكن يالو يعرف كيف يجاوب على أسئلة جدّه الكوهنو، لكنّه كان يغمض عينيه ويعترف أنّه كذب أو سرق تفّاحة أو لم يدرس أو أيّ شيء يخطر في باله. حين يستمع الكوهنو إلى الاعترافات يتحوّل من كوهنو يتقبّل سرّ الاعتراف إلى جدّ، وبدل أن يعظ الفتى الذي يعترف أمامه مغمض العينين، منحني الرأس، يبدأ في ضربه بقضيب الخيزران.

«ما بدّي إعترف عندك يا جدّو».

«أنا مش جدّو، أنا الأبونا أفرام، إذا ما اعترفت ما فيك تتناول بكرا».

كان يجبره على الاعتراف، ثمّ يبدأ في ضربه، والفتى يخاف من هذا الصوت المتحشرج، الذي يمهّد لأنين قضيب الخيزران فوق قدميه العاريين.

يالو لا يبكي، يبتلع ريقه، ويرتجف بالقهر أمام جدّه.

كان يسمّيه الجدّ الأسود، وكان ذلك الرّجل المربوع القامة، العسليّ العينين، الكبير الأنف، الذي تحتلّ لحيته البيضاء وجهه كلّه وتنحدر إلى صدره، هو ربّ هذه العائلة الصغيرة المؤلّفة من يالو وأمّه غابي، ولم يكن له أب. فالأب هاجر من زمان إلى السّويد وانقطعت أخباره، ولم يكن هناك أخ أو أخت.

«فقط نحن الثلاثة»، قال يالو للمحقّق حين سُئل عن عائلته.

«نحن عائلة مؤلّفة من ثلاثة أشخاص فقط: إبو وبرو وروحوقديشو، وأنا هو البرو».

«شو هالحكي هيدا؟ شو أنا عم بمزج معك؟» صرخ المحقّق.

«لا سيدنا، بس جدّي الأسود كان هيك يحكي، هو سرياني، بس أنا بعتقد إنّو كردي، ما بعرف شو هالخلطة العجيبة، هيك نحن، آب وابن وروح قدس، وأمّي هي الرّوح القدس، هيك تعلّمت من أنا وصغير، بس جدّي بطّل يندهلي يا برّو، قال إنّي مش برّو صالح، البرّو هو المسيح، وأنا طالع مثل يوضاس، أزعر ومش نافع، منشان هيك صار يندهلي يالو، ولمّن يسمع أمّي عم بتقلّلي يا برّو يمنعها ويصرخ عليها».

لماذا لم يقل يالو هذه الأشياء للمحقّق؟

عندما سأله عن عائلته لم يعرف ماذا يجاوب. أغمض عينيه كأنّه لا يسمع.

«اعترف»، صرخ المحقّق.

قرّر يالو أن يعترف، جاءه الاعتراف فقال: «نعم، بس مش هيك صار».

«شو صار؟ هات لنشوف».

قال يالو إنّ شيرين لم تكن في السيّارة مع إميل بل مع رجل آخر.

«كذّاب، ليش ما قلت هالحكي، وقت يلّلي كان السيّد إميل قاعد هون».

وسقط الصّمت.

شعر يالو أنَّ الصّمت ينتشر في كلّ أنحائه، صمت شامل يبتلعه ويبتلع صوته وأذنيه. هكذا أحسَّ حين وصل إلى الڤيلّلا. قال له المحامي تعال، وجاء به من باريس إلى هناك. وهناك، في قرية بلّونة، سمع صوت الصّمت، وتآلف معه، وصار جزءًا منه. واكتشف أنّ اللّيل يملك جسدًا، وأنّ جسد اللّيل يسقط فوقه ويغطّيه.

ليل مثل معطف أسود، وصمت مثل الصّمت، ونجوم تنتشر فوقه كأنّها مفتوحة على الأبد، وأبد يأخذه إلى آخر الخوف.

قال المحامي ميشال سلّوم إنّه أتى به إلى هنا من أجل أن يحرس ڤيلّلا «غردينيا». قال إنّه جلب بندقيّة كلاشينكوف وصندوق ذخيرة، ودلّه على الكوخ في أسفل الڤيلّلا، حيث سيقيم.

«نعم، نعم» قال يالو.

«انزل على بيتك، رتّب حالك وبعدين لحقني لفوق حتّى عرّفك على مرتي الستّ رندة، وعلى بنتي غادة».

«نعم، نعم»، قال يالو.

«تحمّم، الميّ سخنة، غيّر تيابك اشتريتلك تياب جداد، وبعدين لحقني».

«نعم، نعم»، قال يالو.

«وما بدّي زعرنة، فاهم، البارودة مش للاستعمال إلاّ إذا صار شي لا سمح الله، ما بدّي حدا يشوف البارودة، وما بدّي مرتي تعرف».

«نعم، نعم»، قال يالو.

«مرتي بتخاف من الكلاب، وإلاّ كنّا حطّينا كلب للحراسة، يعني حتّى يساعدك، بس هي بتخاف، منشان هيك ما فيك تتّكل على حدن، اتّكل على الله، وعلى حالك».

«نعم، نعم»، قال يالو.

نزل يالو إلى الكوخ في أسفل ڤيلّلا الأستاذ ميشال سلّوم، وشعر أنّه يمتلك قصرًا. كان البيت صغيرًا وجميلاً، هكذا فكّر يالو حين وجد نفسه وحيدًا في بيته الجديد. غرفة كبيرة مساحتها حوالى أربعين مترًا مربّعًا، مستطيلة، حيطانها مطليّة باللّون الأبيض، أرضها مغطّاة بموكيت أخضر، على اليمين سرير خشبيّ عريض مغطّى بحرام صوفيّ أزرق اللّون، وعلى اليسار كنباية قديمة لونها زهر، وإلى جانبها طاولة خشبيّة وثلاثة كراس من الخيزران، ومن السّقف تتدلّى لمبة كهربائيّة عارية، وإلى اليسار خزانة حديديّة فتحها يالو فرأى ثلاثة بنطلونات جديدة،

ومجموعة من القمصان القديمة النظيفة والمكويّة، وكنزة صوفيّة زيتيَّة، وإلى يسار الغرفة مطبخ يحتوي برّادًا صغيرًا وبوتوغازًا له ثلاث عيون، وطاولة صغيرة، وخزانة بيضاء فيها صحون وطناجر، وإلى جانبه حمّام صغير، فيه مرحاض ودوش ومرآة نصفيّة، وعلبة بيضاء للأدوية عليها إشارة الصليب الأحمر، وسخّان ماء يعمل على الكهرباء. أشعل يالو السخّان وعاد إلى الغرفة وجلس على الكنباية مسترخيًا، فرأى في زاوية السّقف اليمنى خيطان عنكبوت، وانتبه إلى أنّ الطّلاء قد تقشّر في أعلى الحائط إلى اليسار، لكنّه شعر بأنّه ملك. دخل إلى الحمّام وأخذ دوشًا بالماء الذي لم يكن قد سخن بشكل كافٍ، ثمّ لبس قميصًا أخضر وبنطلونًا رماديًّا، واكتشف أنّ البنطلون قصير وأنّ البنطلونات الثلاثة المعلّقة في خزانته قصيرة قليلاً، فقرّر أن يلبس بنطلونه القديم من جديد، وأن يشتري في الغد بنطلونًا.

فكّر يالو أنّه سوف يعيش للمرّة الأولى في حياته في بيته هو، وفكّر أنّه يستطيع أن يجلب أمّه إلى هنا، ثمّ صرف النّظر عن الموضوع، فالستّ غبريال قالت إنّها ستعود إلى بيتها القديم، وإنّها تكره ضاحية عين الرمّانة التي اضطرّت إلى اللّجوء إليها، بعد هجرتها القسريَّة من بيتها في حيّ السريان في المصيطبة، مع بداية الحرب.

قالت إنّ زبائنها ينتظرون عودتها إلى الحيّ، وإنّها سوف ترجع إلى مهنتها الأصليّة لأنّها أفضل خيّاطة في بيروت.

قالت إنّها لم تعد تطيق هذه الحياة، وإنّها اشتاقت إلى جيرانها القدماء، وإنّ الحرب الأهليّة انتهت أو يجب أن تنتهي.

قالت إنَّ والدها مات هنا كالغرباء، الأبونا أفرام مات وحيدًا

وهي لا تريد أن تموت هنا، تريد أن تموت في بيتها.

قالت وقالت، كانت تقف طويلاً أمام المرآة وتحكي. وصار يالو يخاف من أمّه. صارت المرأة تثير الرّعب في قلبه، فقرّر أن يمضي. غادر البيت منذ عامين ولم يعد إليه. أخذته الأيّام إلى حيث أخذته، وهناك في نفق محطّة المترو في باريس، عثر عليه المحامي ميشال سلّوم، وأعاده إلى لبنان.

يالو لم يزر أمّه منذ عودته إلى لبنان، ولن يستطيع تبرير هذا الأمر للمحقّق، إذ لا يوجد أيّ مبرّر مقنع يمنع الإنسان من زيارة أمّه.

«أنا شفت أمّك»، قال المحقّق، «قالت إنّها ما بتعرف عنّك شي، رحت لعندها على بيتها بعين الرمّانة وسألتها عنّك».

«بعدها بعين الرمّانة؟» سأل يالو.

«ليش ما بتعرف وين أمّك ساكنة؟»

«مبلى مبلى، بس كنت مفتكر أنّها رجعت على المصيطبة».

«يعني ما زرتها من وقت ما رجعت من فرنسا؟»

«لا».

«ليش؟»

«ما بعرف، ما كان بدّي، ما كان في سبب».

«ليش عملت هيك؟»

«شو عملت؟»

«أنت بتعرف».

كان أبونا أفرام يبتلع الأحرف عندما يقول «أنت بتعرف». والمحقّق أيضًا ابتلع الأحرف، كأنّه غصّ بالكلمات، شرب

رشفة من كوب الماء الموضوع أمامه، وسأله لماذا لم يزر أمّه.

ويالو يعرف أنّ أمّه، رغم كلّ شيء، لم تكن مشكلة، لم يزرها لأنه لا يعرف، أو لأنّه كان متأكّدًا من أنّها عادت إلى بيتهم القديم، وهو لا يحبّ البيت القديم، حيث لن يجد أمامه سوى صورة الجدّ الأسود، معلّقة على الحائط.

لكن يالو لم يعترف مرّة لجدّه عن خطاياه الحقيقيّة، فيالو كان مقتنعًا أنّه لا وجود سوى لخطيئة واحدة، وأنّه كان يرتكبها مرغمًا ودون أن يقرّر، إذ يجد نفسه وحده مع الخطيئة، يدخل إلى الحمّام، ويمسك بالخطيئة ويرى النجوم.

قال لشيرين إنّه يحبّها لأنّه رأى النجوم. هذا الشعور بالنجوم التي تتفتّح مثل العيون في جسد اللّيل، لم يشعر به من جديد إلاّ مع شيرين، هناك في بيته الصغير في أسفل الڤيلّلا، أمّا مع الأخريات، نساء الحرج أو المدام أو بنات الحرب، فلا.

«أحبّك من أجل النجوم»، قال لها في المطعم، لكنّها لم تفهم شيئًا. قالت إنّها مستعدّة أن تعطيه كلّ المال الذي يريده دفعة واحدة، ولكن شرط أن يحلّ عنها، وتنتهي الحكاية وترتاح.

قالت وهي تبكي إنّها ترجوه، وإنّها صارت تخاف منه، وإنّها لا تحبّه بل تحبّ رجلاً آخر سوف تتزوّجه، فصفعها. حدّثها عن النجوم ففهمت أنّه يريد مالاً.

وقبل أن يغادرا المطعم، نظر إلى الفاتورة الموضوعة أمامه على الطاولة، وأراد أن يدفع لكنّها سبقته ودفعت.

«أنا عازمتك»، قالت.

«ما بيصير هيك، كلّ مرّة أنت بتدفعي».

«معليش خلِّيني هالمرّة كمان». قالت.

دفعت ومضت دون أن توصله إلى ساحة ساسين حيث ركن سيّارته. ركبت سيّارتها ولم تفتح له الباب، أدارت المحرّك ومضت، وبقي يالو واقفا وحده على رصيف الشّارع الضيّق. قالت إنّها مستعجلة، ويجب أن تعود إلى عملها. لكن هذه وقاحة، هكذا سيقول لها على التلفون في اليوم التالي، وسيسمع بدل جوابها صوت إقفال الخطّ في وجهه. سوف يعيد الاتّصال عشرات المرّات، ولن يسمع شيئًا. كان يالو متأكّدًا من أنّها كانت تقفل الخطّ عندما تسمع صوته على السمّاعة يقول آلو. فصار يطلب الرّقم، وعندما ترفع السمّاعة يصمت ويحاول أن يقطع تنفّسه. لكنّها لم تكن تقول حتّى كلمة آلو. كانت تترك الصّمت معلّقًا على سمّاعة الهاتف، ثمّ تقفل الخطّ. قضى يالو ثلاثة أيّام في لعبة التلفون الصّامت، ثمّ انفتح الصّوت من جديد، وعادت شيرين إلى التحدّث معه، والقبول بمواعيده، رغم أنّها كانت تحاول دائمًا اختلاق الأعذار.

لماذا قالت إنّه جاء ليلة عيد ميلادها وزرع الرّعب في قلبها؟

يالو لم يفعل شيئًا، سوف يقول إنّه لم يفعل شيئًا، وقف تحت عمود الكهرباء بمعطفه الطويل، ولم يتحرّك من مكانه، ورأته. لم يكن ممكنًا أن لا تراه، لأنّه أضاء عينيه وسلّطهما على نافذة غرفة نومها.

يستطيع يالو أن يقسم أنّه لم يفعل شيئًا سوى تسليط بؤبؤيه الأسودين الكبيرين على زجاج نافذة غرفتها. وقف جامدًا ساعات طويلة دون حراك، ثمّ فتحت شيرين النافذة، وخرج البخار. لا يدري يالو ماذا كانوا يفعلون هناك في الدّاخل، لكنّه

رأى دخانًا أبيض يخرج من النافذة، ويتحوّل غيمة، ورأى شيرين، كان رأسها يتدوّر داخل هالة من البخار الأبيض الذي يخرج من النافذة.

«مزبوط يا كلب، مزبوط وقفت تحت شبّاكها ليلة عيد ميلادها؟» صرخ المحقّق.

لماذا قالت إنّه كان يحمل بطّاريتين ويقف تحت المصباح الكهربائيّ، مرسلاً ضوء بطّاريتيه إلى نافذة غرفة النوم؟

لماذا كذبت وقالت إنّه كان يحمل بندقيّة كلاشينكوف؟ وإنّه انقضّ على نافذتها كما فعل في تلك اللّيلة في حرج بلّونة، حين هجم عليها وعلى خطيبها بالمعطف الأسود الطويل، وجزمته التي تخشخش فوق التراب والحصى، وقبّعته الصوفيّة البيضاء التي تحجب ملامح وجهه، وضوء بطّاريته الذي يعمي العيون؟

لماذا قالت للمحقّق إنّه وقف تحت نافذتها حاملاً بندقيّة وبطاريّتين؟

البندقيّة مستحيل، من يجرؤ على حمل بندقيّة في الشّارع وفي بيروت، وبعد أن انتهت الحرب، أمّا البطّاريّة فيالو لم يحمل في حياته سوى بطّاريّة واحدة، وكانت أفضل بطّاريّة في العالم، أعطته إيّاها المدام حين انقطعت الكهرباء. بطّاريّة رفيعة سوداء، ترسل ضوءًا ثاقبًا كخيط يضرب كأنّه صاعقة. تلك اللّيلة لم يستخدم يالو بطّاريّته، ولم يقف تحت نافذتها مهدّدًا، ولم يقرع زجاج النافذة ببوز البندقيّة.

صحيح أنّه ذهب ووقف، وكانت بطّاريّته نائمة في كعب جيب معطفه إلى جانب السكّين الذي لا يفارقه. لكنّه لم يحمل بندقيّته.

كان يقف، وعيناه تشتعلان حبًا.

«إنّه الحبّ يا سيدنا»، أراد يالو أن يقول للمحقّق.

«الحبّ بذلّ يا سيدنا»، أراد أن يقول.

«الحبّ مثل الصليب يا سيدنا»، أراد يالو أن يقول.

لكنّ يالو لم يعرف كيف يقول هذه الأشياء أمام المحقّق. لأنّه حين يقول يسمع صوت أمّه غابريال أو غابي في حنجرته. كانت تقف أمام المرآة وتقول إنّ وجهها لم يعد يشبه وجهها. تبكي، ثمّ تفتح حنفيّة الماء وتغسل وجهها ودموعها. تقف ساعات أمام المرآة، وتقول إنّها تغسل العمر على وجهها.

«الماء وحده يغسل العمر يا ابني».

يتركها ويمضي، ويبقى وجهها المغسول بماء العمر مرتسمًا في عينيه وصوتها يلاحقه ببحّته الخفيفة ولثغة جميع الأحرف التي تجعلها تقول كلمات تشبه الكلمات.

«كيف بتفهم على حكي أمّك»؟ سأله صديقه طوني الذي سوف يأخذه إلى باريس.

«كلّ النّاس بيفهموا عليها»، أجاب يالو، «الناس بتفهم الحكي من تعابير الوجه، مش من الكلمات».

لم يكن يالو يتفلسف حين قال لطوني عن تعابير الوجه، فهو لم يكن يعرف سوى بضع كلمات سريانيّة، لكنّه كان يفهم كلّ شيء من حركة عيني جدّه المليئتين بالدموع، ويجاوب بالعربيّة، ولا يقول سوى كلمة «لُوْ».

أراد أن يقول للمحقّق حلّ عنّي، لُوْ مش هيك، لكن شيرين أوجعته. لماذا قالت شيرين هذه الأشياء؟ لماذا نظرت إليه كأنّها تحقد عليه؟

عندما دخل يالو إلى غرفة التحقيق، رفعت شيرين إصبعها وقالت: هيدا هوّ.

في تلك اللّحظة نظر يالو فرأى فخذيها العاريين، ورأى الرّجل جالسًا إلى جانبها، فسقط على الكرسيّ الموضوع في وسط الغرفة كي يجلس عليه المتّهم، ويكون محطّ أنظار الجميع، وتحت مراقبة المحقّق الصارمة.

سقط تحت العيون وأغمض عينيه، لم يسمع شيئًا ممّا قالته شيرين. قالت كلّ شيء للمحقّق قبل أن يجلبوا يالو إلى الغرفة، وحين أتى لم تقل سوى أشياء قليلة. جلست صامتة خلف بياض فخذيها الرفيعين اللّذين كشفت عنهما تنّورة قصيرة حمراء. اختبأت خلف البياض مثلما اختفت خلف الغيمة البيضاء التي خرجت من نافذتها هناك:

«ذهبت ووقفت تحت النافذة من أجل أن أقول لها إنّني أحبّها»، قال يالو.

«كان بدّي أعملّها مفاجأة بعيد ميلادها، رحت الساعة عشرة باللّيل، ووقفت تحت الشبّاك، وضلّيتني واقف للصبح، قلت هيك لمّن بتوعى عبكرة، وبتشوفني جامد مثل عمود الكهربا بتحسّ بالمفاجأة، وبتفهم قدّيش بحبّها».

لكن يالو لم يقل، صدمته كلمات المحقّق، وكأنّها لسعات سوط ينهال على وجهه.

قال المحقّق إنّ يالو حمل بطّاريتين وبندقيّة كلاشينكوف ووقف تحت نافذة شيرين، وصار يضرب الضوء من بطّاريتيه على النافذة، ثمّ حين فتحت النافذة رأته كيف رفع بندقيّته وصوّبها نحوها. وعندما صرخت هرب يالو.

لم يقل المحقّق كلمة «هرب»، بل قال جملة كاملة: «وعندما صرختْ أطلق ساقيه للرّيح».

«شو يعني أطلق ساقيه للرّيح؟» سأل يالو.

«يعني هربت يا جبان»، أجاب المحقّق.

تخيّل يالو نفسه يتسلّق الرّيح ويهرب، فابتسم.

«ليش عم تبتسم؟»

«ماشي ماشي»، جاوب يالو، ورأى نفسه يتسلّق الرّيح ورأى الكلمات. هكذا الكلمات يسمعها فيراها. تتجسّد الكلمات أمامه في أشياء مادّيّة حقيقيّة، ويشعر أنّه يصطدم بها بدل أن يسمعها أو يقرأها. كان يخاف من جدّه الأسود، لأنّه يخاف من كلماته. يسمع عبارة «تعا يا برّو»، فيشعر أنَّ هناك مقصًّا معلّقًا فوق رأسه، يغطي شعره بيديه ويقترب من الجدّ، فيما المقصّ يتمايل كأنّه سوف ينقضّ على شعر رأسه. وحين تقول له أمّه اذهب إلى المدرسة، لم يكن يرى مدرسة أمامه، بل فتيات عاريات يتراكضن خلف الرّاهبات، ويشعر باللّعاب يصعد من فكّه الأسفل إلى شفتيه. وعندما يطلب منه جدّه أن يقلي بيضًا، كان يرى ساحة مليئة بالكلاب الشاردة. هكذا عاش طوال حياته، يسمع كلمة فيرى شيئًا، لكن هذا لا يعني أنّه لم يكن يفهم ما يقال. كان يذهب إلى المدرسة، ويعرف أنّ «البرّو» يعني الابن، وأنّ طلبات جدّه يجب أن تُنفّذ، لأنّ طلبات الكوهنو لا تُرفض.

ذهب الكوهنو إلى موته بطريقة غريبة. في البداية توقّف عن أكل اللّحم نهائيًّا، وصار لا يأكل سوى البيض والحليب والخضار، ثمّ توقّف عن البيض وغرق في الفاكهة والخضار، قبل أن يصاب بمرض التيه.

غابي قالت إنّ والدها صار تائهًا، ويالو صدّق أمّه، وصار يرى الجدّ الأسود داخل متاهة متقاطعة الخطوط. لم يعد الرّجل يعرف كيف يخرج من غرفة النّوم أو من الحمّام، يدخل مكانًا فيعلق في داخله ولا يخرج إلاّ إذا أتى البرّو وأخرجه منه. وفي النهاية صار على البرّو أن يبحث عن جدّه كلّ ليلة في طرقات المدينة، كي يعيده إلى البيت.

عندما قال المحقّق عبارة: «أطلق ساقيه للرّيح» رأى يالو نفسه يتسلّق الهواء راكضًا، وشعر أنّ كمّيّ معطفه صارا أشبه بجناحي عصفور، وأنّه حين وقف هناك تحت النافذة لم يكن يشبه نفسه، بل كان صقرًا له منقار طويل. رفع يالو يديه إلى الأعلى كأنّه سيطير، عندما سمع صوت المحقّق يصرخ به.

«نزّل إيديك يا كلب واعترف، كنت حامل رشّاش ولاّ لا؟»

«لا»، قال يالو.

«والبطّاريتين؟» سأل المحقّق.

«لا»، قال يالو.

«ليش وقفت تحت الشبّاك وصرت تضرب ضوّ البطّاريتين على بيت الآنسة شيرين رعد؟ صحيح كان بدّك تخطفها؟ وصحيح كان بدّك مصاري؟ وصحيح أنّك قلتللها إنّو بدّك تتزوّجها وتاخدها على مصر؟ وليش كنت عم تخوّفها كلّ الوقت؟»

لماذا كذبت وقالت إنّه أجبرها على أن تشتري له بطاقة طائرة إلى مصر؟

هي اشترت البطاقة وقدّمتها له مع ألف جنيه مصري، قالت إنّ هذه هديّة، وإنّها تعتقد أنّه في حاجة إلى شمّ الهواء، وإنّها لا

تستطيع ترك عملها من أجل أن تسافر معه. يومها لم يرد اسم خطيبها إميل على لسانها، ويومها أيضًا اقتنع يالو أنّها بدأت تحبّه، ولم يخطر في باله أنّه عندما أخذ البطاقة والمصاري سقط في الفخّ، وأنّه صار عاجزًا عن رؤية الأمور على حقيقتها. قال لها أن تأتي معه إلى مصر، قال لها إنّه سيأخذها إلى الأقصر حيث سترى الله، لكنّها قالت إنّها لا تستطيع. أخذ البطاقة ووضعها في الجارور، وهي لا تزال هناك، والألف جنيه التي قرّر أن يخبّئها على أمل أن توافق شيرين وتأتي معه إلى مصر، اضطر بعد ذلك إلى تحويلها عملة لبنانيّة وصرفها، لكنّه قبل الهديّة، قبلها كهديّة وكعربون حبّ، وليس من أجل المصاري. على كلّ. فهو متأكّد من أنّه لم يأخذ مالاً منها، المحقّق قال على لسان شيرين، إنّه كان يبتزّها من أجل المال.

لماذا صرخ به المحقّق: «شو هو الصحيح؟»

هل كان يجب أن يجاوب بأنّ الصحيح هو الحبّ. ولكن كيف يقنع المحقّق بالحبّ.

«الحبّ ذلّ يا سيدنا»، قال يالو.

«أنا كنت حبّها وبعدني بحبّها، لا هلّق بعد يللّي صار ما بعرف، بسّ القصّة أنّي حبّيتها وكنت مستعدّ أعمل شو ما بدها».

«والمصاري؟» صرخ المحقّق.

«المصاري يا سيدنا، ما كان في مصاري، المصاري ما إلها معنى».

«منشان هيك كنت تخوّفها وتجبرها تدفع يا كذّاب؟»

«والله أنا مش كذّاب بس ما بعرف».

كيف يُقنع يالو المحقّق بالحبّ، والمحقّق يحمل بين يديه

رزمة أوراق سميكة، ويقول إنَّ فيها كلّ المعلومات عن دانيال وعن جميع أفراد العصابة، وعن جميع النّاس. هنا فهم يالو أنّ المقصود بكلّ النّاس هو المدام رندة وزوجها المحامي ميشال سلّوم، فقرّر أن يرفض الإجابة عن جميع الأسئلة التي تتعلّق بهذا الموضوع. ماذا يقول عن زوجة المحامي الذي أنقذه من الجوع والتشرّد في باريس وأعاده إلى وطنه؟ لا، لن يقول شيئًا. صحيح أنّه نذل، مثلما قالت له المدام رندة عندما اكتشفت غزواته اللّيليّة في حرج العشّاق، لكنّ النذالة لن تصل به إلى حدّ الاعتراف عن علاقته بمدام رندة، وتشويه سمعة الرّجل الطيّب الذي أنقذه. حتّى ولو اعترف، فلن يصدّقه المحقّق، حتّى الزوج لن يصدّق. لكن من المؤكّد أنّ المدام لن تستطيع أن تقول إنّه اغتصبها. شيرين تستطيع، إذا شاءت، التحدّث عن الاغتصاب، لأنّ وضعها مختلف، أمّا المدام فلا. جاءت شيرين إلى غرفة التحقيق، وجلست إلى جانب خطيبها، وقالت إنّه اغتصبها في الحرج.

لماذا قالت في الحرج، ولم تقل في الكوخ أو في البيت؟

الحرج أفضل للاغتصاب فكّر يالو، هناك يكون الاغتصاب الحقيقيّ. ماذا تعرف هذه الفتاة المسكينة عن الاغتصاب؟ أمّا تلك المرأة، «يا عيني على النسوان»، تلك كانت امرأة. امرأة في الأربعين، وكان طعمها مثل الكرز. جلس صاحبها على الأرض، ووضع رأسه بين يديه حين أخذها يالو إلى خلف شجرة البلّوط الضخمة. تصيّدها بالصدفة، كان مقتنعًا في تلك اللّيلة الصيفيّة، حيث كانت الطريق تعجّ بسيّارات الهاربين من حرّ بيروت إلى الجبل، بأنّه لن يعثر على شيء. لبس معطفه الأسود

الطويل، وقطع الطريق الذي يفصل ڤيلّلا «غاردينيا» عن الحرج، وجلس في عتمة الصنوبر، وانتظر من دون انتظار. أغفى قليلاً، أو هكذا يبدو، لأنّه لم يرَ السيّارة آتية إلى المصيدة. استفاق على صوت توقّف عجلات السيّارة. فتح عينيه المثقلتين بالنعاس ورأى المرأة. تحسّس بطّاريّته في جيب معطفه وهبّ واقفًا. لن يستطيع يالو أن يصف كيف نجح في الوقوف وضرب ضوء البطّاريّة على ضحيّته في اللّحظة نفسها. ثمّ تسارعت الأحداث، اقترب من نافذة السيّارة وأشار ببندقيّته، فخرج الرّجل أوّلاً، ثمّ خرجت المرأة. أشار إلى المرأة فتبعته، وهناك تحت شجرة البلّوط أخذها، بينما كان صديقها يجلس على الأرض ورأسه بين يديه. لا يذكر يالو سوى طعم الكرز، فهو كان نصف نائم. وضع بندقيّته على الأرض واقترب من المرأة، ضمّها إليه، ثمّ وضع يديه تحت خصرها، فنزلت إلى الأرض، لم تخلع ثيابها ولم يخلع ثيابه، حتّى المعطف لم يخلعه، رأى نفسه وقد دخل في الماء. لم يذق يالو في حياته شيئًا كهذا، كان ماء المرأة يتدفّق صافيًا ويغمر كلّ شيء، وكانت ترتعد باللّذة. كلّ شيء كان يرتعش في رجل وامرأة التفّا داخل معطف أسود، ومارسا الحبّ إلى جانب بندقيّة نائمة وبطّاريّة مطفأة. وعندما انتهى يالو بعد أن اعتصرت روحه وامتلأ بنطلونه بالماء المؤنّث، حاول أن ينسحب فلم يستطع. كانت المرأة تقبض عليه بشدّة، وأحسّ بالألم، وبدأ الصراخ يتجمّع في حنجرته، وكان وكأنّه على وشك أن يبدأ من جديد، عندما رأى يديها تدفشان صدره، وتخرجانه منها. وقف، أغلق سحّاب بنطلونه، انحنى على بندقيّته وحملها، وعاد إلى بيته. لم ينتظر أن يغادرا، أحسّ بالحاجة إلى فنجان شاي

ساخن فمضى. وحين التفت إلى حيث السيّارة، رأى المرأة تفتح الباب، بينما أدار الرّجل المحرّك دون أن يجرؤ على إشعال الضّوء، وغادرا.

«لكنّني... لكن ليس في الحرج»، قال يالو.

«أنا ما اغتصبتها»، قال يالو.

ماذا قالت شيرين لخطيبها إميل؟

يجلس هنا في غرفة التحقيق إلى جانبها، ويهزّ رأسه كأنّه يعرف كلّ شيء، لكنّه لا يعرف شيئًا.

هل قالت له الحقيقة أم كذبت عليه؟

هل قالت إنّها ذهبت إلى بلّونة مع عشيقها الطبيب حيث كانا يمارسان الجنس في السيّارة؟ أم قالت إنّها ذهبت معه في مشوار بريء، حين انقضّ عليهما وحش يلبس معطفًا طويلاً أسود واغتصبها؟

لماذا قبل الخطيب أن يلعب هذا الدّور؟ هل يعتقد نفسه شهمًا؟ لو كان شهمًا لأنهى الموضوع بطريقة مختلفة، فكّر يالو. لماذا لم يتّصل به وينهيها معه رجلاً لرجل؟ كان في استطاعته دعوة يالو إلى المقهى، وهناك يحكي معه، ويقول إنّه يحبّها أيضًا، ويقترح أن يتنازل أحدهما للآخر كما يجدر بالرّجال النبلاء أن يفعلوا، ومثلما فعل الكوهنو أفرام بالخيّاط الياس الشامي، حين علم أن ابنته عادت إلى عشيقها القديم.

الكوهنو أفرام أخبر حفيده الحكاية، ويومها لم يفهم يالو شيئًا، لكنّه الآن فهم كلّ شيء.

يومها أنهى الجدّ الحكاية بشهامة، وأخبر القصّة لحفيده من أجل أن يعلّمه معنى الشّهامة. «الحياة كلمة بتقولها وبتنحفر

بالأرض»، قال الجدّ.

وحين عرفت غابي أصيبت بالجنون. سألها يالو عن الخيّاط، وعن مكان وجود أبيه، فجنّ جنونها، ذهبت إلى أبيها وبدأت في شتمه، وجرّته من غرفته جرًّا. كان الكوهنو يلبس البيجاما البيضاء المقلّمة بخطوط زرقاء، حين جرّته ابنته من يديه، كان يترنّح كأنّه يرجوها وهي تأمره بمغادرة البيت، وهو يبتلع كلماته ويقول أشياء غير مفهومة، ويحلف بجميع القدّيسين أنّ قصده كان شريفًا، وأنّه فقط أراد أن يشرح لحفيده عن أهمّيّة الكلمة الصادقة. وفجأة جثا الكوهنو على الأرض، ومدّ يديه كأنّه يصلب نفسه، وانهمرت دموعه.

غارت الحكاية في ذاكرة يالو، ولم تطفُ إلاّ هنا، أمام هذا المحقّق الأبيض، بأنفه الأفطس وعينيه الغائرتين في محجريهما.

رفع المحقّق إصبعه في وجه يالو كأنّه يريد أن يقول شيئًا، ربّما قال، لكن يالو لم يستمع إلى كلامه، كان يالو يسأل نفسه ذلك السؤال الذي ارتسم أمامه كأنّه يقرأ في لوح المدرسة الأسود.

لماذا لم يفعل إميل كما فعل أفرام؟

أفرام كان شجاعًا. قال لحفيده إنّه خصاه. «جاء مثل الدّيك المنفوش وخرج مكلّلاً بالعار، دخل ديكًا وخرج دجاجة، لم أفعل شيئًا، فقط رفعت سلاح الكلام في وجهه، الإنسان يا ابني ضعيف أمام الكلمة، لأجل ذلك لم يجد الإله الآب اسمًا يطلقه على ابنه سوى الكلمة. شو يعني كلمة الله؟ يعني سرّه وحقيقته. ابنك هو كلمتك، وأنت كلمتي يا ابني، كن كلمتي، مثلما كان الابن كلمة الآب».

بعث أفرام في طلب الخواجة الياس الشامي. اعتقد الخيّاط أنّ الكوهنو يريد أن يخيط قمبازًا أبيض تمهيدًا لارتقائه إلى رتبة رئاسة الكهنوت، كما قال لجميع أبناء رعيّته: «بكرا، بعد سنة، سنتين، تلاتة، رح تصيروا تندهولي يا سيدنا». ومرّت الأعوام، وبقي الكوهنو ينتظر، فهو منذ وفاة زوجته بعد تلك الرّحلة إلى حمص استجلابًا للشفاء من مار إليان، قال للجميع إنّ هذه إرادة الله. لم يذرف دمعة واحدة في مأتم زوجته، وقف يتقبّل التعازي، وبدل أن يقول الكلمات التقليديّة مثل: العوض بسلامتكم أو تعيشوا، قال عبارة واحدة: المسيح قام. وكان ينتظر من المعزّين أن يجاوبوه: حقًّا قام. قال الكوهنو إن الله افتقد عبدته، ويقصد الزوجة المسكينة التي ماتت بالسرطان، لأنّ هناك حكمة لا نعرفها نحن البشر. المصيبة افتقاد، والله يفتقد عبيده بالمصائب، وربّما كانت هذه المصيبة افتقادًا من نوع خاصّ، كأن يريد الله شيئًا نجهله.

بالطبع لم يقبض أحد كلامه في شكل جدّيّ، فالله، عزّ وجلّ، لم يكن محشورًا على بَلّاط من أجل أن يجعله راعيًا لشعبه المسكين. ولكن، رغم نظرات الاستهزاء، ظلّ الكوهنو أفرام يحلم برئاسة الكهنوت. احتلّه الشّيب، وافترسته الكهولة، وهو يداوم على الصلوات، في انتظار اللّحظة الآتية.

جاء الخيّاط، وهو يعتقد أنّه سيمازح الكوهنو بقضيّة المطرنة، عندما وجد نفسه أمام الامتحان الأصعب في حياته. كان الخيّاط الياس الشامي في الستّين من عمره، يوحي بالشباب الدائم، ويبتلع كرشه من أجل أن يبدو رشيقًا، ويبتسم بملء شفتيه من أجل أن يرى النّاس أسنانه النظيفة البيضاء، فالخيّاط كان من

أوائل سكّان حيّ المصيطبة في بيروت، الذين اكتشفوا طبيب الأسنان الأرمنيّ نوبار بخشيجيان، واستعاض عن وضع وجبة أسنان اصطناعيّة، بمجموعة من جسور الأسنان، الثابتة، التي توحي بأنّها أسنان طبيعيّة.

جلس الخيّاط بين يديّ الكوهنو، مثلما طلب منه أن يفعل: «تعا يا ابني، واقعود بين إيديّ». أحنى رأسه الذي تصبغه الحنّة بلون مائل إلى الاحمرار، وقبل اليد التي تشبه غصن شجرة يابسة، ثمّ استمع إلى أغرب طلب، وأجاب أغرب جواب.

«أنت بتحبّ البنت، مش هيك؟»

لم يفهم الخيّاط السؤال، أو ادّعى عدم الفهم: «أيّ بنت يا أبونا؟» قال.

«أنت بتحبّ غبريال، بنتي غابي، وأنا بعرف كلّ شي».

لم يعرف الخيّاط ماذا يجاوب، فإذا نفى فإنّه سيبدو حقيرًا في عينيّ هذا الكوهنو الكهل، الذي يرى ابنته الوحيدة الباقية تنزلق إلى العدم في علاقتها مع هذا الرّجل، وإذا قال نعم، فإنّه لا يستطيع أن يتوقّع ماذا سيطلب منه الكوهنو. لذلك اكتفى الخيّاط بهزّ رأسه إلى الأسفل من أجل أن يترك للكوهنو أن يفهم ما يريد.

«إذن خذها».

...

«أنا عم قلّك خدها، شو ناطر؟»

«شو؟»

«خدها يا ابني، أنا بدبّر الجانب القانونيّ، بطلّقها من زوجها لأنّو صرلو عشر سنين غايب، وهيك بصير فيك تتزوّجها».

«بس أنا مزوّج».
«منطلّقك أنت كمان».
«أنا؟»
«نعم إنت».
«بس صعبة يا أبونا، إنت بتعرف هيدي الأمور بتاخد وقت عند الرّوم».
«منعملك سرياني، وهيك منطلّقك بـ ٢٤ ساعة».
«أنا صير سرياني!»
«ليش السريان مش معبّينلك عينك؟»
«السريان على راسي يا أبونا، بس...».
«بس شو؟»
قال له الكوهنو خذها، فأطرق الخيّاط طويلاً قبل أن يجاوب:
«لوين بدّي آخدها يا أبونا؟»
«خدها لعندك وعيش معها بالحلال، بالحلال بالحرام مش مهمّ، لازم تلاقي طريقة حتّى تاخدها. هيدا يلّلي عم بصير حرام وما بجوز».
سكت الرّجلان طويلاً وغرقا في الصّمت الذي قطعته غبريال حين دخلت إلى الصالون حاملة صينيّة القهوة.
«اقعدي يا بنتي»، قال الكوهنو.
جلست غبريال، وكان كلّ عضو في جسمها يرتعش.
«قلتلّلو ياخدك، قلتلّلو إذا بتحبّها خدها»، ثمّ نظر إلى الياس وسأله: «شو قلت يا ابني؟»
«ما بعرف»، أجاب الياس، بعد أن رشف قليلاً من قهوته

التركيّة الممزوجة بماء الزّهر.

«شو ما بتعرف؟» قال الكوهنو.

«ما بعرف يا أبونا، لا خدها أنتَ». جاوب الياس بصوت يشبه حشرجة خرجت من أعماقه.

«شو قلت؟» سأل الكوهنو.

«والله ما بعرف شو بدّي قول».

«لا، رجاع عيد، ما سمعتك منيح»، قال الكوهنو.

. . .

«قلتلّلي أنا أخدها. . . أنا!»

«أنا ما بقدر»، قال الياس.

«قلتلّلي أنا أخدها، ما هي بنتي، شو هالحكي، قوم يا خرا، كنت مفتكرك رجّال طلعت خرا، قوم وحلّ عنّي وإيّاك ثمّ إيّاك تقرّب صوب بنتي، بكسر لك راسك».

لا يعلم يالو كيف انتهت الزيارة، ولا كيف خرج الياس الشامي من البيت، لكنّه يتخيّله يخرج محدودبًا ومتعثّرًا بقدميه.

«دخل شابًا وخرج كهلاً»، هكذا كان سيخبر شيرين، لكن شيرين لم تستمع إلى حكاية أمّه. كان حين يلتقي بها، تكون مستعجلة وخائفة وتريد العودة إلى البيت. كان يريد أن يقول لها إنّ على الرّجل أن يأخذ المرأة التي يحبّها. لو تجرّأ إميل وقال له خذها، لأخذها، كيف يتركها؟ يقولون له أن يأخذ فلا يأخذ؟ هذا محال. والآن لو قال له المحقّق خذها لأخذها. لكنّ المحقّق قال إنّه يعرف كلّ شيء، وكلّ شيء يعني أنّه يعرف عن مدام رندة. هذه لا، هذه لن يأخذها. تراءى له المحامي ميشال سلّوم أمامه، رآه يجلس معه أمام المدفأة في الڤيلّلا ويقول له أن

يأخذ رندة، عندها سيقول يالو: «لُوْ. لا، خذها أنت، أنا لا أريد».

أمّا شيرين فشيء آخر. لن يقول له أحد خذها، فعندما تحبّ المرأة فإنّ الأمور لا تجري هكذا. أمّا هناك في الفيلّلا، حين يأتي الخواجة ميشال، فإنّ يالو كان يخاف ويشعر بارتجافة الياس الشامي في يديه. يعود الخواجة ميشال من رحلاته في فرنسا أو في الخارج، ويطلب من يالو الصعود إلى الفيلّلا. يصعد يالو وهو يحمل على ظهره انحناءة الياس الشامي ويخاف من أن تفلت تلك العبارة من فم معلّمه. فهو متأكّد من أنّه لا يستطيع أن يأخذها، كما أنّه لا يريدها. لكنّه كان يذهب إليها حين تدعوه، وينام معها حين تريده. ويشعر معها أنّه داخل لحظات تسرقه إلى عالم لا يدري كنهه، وحين سيحاول كتابة تلك اللّحظات في الزنزانة، وليس أمامه سوى كومة من الأوراق البيضاء أعطاه إيّاها المحقّق، لن يعرف ماذا سيكتب، هل يكتب أنّه كان يشعر بأنّه يدخل نارًا من الانفعالات التي تخبزه؟ أم يكذب ويقول إنّه كان لا يحبّ ممارسة الجنس معها؟ أم ماذا؟

يالو كان يتقلب في نار المدام ويصير حادًّا ومروّسًا مثل رمح، وكانت تصرخ به أن يطعنها برمحه، وكان يترنّح ويتوهّج ويصفر مثل ريح هوجاء، وكانت تئنّ وتقول له أن يقول اسمها: «قول رندة، قول رندة». وهو يقول وراءها، وهي تقول. حتى صار يسمّي الجنس ترنددًا. يترندد إليها، ويترندد في انتظارها، ويترندد وحده، ويترندد في الحمّام.

«ما تطلع لفوق إلاّ لمّن إندهلك». قالت له.

يطلع حين تدعوه، وينتظر حين لا تدعوه، وتأتي إليه حين

يحلو لها، وتقول إنّها مشتاقة إلى الطبيعة.

«طالع على بالي نام مع ريحتك»، قالت له حين أتت إلى بيته الصغير في المرّة الأولى، وترنددت في سريره، مثلما كان يترندد في سريرها، وقالت إنّ رائحته هنا تسحرها، وإنّها تحبّ رائحة الزعتر الممزوجة برائحة الصنوبر، وهو يترندد بها ويرمحها، ويقول لها «ما رأيك لو تبادلنا الأمكنة انزلي أنتِ لهون وأنا بطلع لفوق». وتضحك وتقول إنّه مهضوم، وإنّها تحبّه لأنّه يضحكها، ثمّ تمضي. تذهب إلى فوق إلى المغطس المليء بالمياه الساخنة والصابون، وهو يقف تحت الدّوش مرتجفًا من البرد، في بيته.

«كيف بلّشت تقنّص النّاس؟» سأله المحقّق.

«أنا ما بحياتي اشتغلت قنّاص بالحرب يا سيدنا»، قال يالو.

«حاج عاملّي حالك مسكين، أنا عم بسألك عن الحرج والسيّارات والنسوان. كيف بلّشت تلقط سيّارات؟»

صحيح كيف بدأ؟

كيف يجاوب على سؤال مبهم كهذا السؤال.

«بلّشت هيك بالصدفة، شفت سيّارة ونزلت».

«لوحدك؟»

«نعم، لوحدي».

«وبعدين؟»

«بعدين ضلّيت لوحدي».

حين يحاول يالو أن يتذكّر يرى نفسه وحيدًا، ويرى اللّيل. كيف بدأ اللّيل؟ هل يمكن لأحد أن يسأل اللّيل كيف صار ليلاً؟

كان يريد أن يقول للمحقّق أنّ القنص الذي سأله عنه يشبه اللّيل. لكنّه شعر بحلقه جافًا، ولم يجد الكلمات. هكذا كان،

يفتقر إلى الكلمات حين يريد أن يحكي، وأمّه تقول إنّ لسان ابنها ثقيل، لكن يالو لم يكن يشعر بثقل لسانه، كانت الكلمات تعلق في زلعومه، وبدل أن يبصقها كما يفعل جميع النّاس، كان يبتلعها، ولم ينفع البحص أو الصلوات أو النذور.

حين يتذكّر يالو تلك الأيّام، يرى شخصًا آخر. يرى طفلاً يلبس كلمات أمّه، يراه بكلماتها التي تنزلق من حوله، وهو عاجز عن الحكي. تبدأ الكلمة في التكوّن في فمه، يشعر بها كاملة، ثمّ يحاول، لكنّها تنزلق إلى داخل زلعومه، ولا تخرج، وهو يشدّ حتّى تبرز شرايين عنقه، وأمّه تقود الكلمة بعينيها، ثمّ تراها كيف تنزلق إلى الداخل ولا تخرج إلاّ متقطّعة، فتبدأ في الوعظ:

«ولو يا حبيبي، ولو، ما قلتلّك، فهّمتك أنّه لازم تطلّعها لبرّة، جرّب بزوق، يلّله بزوق، شفت كيف البزقة بتطلع كلّها، هيك الكلمة لازم تطلع متل البزقة. يللّه جرّب».

وكان يجرّب، يبتلع كلماته وبصاقه، ويشعر أنّه سيصبح أخرس عندما يكبر.

وهناك بصقها.

في الثكنة، قرب المتحف، حين صرخ بأنّه صار تيسًا مثل التيوس. قال له طوني أن يبصقها، فبصقها، وتعلّم كيف يبصق.

الحرب هي أن نبصق، هكذا سيقول، لو طُلب منه تحديد الحرب.

لكنّه لا يعرف أن يقول هذه الكلمات الكبيرة أو يكتبها. يعرف أن يبصق. وحين بصق لم تعد الكلمات عالقة في زلعومه، بصق فصار تيسًا أي بطلاً. صحيح أنّه عاد إلى ابتلاع كلماته بعد ذلك، لكنّه كان يعرف السّبب، لذلك لم يخف من الخرس. عادت إليه

التأتأة بعد أن سرق هو وطوني مال الثكنة وهربا إلى باريس. هناك ذاق يالو طعم الغُربة والتشرّد واشتاق إلى الحيوان الذي كانه. يالو لا يوافق على أنّ الحرب عمل حيوانيّ، إنّها في الأساس بطولة، لكنّ البطولة مستحيلة دون شيء من الحيوانيّة. التدريب العسكريّ لا يمكن أن يتمّ، دون إيقاظ الذئب الذي في داخلك.

«أنتم ذئاب»، قال المدرّب.

«لا نحن تيوس»، صرخ طوني، الذي كان يقف في الصفّ الأوّل من طابور التدريب. وصاروا تيوسًا. لم يكن طوني هو من أطلق اسم التيوس على كتيبتهم التي كانت تتمركز قرب المتحف. النّاس، لسبب يجهله يالو أسموهم التيوس، وصاروا تيوسًا.

شعر يالو أنّ هناك شيئًا يشبه الرّمح، استيقظ في داخله. لكن مدام رندة لم تفهم عليه، أو كانت لا تبالي، وحين كانت تسأله عن رمحه، كان يستيقظ فيه ذلك الشيء الذي لم يغادره، فيتتيّس أو يتذأّب، ويرمح بها، وحين وجده الأستاذ ميشال سلّوم في نفق المترو الباريسيّ وأخذه إلى بيته في الدائرة السادسة عشرة، قال له أن لا يتنعّج: «عيب أنت شابّ ليش عم تتصرّف هيك متل النعجة». لكن يالو لم يكن يتصرّف مثل نعجة، كان يشعر فعلاً أنّه صار نعجة، وأنّه فقد رمحه الداخليّ. فجأة وجد نفسه في بلاد غريبة، طوني الذي يعرف الفرنسيّة، سرق المال واختفى من الفندق في حيّ مونبارناس حيث أقاما، فوجد يالو نفسه مثل نعجة وحيدة. لا يعرف اللّغة ولا يملك مالاً. فجأة صار شحّاذًا وأخرس، فكيف لا يتنعّج؟ جدّه قال له إنّ الحيوان أعجم،

لذلك سمّى العرب من لا يتكلّم لغتهم أعجم، أي أخرس.

في تلك البلاد البعيدة، شعر يالو أنّه أعجم كالحيوان، ولم يعد قادرًا على بصق الكلمات، مثلما تعلّم أن يفعل في الحرب، وحتّى بعد أن أعاده الأستاذ ميشال إلى لبنان، وعيّنه حارسًا على فيلّته في بلّونة، بقي يالو شبه عاجز عن الكلام، ولم تأته الكلمات إلاّ مع البطّاريّة التي أضاءت ليله بالرّغبة.

لم يرَ يالو أمّه غبريال، أو غابي، إلاّ هنا في السّجن. جاءت لزيارته بعد سنتين من اعتقاله، لكنّها بدل أن تجلب له الدخان والطعام، كما يفعل أهل السّجناء، وقفت خلف القضبان الحديديّة وبكت، ثمّ أخبرته عن الغرفة التي استأجرتها وعن فقرها وخوفها من الجوع. أخرجت من جزدانها مرآة صغيرة وقالت له: «شوف، ما بقى فيّي أتطلّع بصورتي بالمراية، معقول هيك، صارت المراية تاكل صورتي وتفوّتها جوّاتها، معقول هيك يا ابني، اتطلّع بالمراية وخبّرني شو شايف». ثمّ مضت.

حين فتحت غابي جزدانها الصغير، اعتقد يالو أنّها ستخرج منه علبة دخان، فتحلّبت شفتاه لفكرة أنّه سيدخّن مثل السجناء الآخرين، ولن ينتظر أن يقدّم له أحد نصف سيجارة، أو سجائر شحادة الأعرج الذي كان متخصّصًا في لمّ أعقاب السّجاير وفرطها وإعادة لفّها في سجاير صغيرة الحجم كان يسمّيها سجائر مُرسكلة.

غابي لم تخرج علبة سجائر أميركيّة من جزدانها، بل أخرجت مرآتها الصغيرة البيضاء، وبدأت تحكي، فشعر يالو بحاجة إلى الهرب.

حاول يالو أن يشرح للمحقّق أنّه سافر إلى فرنسا خوفًا من أمّه. لكنّ المحقّق لم يفهم.

قال إنّه سافر إلى فرنسا لأنّه صار يخاف، فاعتقد المحقّق أنّ المتّهم هرب من لبنان خوفًا من السّجن. فالكثير من الشباب غادروا بعد نهاية الحرب، ويالو ليس سوى واحد منهم، من المرجّح أنّه متورّط في جريمة ما، فكّر المحقّق.

المحقّق سأله ممَّ يخاف، ويالو لم يجاوب، إذ لم يجد طريقة يخبره فيها عن الخوف من المرآة، هل يقول؟ وماذا يقول؟

كان اللّيل، وكانت المرأة. الكهرباء مقطوعة والمرأة تضيء البيت بثلاث شموع. كم كان عمر المرأة؟ «ما عمر أمّي؟»، لم يسأل يالو نفسه هذا السؤال، فالأمّهات لا أعمار لهنّ، وعندما كان جدّه الكوهنو يتكلّم عن والدته، وكيف انتشرت العيون الحمراء على شعرها الذي تجمّد بالدّم، يصير مثل طفل صغير، حتى أنّ كتفيه كانتا ترتفعان إلى الأعلى، مثلما يرفع الأطفال أكتافهم من أجل الإيحاء بأنّهم أطول من قاماتهم. والآن حين يتذكّر يالو أمّه، يرفع كتفيه إلى الأعلى، ويرى امرأة مليئة بالعمر، تحمل شمعة في يدها، وتأتي إلى غرفة ابنها الوحيد. كانت تلبس قميص نوم طويلاً أزرق، وشعرها ينساب على كتفيها. فتح يالو عينيه، فرأى الشّعر الكستنائيّ الطويل مجعّدًا فوق الكتفين، وسألها عن الكوكينا.

«وين الكوكينا يا أمّي؟»

وغابي كانت كأنّها لا تسمع، تمتمت كلمات مرتجفة، ففهم أنّها تطلب منه الوقوف.

«شوفي يا غابي؟»

«الحقني، الله يخلّيك».

نهض يالو وتبعها إلى الحمّام، وقفت أمام المرآة وأدنت

الشمعة من وجهها، وسألته ماذا يرى.

«شو بعرّفني»، جاوب، «قولي يا أمّي شو القصّة؟»

قالت إنّها فكّت الكوكينا، وتركت شعرها يتساقط على كتفيها لأنّها خافت. فهي حين تنظر إلى المرآة لا ترى صورتها.

«بطلّع بالمراية ما بشوف وجهي، المراية بلعتو. إنت شايف شي يا ابني؟»

نظر يالو إلى المرآة، فرأى وجهه الأسمر الطويل، وإلى جانبه وجه أمّه الأبيض المستدير، وشعرًا كستنائيًا مجعّدًا.

«ارجعي لفّي شعرك، طالعة متل الجنيّة»، قال يالو.

«إنت شايف وجهي؟» سألت الأمّ.

«شو هالحكي، هلّق وعّيتيني منشان هيك؟»

أدنت المرأة الشمعة من وجهها، وجمدت أمام المرآة.

«اتطلّع منيح، إنت شايف شي؟»

«طبعًا شايف، يلّله فوتي نامي».

«أنا مش شايفة حالي»، قالت، «غابي بح، المراية بلعتلي صورة وجهي، كأنّي اختفيت».

«بلا هالحركات يلّلي بلا طعمة، فوتي نامي».

عاد يالو إلى فراشه لكنّ الأمّ بقيت في الحمّام. ثمّ صارت تقضي اللّيالي أمام المرآة، وبدأ يالو يخاف منها. لا يفهم ماذا جرى لأمّه، في النّهار تكون عادية ولا تحكي عن صورتها، بل تقف أمام المرآة، وتمشّط شعرها، أمّا في الليل، فالمرآة تصبح همّها وهمّه، والوجه يختفي، والمرأة تصاب بالرّعب.

وصارت غابي تأتي إلى غرفة ابنها كلّ ليلة تقريبًا، توقظه وتسأله، مدّعية أنّها لا ترى في المرآة سوى نقطة بيضاء.

«صار وجهي نقطة بيضا، يا دلّي، هيدا يعني أنّي رح موت».
وبدأ الخوف.

الخوف قاد يالو إلى الموافقة على الهرب مع طوني إلى باريس.

«أنا رحت مع طوني، نعم سرقنا الثكنة، وسافرنا».

غير أنّ المحقّق لم يصدّق شيئًا من كلامه، فكيف يخبره عن أمّه.

لماذا قالت أمّه إنّه هرب من بيروت؟

قال المحقّق إنّ أمّه أخبرتهم كلّ شيء، لكنّه لم يقل ماذا قالت. ثمّ ماذا يمكنها أن تقول وهي لا تعرف شيئًا، ثمّ لا يوجد شيء. ثمّ ماذا يريد هذا الرّجل الغاطس في ضوء الشّمس الذي يحجبه عن عيني يالو المغمضتين.

«نعم يا سيّدي، أعترف أنّني اغتصبتها».

. . .

«نعم، نعم، أخذت منها المصاري».

. . .

«نعم، كنت أتلفن لها كلّ يوم».

. . .

«نعم، كنت أنتظرها تحت بيتها، ثمّ حين تخرج ألحق بها إلى الشركة، حيث تعمل، وأنتظر، ثمّ ألحق بها إلى البيت».

. . .

«لا، كنت أريدها أن تراني، لم أكن أتخفّى، كنت أريدها أن تعرف».

. . .

«أنا مخطئ نعم، ولكن هي أيضًا مخطئة، لماذا جاءت إلى بلّونة مع ذلك الرّجل الذي تركها وهرب مثل الأرنب».

...

...

...

«كلّ الرّجال يخافون، النّساء أشجع من الرّجال يا سيّدي، أنا رأيتهم كيف تخلّوا عن النّساء بمجرّد أن رأوا البارودة، أمّا النّساء فمختلفات، لا... لا... لم أغتصبها لأنّني جبان... كما تريد يا سيّدي، كما تريد».

...

«أنا مستعدّ أن أعترف عن جميع أفعالي».

...

«مش مزبوط، الحبّ قتلني وشرشحني وأذلّني، لولا الحبّ، لولا أنّها تعرف أنّني أحبّها ما كانت إجت واسترجت تتشكّى عليّي».

...

«أنا لم يخطر في بالي يا سيدنا، كانت توحي لي بأنّ هناك أملاً. أنا كنت أريدها، ما بعرف شو كان بدّي منها، هي يلّلي خلّتني حسّ هيك».

ابتسم يالو.

لم يقل شيئًا، لكنّه ابتسم من فكرة أنّه كان على وشك أن يقول هذه الأشياء. فهذه أشياء لا يمكن قولها في التحقيق، لكنّه قالها لروحه.

كان طوني يغضب ويسأله عن أشياء وأشياء، ويالو يجاوب أنّه

سبق أن قال له عنها. فيزداد طوني غضبًا، ويدخل يالو في سبات المقتنع بأنّه قال الأشياء وبأنّ صديقه يتنكّر للكلام مدّعيًا أنّه لم يسمع.

ثمّ اكتشف يالو أنّ طوني على حقّ، فهو لم يكن يقول، بلى، كان يقول الأشياء في نفسه، معتقدًا أنّه قالها لصديقه.

وعندما هرب طوني من الفندق الباريسيّ وتركه وحيدًا، وشعر بالغصّة التي أجبرته على ابتلاع كلماته أمام الخواجة ميشال حين صار مثل نعجة وحيدة، تخيّل طوني أمامه وهو يقول له: «ما أنا قلتلّك إنّي راح إفركها، مضطرّ يا حبيبي، سامع يا حبيبي، سامحني يا حبيبي».

«حاجي تقلّلي حبيبي، بتقرطني وبتقلّلي حبيبي».

لكن طوني لم يقل شيئًا، ويالو أيضًا.

يقف يالو وحيدًا، ويتمنّى أن تختفي صورته، يتمنّى لو يصير مثل غابي، فينحجب عن هؤلاء الذين يحفرون روحه بأسئلتهم.

«يا سيدنا اعترفت وخلص. حاكموني، وخلّي المحكمة تحكم متل ما بدها، بس خلص».

غير أنّ المحقّق كان أصمّ عن توسّلات يالو.

«بدنا نعرف كلّ شي»، قال المحقّق، «إنشالله فكرك صدّقنا إنّو القصّة هي حكاية بصبصة وتعريص، بدنا كلّ المعلومات عن شبكة زرع المتفجّرات يلّلي هلكت البلد».

«أنا؟!»

«نعم إنت، إنشالله مفكّرني مبسوط بحكاية غراميّاتك يلّلي صرت أعرفها كلّها، بدّنا نكتشف الطبّة، اسمعني منيح، أنا عارف إنّو في طبّة طلّعلي يّاها، وهيك إنت بترتاح، ونحن

منرتاح منّك».

«والله حبّيتها وبعتذر، أنا غلطت معها، اغتصبتها وحبّيتها وبعتذر، وخلص، هلّق بطّلت حبّها، دخيلك يا سيدنا».

لماذا سأله المحقّق عن البحر؟

«نعم يا سيدنا، أخدتها ورحنا على شطّ الرّملة البيضاء».

. . .

«نعم، هونيك مشطتلها شعرها، وطلبت منها ما بقى تقصّه».

. . .

«نعم، قلتلّها إني بقدر إمشي على وجه الميّ، متل المسيح».

. . .

«نعم، مشيت على البحر، وما غرقت».

. . .

«هي كمان قالت إنّها شافتني ماشي على وجه البحر».

. . .

«نعم ربطتلها شعرها، وعملتهم كوكينة».

. . .

«هيك منسمّيها بالسرياني».

. . .

«لا، الحقيقة يعني بعرف كم كلمة، سمعتهم من جدّي».

. . .

«نعم قلتلّها إنّي رح أقبرها، إذا شفت أنها قصّت شعرها».

. . .

«بقبرها. . . نعم قلت بقبرها».

. . .

«لا، هيدا مش تهديد بالقتل، هيدا حكي، يعني معنى الحكي».

. . .

«نعم، نعم، كلّ شي صحيح، بس لا، مركب لا، ما شفنا مركب عم بضوّي بعرض البحر».

. . .

«أنا لا، نعم كان معي بطّاريّة، بس لا، ما استعملتها منشان أعطي إشارات».

. . .

«هي قالت هيك»!

. . .

«هيدي مجنونة يا سيدنا، نعم هيدي مرا مجنونة».

. . .

«شو خصّني أنا بشو هي فكّرت، أنا كان بدّي ياها تتعلّم هالأشيا، وتصير تفهم معنى الحياة، وتقتنع إنّو الحبّ بيقدر يعمل عجايب».

. . .

«نعم، نعم».

. . .

«بعدين صار بدها تروح، قلتلها ممنوع».

. . .

«كذّابة، أنا ما أخدت منها مصاري».

. . .

«هي حتطلّي ١٠٠ دولار بجيبتي وفلّت، واكتشفت المصاري

بالبيت وزعلت كتير، وقلت بخبّيهم لبعدين بكرا بتجوّزها وبرجع بصرف المصريّات عليها».

. . .

«نعم، نعم».

. . .

«لا، ما كان في مركب».

. . .

«كنت لابس كبّوتي الأسود، لأنّي ما بشلحو أبدًا».

. . .

«البطّاريّة كانت معي، لأنّها بتضلّ بجيبتي».

. . .

«هيدي يا سيدنا من عادات الحرب».

. . .

«وهلّق مثلاً حاسس حالي ناقص، مش بس لأنكم أخذتوا الكبّوت منّي، واعتبرتوه أحد الأدلّة الثبوتيّة، أنا ضايع لأنّو البطّاريّة مش معي، بحسّ حالي متل الأعمى، حتّى لمّن في كهربا. أنا ما بشوف مزبوط إلاّ لمّن ضوّي البطّاريّة».

. . .

«لمّن إجوا الشّباب وكمشوني كانت البطّاريّة حدّ تختي».

. . .

«والله يا سيدنا هيدي عادة، مجرّد عادة».

. . .

«لا، لا، أنا ما كان قصدي».

. . .

«أنا هيك، كلّ حياتي هيك، وما كان بدّي شي، والله ما بدّي شي من شيرين، هلّق لو حتّى هي بدّها ياني، أنا ما بدّي».

. . .

«كان فكري يعني، كان بدّي. . .».

. . .

«ما بعرف، ما بعرف».

حاول يالو.

استمع إلى الأسئلة وأجاب عنها. حاول أن يجاوب، لكنّ المحقّق بقي مصرًّا على البطّاريّة، وأبدى تعجّبه من قصّة إجبار الفتاة على شرب ماء البحر، وقال إنّه ليس أمام إنسان بل أمام وحش بشريّ.

«كلّ شيء شفت وحقّقت مع مجرمين، بس ما بحياتي شفت وحش متلك. بدّي ياك تخبّرني كلّ شيء، وليش عملت هالعمايل، ما بكفّي تقلّلي إنّك حطّيت الزلمي بصندوق السيّارة ونمت مع البنت، ولا بكفّي تقلّلي إنّك أخدت الساعة والمصاري وقلتلّلهم مع السّلامة، ولا بدّي حكاية هيداك الرّجّال اللّي صار يترجّاك تنام مع صاحبتو، ولا بدّي قصّة برناديت يلّلي اكتشفت أنّها شرموطة وعاملة حالها ناطرا أتوستوب، ولمّن وصلت على الحرج وحاول الزلمي يدقّ فيها بلّشت تصرخ أنّها بدّها مصاري، وكيف نزلت وجبرتو يدفعلها، وتقاسمت المصريات أنت وياها، وصرتو تضحكو متل المجانين، والمسكين شو كان اسمه. . . اسمه مقيّد عندي، قلّلي، شو كان اسمه؟»

بدأ المحقّق يبحث بين أوراقه دون أن يعثر على الاسم.

«ولا قول اسمه، شو ناطر؟»

«أنا ما بعرف اسمه يا سيدنا، إنت قلتلّلي إنّو اسمه نجيب حايك، وأنّه محامي، أنا ما كنت أعرف اسمه، نحن بشغلتنا ما منسأل عن الأسامي، الأسامي ما إلها معنى. بس هي، يا ريتني ما عرفت اسمها، ما بعرف شو صار لي».

«شو صار لك؟ هلّق عاملّي حالك بريء وما خصّك، هالقصص ما بتهمّني، بدّي إفهم عن البطّاريّة، لشو البطّاريّة، ولمين كنت عم تضوّي باللّيل على شطّ الرّملة البيضا، وبعدين فيك تفهّمني إنّو كيف يعني، حدن بيشرب ميّة بحر، وبيجبر العالم يشربوا مياه مالحة».

كيف يجاوب يالو، وماذا يقول؟

قال إنّ لا وجود لمركب، وقال إنّ البطاريّة كانت جزءًا من شخصيّته، مثلها مثل المعطف الأسود الطويل، لكن ماذا يقول عن ماء البحر، هل يخبر المحقّق عن شاطئ اللّيل وعن الكوهنو أفرام وليلة عيد الغطاس؟ هل يخبره عن غابي وعن شعرها الذي يصير ذهبًا تحت ضوء القمر، وهي تقف تحت يدي والدها، الذي يفكّ شعرها الطويل ويبلّله ويمشّطه، بينما يقف دانيال الصغير بين الأقدام، ينحني على الرّمل ويرتجف بردًا.

كان الكوهنو يأخذ عائلته الصغيرة إلى الشاطئ في انتظار الرّوح الذي يهبّ حيث يشاء. وعلى شاطئ الرّملة البيضاء، وبعد أن يليّل اللّيل، وتنتشر النّجوم الصغيرة التي تخترق الغيوم فوق البحر، ينحني الكوهنو على الماء ويشرب، يمشي قليلاً وسط مياه باردة وأمواج مرتفعة، يمسك يد حفيده بيمناه ويد ابنته

بيسراه، ويتقدّمون في البحر. وعندما ترتفع المياه إلى خصر الطّفل، ينحني الكوهنو، يتمتم كلمات غريبة بلغته الغريبة، ثمّ يملأ يديه بالماء ويشرب. يسقي الأمّ أوّلاً، ثمّ ابنها، ثمّ هو. وبعد أن يشرب كلّ واحد منهم ثلاث مرّات، يمشون إلى الوراء تراجعًا. وحين كانت يد يالو تفلت من يد جدّه، ويبرم الطفل راكضًا إلى الشاطئ وهو يرتجف بالبرد، كان الكوهنو يركض خلفه ويعيده إلى الماء.

«ما لازم تدير ضهرك للبحر يا ولد، حدن بيدير ضهرو للروح؟»

وحين يصل الثلاثة إلى الشاطئ اليابس بالرّمل، تفتح الأمّ شنطتها وتخرج منشفة كبيرة بيضاء، تنشّف بها جسم يالو بعد أن تجبره على خلع بنطلونه، وتعطيه بنطلونًا نظيفًا، ويصير الولد أزرق بالبرد والخوف وطعم الملح الذي يحتلّ لسانه وأحشاءه.

«المي صارت حلوة وطيّبة»، يقول الكوهنو.

«آمين»، تقول الأم.

«آمين»، يقول يالو، منتظرًا حبّة راحة الحلقوم التي يمتزج سُكّرها الناعم بخشونة لسانه المالح.

تقف غابي على الشاطئ، بين يدي والدها، وتبدأ بفكّ كوكينتها. تنزع الدبابيس من شعرها، وتضعها على حرام صوفيّ فرشته على رمل الشاطئ، تأمر يالو بالجلوس على الحرام، وتقف في انتظار مشط الكوهنو.

يذهب الكوهنو إلى الماء، ويضع بين راحتيه كمشة من ماء البحر، يرشّها على شعر ابنته، ثمّ يبدأ في تمشيطها. ينسدل الشعر الطويل على الكتفين، ثمّ يمتدّ إلى الظهر ويسقط على

الخصر قبل أن يصل إلى الكاحلين.

في ليلة الغطاس، يوم معموديّة المسيح المخلّص، كانت غبريال ابنة أفرام، تفكّ شعرها وتفرشه تحت ضوء اللّيل من أجل أن يتلوّن بالأعجوبة. ويبدأ الشعر الطويل المليئ بالدّوائر الذي يتساقط تحت مشط الكوهنو، بالتحوّل ذهبًا.

قال يالو إنّ شعر أمّه يصير ذهبيًا، ينحلّ في الماء والمشط ويتذهّب ويلتمع. الكوهنو يجبر حفيده على إبقاء عينيه مفتوحتين من أجل أن يرى كيف يتلوّن شعر أمّه بالذهب.

«شوف العجيبة يا صبي»، يقول الكوهنو.

ويالو يرى الأعجوبة، يشعر بمذاق السكّر المالح تحت فمه، ويرى ألوانًا تخرج من بين شفتي الكوهنو المحاطتين بلحيته الكبيرة البيضاء. الكوهنو يهتزّ بالمشط، بينما يرتسم الضوء الخافت الذي يخترق ليل الشاطئ بقعًا على يديه وعينيه، والمشط يهبط ويصعد من دون توقّف. يالو الطفل يجلس على الحرام الصّوفي مرتجفًا بالبرد، ويدخل في أعجوبة الماء والشعر الذهبيّ.

هل يقول للمحقّق إنّه كان يبحث عن الأعجوبة؟

الأمّ كانت تقول بعد عودتهم إلى البيت إنّها وجدت الأعجوبة. أمّا شيرين فلم تقل شيئًا، لأنّها لم تفهم شيئًا.

ينتهي الكوهنو من تمشيطها، فتبدأ الأمّ في لملمة شعرها الذهبيّ عن رجليها وكتفيها وظهرها، تلمّه في دوائر تلتقطها بالدبابيس، التي كان يالو يناولها إيّاها، بينما تقف غابي مديرة ظهرها لابنها، ناظرة إلى البعيد، إلى حيث البحر، والكوهنو إلى جانبها.

لم يسأل يالو أمّه لماذا تدير له ظهرها وتنظر إلى البحر، فهو كان يعرف أنّ أمّه تتمرّى بالبحر، مرّة في السنة يصبح البحر مرآة عجائبيّة، وكان الطفل يرى أمّه، ويرى شعرها الذي يمتدّ على المياه المالحة التي تصل إلى أطراف السّماء.

هكذا قال لهما الكوهنو.

قال إنّ البحر ينتهي في السماء. «السماء امتداد البحر يا ابني، والبحر هو مرآة العالم». فأفرام، رغم اقتناعه بكرويّة الأرض، وبكلّ الاكتشافات العلميّة التي كان يالو يدرسها في مدرسة القدّيس ساويروس في بيروت، كان مصرًّا على العلاقة الخاصّة بين البحر والسماء، وإلاّ كيف نفسّر أنّ روح الله كانت ترفرف على المياه؟ وكيف نفسّر حكاية يونان النبيّ الذي قضى ثلاثة أيّام في بطن الحوت، قبل أن يعود إلى الشاطئ سالمًا؟

أفرام يقول إنّ حكاية النبيّ يونان هي مجرّد رمز لموت المسيح وقيامته، لكنّ الرّمز لم يكن ممكنًا لولا العلاقة الخاصّة بين الله والبحر.

«في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه القمر ظلمة، وروح الله ترف على المياه».

يذهب الكوهنو مع عائلته الصغيرة إلى البحر، من أجل الرّوح الذي يرفرف على المياه، وكان يعتقد أنَّ الأعجوبة لا تحصل إلاّ في ذلك اليوم من شهر كانون الثاني، حين يلتقي الرّوح بالمياه المالحة فتصير أحلى من العسل.

غير أنّ يالو لم يكن يرى عند جيرانه وأقرانه مسحة الرّوح التي كانت تشعّ في بيته في صبيحة اليوم التالي، حين تعدّ أمّه الكعك بالحليب، وتقلي الزلاّبيّة.

في ذلك البيت الصغير الذي زرعت في حديقته سبع أشجار فتنة تظلّل المكان وتعانق شجرة زنزلخت ضخمة تقف مثل حارس على المدخل، هناك فقط كانت الأعجوبة، وكانت ظلال يد المسيح تمسح الرّؤوس بالعسل والذهب.

لا يذكر يالو شيئًا عن العودة من الشاطئ إلى البيت، فهو كان يعود نائمًا وملفوفًا بالحرام الصوفيّ. ينهض في الصباح، فيشمّ رائحة الزيت والحلوى، ويرى الكوهنو جالسًا يمضغ البخّور قبل أن يذهب إلى الكنيسة.

لم يكن يالو يرى مسحة الرّوح على زملائه، ولم يكن يسألهم عن رحلتهم إلى الشاطئ، هل كانوا يذهبون هم أيضًا ويشربون المياه المالحة التي تصير حلوة. الجدّ حين كان يضمّ يديه ويلتقط مياه البحر ويرفعها إلى فمه ويشرب، يقول: مثل العسل، ويالو يشرب مرتجفًا في انتظار قطعة راحة الحلقوم المليئة بالسكّر، حيث يأكلها جالسًا على الحرام الصوفيّ الذي امتلأ بالدبابيس التي خرجت من كوكينة أمّه.

هل كان هذا تقليدًا شائعًا في بيروت؟ أم كان تقليدًا عائليًا خاصًا جلبه الكوهنو معه من قريته البعيدة؟

لا يعرف يالو الجواب على هذا السؤال، ولم يخطر في باله أن يسأل جدّه، فهو يرى المشهد الآن في الحبس، حيث يعيش داخل صمت السّجن، وأصوات السجناء التي تصل إلى أذنيه كأنّها همهمات غامضة لا دلالة لكلماتها، ويحاول أن يكتب كي ينتهي من هذه الحكاية التي طالت كثيرًا.

يرى المشهد البحري، حيث تقف عشرات النّساء على الرّمال البيضاء، يفرشن شعورهنّ على ظهورهنّ، وخلف كلّ امرأة يقف

رجل كهل يحمل مشطًا، ومع كلّ ضربة مشط، تتلوّن خصل الشعر بالذّهب، وتنزلق الأمشاط إلى الأسفل، عشرات الأمشاط تلتمع باللّون الذهبيّ، وروح الله يرفرف فوق الجميع.

يشعر يالو بالبرد الذي يخترق عظامه، ويسمع صوت الكوهنو يعظه ويقول إنّ سبب شعوره الدّائم بالبرد هو طول جسمه ونحوله: «لا يوجد لحم في جسمك يحميك من الهواء».

يشعر يالو أنّ الهواء يخترقه، كأنّ جسده مليء بالثقوب، يرتجف ويتدثّر بالحرام الصوفيّ، فتنخره الدبابيس في جميع أنحائه.

عشرات النّساء يتمشّطن بالذّهب، ويشربن من مياه البحر، ثمّ يحملن أبناءهنّ وبناتهنّ في حرامات صوفيّة، ويمضين عائدات إلى البيوت، من أجل إعداد الكعك بالحليب والزلاّبيّة احتفالاً بمعموديّة المسيح في الأردن.

«اسمع يا ابني»، يقول الجدّ في الصباح، قبل أن يذهب إلى الكنيسة، «الحقوني بعد نصف ساعة وما تتأخّروا عن القدّاس، وإيّاك تحطّ شي بتمّك، لازم تتناول على الرّيق، ما بصير تاكل وبعدين تتناول، هيدا حرام، أنا بعرف كلّ شي، والله بيعرف كلّ شي».

لكن يالو كان يسرق الكعك من النمليّة ويأكله، ثمّ يفرك أسنانه بالفرشاة من أجل أن يزيل الرّائحة قبل أن يذهب إلى الكنيسة مع أمّه حيث يغطّ في نوم عميق. لم يحضر يالو قدّاسًا واحدًا في حياته، ففي اللّحظة التي يدخل فيها إلى الكنيسة، تذبل عيناه من رائحة البخّور، فيغفو على المقعد حدّ أمّه، ولا يستيقظ إلاّ من أجل أن يقف أمام الهيكل مع الواقفين، ويتناول

الخبز والخمر، ويشعر بطعم الدم على لسانه.

وفي الحرب، حين خاض في الدّم حتّى ركبتيه، كان يشعر بالطعم نفسه، طعم ملح ممزوج بسكّر راحة الحلقوم، ورائحة بحر مليئة بالرّذاذ الأبيض، تجعله يسكر ولا يستفيق.

وحين يعود إلى البيت، يسمع أمّه تقول إنّها تشمّ رائحة الدّم. تقبّله وهي تغلق أنفها بأصابعها.

«أنا بكره ريحة الدّم، وأنت الدّم واصل لركابك».

فيجاوبها أنّ طعم الدّم يشبه طعم العسل.

«ليش بتخافي من الدّم، ما بيّك الله يرحمه، كان كلّ أحد يعبّي الكاس دم، ويشرب، ويسقي النّاس بالقدّاس».

«اخرس، الله يسامحك على هالحكي، يا ابني هيداك ما كان دم، كان رمز».

«وهيدا كمان يا أمّي مش دم، هيدا رمز».

«الله يسامحك ويسامحني يا ابني».

«أنا متل جدّي يا أمّي، أنا عم حارب بالرّمز».

«إنت ما بتعرف شي عن جدّك وعن الرّمز وعن الحياة. إنت مفكّر الدنيا مزحة، إنت ورفقاتك، الله يساعدنا عليكم».

يالو لم يكن يعتقد أنّ الدّنيا مزاح، كما قالت أمّه، لكنّه كان يشمّ في هذه المدينة التي اسمها بيروت، والتي انحنت على موتها، رائحة تشبه رائحة البحر والملح والبخّور. وكانت صورة جدّه تتراءى له دائمًا، وهو يمضغ البخّور ويشرب المياه المالحة. لكنّه لم يخبر غابي عن صورة جدّه، لأنّه خاف عليها. خاف أن تعتقد أنّ ابنها سيموت. فغابي تعلّمت من أبيها أنّ من يرى الأموات يموت. أمّها ماتت بعد أن رأت طيف خالتها

يدعوها، والكوهنو قال ليلة موته إنّه حلم بأنّه عاد إلى عين ورد، حيث رأى أمّه تلفّ شعرها المبقّع بالدّم كوكينة حمراء.

«كان شعر أمّي كوكينة حمرا، وكانت عم تضحك، يمكن ما ماتت، يمكن خطفها الكرديّ»، قال أفرام قبل أن يغمض عينيه على الظلام الأبديّ.

قالت غابي لابنها أن لا يحكي عن الدّم. «إنت شو بعرّفك عن الدّم، أنا بيّي خبّرني، الدّم كان هونيك بعين ورد. صار الدّم يفيض من النّبع بعد المذبحة، وصارت حيطان الكنيسة تنش دمّ أحمر».

يالو كان ينام في الكنيسة، يجلس قرب أمّه، يغمض عينيه، ويلتقي بسلطان النّوم.

وعندما قال جدّه إنّ «السلطان» تركه، فهم يالو، وكان في العاشرة من عمره، أنّ الكوهنو سوف يموت.

«جدّي بدّو يموت»، قال لأمّه.

«اخرس يا ولد، فال الله ولا فالك».

«السّلطان تركه»، قال لأمّه موشوشًا.

وصار ليل الكوهنو عذابًا له ولأفراد عائلته الصغيرة. تحوّل ليله مشيًا في البيت. يذهب إلى سريره في العاشرة ليلاً، لكنّه ينهض بعد أقلّ من ساعتين، يتلو صلواته، ولا يتوقّف عن إحداث الضجّة في البيت. يحرق البخّور من أجل طرد الأرواح الشرّيرة ويسعل.

«ظلّ جدّي يسعل حتّى مات لأنّ السّلطان تركه، أمّا أنا فالسّلطان معي»، قال لشيرين.

«تعالي معي إلى الشّاطئ من أجل أن أريك السّلطان».

لم تفهم شيرين سبب هذا الإلحاح على الذّهاب إلى الشّاطئ ليلاً. فلقد اعتادت على تلفونات يالو اليوميّة، وإصراره الدّائم على اللّقاء بها. وكانت تتعمّد أن يكون اللّقاء في فترة بعد الظهر، وفي مقهى «البيسترو» في الأشرفيّة. كان يأتي ملتحفًا معطفه الأسود الطويل، يمشي على رؤوس أصابعه، ويتلفّت يمينًا وشمالاً كالخائف، قبل أن يجد طاولته في الزاوية العليا من المقهى. يجلس، يبلع ريقه، ثمّ يطلب كأس بيرة من النادل.

«إنت طويل كتير، ليش ما بتلعب كرة سلّة؟»

هكذا كانت تسأله قبل أن تجلس.

«هيّاني جيت، قلّلي شو بدّك؟»، تقول.

«ماشي، بس بدّي شوفك».

«شفتني وبعدين؟»

«بعدين ماشي».

«فيّي روح؟»

«إيمتى رح تجي تتعشّي عندي بالبيت؟»

«وين؟»

«ببلّونة».

«بلّونة! التوبة يا ربّي، جامي»، وضحكت.

يخبرها يالو حكايات لا تنتهي، ويخترع قصّة ابنة عمّه التي قتلها في الحرب.

«إنت قتلتها؟»

«طبعًا أنا».

«إنت قتلت بنت عمّك؟» تسأل مذعورة.

«قتلتها ورميتها بالحقل».

«ليش؟»

لأنّها كانت بدّها تتزوّج واحد كرديّ».

«وهيدا سبب للقتل؟»

«مش بس هيك، نامت معه، وكانت حبلي، يعني كان لازم دافع عن شرف العيلة».

«شرف العيلة!»

«طبعًا، عمّي كان ما بقى قادر يشوف قدّامو، قلّلي وين بدّي حطّ راسي من الذلّ، قلّلي لازم نقتلها، بس هو جبان، قلّلي شو رأيك يا ابني، فيك تعملّلي هالخدمة، قلتلّلو ولو بتأمر يا عمّ».

«وقتلتها؟!»

«متل شربة الميّ، حطيتلها الفرد براسها، طلقة واحدة وكان كلّ شي انتهى».

«انتهى!»

«طبعًا، انتهى».

«وهيك أنقذت شرف العيلة؟»

«أهمّ شي الشرف»، قال.

«يا عيني على الشرف»، قالت.

روى لها من أجل نظرات إعجابها، لكن بدل الإعجاب، رأى عينين صغيرتين فارغتين بالخوف.

وأخبرها عن الخيّاط الذي اغتصب أمّه.

«اغتصبها؟»

«كانت صغيرة، عمرها ستعشر سنة، وتشتغل عنده، فاغتصبها».

«وهيدا قتلته كمان؟»

يبتسم يالو، تظهر أسنانه الكبيرة البيضاء: «لا هيدا جدّي الكوهنو هو يلّلي قتله».

«جدّك الخوري قتل واحد؟»

«طبعًا قتله، شو بيترك البنت تتبهدل؟»

«خوري بيقتل؟»

«لا فهمتيني غلط، ما قتل متل ما إنتي مفتكري، ما استعمل الفرد أو السكّين، لا قتله بالحكي. حكي معه، ما قدر الخيّاط يتحمّل الحكي، فمات».

تضحك شيرين: «إنت مش شاطر إلاّ بالحكي».

«حطّي إيدِكْ» ويمدّ يده فوق الطاولة.

«مش هون الله يخلّيك».

«حطّي إيدك عم قلّك».

«طيّب نزّل إيدك».

ينزل يالو يده تحت الطاولة، فتمدّ شيرين يدها الصغيرة البيضاء. وتمسك بها. يرفع يالو يدها قليلاً، ويشدّها صوبه، ويضعها على خصره، فتشعر الفتاة ببرودة الحديد تسري من أصابعها إلى كتفيها. تسحب يدها بسرعة وتسأل: «شو هيدا؟»

«هيدا فرد، بدّك هلّق شيلو وحطّو على الطاولة، والله كرمال عيونك، أنا مستعدّ أعمل كلّ شي».

لماذا قالت إنّه حين التقى بها في مقهى «البيسترو»، وضع مسدّسه على الصحن أمامها؟

سمع المحقّق يقرأ عن المسدّس والصحن، فلم يصدّق أذنيه.

«وضع المسدّس تحت الصّحن، ثمّ رفع الصّحن وقال

انظري، وأنا كدت أموت من الخوف، بينما كان هو مستغرقًا في الضحك». . .

قرأ المحقّق هذه الجملة من دفتر موضوع أمامه، ثمّ سأل يالو ماذا يقول.

«شو بعرّفني»، قال يالو.

«صحيح حطّيت الفرد تحت الصّحن، وصرت تخوّفها بالصّحن؟»

. . .

«صحيح كنت تقلّلها إنّك بدّك تلعب لعبة الفرد بالصّحن؟»

. . .

«شو هي هاللّعبة، خبّرني لأفهم؟»

. . .

«صحيح قلتلّلها إنّو لازم تتعوّد على الصّحن؟»

. . .

«قدّام العالم، كنت تشيل فردك، كأنّه الدنيا فالتة».

. . .

«مش حرام؟»

«أنا يا سيدنا؟»

«لكن أنا؟»

«مش معقول».

«شو هو المشّ معقول؟»

«أنا بس، أنا قلتلّلها عن الصّحن، بس مش هيك».

لماذا قالت عن الصّحن؟ يالو لم يقل سوى إنّه يستطيع وضع المسدّس على الصّحن أمام الجميع، من أجل أن تصدّق حبّه

لها، والآن جاءت تقول إنّه كان يضع المسدّس على الصّحن من أجل إخافتها، وإنّها كانت ترجوه أن يتوقّف، وإنّه كان يضحك بأسنانه الكبيرة، ورأسه المرتفع الذي يعلو فوق رؤوس جميع الزبائن الجالسين يتوشوشون بكلمات تمزج العربيّة بالفرنسيّة، كأنّه لا يبالي.

. . .

«أنا جبرتها تحكي معي بالعربي؟» سأل يالو متعجّبًا.

. . .

«هي قالت إنّها بتحبّ تشوفني منشان تحكي عربي، بعدين أنا شو خصّني بالعربي. العربي مش لغتي يا سيدنا، نحن لغتنا ماتت. أنا بحسّ لمّن بدّي إحكي، أنّه في على لساني شي ميّت».

لم يقل يالو هذا، حتى لو استطاع، في هذا الموقف الصّعب، أن يتذكّر كلام جدّه، فهو لم يكن قادرًا على صوغ الجمل بهذه الطّريقة.

الجدّ، في المرحلة التي تخلّى فيها سلطان النّوم عنه، كان يقول إنّه يشعر بموت لسانه في فمه. يقف تحت أيقونة المسيح المصلوب ويقول له:

«لغتك ماتت يا إلهي، كيف بتترك لغتك تموت، أنا حاسس طعمة الموت تحت لساني، مين من بعدي بدّو يصلّي متل ما كنت إنت تصلّي:

ابون دبشمايو نتقدش سموخ، تيتي ملكوتوخ، نهوي سبيونوخ، ايكانو دبشمايو أوف ارعو، هب لن لحمو دسونقونان يُومونو، وَشبق لَنْ حوبين وحاطوهين ايكانو دون

حنانِ شبَقتين لحيوبين، ولو تعلان لنسيونو إلو فاصولن مِن بيشو، ميطول ديلوخ ملكوتو وحيلو وتشبوحتو لعولام عولمين آمين.

كيف بدنا نصلي يا يِشوع، والكلمات عم تموت، حاسس بالدود عم يطلع منها، كأنّه تمّي صار مقبرة. لغتك عم بتموت، وأنت مش عم تعمل شي. مع مين بدّك تحكي في مجيئك التاني، ما بقى في حدن بالعالم قادر يفهم عليك غيري، وأنا السّلطان تركني، وقرّب الموت منّي. بكرا بعد ما يموت عبدك أفرام، شو بدّك تعمل؟»

قال يالو لشيرين إنّه يريدها أن تأتي معه إلى شاطئ الرّملة البيضاء بعد عيد الميلاد، فقالت لا. عندها غضب يالو، أمسكها من يدها وجعلها تتحسّس المسدّس على خصره، وقال إنّه مستعدّ أن يضع المسدّس على الصّحن وأمام الجميع من أجل أن تصدّق حبّه لها.

«لكن لا، لا يا سيدنا»، قال يالو، «أنا ما جبرتها تجي على الشطّ».

تلفن يالو لشيرين أكثر من عشر مرّات في ذلك اليوم، وهي تقول إنّها لا تريد أن تذهب إلى الشاطئ، وتفضّل أن تلتقي به في المقهى، لكنّها اقتنعت في النهاية. قال لها إنّه سيريها الأعجوبة، وسيتكلّم مع السمك باللّغة السريانيّة، فوافقت على المجيء، واشترطت أن يكون اللّقاء قصيرًا لأنّها مدعوّة إلى العشاء. لكنّ اللقاء امتدّ إلى آخر اللّيل، ليس لأنّ يالو أجبرها على البقاء وشرب النبيذ، مثلما قالت للمحقّق، بل لأنّ الأعجوبة حصلت فعلاً.

مشيا على شاطئ الرّملة البيضاء، ثمّ طلب منها أن تدخل معه إلى الماء.

«برد، الله يخلّيك بلا هالحركات».

تركها واقفة، وغاص في الموج دون أن يخلع ثيابه، ثمّ عاد حاملاً في يديه الماء المالح وطلب منها أن تشرب. شرب وسقاها الماء الذي صار حلوًا مثل العسل، ثمّ جلسا على الرّمل المبلّل البارد، وأخرج من جيب معطفه قنّينة نبيذ أحمر ورغيف خبز.

شرب من القنّينة وسقاها، أكل خبزًا وأطعمها.

«النبيذ حلو كتير، أنا ما بحبّ النبيذ الحلو»، قالت.

«هيدي الميّ حلوة، مش النبيذ».

ثمّ وقف، مضى إلى البحر، ومشى على وجه الماء. تركها جالسة على رمل الشّاطئ، ومشى على البحر، وصار يرى نفسه بعينيها، رأى ظهره المغطّى بالمعطف الأسود، وظلاله التي تمتدّ إلى السماء، ومشى. وحين عاد إليها مبلّلاً بالماء وأسنانه تصطكّ من البرد، رآها جالسةً، ورأسها على ركبتيها المرفوعتين، رفع رأسها وقبّلها، وأحسّ بطعم الدموع.

بكت وقالت إنّها سوف تموت هنا.

«الله يخلّيك، خلّيني روح على البيت قبل ما موت».

لماذا قالت إنّه أجبرها على أكل الخبز، وإنّها تقيّأت الملح الممزوج بالنبيذ الحلو؟ الماء صار حلوًا مثل العسل، لكنّها لم تفهم، والآن حين يقف يالو أمام المحقّق الذي يتراءى له من خلال الشّمس التي تحرق عينيه، يكتشف أنّه فهم سرّ الخبز.

أراد أن يقول للمحقّق إنّه يعتذر. فجأة اكتشف سرّ الخبز،

وبدت له كلّ هذه الحكاية مع شيرين مضحكة ولا تستحقّ أن تناقش. غرق يالو في الضّحك وسط ذهول المحقّق، ضحك بصوت مرتفع، ثمّ انكمش على نفسه، وتوقّف عن الإجابة. ماذا يقول؟ هل يقول إنّ الخبز، هل يقول إنّ كلّ شيء تجليط ما عدا الخبز؟

«ما تقلّلي العالم تغيّر يا ابني»، قال الجدّ، «شو ما صار وبدّو يصير ما في شي تغيّر، الشي الحقيقي يلّلي اكتشفه ابن آدم هو الخبز. جيبولي اختراع غيّر الأكل ساعتها بآمن أنّه العالم تغيّر، العالم ما تغيّر لأنّه مدوّر مثل رغيف الخبز. كلّ شي يا ابني على حاله، ما عدا طعمة تمّي، مدري كيف، مع أنّي كلّ يوم بعلك بخّور وصمغ صنوبر، كلّ هيدا لأنّ السلطان تركني. يا ابني الحياة ما فيها إلاّ شغلتين، نوم وخبز. هيدا هو إيماننا، المسيح هو حبّة القمح، مات منشان يقوم، وحوّل الموت لنوم، الإنسان بنام كلّ ليلة منشان يتعوّد على الموت، ولمّن ببلّش يتركك سلطان النّوم، وتبطّل نفسك تشتاق للخبز، ساعتها بكون الموت الحقيقي قرّب. بس شو الفرق، ما في فرق، متل المنام، بالنّوم بنحلم وبالموت رح نصير نحلم».

أراد يالو أن يقول لها، أراد أن يخبرها، لكنّها كانت تبكي. كيف يخبرها عن شعر أمّه المتلألئ بالذّهب، وسط الرّمال البيضاء، وشيرين لا تجرؤ على النظر، تنحني على ركبتيها وتبكي.

«الله يخلّيك، خلّيني روح على البيت»، قالت.

«شفتي الأعجوبة؟» سألها.

«شفت كلّ شي، بس بدّي روح».

«إيمتى بشوفك؟»
تلفنلي بكرا ومنتّفق، بس خلّيني روح».
ورآها تغيب في اللّيل، خلعت سكربينتها وركضت على الرّمل، ثمّ ابتلعها الظّلام. وبقي يالو على الشاطئ وحده، أمام قنينة نبيذ أحمر فارغة وبقايا خبز.
مشى وحده على الشاطئ ولم يخبر شيرين عن أمّه. أراد أن يخبرها كيف كانت أمّه تشرب ماء البحر وتفتح عينيها وتترك شعرها ينسدل، أراد أن يقول لها إنّه رأى على الشاطئ عشرات النساء اللّواتي وقفن تحت شعورهنّ، وسكرن بذهب الضّوء الذي صنعه قمر صغير يتأرجح بين الغيوم، تبتلعه غيمة قبل أن تقذفه إلى غيمة أخرى، والضوء يغوص ويعلو، والشعر الطويل يغطّي الطفل الجالس مرتجفًا على الحرام الصوفيّ.
لماذا قالت إنّه أجبرها على أكل الخبز وشرب النبيذ ثمّ سرق كلّ محتويات جزدانها؟ لماذا قالت إنّها كانت تتعمّد حين تلتقي به أن لا تضع في جزدانها أكثر من مئة دولار أميركي؟ لماذا قالت إنّه كان يأخذ في كلّ لقاء ورقة المئة دولار؟
«لكنّها لم تقل كلّ الحقيقة يا سيدنا».
«وشو هي الحقيقة، تفضّل قولها»، أجاب المحقّق.
«الحقيقة أنّه ما حدن بيعرف الحقيقة غير الله»، أجاب يالو.
لم يعد يالو متأكّدًا من أيّ شيء الآن، لكنّه في تلك اللّقاءات كان يشعر أنّ شيرين تذوب تحت نظراته، كأنّها كانت تريده أن يأخذها إليه، لكن شيئًا ما كان يمنعها من التصريح عن مشاعرها، كأنّها مرتبطة بسلك خفيّ إلى عالم آخر لا تستطيع التخلّي عنه، وكان يالو يمدّ لها نظراته من أجل أن تتسلّقها وتأتي إليه.

«تعي لعندي»، يقول.
«لوين؟» تسأل.
«على قلبي»، يقول.
«نعم، نعم»، تجاوب.

لكنّها كانت خائفة، الآن فهم يالو أنّها كانت خائفة، والخوف مخادع. يوحي الخوف بأشياء لا وجود لها. الآن، أي هناك في مطارح التعذيب فهم يالو. الاعتراف تحت التعذيب مثل اعترافات العاشقين، فجأة يفقد العاشق القدرة على ضبط لسانه، ويقول الأشياء التي تدمّر الحبّ.

الآن اقتنع يالو أنّه أخطأ، ما كان يجب أن يخبر الفتاة عن الحقيقة التي عاشها، لكنّه أخبرها. وعندما روى لها عن المدام رندة، وكيف كان يترندد بها، وحين قال عن ابنتها غادة وكيف كانت تسيل غيرتها من عينيها وتخبره عن صديقها في الجامعة الذي سبقها إلى كندا وستلتحق به قريبًا، وحين روى عن مغامرات الحرج وشفقته على الخواجة ميشال سلّوم، سقط في فخ الكلام، وانكشفت لعبته.

لو لم يخبرها أنّه أصبح مقتنعًا بأنّ المدام سوف تشكوه إلى البوليس، لما تجرّأت هذه الفتاة التي لا اسم لها على الذهاب إلى المخفر وتقديم شكوى ضدّه.

إنّه مرض الحقيقة الذي أُصيب به حين وقع في الغرام.

قال لها إنّه لا يعرف لماذا يشعر هكذا، ولماذا لم يعد قادرًا على الكذب. قال لها كلّ شيء، وحين سال الحبّ على لسانه وجد نفسه في المخفر، ورآها بتنّورتها القصيرة وفخذيها الرّفيعين الأبيضين تشير إليه بوصفه مجرمًا.

قال يالو للمحقّق، أراد أن يقول، لكنّه وجد نفسه كالأخرس، ورأى كيف هوى إلى القاع وسقط من عينيها. الحقيقة التي عصفت به حين استولى عليه الحبّ، جعلته يسقط من عينيها إلى وحل احتقارها له. كان يروي لها عن أمّه وعن علاقتها بالخيّاط الياس الشامي، حين رأى نفسه يهوي من عينيها، رأى صورته في بؤبؤيها الصغيرين تتساقط أرضًا، ولم يكن قادرًا على فعل أيّ شيء.

كيف يمكن إنقاذ صورة تسقط من العينين؟

وبدلاً من أن يتوقّف عن الكلام، ويستجمع صورته من جديد، رأى كلامه وقد تحوّل مرآة سقوطه. رأى كمن يرى في المرآة كيف سقط أرضًا وتحوّلت صورته شظايا صغيرة. وشعر أنّه يغرق، والغريق لا يُحسن غير التخبّط من أجل أن يتابع رحلته إلى الأعماق التي تبتلعه.

هكذا يالو، غرق حين عرّاه الحبّ، وسقط أرضًا حين حكى.

«والله ما قتلتها يا سيدنا».

لماذا سأله المحقّق عن ابنة عمّه التي لم يقتلها؟

يالو كذب على شيرين حين روى لها عن جريمة لا وجود لها إلاّ في خياله. كان يحاول إنقاذ صورته التي تغرق وتتساقط، فاخترع كذبة عن جريمة، وها هي الكذبة تتحوّل الآن حقيقة عليه أن يرويها للمحقّق.

لماذا قال إنّه سيرسل لجنة تحقيق إلى القامشلي بحثًا عن عائلة جلعو؟

«ما في ماريّا جلعو يا سيدنا، والله لا يوجد. القصّة وما فيها إنّي كنت عم شبّح على شيرين. أنا ما عندي بنت عمّ، لأنّه ما

عندي عمّ، لا عمّ ولا خال، مبلى عندي خالة اسمها سارة، سافرت على السويد من زمان. أنا ما بعرفها، أمّي خبّرتني أنّها تزوّجت وسافرت وصارت سويديّة، وبعدين إجت الحرب وانقطعت أخبارها. هيك قالت أمّي».

«وبيّك؟ عم بسألك عن عمّك خيّ بيّك؟»

«ما بعرف، والله ما بعرف، يمكن عنده أخوة وأخوات، بس أنا ما بعرفهم، أنا ما بعرف بيّي، حتّى صورته ما شفتها ولا مرّة، سألت عن الصورة، بس جدّي ما كان يخلّيني إفتح هالسيرة أبدًا».

لماذا لا يصدّق المحقّق أقوال يالو الذي يقف أمامه بيديه المرتعشتين، ورموش عينيه الطويلة، وانحناءة ظهره، وتلعثمه، وكلماته التي تخرج متقطّعة من بين شفتيه؟

كان يالو يعرف أن لا أحد سيصدّقه. لذلك كان يحكي ما يشاء، ففي الحرب لم يكن أحد يصدّق أحدًا. لكنّ الحرب انتهت الآن، هكذا قال لشيرين، قال لها صدّقيني، قال لها إنّه كره الحرب من أجل الكذب الذي فيها، وإنّه حين التقى بها اقتنع بأنّ الحرب انتهت لأنّه توقّف عن الكذب، وإنّه يريد أن يبدأ حياته من جديد، وإنّه يحبّها.

لا، قبل أن تنتهي الحرب، قرّر يالو أن يهاجر. الفكرة كانت لصديقه طوني عتيق. لا يعلم يالو هل العتيق هو اسم عائلته الحقيقيّ، أم أنّه لقب التصق به، مثلما التصقت الألقاب بالنّاس خلال الحرب، وصارت بديلاً عن أسمائهم.

كان طوني يقول إنّه عتيق.

«أنا سرياني عتيق»، يقول، ثمّ يروي الحكايات الكثيرة عن

بطولاته، لكن يالو لم يكن يصدّقه، «كيف يعني بتصدّق الكلام وبتكذّب عينيك؟» لكنّ الكلمات عيون. حاول أن يشرح لصديقه أنّ الكلمات مثل العيون، لكن طوني كان أعمى أمام الكلمات. يحكي ما يشاء، ويفشّط كلّ الوقت، ولا أحد يصدّقه، لكن هذا لم يكن يزعجه. يحكي ولا نصدّقه، لكنّه يتابع الكلام، لأنّ الكلام يجرّ الكلام.

«الكلمات عيون»، قال الكوهنو لحفيده، وهو يفتح الكتاب، من أجل أن يعلّمه مبادئ القراءة بالحرف السرياني.

«اتطلّع يا ابني بالكلمات منيح، بتعرف ليش الإنسان بيندمج بالقراءة، وبتفهم أنّه الكلمات هي يلّلي بتطلّع فينا، لأنّها بتشوف وبتتنفّس».

لكنّ الحرب علّمت يالو أن يصدّق عينيه لا عيون الكلمات، ولن يتصالح مع الكلمات إلاّ في السّجن، حين سيجبره المحقّق على كتابة قصّة حياته كلّها من أوّلها إلى آخرها، مرّات عديدة. عندها سوف يكتشف أنّ جدّه كان على حقّ، وأنّ الكلام حين يُكتب، ينظر إلى كاتبه ويتحاور معه، ويفرض عليه ما يجب كتابته.

غير أنّ الحرب أسالت الكلمات كما أسالت الدّم. الدم يسيل والكلام يسيل، ولم يعد النّاس يصدّقون شيئًا، لا الدم ولا الكلمات.

يالو لم يصدّق طوني عتيق إلاّ مرّة واحدة، عندما أقنعه بضرورة سرقة خزنة ثكنة جورج عرموني من أجل الهرب بالمال إلى فرنسا، حيث سيبدآن حياة جديدة.

يالو سرق الخزنة بعد أن كسرها، وطوني دبّر بطاقات السفر

بالباخرة إلى لارنكا في قبرص، ومنها جوًا إلى باريس.

وفي الفندق الباريسيّ الفخم، اختفى طوني بالمال وترك يالو وحيدًا، لا ملجأ له سوى نفق محطّة المترو في مونبرناس، حيث شعر بقليل من الدّفء وسط برد باريس القارس. وجد يالو نفسه في بلاد غريبة، لا يملك ما يشتري به رغيف خبز ناشف، فجلس في نفق المترو يشحذ، حين رآه الخواجة ميشال سلّوم، وأعاده إلى لبنان، والبقيّة صارت معروفة، لأنّها دارت بين غرفة التحقيق وزنزانة السجن.

قال يالو إنّه كذب عليها من أجل أن يجعلها تُعجب به وتحبّه.

قال إنّه الحبّ.

قال إنّ شيرين تركته يتعذّب سنة كاملة في انتظارها. سنة وهو لا يرى غير الوعد في عينيها الصغيرتين. سنة وهو يتلفن كلّ يوم، وينتظر تحت نافذة بيتها أو أمام مبنى شركة عرايسي للإعلانات حيث تعمل، سنة وهو يتشبّح في ليل بيروت بحثًا عنها وعن عشيقها الطّبيب الكهل، ثمّ عن هذا الشّاب ذي الشارب الرّفيع، الذي قالت إنّه خطيبها.

كتب يالو أنّه فوجئ بالشابّ حين رآه جالسًا إلى جانب شيرين في غرفة التحقيق، ينظر من خلال نظّارتيه السميكتين السوداوين كأنّه لا يرى. شابّ قصير القامة، ممتلئ الجسم، أبيض البشرة، متورّد الخدّين، يجلس صامتًا بفخذيه السمينتين في غرفة التحقيق، وشيرين إلى جانبه، فخورة بعريسها، وتنظر بشماتة إلى يالو الذي كاد يسقط على الأرض حين رآها، فاستند إلى الكرسيّ قبل أن يجلس عليه.

«قف يا كلب، من سمح لك بالجلوس»، صرخ به المحقّق.

وقف يالو مرتجفًا وأغمض عينيه قبل أن يسمح له المحقّق بالجلوس. وبدأ مطر الأسئلة ينهال على رأسه.

كتب يالو أنّه عندما استجمع نفسه على الكرسيّ وفتح عينيه ورأى الشّاب أحسّ بالحاجة إلى بطّاريته. لن يستطيع هذا الرّجل مقاومة نقطة ضوء واحدة، سوف يركع ويدبدب على الأرض، ويقول له: خذها يا سيدي، واسمح لي بأن أذهب.

لكنّ الخطيب يجلس تحت شمس النّافذة التي تخرج من خلف رأس المحقّق، يرفع أنفه الصغير إلى الأعلى، كأنّه قرفان من هذه الحكاية، ومن هذه البلاد كلّها.

سوف يكتب يالو أنّه حين رأى شيرين جالسة إلى جانب خطيبها، واجه صدمة حياته الثالثة.

صدمته الأولى كانت أمّه بالمرآة التي تبتلع وجهها، وتجعلها تختفي، أو تشعر أنّها ماتت قبل أن تموت.

صدمته الثانية كانت طوني عتيق، الذي اختفى في باريس، وأخذ معه المال واللّغة الفرنسيّة التي يعرفها، وترك يالو وحيدًا بلا مال ولا لغة.

وشيرين كانت صدمته الثالثة.

حين اعتقلوه في بيته الصغير، لم تخطر شيرين في باله. اعتقد أنّ المدام وشت به، لأنّه بدأ يرى الكراهية في عيني مدام رندة منذ مدّة. حتّى حين ينام معها، كان يشعر أنّها لم تعد تنام معه، بل صارت تنام به.

قال في نفسه، وهو يرفع يديه في الأعلى أمام البنادق المصوّبة إليه، إنّها المدام، وضحك في سرّه. سوف يفضحها ويخبر كلّ شيء عن علاقته بها، ويتمتّع حين يرى كيف سيتجعّد وجه

الخواجة ميشال أمام الحقيقة.

«زوجي ما بشكّ فيّي أبدًا، مدري شو رح يصرله إذا عرف عنّك، زوجي مغروم فيّي، ومش ممكن يخطر على باله أنّك سحرتني».

قرّر يالو أن لا يجاوب على الأسئلة في بيته، رفع يديه إلى الأعلى وتركهم يفتّشون البيت، ويصادرون البندقيّة الرشّاشة والمسدّس وصندوق الذخيرة والمعطف والبطّاريّة، وانتظر بصمت. هناك في المخفر سوف يفجّر كلّ شيء، وبدل أن يخبر عن مغامراته في حرج العشّاق، سوف يروي عن المدام.

ورآها أمامه، كما رآها في المرّة الأولى.

جاء مع الخواجة ميشال إلى الڤيلّلا في بلّونة. ذهب يالو إلى بيته، تحمّم ولبس ثيابًا نظيفة ثمّ صعد إلى الڤيلّلا. وهناك رأى أجمل امرأة في حياته. كانت رندة طويلة وسمراء وذات شعر قصير أسود، عنقها طويل وشفتاها سميكتان ودسمتان، وعيناها خضراوان. دخل فرآها تحتضن زوجها بين ذراعيها العاريتين، ثمّ بدت التفاتة منها إلى يالو، فتراجعت إلى الوراء. شعر يالو أنّ نظرات هذه المرأة سقطت عليه من الأعلى، كأنّهما ارتفعتا وتسلّطتا عليه. وأحسّ بابتسامة جانبيّة تفرّ من شفتيها إليه، فشعر بالخجل وبأنّ قدميه لم تعودا قادرتين على حمله فأغمض عينيه وسقط جالسًا على الكرسي، ثمّ وقف وأراد أن يمضي.

«لحظة، لحظة»، قالت المدام.

وقف يالو أمام الباب حائرًا حين أشار إليه الخواجة ميشال بالجلوس. جلس على الكنباية الحمراء الرّخيمة، ورأى أنّ المدام اختفت، ثمّ اختفى الخواجة ميشال أيضًا، وبقي يالو

وحيدًا في صالون فسيح مليء بالأيقونات البيزنطيّة.

وحين عادا، كانت المدام رندة تلبس روبًا أزرق فوق فستانها الأزرق، وتحمل صينيّة وضعت عليها ركوة قهوة وفناجين الكونياك. صبّت القهوة والكونياك وقدّمتها لهما، ثمّ جلست. وضعت قدمًا فوق قدم، فظهر أسفل قدمها الأسمر، ورأى بطّة قدمها تعلو وتهبط مع دخان سيجارتها الأميركيّة الذي تنفخه في هواء الصالون.

شرب يالو قهوته وكونياكه على عجل، ومضى مع الخواجة ميشال إلى بيته، حيث فهم أنّ وظيفته هي حراسة الڤيلّلا والمدام وابنتها، وأنّ عليه أن لا يحمل سلاحًا ظاهرًا لا في النّهار ولا في اللّيل، وأنّ مرتّبه الشهريّ هو ثلاثمئة دولار أميركيّ، إضافة إلى الطعام الذي سيرسل إليه من الڤيلّلا.

لكنّ يالو أخطأ، سوف يكتب أنّه أخطأ، وسوف يشعر بلحظات من النّدم على المدام، خلال إقامته الطويلة في الحبس. لا، الحقيقة أنّ شعوره بالندم على المدام، بدأ حين رأى شيرين بفخذيها الرفيعين المرتعشين في غرفة المحقّق. فجأة اختلطت الأمور في رأسه، وأحسّ بطعم الشّوك، ورأى أمام عينيه بطّة قدم المدام التي قال فيها غزلاً كثيرًا قبل أن يسقط أسير عينيّ شيرين الصغيرتين.

أخطأ يالو في تلك اللّيلة التي سبقت اعتقاله بشهرين، وهو لا يستطيع تبرير تصرّفه الأخرق أو تفسيره. كانت المدام تلبس قميص نوم أبيض وتتمدّد على الأريكة في الصالون، وثدياها الكبيران شبه بارزين من فتحة القميص، ورائحة عطر مدام روشا تفحّ منها، ويالو يجلس في مكانه المعتاد على الأرض إلى جانب

الأريكة. قال لها إنّه تعبان ويشعر بوجع في عينيه، فلم تقتنع. صبّت كأسيّ ويسكي في كوبين طويلين، وقالت له أن يشرب. رفعت الريموت كونترول بيدها وأدارت الفيلم، وبدأت تعبث بشعر الشّاب الجالس تحتها. في تلك اللّيلة، لم ينتظر يالو نهاية الفيلم، كما لم ينتظر معابثاتها، وذلك الطقس الجنسيّ البطيء الذي كانت تفرضه. برم وأخذها على الأريكة، وسمع صوتها المستغيث يقول، مش هيك، لكنّه لم يتوقّف. لم يسبق له أن نام معها هنا، كانت تمسك بيده وتأخذه إلى غرفة النّوم، وهناك تخلع ملابسها على مهل، وتدعوه إليها ببطء، وحين يأخذها، تطلب منه أن لا يأتي بسرعة، وتبرم وتتمايل وهي تتفرّج على جسمها العاري في المرآة الكبيرة الموضوعة أمام سريرها، ويالو يغرق في رائحة العطر ويتشعبن بين فخذيها وعلى مفترق نهديها الكبيرين الصلبين. يقترب بإشارة من عينيها، ويبتعد بإشارة من يديها، ثمّ حين يسمع تنهّداتها الأخيرة، ويغرق في الماء الذي ينبجس من أحشائها يتلاشى وهو يشعر بأنّه قذف كلّ روحه فيها، وأنّه يريد أن ينام على ذراعها. لكنّ المدام كانت لحظة النهاية، تتغيّر بسرعة غريبة، تغطّي نفسها باللّحاف، ويبدأ بؤبؤاها الكبيران في الدوران داخل عينيها، وتقول إنّها خائفة من أن يأتي زوجها. يضحك يالو ويعود إليها، لكنّها تصدّه بعنف، فيفهم أنّ عليه أن يذهب. يلبس ثيابه الداخليّة، ثمّ يلبس بنطلونه المجعلك المرمي على طرف السّرير وهو يشعر أنّ قدميه صارتا مجعلكتين مثل البنطلون، ويمضي بقدمين مرتجفتين إلى بيته، حيث يشرب قنّينة نبيذ أحمر ويقلي ثلاث بيضات، ثمّ يأخذ دوشًا وينام كالميت.

في تلك اللّيلة شعر يالو بالغثيان، ولم يعرف كيف انتصب وأتته الرّغبة. كان مقتنعًا أنّه لن يستطيع أن ينام مع مدام رندة، لكنّه انتصب فجأة، وشعر بالزهو، فيالو كان خائفًا من أن يتبهدل لأنّه لن يستطيع، أراد أن يطلب منها تأجيل المسألة، لكنّها لم تفهم إشارته. جلس مثل الكلب على قفاه، وتفرّج على ذلك الفيلم الذي يشبه جميع الأفلام. جميع أفلام البورنو تتشابه ومع ذلك تمتلك إثارة لا تتوقّف. ابتلع كأسه دفعة واحدة، ثمّ قفز على المدام وأخذها في ثوانٍ ونهض. لم يخلع ثيابه، فكّ سحّاب البنطلون وارتمى فوقها وانتهى. بكلّ بنطلونه، جلس على الكنباية المقابلة، صبّ لنفسه كأسًا جديدة وأشعل سيجارة.

نهضت مدام رندة، لمّت فخذيها العاريين داخل قميص النّوم ونهضت، تركت التلفزيون مضاءً بالفيلم، وذهبت إلى غرفتها وهي تجرّ قدميها على الأرض. في تلك اللّحظة رأى يالو كيف هبطت عينا المدام من الأعلى وانكسرتا على الأرض. لم يكمل كأسه، أطفأ سيجارته ومضى عائدًا إلى بيته.

في الأيّام التي تلت قالت له أشياء وقال لها أشياء. عاتبته وعاتبها، لكنّها لم تلفظ عبارة أحبّك أبدًا. لم تقل له مرّة واحدة إنّها تحبّه، حتّى حين كانت تهرق كلّ مائها بين يديه، فإنّها كانت تعلو كشبح ثمّ تجلس متربّعة في السّرير، وتتراقص عيناها وتدوران فوق عنقها، قبل أن تذهبا إلى البعيد.

وفي ذلك الأسبوع الطويل، لم تقل تلك العبارة أيضًا. كانت عيناها المستغيثتان المنكسرتان تقولان ولا تقولان. وكان يالو يشعر بمزيج من الخجل والفخر. يراها على مدخل الڤيلّلا فيشعر بنشوة تلك اللّيلة، يتبعها كالعادة من أجل أن يساعدها في حمل

الأغراض، ولكنّها لم تكن تنظر إليه.

في إحدى اللّيالي استدعته إلى الڤيلّلا. فصعد. متأفّفًا، كان متأكّدًا من أنّها سوف تكون جلسة عتاب جديدة، دخل فرآها جالسة وحيدة في الصالون تشرب الويسكي. أشارت إليه بأن يقترب ويجلس. جلس أرضًا إلى جانب أريكتها ومدّ يده كي يصبّ لنفسه كأسًا، فقالت لا. لم تمدّ يدها إلى رأسه، ولم. شربت وشربت بينما كان هو جالسًا في مكانه. ثمّ التفتت إليه وأشارت بيدها إلى الباب. غادر يالو متلبّكًا بقدميه، وفهم وهو يصفق الباب وراءه أنّ كلّ شيء قد انتهى، وأحسّ أنّ أيّامه صارت معدودة في الڤيلّلا، وبدأ يستعدّ لانعطافة جديدة في حياته، لكنّه لم يتوقّف عن شيرين. كان يتلفن لها كلّ صباح، يذهب إلى أمام بيتها وينتظر، يتبعها إلى الشركة حيث تعمل، ويقف أمام مدخل المبنى، ولم يعد يرجع إلى الڤيلّلا إلاّ ليلاً. وانتهت عمليّات احتفاله بالصّيد، ولم يعد يجد الرّغبة في الوقوف ليلاً تحت شجرة السنديان في انتظار عشّاقه وعشيقاته الذين سيسقطون ضحايا بطّاريّته، وأعادت له غادة الكتب التي سرقها من مكتبة رأس بيروت في شارع بلس من أجلها. سوف يعيش يالو وحيدًا وحزينًا ولن يتوقّف عن شراء أشرطة عبد الحليم حافظ والسّهر ليلاً مع أغنية: «حبيبها». فكّر أن يكتب رسالة لشيرين، لكنّه اكتشف أنّه لا يعرف أن يكتب إلاّ باللّغة العربيّة، وشكّ في أن تكون الفتاة قادرة على قراءة العربيّة، وصارت لقاءاته بها تتواصل أو تتقطّع بحسب المصادفة.

هكذا قال للمحقّق.

قال له إنّ المصادفة وحدها هي التي كانت تجعله يلتقي

بشيرين.

«والتلفونات كلّ يوم يا كلب»؟ سأله المحقّق.

لماذا يسأله عن التلفونات كأنّه لا يعرف الجواب. النّاس يتلفنون لأنّهم يشعرون بالوحدة. أراد يالو أن يقول للمحقّق إنّه شعر بالوحدة لأنّ لا أصدقاء له. يالو كان لا يستطيع إخبار أحد حكاية حبّه لشيرين، لأنّه عاش مع لا أحد. منذ تركه طوني وحيدًا في باريس، وهو يعيش وحده، هو وظلّه، هو وبارودته، هو وهو.

اكتشف يالو وحدته مع شيرين، هناك، حين غادرته بعد الغداء في مطعم «البير»، وبعد أن أخذ منها مئة دولار فقط، رافضًا المبلغ الكبير الذي عرضته عليه، هناك شعر بالوحدة، وأحسّ بالشوق إلى صديقه طوني عتيق.

لماذا فعل به طوني هكذا؟

لماذا تركه في مدينة لا يعرفها ولا يعرف لغة أهلها، لماذا تركه وحيدًا بلا لغة ولا مال؟

«هناك يا سيدي، هناك، لو تسمح لي أن أخبرك، هناك كان البرد. البرد الحقيقيّ يا سيدي، حيث يرتجف فيك كلّ شيء، كلّ عضلة من جسمك، كلّ رعشة من عينيك، كلّ شيء، هناك البرد الذي يجعلك أزرق بالخوف والوحدة».

قال يالو لشيرين عن البرد. حاول أن يقول لها، فضحكت منه: «إنت أكبر فنّاص بالعالم»، قالت ورفضت أن تصعد معه إلى بلّونة.

حدث ذلك بعد أسبوع من ليلة بلّونة. تلفن إلى بيتها في الصباح. ردّت أمّها بصوت متثائب ونعسان، وسمعها تصرخ

لابنتها بأنّ شخصًا يدعى يالو يريد أن يكلّمها. ثمّ جاء رنين صوتها الرّفيع. وفجأة بدأ صوتها الرّفيع يصبح عريضًا وعميقًا.

قالت «ألو» بصوت رفيع. ثمّ صار صوتها عريضًا، امتدّ ببطء، وأصبح ممغوطًا، كأنّه آتٍ من شريط تسجيل قديم.

«أنا»، قال، بعد أن سمعها تسأل: «مين عم يحكي؟»

«مين؟» سألت.

«أنا يالو».

«أهلاً، أهلاً، أهـ... لاً».

«كيفك؟»

«منـ... يحـ... ة، الحمد... لـ.. لله».

«اشتقنالك».

...

قال إنّه يريد أن يراها اليوم، أجابت أنّها مشغولة، قال إنّه سينتظرها أمام مكتب شركة عرايسي في التاسعة صباحًا، أجابت لا، قال إنّه سيكون هناك على أيّ حال.

«طيّب، طيّب»، أجابت.

«أنا رحْ كون ناطرك»، قال.

«لا مش قدّام الشركة، لاقيني بـ «النيوز كافيه».

قال إنّه لا يعرف مكان هذا المقهى، أجابت أنّه قرب سينما «كليمنصو».

«طيّب بعد ساعة، يعني تسعة بكون ناطرك هونيك».

«لا، لا، ما بقدر قبل الساعة خمسة بعد الظهر».

«طيّب رح أنطرك الساعة خمسة، أوعا ما تجي».

«أكيد، أكيد»، أجابت، وأقفلت الخطّ.

وحين التقى بها في المقهى، وشربا الشاي، أخبرها عن البرد، فضحكت وقالت إنّه «أكبر فنّاص في العالم».

ذهب يالو إلى المقهى في الرّابعة بعد الظهر، جلس في ركن منعزل، وشرب كوبًا من البيرة، وانتظر. وحين اقتربت عقارب الساعة من الخامسة، شعر بالقلق خوفًا من أن لا يعرفها. استجمع ملامحها في عينيه، وانتظر وهو يحتسي البيرة على مهل. لكن عندما سمع وقع خطواتها على الأرض عرفها، ثمّ شمَّ رائحة البخّور التي انتشرت أمامه. وقفت قليلاً قبل أن تجلس في مواجهته، لم تمدّ يدها بالسّلام، سحبت الكرسيّ وجلست صامتة. وحين جاء النادل طلب فنجان شاي، فطلب يالو الشاي أيضًا.

شربتْ وشرِب.

قالت وقال.

لا يذكر يالو ماذا قال، ولا كيف مرّ الوقت بلمح البصر وصارت السادسة والنصف مساءً، نظرت شيرين إلى ساعتها وقالت إنّها يجب أن تذهب الآن.

«بتحبّي وصّلك؟» سأل.

«لا، شكرًا، سيّارتي معي».

«لماذا لا نذهب إلى الجبل؟»، قال.

«إلى أين؟» سألت.

«إلى بلّونة»، قال.

«الله يخلّيك يا مسيو يالو»...

«بعدك بتتذكّري اسمي».

«الله يخلّيك وعمول معروف، أنا متشكّرتك كتير، كنت معي

جنتلمان خلّيك جنتلمان».

«ليش أنا شو قلت؟»، قال، «كان بدّي نعمل مشوار، ونشمّ هوا نضيف».

«الله يخلّيك خلّينا ننسى الموضوع»، قالت.

ثمّ سألته كيف عرف اسمها ورقم هاتفها، فقال إنّه يعرف كلّ شيء عنها، يعرف أين تسكن ووصف لها المبنى الشاهق في الحازميّة حيث بيتها، ويعرف أين تعمل، وإنّه يحبّها.

لا يذكر يالو متى قال عن الحبّ، أفي اللّقاء الأوّل أم في اللّقاء الثاني. يذكر أنّه جاء إلى موعده معها في المرّة الأولى، متلعثمًا، وأنّه حين رآها أمامه في المقهى وهي ترتجف استعاد شعور الصقر الذي كانه. انتظرها ساعة قبل أن تأتي، وكان يشعر أنّ هناك ماء يرتجف داخل عضلات صدره وذراعيه وقدميه، ويجعله يرتجّ في مقعده. وحين جاءت، وجلست على الكرسيّ في مواجهته، ورأى ارتجافة شفتها السفلى الرّفيعة التي كانت مغطّاة بأحمر يميل إلى الزهريّ، ويصدر رائحة عطر نفّاذة تتداخل برائحة البخّور الذي يخرج من أعلى ذراعيها، استعاد شعوره الصقريّ، وبدل أن يتأتئ شعر بأنّه استعاد قدرته على الكلمات كي يقول ما يشاء.

لكنّه لم يقل شيئًا.

تركها ترتجف من يسار شفتها السفلى، أشعل سيجارة وامتصّ دخانها وقذفه في دوائر متباعدة. أقفل شفتيه على شكل دائرة، فخرجت من بينهما دوائر الدخان التي ارتطمت بعيني شيرين وتسلّلت إلى شفتيها.

هل قالت يومها إنّها خائفة منه، أم قالت ذلك في لقائهما

الثاني؟

لا يذكر يالو بدقّة كيف تتابعت الأحداث، لكن من المرجّح أنّها قالت ذلك في لقائهما الثاني.

قالت إنّها صارت تخاف أن تردّ على التلفونات، أو أن تفتح نافذة غرفتها، أو أن تعود وحيدة إلى البيت، أو... فهي ترى شبحه في كلّ مكان، وتخاف.

قال إنّه يراها كلّ الوقت في خياله، وإنّ صورتها لم تفارق عينيه منذ لقاء بلّونة وإنّه يشمّ رائحة جسدها في جسده، وإنّه لم يستطع أن ينساها، وإنّه يحبّها.

قالت إنّها ترجوه.

قال إنّه يرجوها.

وحين همّت بالوقوف بعد أن دفعت الحساب، أمسكها بيدها الموضوعة على الجزدان، فأحسّ بكلّ شيء يرتجف فيه، وسرت نعومة يدها فيه. وسكر. سوف يكتب يالو أنّه هناك في المقهى اكتشف النّعومة التي لم يكن يعرفها، وسوف يندم لأنّه لم يكتشفها في بيته في بلّونة. هناك شعر بالمرأة خفيفة كأنّها تطير على إيقاع الرّغبة التي انفجرت في داخله، ولم يرتوِ. قال إنّه لم يشعر بنعومتها لأنّه غرق في رائحة البخّور التي خرجت من ساعديها. أمّا في المقهى، فقد سرت النعومة التي لا توصف في مفاصله، كأنّ أصابعها الباردة صنعت من الحرير وخيطت إلى اليد.

لماذا كانت أصابع يديها باردة دائمًا؟

قال لها مرّة، حين أمسك بيدها مسلّمًا، إنّ أصابعها باردة كالثّلج، وإنّه حين يمسك بيدها يشعر بحاجة إلى كأس من

الويسكي، يضع فيه ثلج أصابعها ويشرب ويسكر. فضحكت، كانت حين تضحك له أو معه تبدو كمن يمنع نفسه من الضحك. تقفز الضحكة من بين شفتيها ثمّ ترتدّ إليهما، فتنكمش الشفتان من جديد، ويخرج خيط الحزن من عينيها.

هي علّمته أن يقرأ الحزن في العيون.

قالت له مرّة إنّها تقرأ الحزن في عينيه، كانا يقفان أمام مدخل مبنى الشركة حيث تعمل، وكانت الساعة الخامسة مساء، وكان الغروب الذي يملأ الضوء ببقع الظلام. يومها انتظرها ساعتين أمام عملها، نزل إلى بيروت ولم يجد ما يفعله، تلفن لها فقالوا إنّها لا تستطيع التكلّم معه لأنّها تشارك في اجتماع، فذهب إلى أمام مبنى الشركة، ووقف هناك جامدًا. جمد ساعتين أو أكثر دون أن يشعر بمرور الوقت، وحين أطلّت من الباب لمحته، فأشارت إليه أن يتبعها، مشى خلفها دون أن يسلّم عليها، وحين وصلا إلى أمام سيّارتها وانحنت من أجل أن تضع المفتاح في قفل باب سيّارة «الغولف» البيضاء، رفعت عينيها إلى الأعلى قليلاً، فرأته شارد النظرات. قالت له عن عينيه، ثمّ صعد إلى جانبها، وذهبا إلى «مقهى شاتيلا» على الشاطئ واحتسيا البيرة. يومها لم يجد يالو ما يقوله. شعر بالحزن يخرج من عينيه، ورأى نفسه وحيدًا، وقرّر أن يذهب لزيارة أمّه. شربا البيرة وقالت إنّها مستعجلة ومضت. لم تعرض عليه أن توصله بسيّارتها، وهو أيضًا لم يجد ما يقترحه عليها، تركها تذهب، وتمشي على كورنيش البحر، ورأى نفسه، في مرآة عينيه، ملفوفًا بالحزن.

تعلّم من شيرين قراءة الحزن في العيون، هكذا أراد أن يقول لأمّه، لكنّه لم يقل لها شيئًا. مشى حتّى وصل إلى سيّارته في

الأشرفيّة، ركبها وذهب إلى بيت أمّه في عين الرمّانة. لا يعلم لماذا وقف ولم يدخل. رأى أمّه من النافذة، كانت تجلس في المطبخ تأكل برغلاً. لم يقترب من أجل أن يقول لها شيئًا. رأى الحزن يخرج من عينيها هي أيضًا. نسي ماذا جرى بعد ذلك، لم يعد يذكر سوى صحن البرغل المطبوخ بالبندورة، وطعم الفلفل الحارّ الذي اجتاح لسانه، والحزن الذي تجمّع حول عيني أمّه المغطّاتين بالعمش، كأنّهما لم تغسلا منذ أيّام.

وحين عاد إلى بيته، في أسفل الڤيلّلا في بلّونة، نظر طويلاً في المرآة، ورأى كيف يتشكّل الحزن دوائر حول العينين، وتخيّل عينيّ شيرين الصغيرتين العسليّتين، واكتشف أنّ حزن عينيها يختلف عن حزن عينيه. حزنه يتشكّل دوائر حول العينين، أمّا حزنها فيتّخذ شكل خيوط رفيعة تخرج من البؤبؤين وتتشظّى. وقرّر أن يتزوّجها.

قبل لقائه بها في «مقهى شاتيلا» لم يكن يدري. كان يذهب للقاء شيرين كأنّه يتابع لعبة بدأها، ولا يدري إلى أين تقوده، ويشعر نحوها بحبّ يخرج من ضلوعه، وينشبك في رئتيه، فيحاصره الاختناق والشعور بالحاجة إلى الهواء. كان بعد أن يغادرها، وجيبه مليء بالدولارات، يقود السيّارة في طريق العودة، وهو يشعر بالاختناق. يفتح نافذة السيّارة ويتنفّس بصوت مرتفع، وحين يصل إلى كوع بلّونة المغطّى بأشجار الصنوبر، يوقف السيّارة وينزل منها، ويبدأ في التهام الهواء. كأنّ هذا الحبّ الذي لا يعلم من أين أو كيف جاءه، يقطع عنه الهواء، فيعبّ هواء الصنوبر، يشرب الهواء ويشرب، حتّى يشعر بالارتواء وتعود الحركة اللولبيّة إلى دمه، عندها يعود إلى سيّارته

ويمضي إلى بيته، ويحاول أن ينسى. أمّا بعد لقاء المقهى أمام البحر، فقد اتخذ قراره، سوف تكون شيرين زوجته.

عندما اكتشف يالو أنّه حين يكون معها يشتاق إلى أكل السمك، دعاها إلى السمك في مطعم «السلطان»، في المعاملتين. أخبرها عن المطعم على الهاتف، قال إنّه ذهب إليه مرّة واحدة برفقة الخواجة والمدام، وإنّه يقدّم أفخر أنواع السمك، وخصوصًا «السلطان ابراهيم» الصغير الذي لا يجاريه أيّ سمك في الدنيا، والصبيدج المطبوخ بحبره. قال لها إنّ الصبيدج يكتب بالحبر داخل مياه البحر، وإنّ هذا الحيوان البحريّ هو الكاتب الأوّل في العالم.

قالت إنّها موافقة. التقيا أمام بيتها، ركبت معه في سيّارته إلى المعاملتين. يومها اقتنع يالو أنّها تحبّه. كانت هذه هي المرّة الأولى التي توافق فيها على ترك سيّارتها، من أجل أن تأتي معه. في العادة كان يحصل العكس، وكان يشعر أنّها لن توافق في حياتها على أن تركب إلى جانبه وتتركه يقودها. لكنّها في ذلك اليوم الصيفيّ من شهر أيّار وافقت.

ركبت إلى جانبه، وذهبا إلى مطعم «السلطان» وأكلا سمكًا وشربا عرقًا.

بعد أن انتهيا من الأكل، نزلا إلى الشاطئ المليئ بالحصى، وجعلها ترى خليج المعاملتين بعيون جديدة. هكذا قالت له، قالت إنّه وضع لها عينين جديدتين ترى من خلالهما العالم، وضحكت كثيرًا، وسمحت له أن يسرق قبلة من شفتيها، وحين لفّ يده على خصرها من أجل أن يطويها داخل قبلته، زحطت من ذراعه وقالت لا.

لكنّها أكلت سمك السلطان ابراهيم، ولم تتردّد كما تردّدت أمام العصافير. قال لها يالو أن تأكل السمكة الصغيرة كلّها: «غطّيها بالطراطور وكليها كلّها». وعندما سألته عن الرأس والحسك ابتسم، أخذ سمكة وغطّها بالطراطور والتهمها كلّها، ففعلت مثلما فعل، وقالت إنّها تأكل السّمك بهذه الطريقة للمرّة الأولى في حياتها.

أكلت بشهيّة غير عاديّة، شربت العرق ولحست الطراطور عن أصابعها الطويلة الباردة وضحكت. ثمّ جاء طبق الصبيدج، فأعلن يالو أنّ الطعام الحقيقيّ قد جاء الآن.

قالت إنّها لن تمدّ يدها إلى هذا المرق الأسود المليء بأطراف الحيوان البحري.

«ما تمدّي إيدك،» قال يالو «أنا رح طعميكِ..»

أخذ لقمة خبز غمسها بالحبر وأكل، «قبل الصبيدج لازم ندوق الحبر.»

«عم تاكل حبر!» سألت.

«أطيب أكل هو الحبر، دوقي.»

أمسك بالسكّين والشوكة، قطع جزءًا صغيرًا من الحيوان البحريّ، ثمّ وضع قطعة الصبيدج في لقمة خبز، غمسها بالحبر ورفعها صوب شيرين التي فتحت فمها دون مقاومة، وعندما بدأت تمضغ اللّقمة، أغمضت عينيها وبدأت تدندن لحنًا.

بعد اللّقمة الأولى دخلت شيرين في طقس الصبيدج، لحست الحبر المتبّل بالثوم واللّيمون عن شفتيها، وشكرته لأنّه جعلها تتذوّق أطيب طعام في العالم، وكانت حنونة مع يالو في سيّارته، إذ سمحت له أن يمسك يدها على أوتوستراد الضبيّة بعد نفق نهر

الكلب، وحين وصلا إلى أمام بيتها في الحازميّة، تركته يطبع قبلة طويلة على شفتيها، ثمّ نزلت من السيّارة، انحنت فوق النافذة وقالت له وداعًا.

يومها تأكّد يالو أنّه سيتزوّجها.

قال يالو لنفسه في المرآة، حين كان يحلق ذقنه في صباح اليوم التالي، إنّه سيتزوّج شيرين، سيشتري كلّ صبيدج العالم، ويأكل معها، ويعيش في بيتها. لم يقل كلمة بيتها، لكنّه حين فكّر بالزواج والبيت والأولاد، رأى مدخل بنايتها، وشاهد شجرة الجمّيز في الرّصيف المقابل، وتخيّل نفسه يلعب بالطّابة تحت الشجرة مع طفل أشقر يتكلّم اللّغة الفرنسيّة! وتذكّر جدّه الكوهنو. كيف سيتكلّم الجدّ، ومع ابن الحفيد، وبأيّ لغة؟

في أيّامه الأخيرة، توقّف الجدّ عن التكلّم باللّغة العربيّة، وعاد إلى لغة أمّه، وصار يقضي وقته وحيدًا في الغرفة، وأمامه أوراق مكدّسة قرب سريره. ينسخ أشعار مار أفرام السرياني ويقول إنّ مار أفرام كان شاعرًا عظيمًا، ويأسف لأنّ حفيده الوحيد نصف أمّي، لا يعرف من اللّغات سوى العربيّة ويفكّ الحرف السريانيّ بصعوبة.

«تعا لعلمك يا ابني، أنا بدّي يّاك تصير كاتب مثلي.»

يالو يضحك في سرّه ويقول: «بس يا جدّي إنت مش كاتب، إنت عم تنسخ أشعار مار أفرام، إنت مش عم بتألّفها.»

«ما أنا مار أفرام»، يجاوب الجدّ، ويبتسم من حماقة حفيده الذي لا يعرف أنّ جميع كتّاب العالم مجرّد نسّاخ، وأنّه لا يوجد على وجه الأرض سوى كتاب خفيّ واحد، لم يكتب من وحي بشريّ، وأنّ النّاس حين كتبوا الأدب أو الأشعار تجلّت لهم

مقاطع منه، فنسخوها وأعادوا تركيبها من جديد.

يقترب يالو من جدّه، ويحاول أن يقرأ.

«عم تفهم؟» يقول الجدّ.

«الوهو هب يولفونو»، يبحلق يالو في الكلمات، «يعني»، يجاوب، «بس لشو تعب القلب يا جدّي».

هنا، يدخل الكوهنو في فلسفته حول الكتب، فهو يعتقد أنّ الكتب مثل الأيقونات، الكتب نوافذ نفتحها على الأبديّة، ومن خلالها نتفرّج على العالم الآخر. «يعني ما منشوف كلّ شي، منشوف شقف، كأنّنا عم منبصبص.»

«الواحد يا جدّي ما بيبصبص عالكتب، الواحد بيبصبص عالنسوان.»

«الكتب أحلى من النسوان يا ابني، أنت شو بعرّفك بالكتب وبالنسوان.»

كان الجدّ، بثوبه الأسود الذي يغطّيه من رأسه إلى قدميه، وبقنّينة الحبر الموضوعة على الطاولة إلى جانبه يشبه حيوانًا بحريًا تفوح منه رائحة الحبر.

أراد يالو أن يخبر شيرين عن جدّه الذي يشبه الصبيدج، وعن البصبصة في الكتب، وعن النّساء اللواتي يشبهن كتبًا مفتوحة يمكن البصبصة من خلالها على الأبديّة، لكنّه لم يخبرها. كانت الأفكار تطير من رأسه حين يكون معها، يبدأ في الكلام ثمّ ينسى ثمّ لا يدري.

هذه هي قصّة حياته كلّها.

الحكاية أنّه لم يقل شيئًا، كان يتلعثم أمام تلك الفتاة، يعود طفلاً صغيرًا يتأتئ بالكلمات، وينسى ويتردّد. وكانت شيرين

تخاف من تلعثمه، تبدأ في الاستماع إليه، ثمّ تشعر أنّ كلماته لا يمكن جمعها في جمل مفيدة، فتستمع إلى كلمات طائرة لا تغطّ إلى جانب بعضها على غصن الحكي.

«ليش بتحكي هيك؟» سألته.

«مش عاجبك الحكي؟» جاوبها.

«مبلى، مبلى، مش قصدي، بس ما بعرف.»

«ما بتعرفي شو؟»

«ما بعرف شي.»

قالت إنّها لا تعرف شيئًا.

وأنا لا أعرف شيئًا، سوف يجاوب يالو. لكنّه لم.

سبقته إلى إعلان جهلها بكلّ شيء، فلم يدرِ كيف يعلن جهله هو أيضًا. هكذا كان يالو، يتكلّم معها دون أن يدري ماذا يقول، فيترنّح في كلماته، ويتعثّر بلسانه ويسقط في الفراغ.

وهناك في الزنزانة، حين جلس وحيدًا يكتب قصّة حياته كلّها، شعر بفراغ ينحفر من حوله، رأى الأوراق البيضاء وأقلام الحبر، فاشتاق إلى رائحة الحبر في غرفة جدّه، وتماهى مع سرّ الصبيدج الذي يسمّيه العرب: «الحبّار». فهم أنّ هذا الحيوان البحريّ كان المكتشف الأوّل للكتابة، لأنّه كان يكتب بحبره دفاعه عن نفسه ومقاومته الموت. يضلّل أعداءه مطلقًا الحبر في وجوههم، فيختفي عن أعينهم في الدغل الأسود الذي يرسمه حبره داخل مياه البحر.

يالو وحيد في زنزانته، عليه أن يطلق الحبر على أوراقه. إنّه مثل الصبيدج، لا يملك سوى سلاح الحبر يقذفه كي يضلّل الصيّادين وينجو من الموت. لكن ويل للحيوان البحريّ حين

يسقط في فخّ الصيّادين، لأنّهم سيطبخونه بحبره. فكّر يالو أنه سيطبخ بالحبر الذي يكتب به الآن، وأنّ الحبر الأسود الذي يسيل على الأوراق سوف يقتله، وأنّه عاجز عن تضليل الصيّاد الذي ينتظر أوراقه كي يلفّه بها ويقتله ويأكله. كتب وكتب مثل حبّار ذاهب إلى موته.

«أنت يا حيوان»، صرخ المحقّق.

...

...

من أين عرف المحقّق أنّه يسمّي نفسه صقرًا؟

هل أخبرته شيرين؟

هل قال لها يالو إنّه الصقر؟

يالو لم يخبرها عن الصقر، فكيف عرفت؟ وماذا قالت؟ هو لم يقل لها، هذا سرّه فكيف يكشفه؟

كان كالصّقر. يكمن في الغابة منتظرًا لحظة الانقضاض على الضحيّة، وحين يراها يتريّث، ويقرّر الهجوم، يقف. فيمتلئ معطفه الأسود بالهواء. المعطف الأسود الطويل ينتفخ والكمّان يكبران. يرفع يالو يديه اللّتين صارتا مثل جناحين، ويحلّق ببطنه المنفوخ، يحمل بندقيّته على كتفه اليمنى، تاركًا رأسها متدلّيًا في اتّجاه الأرض، يشعل البطّاريّة السوداء، ويهبط.

كان يشعر أنّه يهبط من علوّ شاهق، وحين يضرب الضّوء على الضحيّة، يبدأ نزوله إلى الأرض.

كان صقرًا. معطف أسود طويل، وضوء رفيع كالخيط مسلّط على السيّارة التي ابتلعها اللّيل، وقدمان تخبّان داخل جزمة مطّاطيّة، وأنف كبير يشمّ رائحة الضحيّة الملفوفة بالعطر، وعينان

واسعتان تريان في الظلام.

«إنت صقر يا خرا؟»

أمسكه رجلان من إبطيه وأوقفاه. أحسّ أنّه يطير، فأغمض عينيه.

«إنت كنت تقول للنسوان إنّك صقر النسوان؟»

حملاه من إبطيه، مدّ يديه كجناحين، وبدأت اللّكمات تنهال على الوجه والأنف.

«إنت يا خرا مفكّر حالك ذكي ورح تزمط من العدالة؟»

الصقر تحت الأقدام التي تدوسه.

«إنت قلت لشيرين إنّك بتحبّها وبدّك تتزوّجها، عارف إنت مين وهي مين؟»

دعسوا على وجهه وكسروا منقاره، وبدأ الدم.

«إنشالله مصدّق حالك إنّك زير نسوان؟»

رأى البوطات في عينيه المغمضتين، وكانت الشمس المنعكسة، وكان الألم.

«بدنا ياك تعترف عن العصابة وعن المتفجّرات. عم تسمع؟»

كان الدم، وكان الصقر، وكان الألم. وفجأة خرج الجسد من صاحبه، وذهب إلى آلام لا تحصى، رآه يبتعد ويغطس في بركة الألم، رآه يذهب، لكنّه لم يستطع أن يناديه، منقاره مكسور وصوته مبحوح ودمه يغطّي الأرض. ذهب الجسد إلى آلامه، فشعر يالو أنّه خلع الصقر ولبس أطراف الصبيدج، وتوقّف الألم. رأى كيف نبتت له ثماني أيد، وكيف انتشرت في أنحائه سبعون مليون خلية بصريّة، ورأى أنثاه، كانت شيرين تسبح إلى جانبه في الأعماق، فمدّ لها اليد الرابعة عن يمينه، وكانت هذه

اليد هي عضوه الجنسيّ، أدخل يده الرّابعة في قلب الفراغ الأنثويّ، ولامس البيض ودكّره، ونام في الداخل.

الصّقر تحت الأقدام، والصبيدج يضاجع أنثاه التي تتمايل حوله، وتقيم ألعابها الغرائبيّة الجميلة. يده الرّابعة في داخلها، وآلاف العيون التي يرى بها تنقشع عن عالم لا عدد لألوانه. يرى ما في داخل الأزرق، يرى ألوانًا لا أسماء لها، لأنّ البشر لا يستطيعون رؤيتها. الحبر يخرج من جميع أنحاء يالو، الذي انتقل من حالته الصقريّة إلى حالته البحريّة، غطس إلى الأعماق، مدّ أيديه الثماني، وطار في الماء. وعندما رآهم ورأى أحذيتهم، قذف حبره كي يضلّلهم، فخرج الحبر بلون الدم.

الصقر يقف.

أوقفوه وأوثقوه بالدم، فرأى وجه المحقّق مطعوجًا بأشعّة الشّمس، واللّون الأحمر مثل هالات تتوالد حول رأسه وتخرج من النافذة، وتطير. اقترب المحقّق منه وبصق في وجهه، ثمّ صفعه، فامتلأ كفّه دمًا. مسح الكفّ بمعطف الصقر، وأمرهم أن يأخذوه.

سحبت الأيدي الصقر الجريح كأنّها تجرجره على الأرض. الصقر يُسحب بهدوء والأضواء الحمراء تحاصر عينيه. أغلق يالو عينيه، فشعر بالدموع، وأحسّ بالملوحة تنتشر على جسده، صار يالو مالحًا، أراد أن يقول لهم إنّه في حاجة إلى قليل من الماء العذب، أراد أن يبكي ويترك لجسده أن يرتجف ويئنّ وتخرج منه حرارة الموت قبل أن يموت. لكنّه سقط في هاوية سحيقة، أحسّ أنّ الوادي يبتلعه، وأنّه أصبح شجرة صنوبر، شمّ صمغ الصنوبر وبدأ يمضغ. كان للدم الذي يفور في فمه مذاق الصنوبر

المشوي. أكل صنوبره، والتفّ على جسمه الطويل، ورأى نفسه خارج غرفة التحقيق، يُجرّ إلى سيّارة الجيب، حيث أجلسوه بين مجموعة من رجال الشرطة، كانت كروشهم تتدلّى فوق أحزمتهم الجلديّة.

لا يعرف يالو ماذا وأين وكيف.

هل شرب؟

هل أكل شيئًا؟

هل قال؟

هل؟

كتب بعد ذلك أنّه وجد نفسه في بركة ماء، كان يقف مستندًا إلى الحائط، والماء يرتفع إلى صدره، وهو يشتري الهواء بشهقاته، والألوان تختلط بالروائح. امتزج جسده بروائح دمه وبرازه وبوله، وصار يتمدّد في الماء ثمّ يتقلّص، وبدأ يغرق. يذكر يالو أنّ صوتًا خرج من أنحائه، يذكر أنّه صار صوتًا، وأنّه شعر بفم يعوي في فمه، وأنّه لا يذكر.

كتب يالو أنّه لا يذكر.

عندما أخذوه من جديد إلى غرفة التحقيق، ورأى رأس المحقّق الذي يأتي من صوب النافذة، ورأى الشمس وقد اختفت في الزجاج، أراد يالو أن يسأل المحقّق أين ذهبت الشمس، أراد أن يرى الضّوء المنعكس الذي يحجب الرؤية لكنّه يجلب النّور. أراد الضّوء، لكنّ المحقّق سأله عن رأيه.

لماذا سأله رأيه؟

«رأيي بشو؟ يا سيدنا.»

«رأيك بيلّلي صار فيك»، قال المحقّق.

«ليش شو صار فيّي؟» سأل يالو.

«المغطس»، قال المحقّق، «خبّرني عجبك المغطس؟»

فهم يالو أنّ المغطس هو الاسم الذي يطلقه المحقّق على تلك الذكريات الغامضة الممتلئة بالدم والماء والخوف.

أحنى يالو رأسه المنحني، فرأى يد المحقّق تمتدّ إليه، تراجع إلى الوراء، لكنّ اليد اقتربت بالأوراق البيضاء.

«خود»، قال المحقّق، وأعطاه مجموعة من الأوراق، وطلب منه أن يكتب قصّة حياته من أوّلها إلى آخرها.

«اكتب قصّة حياتك.»

أراد يالو أن يقول إنّه لا يعرف أن يكتب.

«بدّي كلّ شي، ما تنسى ولا تفصيل صغير.»

...

«بدّي لمّن اقرا إفهم وأعرف، ما تكتبلي ألغاز، اكتب الأشيا متل ما صارت.»

...

«ما بدّي ياك تألّف شي من خيالك، اقعد على رواق وتذكّر، واكتب متل ما بتتذكّر، بدّي القصّة من أوّلها لآخرها.»

أراد يالو أن يقول إنّه لا يعرف أوّلها من آخرها، وإنّه لا يستطيع أن يكتب، لكنّ الدّم منعه. كان الدم يتساقط من أنفه والهواء يختفي من حوله. حاول أن يفتح فمه من أجل أن يتنفّس، وأغمض عينيه.

لم يستطع يالو أن يكتب كلمة واحدة. وجد نفسه في الزنزانة الانفراديّة، ورأى الأوراق البيضاء تتبقّع بالضوء الأسود الذي ينتشر حولها، فأغمض عينيه وقرّر أن ينام.

«أكتب يا كلب»، صرخ به الرّجل.

أمسك القلم، ورأى دوائر الظلام التي يخترقها ضوء فضّيّ قادم من أعماق عينيه، فلم يستطع أن يكتب. رمى القلم فوق الطاولة الصغيرة التي وضعوها في زنزانته، فسمع الصوت يصرخ به من جديد. صار الصوت يرتجّ في رأسه، كأنّه علق بين تلافيف أذنيه، وتحوّل أصداء لا تنتهي.

قال يالو.

سوف يقول يالو، عندما ينتهي من الكتابة، إنّ الأصداء كانت رفيقه الدائم في ذلك العام الطويل من الحبر.

جلبوا له قلم حبر سائل، ومحبرة بلاستيكيّة وأمروه أن يكتب.

كتب لأنّه يحبّ الحياة، وينتظر نهاية نفق العذاب الطويل، من أجل أن يخرج من السّجن وينتقم.

كان يالو، رغم آلام التعذيب الهائلة، يشعر بمتعة غريبة. ومتعته خياله. كان وهو تحت الضرب أو الفروج، أو معلّقًا من يديه، يتخيّل نفسه في موقع الجلّاد، ويتخيّل ضحاياه: شيرين

وإميل والدكتور سعيد ومدام رندة، والمحامي ميشال سلّوم، وطوني العتيق، وكلّ الناس.

لا، كان يتخيّل هذه الأشياء بعد نهاية الحفلة، مثلما كانوا يسمّون التعذيب. في الحفلة يتخيّل الزنزانة، وفي الزنزانة يقيم حفلته. يُرمى به في الزنزانة، منهك القوى، فلا يجد من وسيلة يستردّ بها جسده وعافيته سوى الخيال وتغيير الأدوار. يقلب رأسه، ويتخيّل الأشياء كما يريد. عندها كان يستردّ شيئًا من قوّته، وتعود إليه ظلال نظرة الصّقر التي كان ينشر من خلالها الرّعب في المفاصل، ويستعيد جسده قطعة قطعة. ينزع الألم عن أجزائه ويرميه على أجساد الآخرين، ويرى كيف تغادر الأوجاع رؤوس أصابع يديه وقدميه، وتحتلّ ضحاياه.

عندها يغفو.

كان نوم يالو، بعد حفلات التعذيب، هو انتقامه. يصنع مناماته كما يحلو له. يحضّر أدوات التعذيب في خياله، ويتأكّد من أنّه لم ينسَ شيئًا، ثمّ يترك لعينيه أن تغمضا على إيقاع السلاسل أو أصوات الصراخ، أو أشرطة الكهرباء، ويرى كيف يسقط ضحاياه تحت عذابه الذي صار عذابهم.

حتّى التعذيب الأخير، الذي حين أذاقوه إيّاه، شعر أنّ روحه تطلب الموت، وجسده يطلب التراب، حتّى هذا التعذيب قام بتوزيعه على الآخرين، وغفا على أصوات حشرجاتهم واستغاثاتهم.

تلك كانت الحفلة الكبرى.

في هذه الحفلة، التي أسماها الكبرى، ثمّ أطلق عليها العديد من الأسماء، أصيب يالو برعب منعه من فتح فمه، فرفع يديه إلى

الأعلى علامة الاستسلام، وانهمرت الدموع من عينيه، ودخل في أنين وحشيّ قبل أن يأمر الضابط بفكّ كيس الخيش عن وسط المُتهم.

حتّى هذا التعذيب، أدخله يالو في عالمه المتخيّل، وقرّر تخصيصه للدكتور سعيد الذي ترك شيرين وحدها في الحرج، وهرب بسيّارته التي كانت عجلاتها تصدر صريرًا عاليًا، فيما كان الحصى يتطاير من حولها.

في البداية، قرّر يالو أن ينسى الكيس، ويخرجه من ذاكرة خياله، لكنّه وجد نفسه أمام مشهد الكيس حين أغمض عينيه المبلّلتين بالدموع. سمع صوت المواء، ورأى قضيب الخيزران، وأحسّ بالخرمشات تنهشه.

تلك كانت لحظة التعذيب التي قادت يالو إلى تقديم كلّ اعترافاته.

لماذا يطلبون منه الآن كتابة قصّة حياته؟ ولماذا لم يقتنع الضابط باعترافاته؟

في ذلك اليوم، الذي دخل ذاكرة يالو بوصفه يوم الكيس، جلبوه من زنزانته عند الفجر، وأدخلوه إلى ما يشبه الغرفة الصغيرة. كان معصوب العينين واليدين، يتلمّس بقدميه الحافيتين الممرّ الطويل الذي عبره، محاولاً أن لا يقع. حين وصل إلى الغرفة الصغيرة سقط أرضًا لأنّ يدًا دفعته إلى الأمام وأسقطته، فسقط. سمع صوتًا يطلب منه أن يخلع بنطلونه. حاول أن يقف فتعثّر بقدميه، وتدحرج على الأرض. سمع قهقهات، وأحسّ بأنّ هناك يدًا تساعده على النهوض، فوقف، وبدأت اليد تفكّ أزرار بنطلونه. مدّ يده إلى أزرار بنطلونه، فرنّت

على عنقه صفعة قويّة، قبل أن تقوم اليد بفك العصبة عن عينيه. لم يرَ في البداية سوى العتمة، وبعد ثوانٍ انبثق رجل طويل القامة عريض المنكبين يلبس بدلة كاكيّة وأمره بخلع كلسونه أيضًا.

نظر يالو بعينيه المتعبتين، فرأى إلى جانب الضابط ثلاثة رجال مفتولي العضلات، يلبسون صداري بلا أكمام، والشعر الأسود يلعلع على صدورهم وأيديهم. فتيقّن من أنّه سيتعرّض للاغتصاب. غامت الدنيا في عينيه وجمد في مكانه.

«اشلح الكلسون يا كلب».

تهدّى بالحائط، وحاول أنْ يدخل فيه. تذكّر حكاية جدّه عن المطران الذي ظلّ يتراجع ويتراجع، ثمّ انشقّ الحائط وابتلعه.

هذه هي أسطورة القسطنطينية، «عندما سقطت القسطنطينية على يد محمّد الفاتح، دخل المطران في الحائط، وهم لا يزالون في انتظاره إلى الآن»، قال الجدّ وهو يبتسم «هؤلاء الأروام عقولهم صغيرة، كأنّهم لا يعلمون أنّهم كانوا سبب الكارثة.»

«صحيح الحيط انشقّ؟» سأل يالو.

«هيك بقولوا»، قال الجدّ.

«وشو هي الكارثة؟» سأل يالو.

«الكارثة أنّهم فاتوا بالحيط، وبعدهم بالحيط.»

أحسّ يالو أنّ اليد التي فكّت أزرار بنطلونه سوف تمتدّ إلى كلسونه وتنزعه، فانحنى وخلع كلسونه، ووقف أمامهم عاري الأسفل، مهانًا، ينتظر أن يؤمر بالانحناء من أجل أن يبدأ اغتصابه.

الضابط الطويل كان يبتسم من خلف دخان سيجارته الذي ملأ فضاء الغرفة، مثيرًا في نفس يالو قشعريرة مصحوبة بالغثيان.

«يللّه يا شباب»، قال الضابط، فتراجع يالو إلى الخلف مذعورًا، وألصق ظهره بالحائط وهو يرتجف خوفًا وبردًا. تقدّم رجلان يحملان كيسًا من الخيش. الأوّل يحمل أطرف الكيس، بينما يضع الثاني يديه تحته.

«قرّب، قرّب، ما تخاف»، قال الضابط.

تجمّد يالو في مكانه، وازداد التصاق مؤخّرته بالحائط.

«قلتلّك ما تخاف» قال الضابط، «قرّب لعندي وخود الكيس من الشّباب والبسه.»

«كيف بدّي البسه؟» سأل يالو بصوت خفيض.

«البسه من تحت كأنّه بنطلون»، قال الضابط.

«بنطلون!» قال يالو بصوت خافت، دون أن يستوعب ما طُلب منه، وبقي في مكانه لا يدري ماذا يفعل.

أسند رأسه إلى الحائط وأغمض عينيه. انقضّ عليه الرّجل الثالث، قبض على كتفيه وسحبه إلى وسط الغرفة، ثمّ استدار خلفه وأمسك به من صدره، بينما كان يلتصق به في شكل كامل ومطابق. عندها تقدّم الرّجلان الآخران بالكيس، وانحنيا أرضًا، بينما رفعه الرّجل الثالث وأجبره على إدخال قدميه في الكيس. بعد ذلك رفع الرّجل الأوّل جذعه، وقام بربط الكيس إلى وسط يالو عبر خيط ملتصق بأطراف كيس الخيش.

تراجع الرّجال الثلاثة، فصار يالو وحيدًا في وسط الغرفة. أحسّ بشيء غريب يتحرّك بين قدميه العاريين، لكنّه لم يفهم اللّعبة، إلاّ حين تقدّم الضابط حاملاً بيده قضيب خيزران.

«بتعترف أو منبلّش؟» قال الضابط.

«وحياة، وحياة الله، أنا اعترفت بكلّ شي، وأنا

بأمركم، خبّرتكم كلّ شي، بس أنا مستعد قول شو ما بتريدوا، شو ما بدكم.»

«هيئتك بعدك عم بتفنّص علينا»، قال الضابط.

«أنا قلت الحقيقة، والله والله أنا أنا ما بفنّص.»

انحنى قضيب الخيزران من يد الضّابط وسقط على كيس الخيش بين قدميّ يالو، وبدأت رحلة العذاب. نكز القضيب ذلك الشيء في داخل الكيس، وبدأ المواء والخرمشة وذلك الشعور بالهاوية. نكزه مرّة ثانية، فبدأ القطّ يصول ويجول في المسافة التي تفصل قعر الكيس عن أسفل يالو. قطّ يرتعش بالوحشيّة، ينطّ وينطّ، كأنّه يتسلّق عضو يالو ويقضم ويخرمش. وكان له شاربان. يالو لم يرَ الشاربين، لكنّه رآهما، كانا يلتمعان بما يشبه الضّوء. عينا القطّ تشرقطان في الظلام، وشارباه يلتمعان، ويالو يسقط أرضًا. في البداية لم يستوعب عقل يالو ماذا يجري، سمع خرمشات ومواء، لكنّه لم يفهم إلاّ حين سمع الضابط يأمر قضيب الخيزران بأن يجعل القطّ يفزّ إلى الأعلى، ففهم أنّه وقع تحت رحمة قطّ متوحّش.

«بس بس بس، لفوق لفوق»، قال الضّابط.

فسقط يالو أرضًا. انحنى يالو أمام هجمات القطّ بأن قرفص، فازداد الحيوان شراسة. قفز وأمسك بالخصيتين، عندها رآه يالو ورأى شاربيه، وأحسّ أن خصيتيه انفجرتا، وأنّ عضوه يتقطّر دمًا. وقف يريد الاستغاثة، لكن قضيب الضابط لم يتوقّف عن نكز الكيس وهو يقول «بس بس بس»، فيرتجف القطّ ويقفز ويقفز ويالو يسقط.

في الكيس اكتشف يالو كيف يمّحي الألم أمام الخوف،

وكيف انفتح في بطنه ذلك الوادي الذي يمتد إلى باطن الأرض.

الضابط بالقضيب الذي يتلوّى في يده، ويالو بالكيس الذي يقفز في أسفله، والكيس بالقطّ الذي ينهش ويخرمش ويئنّ ويزمجر. كان مواء القطّ يشبه بكاء ألف طفل، وكان يالو مثل طفل وحيد فقد القدرة على الصراخ.

وعندما رفع يالو يديه إلى أعلى، وانهمرت دموعه، اعترف بكلّ شيء.

«بعترف هلّق»، أراد أن يقول، لكنّه لم يقل، خرج صوته كمواء متحشرج، وسقط، ورأى نفسه داخل غابة القطط المتوحّشة التي تنهش أعضاءه. كان كمن يسبح، سوف يقول إنّه سبح في القطط، ويسمّي الكيس بركة البسينات، ويرى نفسه غائصًا في الدم والحشرجة والمواء.

ورأى دموعه.

ثلاثة أيّام وثلاث ليال والدموع تنحدر وتغطّي عينيه ووجهه، وهو لا يمسحها. يتركها تنحدر وتتّخذ مسارات وأخاديد، ثمّ تتساقط على عنقه وتغطّي جسده كلّه.

أخيرًا، عمّدته بركة البسينات بالدّموع.

«المعموديّة الحقيقيّة يا ابني، هي معموديّة الدموع»، قال جدّه، «أنا هلّق عم بتعمّد اتركوني، لا مش زعلان، الدّموع عم تنزل لوحدها.»

كانت غابي تأمر ابنها بالذهاب إلى غرفة جدّه من أجل تسليته. «جدّك الكوهنو مدري شو عم بصرلو، فوت عالقليوتو وخبّرو إشيا حتّى يتسلّى، يلله يا برو، الله يرضى عليك يا ابني.»

«شو بدّي إحكي معه يا أمّي، هلّق بيلّش يحكي سرياني

وببهدلني.»

«جدّك مريض، فوت لعندو.»

يدخل يالو الصغير الغرفة، حيث تتكوّم الملابس السوداء في زاوية صار اسمها زاوية البكاء. الجدّ يجلس أرضًا كأنّه كتلة من الثياب، بعد أن نحل جسده ورقّت عظامه، يتكوّم في زاويته والدموع تنحدر من عينيه.

«شلومو»، يقول يالو.

«شلومو»، يقول الكوهنو.

«كيفك؟» يسأل يالو.

«شفير، تودي لموريو»، يقول الجدّ.

«شو يا جدّي، شو باك؟» يسأل يالو، والجدّ لا يجاوب.

يقترب الفتى من جدّه يجلس إلى جانبه، فيغطّي الكوهنو وجهه بيديه المعروقتين المليئتين بالنقاط السوداء، ويتابع نحيبه الخافت، بينما تتسلّل الدّموع من بين أصابعه. فيصاب الفتى بالشلل، يقعي في مكانه، ويسمع طنين الصّمت الذي لا يخترقه سوى تنهّدات صادرة من أعماق الرّجل الجالس في زاوية بكائه. وبعد وقت طويل ينزل الجدّ يديه عن وجهه، ويقول للفتى أن لا يخاف منه، ويروي له عن دموع المعموديّة.

«بدّك تعرف ليش عم ببكي؟» يسأل الجدّ.

يحني الفتى رأسه.

«الإنسان يا ابني بيتعمّد مرّتين بهالحياة، أوّل مرّة لمّن بكون صغير بيتعمّد بالميّ، وتاني مرّة لمّن بيصير ختيار بيتعمّد بالدموع. أنا بعرف أنّي هلّق عم بتعمّد قبل ما روح لعند أمّي.»

«سلامة قلبك يا جدّي.»

«أنا ما بدّي روح، بس رح روح، وهيدي هي العلامة، هيدي علامة اسماعيل يا ابني. اسماعيل هو جدّ العرب والسريان كمان، بس العرب ما بيعرفوا شي. اسماعيل هو أوّل إنسان اتعمّد، انترك بالصحرا هو وأمّه هاجر، فتعمّد بالدّموع والله بعت الميّ وما خلّاه يموت من العطش. بتعرف ليش؟ لأنّه بكي. الميّ أجت من الدّموع، والميّ هي الحياة. «وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ»، متل ما مكتوب، أنا ما كنت بعرف هالأشياء، بس خبّرني ياها خوري ماروني اسمه يواكيم، كان يحبّ يزورني منشان يحكي معي سريويو، قال إنّه ما بقى في حدن بيعرف لغة المسيح بهالبلاد، فكان يمرّن لسانه معي. وأنا كنت أسمع القصص، يا لطيف شو كان يعرف قصص. إنت بتعرف، أنا بالأصل بلّاط، وتعلّمت، وختمت اللّاهوت، بس هو كان غير شكل، كان دارس برومية، وكان يعرف قصص عن المسيح أكتر من يلّلي مكتوبة بالأناجيل، وخبّرني عن معموديّة الدّموع. قال المسلمين كمان اتعمّدوا بدموع اسماعيل، وهيك طمّني على الملا، الله يحسن إليه قال إنّه بدّو ياني أرجع حتى أورث. حدن بيورث دم. كان بدّو يورّثني دم، بس أنا رفضت، وبعدين طمّني، الأبونا يواكيم قلّلي إنو بيي الملاّ كمان تعمّد، والمعموديّة هي طريق الغفران، وهيك بكون الله غفر له».

«بيّك كان مسلم؟».

«لَوْ، لَوْ.»

«شو اسم بيّك؟»

«كنت عم خبّرك عن الدّموع، قال أبونا يواكيم إنّو المعموديّة ما بتكتمل إلاّ بالدموع. كان ختيار متل جدّك هلّق، وكان لمّن

يحكي معي سرياني يصيروا دموعه ينزلوا، وأنا صير كأنّي رح أضحك، بس هلّق اكتشفت الحقيقة، وأنت لمّن رح تكبر رح تكتشف متلي أهمِّيَّة معموديّة الدموع.»

كان الكوهنو الذي افترست لحيته الطويلة البيضاء وجهه يغرق في معموديّته الأخيرة، ويالو لا يفهم، ولا يجرؤ على الاقتراب من ذلك السرّ الذي يقول بأنّ الحدث الأكبر في حياة الإنسان هو موته، وأنّ الكوهنو يحيك كفنه بدموعه، ويهذي عن الملأ الذي أراد أن يورثه الدم، فكشف له الخوري يواكيم أنّ الميراث المشترك للبشر هو دموعهم.

سأل أمّه عن الدموع، لكنّ المرأة التي كانت ترى والدها يموت أمرته بالسكوت. «أوعا تجيب هالسيرة على لسانك، هلّق ما لازم نسأل، لازم نساعد جدّك بس». قال يالو لأمّه إنّه لا يفهم، فقالت له «بعدين، بكرا بس تكبر بتصير تفهم أكتر.» وكبر ولم يفهم.

في ٦ كانون الثاني ١٩٧٥، عشيّة الحرب، وحين كان يالو في الثانية عشرة، طلبت منه أمّه مساعدتها على أخذ الكوهنو إلى شاطئ الرّملة البيضاء. في البداية رفض يالو، وقال إنّ الرّجل لن يستطيع احتمال البرد، وقد يموت، لكنّه وافق أمام إلحاح أمّه.

«بعدِك بتآمني بالخرافات»، قال لها.

«اسكت هلّق بيسمعك»، جاوبته، «يلله أمسك إيده ولحقوني.»

وذهبوا، وكان اللّيل، وكان الشّتاء. وعلى الشاطئ، تحت مطر قاس مثل حبّات الرّصاص، أرخت المرأة شعرها وأمسكت بيد والدها، ومشت به في البحر. تعثّر الشيخ وسقط في الموج

وابتلع الماء والملح وبكى كثيرًا، ثمّ سقته. كوّرت غابي يديها وأخذت قليلاً من ماء البحر وسقت الكوهنو وابنها، وقالت إنّ الماء صار أطيب من العسل.

«شفت الأعجوبة»، قالت.

«اتطلّع على شعري كيف صار بلون الذهب»، قالت.

«الميّ صار حلو وأطيب من العسل»، قالت.

«السيّد المسيح عليه السلام عم بقول إنّك رح تشفى يا أبونا أفرام»، قالت.

لكنّ الكوهنو كان يتداعى. لم تعد قدماه قادرتين على الوقوف، فتعاون يالو وأمّه على حمله إلى الطريق، حيث عادا به إلى البيت في سيّارة تاكسي.

«ما تموت، الله يخلّيك»، صرخت به ابنته.

وعاش أفرام بعد حادثة الرّملة البيضاء حيث ضربته الحمّى أسبوعًا كاملاً، سنة واحدة قبل أن يموت، لكن غابي عاشت كلّ حياتها في تأنيب الضمير.

«قتلته»، قالت، «أنا قتلت الكوهنو، من بعد هيداك المشوار ما عاد قدر يمشي، تجعلك وأكله البكي، وصاروا عيونه يصغروا، كأنّه ما عاد عنده عيون، كأنّه العيون انمسحت وصاروا نقطتين سود وصغار، كأنّهم نبعين للدّموع، وصار يتحمّم بدموعه، ومات.»

ويالو الآن، أي هناك، حين خرج من الكيس وغرق في دموعه. يالو الآن هناك يكتشف أنّه مثل جدّه ومثل اسماعيل، يعبر معموديّة الدموع ويغرق في عينيه.

وضع أمامه الورقة البيضاء، وقرّر أن يكتب، فلم يستطع،

ولكن لا مهرب من ذلك. فالمحقّق في انتظاره والخوف أيضًا. صحيح أنّ يالو تعذّب كثيرًا خلال أيّام الكتابة، لكن لا يوجد في الدنيا عذاب يمكن مقارنته ببركة البسينات التي زحفت على أسفله، وأسقطته في وادٍ عميق. وبقي الكيس في ذاكرته. كتب وهو يرى كيسين، كيس من فوق وكيس من تحت.

الكيس الأوّل لم يكن مشكلة، لأنّه كان كيس الحرب. فالمقاتلون كانوا أسياد الكيس، ويالو واحد منهم، لذلك لم يخف من الكيس الأوّل الذي غطّوا به رأسه لحظة اعتقاله. أغمض عينيه داخل الكيس ومضى معهم. طبعًا سقط أرضًا وشعر أن قدميه لا يريان، لكنّه لم يخف. كان يعرف أنّ لعبة الظلام جزء من لعبة الحرب، وأنّه يدخل الآن المقلب الآخر من عالم عرفه جيّدًا. سوف يقول إنّه هرب من بيروت إلى باريس لأنّه قرف من الحرب وسئم من صراخ الضحايا. لكنّه لا يقول. إنّه ابن الحرب التي لم تكذب لأنّها لم تقل. تعلّم يالو في الثكنة التي دخلها وهو في الرابعة عشرة، أن لا يقول. فالحرب كانت تخفي كلامها خلف الكلام. والكلمات كانت تسقط أرضًا كأنّها قشور الموز والنّاس تزحط فوقها. وكانت الأكياس أقنعة تغطّي كلّ شيء. لبس القناع الأوّل بعد أسبوعيّ التدريب اللّذين قضاهما في خراج قرية جبليّة لم يعد يذكر اسمها، وتعوّد عليه. ثمّ اكتشف أنّ الكلام أيضًا له أقنعة، وتلك حكاية طويلة سوف يعيشها عندما سيكتب قصّة حياته، مثلما طلب منه السيّد المحقّق.

لكنّ الكيس الثاني مختلف، الكيس في الأسفل ليس قناعًا، بل هو آلة كشف وفضيحة وحزن. استفاق يالو من ما يشبه

الغيبوبة، ولم يجد الكيس الذي يغطّي أسفله، ورأى نفسه وسط بوله وبرازه، مدّ يديه بين فخذيه وشعر بألفة غريبة، وجاء الدفء، وتدفّقت منه الدموع وتذكر شيرين. في تلك اللّحظة فهم معنى الحبّ وأحسّ بدموعها في عينيه، وارتجافة شفتها السفلى في شفته، وركبتها الصغيرة الدافئة في ركبته، أمسك ركبته وجاءه طيف ابتسامته. ورأى كيف مدّ يده إلى ركبتها الصغيرة، أمسك عظمة الرّكبة وفرك كفّه عليها.

«شو عم تعمل؟» سألت.

«عم صوبن ايديّ، لازم لمن شوفك كون نضيف، وأحسن صابونة هي ركبتك، شو اسمها الرّكبة؟ شو اسمها جاوبي؟»

نظرت إليه بعينيها الصغيرتين، وافتعلت نصف ابتسامة قبل أن تجاوب وتقول: «بسمّوها صابونة.»

«الرّكبة صابونة، وأنا عم صوبن شو فيها.»

يالو يضحك وشيرين تطلب منه أن يرفع يده عن صابونتها خوفًا من عيون النّاس.

«أنا ما بهمّني عيون النّاس، ما بهمّني إلاّ أنتِ.»

«طيّب كرمالي شيل إيدك.»

رفع يده اليمنى عن ركبتها، فرك يديه ومسح بهما وجهه، كأنّه يضع الصابون عليه ويغسله، فصرخت شيرين طالبة منه أن لا يفلت مقود السيّارة، فرفع يديه إلى الأعلى تاركًا السيّارة تتهادى على أتوستراد جونيه، قبل أن يستعيد الزمام ويمسك المقود بيده اليسرى، تاركًا يده اليمنى ممدودة على المقعد في انتظار يدها.

سبح يالو في بقاياه، هكذا سيقول، مدّعيًا القرف، لكنّه هناك وسط البركة التي وجد نفسه فيها، أحسّ بأنّه قادر على الانحناء

على نفسه، فانحنى، وصار طفلاً، تصاغر كأنّه عاد إلى رحم أمّه، وارتحم بنفسه ومدّ يده، كان جائعًا وعطشان. مدّ يده ولحس. أغمض عينيه وابتلع السّائل اللّزج، وأراد أن ينام. رأى وجه أمّه ووجه ألكسي، وتلاشى وسط دموعه.

كانت غابي تشدّ شعرها الطويل المتكسّر في المطبخ وتبكي لأنّ ابنها امتصّ حياتها ومضى إلى الحرب والخراب. يالو يقف بباب المطبخ ويقول لها إنّه لا يريد أن يدرس من أجل أن يصبح كوهنو مثل جدّه. وضعته أمّه في مدرسة العطشانة قرب بكفيّا كي ترتاح من عذابه، لكنّه هرب من المدرسة، وعاد إلى البيت الذي صار بيتهم في عين الرّمانة. ومن عين الرمّانة ذهب مع طوني والتحق بالحرب.

يقف يالو بباب المطبخ وهو يستمع إلى المرأة تروي الحكاية. لماذا تحكي هكذا وتقول إنّها أكلت خرا.

«كرمالك يا خرا أكلت خرا، يقصف عمري شو كنت مجدوبة. إنت وصغير أكلتك بخراك، وهلّق بدّك تطعميني خرا مرّة تانية، تفو.»

لماذا قالت «تفو»، حين وقف بباب المطبخ محاولاً تهدئتها:

«يا أمّي روقي، أنا هيك لأنّ كلّ الشباب هيك.»

طفولة يالو كانت مليئة بحكاية الأمّ التي نذرت من أجل أن يرزقها الله صبيًّا. ذهبت إلى كنيسة القدّيس ساويروس ونذرت. كانت حبلى وتشعر بأنّ زوجها لن يبقى معها. الزّوج كان مثل الشبح، «وكنت عارفي أنّه رح يفلّ، وكان ما بدّي شي من هالدنيا إلاّ جيب صبيّ، أنا عرفت من الأوّل، من لحظة يلّلي تزوّجته كانت ريحته غريبة. وقال بدّو يسافر على السويد،

وبعدين يبعت ورايي، وفهمتها على الطاير، فهمت أنه رح يروح وما يرجع، وندرت لربّي، كان بيّي الكوهنو بالبيت، وسمعني وأنا واقفة تحت إيقونة العذرا وعم بحلف، بهدلني وقال هيدا كفر. وزبط الكفر. لا ما كان كفر كان يأس وزبط اليأس، حلفت إذا الله أعطاني صبيّ باكل من خراه، والله استجاب لي، وأكلت.»

كانت غبريال تروي، حين تروي، عن طعم الحليب، «كان طعم الخرا حليب وفي شي من ريحتي، كنت رضّعك من صدري، ولمّن آكل ووقّي ندري، شمّ ريحة الحليب.»

لا يذكر يالو الحكاية بالكلمات، بل يذكرها مثل صورة باللّون الأصفر. امرأة تقف أمام الطفل المستلقي على سريره، تنحني، تضع إصبعها في الحفاض ثمّ تلحس. وبعد أن تنتهي من تحميم طفلها، وقبل أن تعطيه صدرها، تنحني على ثدييها وتشمّ الرّائحة، وتسكر بالرّائحتين: رائحة ابنها ورائحة حليبها. لم تتوّقف المرأة عن طقسها هذا إلاّ بعد أن قال الطبيب إنّ الطفل صار في حاجة إلى طعام حقيقيّ: فاكهة وخضار وبيض، أطعمته وفقدته، فبعد أن أكل اختلطت رائحة برازه بروائح جديدة، وبدأت تشعر بالمسافة بينها وبين ابنها، وصارت تشمّ رائحة الخراء، ولم يعد في استطاعتها الوفاء بنذورها. فقرّرت مخالفة تعليمات الطبيب وأعادت ابنها إلى الحليب فقط، غير أنّ الرائحة الجديدة كانت قد احتلّت جسد الطفل وبرازه، ولم تعد تستطيع إعادة يالو إليها، وشعرت أنّ ابنها انفصل عنها.

رأى يالو نفسه الآن، أي هناك، ورأى البكاء. كان يسبح في السوائل التي خرجت منه، ويرى الدموع تتدفّق من عينيه، حين

رأى ألكسي. ماذا أتى بألكسي إلى هذه اليقظة التي تشبه المنام؟

ألكسي الأشقر، كما أسموه، كان طويلاً ومتجسّمًا وأشقر الشّعر، يترك الثكنة من أجل أن يتمرّن على كمال الأجسام في نادي سنحاريب في الأشرفيّة. وكان متّهمًا باللّواط وبإقامة علاقات مشبوهة مع الفتيان الصغار الذين يجلبهم إلى الثكنة بحجّة تدريبهم على حمل السّلاح. لكنّه كان ينفي التهمة، ولا يتكلّم إلاّ عن علاقاته بنساء متزوّجات. يقول إنّ المرأة المتزوّجة مجلوّة، «المرأة يجب أن تتدوّر من أجل أن تقطفها كما تقطف البرتقال»، يمدّ يديه ويكوّر راحتيه كأنّه يكوّر ثديين صغيرين يقطفهما ويبدأ في التهامهما، ويلحس شفتيه كأنّ عصير البرتقال ترك آثاره عليهما. لم يصدّق يالو حكاية نسائه المتزوّجات، لكنّه لم يخبره عن تريز.

صحيح لماذا، حين يستمع إلى حكايات ألكسي عن النّساء، كان يرى الأخت تريز وكأنّها حكايته، وينسى الدكّان الذي تفوح منه رائحة الخشب، وتحوم حوله عينا الرّجل الأعمى. يذهب مع تريز إلى فندق بعيد، حيث أخذها المهندس جورج، ويكتشف معها أوّل الحبّ وأوّل الجنس. كان وجه الأخت تريز مثل ضوء أبيض ينبثق من ثنايا ثوبها الأسود ويضمّ يالو إليه. تتسلّل يدها الطريّة البيضاء من تحت بنطلونه القصير وتجعل العالم بحجم قبضة يدّ تمسك أسطوانة الحياة التي تحترق بالرّغبة. صارت تريز حكايته، ولم يقل ذلك لأحد، وصار السرّ الذي لم يعشه، سرّه الشخصيّ الذي يتباهى به دون أن يحوّله إلى كلمات.

ألكسي الأشقر كان مجنونًا، ولم يكن يحفظ سرًّا، ولا يعلم

يالو كيف زحط اسم تريز على لسانه أمام ألكسي، فصار الروسي الأشقر يسمّي يالو بـ تبع تريز، وحين يسأله الشباب عن الموضوع، لم يكن يتكلّم كأنّه يخفي سرًّا عميقًا. ثمّ زحط الاسم مرّة ثانية أمام شيرين، لكن يالو لن يكتب عن تريز حين سيكتب قصّة حياته. مرّة قال لشيرين إنّها تشبه الأخت تريز، فسألته من تكون هذه، فقال إنّها كانت راهبة تعلّمه في المدرسة، وأنّه كان متعلّقًا بها ومسحورًا بجمالها، ولم يجرؤ على أن يخبر شيرين الحكاية الحقيقيّة.

ألكسي في تلك اللّيلة اللّعينة كان كالمجنون. لا شكّ أنّه شمّ جرعة كبيرة من الكوكايين، وإلاّ لما أجبر الرّجل على القيام بذلك. يالو قال لطوني في ليلة باريس الأولى أنّ الله لن يسامحنا لأنّنا أجبرنا الرّجل العجوز على أكل برازه. ضحك طوني وقال إنّه لا يصدّق، ثمّ اختفى. اختفى لأنّه لم يصدّق شيئًا. سرق المال واللّغة تاركًا يالو وحيدًا في تلك المدينة.

جاء ألكسي وغبار الكوكايين يرتسم باللّون الأحمر على عينيه الجاحظتين، وقال ليالو تعال. ومضيا إلى أسفل بناية صفراء تقع قرب مستشفى أوتيل ديو، نزلا درجًا، وفتح ألكسي باب القبو بمفتاح كان يحمله. وهناك رأى يالو رجلاً وحيدًا، معصوب العينين، يجثو على ركبتيه في الظلام. أطلق ألكسي ضوء بطّاريّته على رأس الرّجل، الذي برم صوب الضّوء ولم يقل شيئًا.

عندها بدأ ألكسي لعبته. أطلق النّار من مسدّسه في القبو، فخرج الصّوت كأنّه قذيفة مدفع، وبدأ الرّجل الجاثي يرتعد. اقترب منه ألكسي ووضع فوهة المسدّس الساخن على صدغه وصار يهدّد ويتوعّد. وحين قال ألكسي للرّجل أنّ ساعة إعدامه

قد اقتربت وأنّ عليه الاستعداد لمواجهة ربّه، ارتعش الرّجل ثمّ جلس على قفاه ومدّ رجليه إلى الأمام، وتغوّط على نفسه. انتشرت الرّائحة بسرعة غريبة، اقترب ألكسي وهو يسدّ أنفه بيده من الرّجل وأمره بالوقوف. فبدأ الرّجل يبكي ويرجو، لكن فوهة المسدّس اقتربت من جديد، فبدأ الرّجل يتزحزح، وضع يديه على الأرض كي يستند إليهما، فرأى ألكسي الخراء.

«خريت تحتك يا جبان؟» صرخ ألكسي مقهقهًا، ثمّ طلب من الرّجل بأن لا يقف.

«ما بتحرز توقف، رح نعدمك فوق خراك»، قال ألكسي، «وهلّق قبل ما تموت لازم تاكل.»

لا يدري يالو لماذا أكل الرّجل، فهو كان سيموت على أيّ حال، رأى يالو اللّيل والرّائحة، وكانت الدّموع تتساقط سوداء على خدّيّ الرّجل الستّينيّ، مدّ الرّجل أصابعه إلى بقاياه، رفع الأصابع إلى فمه ولحسها.

«لازم تخلّصهم كلّهم»، صرخ الرّوسي الأشقر.

كان الرّجل يأكل ببطء، كأنّه يسرق الوقت من موته، ويالو يقف. وفجأة شعر يالو بحاجة إلى التبوّل، وضربه ما يشبه العجز عن الحركة، وتخيّل نفسه يجلس أرضًا ويتداعى. أحسّ بالاختناق، وبدأ الهواء يضيق حول رئتيه، ولم يرَ نفسه إلاّ راكضًا إلى الخارج. وصل إلى البيت والدوار حوله، وبدأ يتقيّأ. دخل إلى الحمّام ورمى رأسه فوق المغسلة. وخرج القيء أصفر من فمه وأنفه وامتلأت أذناه بالطنين. سمع صوت ألكسي يسأل عنه وهو يقهقه ضاحكًا، مسح فمه بالمنشفة وفتح حنفيّة الماء من أجل أن يزيل الاصفرار عن المغسلة وخرج مهرولاً ومضى مع

الأشقر إلى الثكنة، وهناك استمع مع الجميع إلى الحكاية كما رواها الرّوسي، عن رجل كهل خطفناه وأجبرناه على أكل خرائه.

كانوا يسمّونه الرّوسي، لكنّه لم يكن روسيًّا، كان يدّعي أنّه روسيّ أبيض، ويقول إنّ روسيا كلّها حمراء ولا يوجد فيها سوى نقطة واحدة بيضاء اسمها ألكسي. لكنّه كان سريانيًّا نسي لغة أجداده، مثل يالو وأكثريّة الشّباب، كما كان صديقًا حميمًا لسعيد منصوراتي الذي كان يلحّن القصائد ويغنّيها معلنًا نفسه مطرب لبنان الجديد الذي سيولد بعد الحرب. ألكسي يجلب قنّينة النبيذ الأبيض، وسعيد يعزف على عوده ويغنّي والشّباب يسكرون على إيقاعات الموشّحات الأندلسيّة. سعيد يلقي شعرًا عن الأشرفيّة ويغنّيه بصوته المبحوح الذي يشبه صوت فريد الأطرش، والشّباب يسكرون.

سعيد المنصوراتي اختفى، وألكسي مات، ويالو يجد نفسه وحيدًا وسط بركته، ويستمع إلى كلمات ألكسي في أذنيه.

قال إنّه وجده فوق في المكتب، وكانت لهجته غريبة، «ما طلبت هويّته ولا شي، اشتلقت إنّو لهجته غريبة، أمرته ينزل على القبو وتركته شي خمس ساعات راكع وعيونه مغمّضمة. والله نسيته، وبعد زيح الكوكايين تذكّرته، ولمّن قوّصت فوقه خري على حاله، العمى شو جبان، قلتلّلو ياكل قبل ما يموت. فأكل. كان عارف أنّه رح يموت، وأكل، وأنت هربت يا جبان، والله لو ما طلعت أمّك بوجهي كنت رح أعمل فيك ضرب بيتّورخ، كنت ناوي خرّيك على حالك، وما خلّيك تنساني كلّ حياتك».

«وهو، شو صار فيه؟» سأل يالو.

«العوض بسلامتك»، قال ألكسي.

«قتلته؟»

«شو قولك كان لازم أعمل؟»

«لا عن جدّ، عم بسألك عن جدّ.»

«لا ما قتلته، تركته بالقبو، وجيت لعندك، إمشي معي حتّى نقتله.»

«أنا ما بدّي روح معك.»

قال ألكسي إنّ الرّجل مات دون أن يضطر لقتله، تركه يكمل طعامه، ثمّ أطلق رصاصة فوق رأسه، فمات الرّجل.

«مات من الخوف مش من القواص»، قال ألكسي، «الإنسان لمّن بموت بموت من الموت، بموت من الخوف، وأنت كمان ما رح تموت إلاّ من جبنك.»

لم يصدّق يالو أنّ الرّجل مات خوفًا من صوت الرّصاصة، كان متأكّدًا أنّ ألكسي قتله من أجل أن يضحك. وفكّر يالو أنّ ألكسي معه حقّ، فقرّر أن يتخلّى عن جبنه ويضحك. ندم لأنّه ركض إلى البيت خائفًا وتقيأ على نفسه، وأحسّ برغبة في قتل كلّ الناس، وامتلأ بالضحك. احتار لماذا لا يضحك النّاس، وضحك. وعاش ما تبقّى له من الحرب على حافّة الضحك. حتّى الموت كان مُضحكًا ومسلّيًا. الضحك هو أعلى درجات الحياة. الضحك هو أن يكون جميع النّاس غرباء ويستحقّون أن نضحك عليهم. الغريب مضحك لأنّه غريب، حتّى ألكسي كان غريبًا ويمكن أن نضحك عليه ساعة نشاء.

أمام جثّة ألكسي، اجتاح الشّباب ما يشبه رعشة البكاء، فشعر يالو بالضحك. ألكسي لم يمت كما يموت النّاس، لكنّه مات،

وحين عثروا عليه لم يكن هو. كان كومة من الثياب والحصى والعظام. ثلاثة أشهر كانت كافية كي لا يكون الرّجل.

لا يعلم أحد كيف اختفى ألكسي. فجأة لم يعد الرّوسيّ الأشقر موجودًا. بحثوا عنه في كلّ مكان فلم يعثروا له على أثر. فقرّر قائدهم ماريو أنّ ألكسي خائن وجبان. جمعهم في الثكنة وأعلن أنّ ألكسي جبان وأنّه سيحيله على محكمة عسكريّة حين يظهر، لكنّ الأشقر لم يظهر. وتابعت مطحنة الحرب الأهليّة دورتها. كان ماريو يسمّي الحرب طاحونة، ينحني عاري الصدر كأنّه بغل يصهل بنهيق يشبه صوت الحمار، ويقول إنّه يحمل الطاحونة على ظهره.

«نحن نطحن النّاس وننطحن.»

يشرب العرق ويدور مع عينيه، وحين يسكر، يبدأ في طحن نفسه وطحن الآخرين. وكان شباب الثكنة يتفرّجون على ماريو البطل يصبح بغلاً ويضحكون. وصار اسمه ماريو الطاحونة.

ماريو أصدر حكم الإعدام على ألكسي دون محاكمة. جمع الشباب وقال إنّ ألكسي خائن: «نحن لا نعرف أصله وفصله، قال إنّه روسيّ لكنّه ليس روسيًّا، قال إنّه سريانيّ لكنّه ليس سريانيًّا، قال إنّه لبنانيّ لكنّه ليس لبنانيًّا، من يراه عليه أن يُطلق النّار دون أن يسأله شيئًا.»

«الكلمة هي الطلقة»، قال ماريو، «قوّصوه وخلّصوني منه وبعد موته نسأله، شو هو أحسن من غيره، التحقيق ببلّش بعد الموت، بالأوّل منعدمه، وبعدين منحقّق معه، هيك لازم.»

لكن كيف؟

كيف ذاب ألكسي في ذلك المبنى النائي؟

سوف تنطبع صورة وجه ألكسي في ذاكرة يالو. الوجه لم يكن وجهًا، كان جمجمة تضحك.

ماريو عرفه عندما رآه.

جاء مجموعة من الشّباب وقالوا لماريو إنّهم رأوا في بناية جريديني، المحاذية لكلّيّة الطبّ الفرنسيّة في شارع دمشق، جثّة مهترئة، فأمرهم ماريو برميها قبل التمركز في المكان. لكنّه لاحظ الخوف والتردّد على وجوههم.

«ارموها، وما بدّي حركات، قلتلّكم لازم تتمركزوا ببناية جريديني، هيئتكم خايفين، وجايبين حجّة ما إلها طعمة.»

حمل ماريو بندقيّته ومشى أمامهم، وحين وصلوا إلى حيث كومة الثياب والحصى والعظام، انحنى القائد على البقايا، وجمد في مكانه، وصار مثل قوس منحنٍ في تلك الغرفة شبه المهدّمة.

مشى ماريو أمامهم عندما سمع تلعثمهم وهم يروون عن البقايا والعظام. فقال «الحقوني» وأمر يالو بأن يأتي معه. ركض أمامهم وتسلّق درجات المبنى قفزًا، وحين وصل إلى الطابق الثالث، جمد في مكانه. تبع يالو الصوت، لم يركض مع الراكضين، مشى متثاقلاً وصعد الدرج ببطء، وفي زاوية الغرفة المعتمة، حيث يتكدّس الأثاث المحطّم، رأى كلّ شيء.

«هيدا هو»، قال طوني.

نظر ماريو إلى طوني بعصبيّة وتراجع إلى الوراء. استند بجسده القصير الممتلئ إلى الحائط، قبل أن يتقدّم وينحني فوق البقايا. لا يعلم يالو كم من الوقت بقي الرّجل القصير منحنيًا. لكنّه أحسّ أنّ الزمن جمد فوق ظهر ماريو. ثمّ بدأ الظهر يرتجف كأنّ موجًا اجتاحه من الرّأس حتّى الخصر، ورأى طوني يتقدّم

منه ويغبطه، وسمع صوت ماريو يقول أشياء غير مفهومة، لأنّ الصوت كان يختنق داخل الحنجرة كأنّه حبيس تفّاحة آدم التي تتحرّك دون أن تفتح الصوت. سقط الظهر أرضًا، وسقط طوني إلى جانبه، ورأى يالو نفسه يبتعد مع الآخرين.

«الوين رايحين؟» صرخ ماريو، «هيدا ألكسي.»

اختلط صراخ ماريو بصراخ الشباب، وأراد يالو أن يهرب. شعر بساقيه يتحفّزان للرّكض، لكنّ الأصوات جمّدته في مكانه، ورأى الجميع يترنّحون. كان الضّوء أسود ويتوشّح بالظّلام الذي يرشح من المباني التي دمّرتها الحرب. انتشر ظلّ الخراب فوقهم وانحنوا ليكتشفوا ما يشبه الهيكل العظميّ بثياب مثقوبة بالعفونة.

«هيدا ألكسي»، قال ماريو، «لازم نحمله.»

رأى يالو بنطلونًا ممزّقًا وقميصًا متآكلاً فوق هيكل عظميّ. الرّكبتان مطعوجتان، والعظام مغطّاة بالضّوء الأسود.

«عرفته من قشاطه»، قال ماريو، «يلله شباب خلّلينا نحمله».

كان الحزام الجلديّ هو العلامة، وكان الفتى الرّوسيّ مأكولاً.

«مين أكله؟» سأل يالو وهو يشعر بالضّحك. أراد أن يضحك، لكنّه بكى كما بكى الجميع. يومها فهم يالو أنّ الضحك يعيش إلى جانب البكاء، وأنّ التمييز بينهما مسألة بالغة الصعوبة، لأنّهما اختلطا منذ بداية الخليقة. كلاهما مفاجئ ومفارق، وكلاهما يأتي كي يملأ الفراغ الذي تشعر به الرّوح.

هناك أمام المشهد الذي لن ينساه، كان البكاء يشبه نزيفًا يخرج من جروح عميقة. رأى يالو نفسه منحنيًا فوق كومة العظام، التي أشار إلى هويّتها حزام جلديّ بنّيّ محروق، ورأى

رفاقه عراة من ثيابهم ولحمهم. رأى عظامًا تنحني على العظام، واجتاحه الضحك الذي يخرج من البكاء، وفهم ما لم يستطع شرحه لشيرين، حين كان يلاحقها بحبّه، فهم أنّ مزيج الضحك والبكاء هو علامة الإنسان، وأنّ كلّ إنسان يحمل روحين في داخله، الأولى للضحك والثانية للبكاء، وأنّ مشكلته هي أنّ هاتين الرّوحين تعملان معًا، لذلك كان يعجز دائمًا عن تحديد مشاعره.

قال لشيرين وهي تبكي، إنّ البكاء علامة السّعادة والحبّ. فنظرت إليه بعينيها الصغيرتين الحمراوين كأنّها لا تفهم لماذا لا يفهم.

«دخيلك يا يالو افهمني.»

طلبت منه أن يفهمها قبل أن تقف. كانت شيرين تقف في وسط الموعد كأنّها تستعدّ للمغادرة، فينظر إليها بعينيه الصغيرتين، فتعود إلى الجلوس دون أن تقول شيئًا.

سوف تقول للمحقّق إنّها كانت تخاف من عينيه ومن حاجبيه الرّفيعين الطويلين، سوف تقول إنّها لا تعرف لماذا خرجت معه وإنّها كانت تخافه، وإنّها قبلت اللقاء به من أجل إقناعه بإيقاف العلاقة.

سألها المحقّق لماذا ذهبت إلى لقائه في المرّة الأولى، حين لم تكن القصّة قد بدأت بعد، فقالت إنّها أرادت إنهاء الموضوع معه.

«وبعدين؟ شفتي أوّل مرّة وبعدين ليش رجعت شفتي عدّة مرّات؟» سأل المحقّق.

تلعثمت الفتاة وقالت إنّها لا تعرف، لكنّها كانت خائفة منه

وتشفق عليه.

حين تأتي للقائه، كانت تقرّر المغادرة بعد دقائق، فتنقلب عيناه، ولا تجد نفسها إلاّ وقد عادت إلى الكرسيّ. كانت شيرين تعتقد أنّ يالو يملك وجهين، ولكلّ وجه عيناه. عندما يلتقيان، ترى في البداية الوجه الأوّل والعينين الناعستين نصف المغمضتين، فتقرّر أن تمضي. تقف من أجل أن تقول خلص، فيخرج الوجه الثاني بعينيه المفتوحتين ويسمّرها في مكانها، قبل أن يجبرها على الجلوس. تبكي وتسمع صوته يقول كلام الحبّ.

شيرين لم تفهم لأنّها لم ترَ ألكسي كتلة من العظام تغطّيها ثيابه الممزّقة، وحوله شبّان يتحوّلون هياكل عظميّة ويبكون.

تراجع يالو إلى الوراء، ورأى كيف يأكل الإنسان نفسه. هذه هي حقيقة الإنسان الثانية. الحقيقة الأولى هي اختلاط ضحكه ببكائه، أمّا حقيقته الثانية فهي أنّه آكل نفسه. في الطابق الثالث من بناية جريديني، فهم يالو أنّ الوليمة الأخيرة التي يقيمها الإنسان لنفسه، هي موته.

الصوت كان صوت طوني، لكنّ السؤال كان سؤال الجميع.

«مين أكله؟»

نظر يالو حوله بحثًا عن حيوان مفترس أو عن كلب. ففي تلك الأيّام كانت الكلاب سيّدة المدينة التي خرّبتها الحرب. اعتقد يالو أنّ كلبًا متوحّشًا من تلك الكلاب الشاردة التي كان المقاتلون يتلهّون بإطلاق النّار عليها، على خطوط التماس التي تفصل بيروت عن بيروت، هو الذي افترس ألكسي.

لكن لا.

قال ماريو إنّ ألكسي مات بسبب جرعة هيروويين إضافيّة. «العكروت صار بدّو مخدّرات كلّ الوقت، وصار يشكّ كمَان، أكيد كان فوق مع حدن من صبيانه، وشك ومات. أكيد ما حدن قتله، مين راح يقتله؟ أكيد هيدي الإبرة، بس بدّي أعرف مين كان معه؟ ولو كيف تركه هيك؟ العمى؟ الحيوانات صارت أحسن منّا.»

أنهى ماريو الجدل بقراره أنّ ألكسي مات بسبب جرعة إضافيّة. لكن يالو رأى شيئًا آخر. رأى ألكسي يأكل نفسه. انحنى على موته، وبدأت وليمته الأخيرة. أكل نفسه بنفسه، هذا هو الموت، إنّه الوليمة الأخيرة، حيث يصير الميت الوليمة والمدعوّين، ويأكل دون طعام، لأنّه صار الطعام، وحين ينتهي الطعام ينتهي معه، ولا يبقى سوى ما ليس صالحًا للأكل. جمجمة وعظام بيضاء وضحكة. هكذا صار ألكسي، مجموعة عظام تعلن أنّها بقايا الوليمة. وبعدما انتهى ألكسي من أكل نفسه التهم أسنانه، وبقيت الجمجمة الضاحكة. الفم فارغ بالضحك والموت.

الجمجمة ضحكت وماريو بكى وشرب دموعه. كلّهم شربوا دموعهم وصاروا يسعلون. كأنّ الدموع علقت في حناجرهم ولم يعد في استطاعتهم بلعها أو إخراجها، فصاروا ينتحبون ويسعلون، ويقفون عاجزين أمام جثّة لا تشبه الجثث.

«كيف بدّنا نحمله؟» سأل طوني وشدّ يالو من يده كي يساعده على حمل الجثّة، لكن يالو لم يتزحزح من مكانه، ظلّ جامدًا يتخيّل الوليمة التي صنعها ألكسي لنفسه في هذه الغرفة المخلّعة الأبواب والنوافذ. رفض ألكسي أن يقيم وليمته في الخفاء، لم

يدخل القبر كي يأكل نفسه في العتمة، عاد طفلاً يأكل أحشاءه، كما سوف يحصل ليالو بعد ليلة الكيس، حين سيلحس بقاياه ويشرب دموعه بحثًا عن الدفء.

لكنّ غابي لم تفهم معنى الوليمة الأخيرة. أمسكت بيد ابنها وجرّته إلى الحمّام كي تُريه كيف اختفى وجهها. فقال لها يالو إنّ المرآة أكلت صورتها: «يعني صورتك عم تاكلك يا أمّي»، قال لها.

«شو يعني؟» قالت خائفة.

«شو بعرّفني، نامي يا أمّي وكبّري عقلك، شو بدّك بالمرايات.»

لكن غابي بقيت جامدة كما جمد ماريو فوق العظام الممدّدة داخل بقايا البنطلون الأزرق والقميص الكاكي.

«ما تخافي يا أمّي، يلله على الفرشة.»

«لا، لا»، جاوبت. «اتطلّع منيح، عم تشوف وجهي بالمراية ولاّ لا؟»

«أنا شايفك يا أمّي، صورتك واضحة، شيلي هالأفكار السودا من رأسك واتطّلعي.»

«أنا مش شايفة»، قالت، «دخيلك مدري شو عم بصير فيّي، يمكن ما بعرف، دخيلك يا ابني قلّلي شو لازم أعمل؟»

«يا الله، شو عامل أنا يا الله، حلّي عنّي وفوتي نامي.»

قال يالو للمحقّق إنّه هرب خوفًا منها ومن كلامها: «أنا هربت يا سيدنا منها ومن مرايتها، خفت أنّها تقتلني بحكياتها، خفت جنّ منها ومن الحرب ومن هالعيشة، فقرّرت أهرب، قلّلي طوني مشي، ومشيت معه على فرنسا.»

«وشو رجّعك على لبنان؟»

«قلتلّك يا سيدنا، طوني سرق المصريّات وتركني وحدي.»

«وبعدين؟»

«بعدين بلّونة، من فرنسا على بلّونة، وحضرتك بتعرف كلّ القصّة.»

«لا ما بعرف، بدّي القصّة الحقيقيّة.»

«خبّرتك كلّ قصّة شيرين، وأنا بعترف بالذنب.»

«مفكّر حالك بتقدر تضحك علينا، أنا بدّي قصّة المتفجّرات، بدّي تفاصيل شغل العصابة ومن مين بتتألّف ومصادر تمويلها، ومين كان يعطي الأوامر.»

«أنا ما خصّني وما بعرف شي عن هالموضوع.» قال يالو.

«الهيئة ذاكرتك ضعيفة ولازمها تنشيط، يبدو أنّك مش رح تحكي إلاّ بعد ما نخلّي جسمك يهتري، يللّه.»

قال يللّه فأخذوه إلى حيث الكيس، وهناك وسط بركة أحشائه التي اندلقت، فتح عينيه فرأى أمّ ألكسي أمامه، من أين جاءت هذه المرأة إلى السجن؟

كانت المرأة السمينة البيضاء تجلس إلى جانب يالو على الأرض، وتبتسم ابتسامتها البلهاء التي رافقت وجهها مذ رأت ابنها في التابوت.

وصل ماريو ومرافقيه، وكان يالو أحدهما، إلى منزلها الذي يقع خلف دير راهبات العازاريّة، في الشارع الطويل المتعرّج الذي يطلّ على مقابر مار متر في الأشرفيّة، فرأت المرأة الموت، وارتسمت على وجهها تكشيرة البكاء. أخبرها ماريو أنّه تمّ العثور على ألكسي ميتًا، وأنّ مراسم الدفن سوف تجري في

الغد، فلم تقل المرأة شيئًا. لم تسأل أين وجدوه وكيف قُتل، ومن قتله، تهالكت على الكرسيّ واعتذرت لأنّها لا تستطيع إعداد القهوة لزوّارها لأنّها أصبحت عاجزة عن الوقوف.

قال ماريو إنّهم لن يجلبوا الجثّة إلى البيت، فرفعت حاجبيها إلى الأعلى علامة الرّفض وقالت إنّ ابنها سوف يخرج من منزله إلى المقبرة.

حاول ماريو أن يشرح لها، لكنّها كانت كمن لا يسمع. ولم توافق إلاّ حين قال ماريو إنّ هذه هي أوامر القيادة التي لا يستطيع أحد في الدنيا مخالفتها.

«إذا كان هيك متل ما بتريدوا»، قالت المرأة. وقالت إنّها ستلاقي الشباب في الكنيسة، ولا لزوم لأن يأتي أحد إلى البيت من أجل مرافقتها.

قال ماريو إنّهم سيطبعون أوراق نعوة.

قالت أمّ ألكسي إنّ لا لزوم لذلك، فهي وحيدة والعائلة لا يوجد أحد منها هنا.

«هيدا شهيد»، قال ماريو، «ما بصير ما نطبع نعوة ومُلصق كمان.»

أعطاها ماريو مبلغًا من المال داخل مغلّف صغير، فارتسمت ابتسامة على وجهها، وحاولت النهوض من أجل توديع زوّارها، فلاحظ يالو ساقيها الثخينتين المنتفختين بالشرايين الزرقاء وجسدها السمين الذي يكاد يمزّق ثوبها الواسع الذي بدا ضيّقًا، لكنّها لم تستطع.

«خلّيكي يا مدام قاعدة، معليش»، قال ماريو.

«شو معليش» قالت المرأة بصوت منفعل بالغضب، «الله

يخلّيك ساعدني، خايفي كون تكرسحت.»

تقدّم ماريو منها ومدّ يده، أمسكت اليد وجذبتها نحوها، كاد ماريو يسقط، لكنّ المرأة لم تستطع، كأنّها التصقت بالكرسيّ واحتقن وجهها. تقدّم يالو وأمسك بها من كوعها ويدها بيديه الاثنتين، وحاولا. ماريو يمسكها من جهة ويالو يمسكها من الجهة الثانية، والمرأة تشرع يديها ولا تتزحزح من مكانها. كأنّها استسلمت للجاذبيّة والتصقت بالكنباية. ماريو يطلب منها أن تشدّ معه: «شدّي يا أمّي شدّي»، والمرأة تشدّ وأنينها يرتفع. كأنّها تخلّف فكّر يالو. كانت تشدّ وتتنهّد وحولها ثلاثة شبّان يحاولون مساعدتها دون جدوى. وفجأة زحطت المرأة عن الكرسيّ، سقط قفاها على الأرض وارتفع قدماها إلى الأعلى.

«خلص خلص»، قالت نينا الرّوسيّة، «اتركوني خلص.»

لا يدري يالو لماذا اعتقد أنّ الطفل سقط من بين فخذيها، وأصابه الضحك. ترك يد المرأة وخرج من الصالون حيث ابتلع ضحكته ووقف في انتظار رفيقيه.

وهناك، وبينما انحنى الشّباب فوق كومة العظام، حيث كان البكاء، ابتلع يالو ضحكته ووقف في انتظارهم.

«احملوه»، صرخ ماريو.

«كيف بدّنا نحمله» خرج صوت طوني وكأنّه يأتي من خلف كمامة تغطّي فمه.

مدّ ماريو يديه تحت البنطلون والقميص من أجل أن يرفعه مثلما يُرفع الأطفال، لكن ألكسي فرط، حمله ماريو فبدأت العظام تتساقط.

«اتركه يا ماريو»، قال طوني بصوته المغطّى بالخوف

والبياض.

انحنى طوني ولملم العظام التي سقطت من بين يدي ماريو، وظهر سعيد المنصوراتي يحمل صندوقًا خشبيًا يشبه التابوت، قام بوضع قِطع ألكسي فيه، وحُمل إلى المقرّ في ثكنة جورج عرموني، في ثانويّة الراعي الصالح، ولم تكن رائحة.

أمضى ألكسي ليلته في الثكنة، داخل غرفة لم يدخلها أحد. اقترح طوني جلب شمعتين كبيرتين من أجل وضعهما على جانبيّ الصندوق، كما هي العادة المتّبعة مع الجثث قبل دفنها، لكنّ الجميع أهمل اقتراحه. فقضى ألكسي ليلته الأخيرة في غرفة معتمة، لم يكلّف أحد نفسه عناء إشعال الضوء فيها.

في صباح اليوم التالي جلب ماريو تابوتًا حقيقيًا، بنيّ اللّون تزيّنه رسوم مضلّعة تشبه الورود وألصقت على مقدّمته لوحة معدنيّة كتب عليها «الشهيد ألكسي ١٩٦٣ ـ ١٩٨٨». حمل الشّباب النعش إلى كنيسة مار متر حيث كانت الأمّ تقف متّشحة بالسّواد. وضع النّعش أمام الهيكل بين شمعتين كبيرتين مضاءتين. انتهى الكاهن من صلاته، وحُمل النعش إلى مقبرة الغرباء، كما تُسمّى المقبرة العامّة التي لا تملكها إحدى العائلات البيروتيّة، بل هي ملك الوقف، ومخصّصة للعائلات الفقيرة، في تلك اللّحظة حدثت الحكاية التي انطبعت في مخيّلة يالو. فُتح النعش من أجل أن يرشّ الكاهن على الجثّة كمشة تراب ويقول «من التراب وإلى التراب تعود»، ويأذن بالدفن. لم يرَ الكاهن سوى شرشف أبيض يغطّي شيئًا، أزاح الشّرشف كي يرشّ التراب على وجه الميت، فبرزت جمجمة ألكسي الضاحكة. تراجع الكاهن إلى الخلف مذعورًا. وسقطت كمشة التراب من

يده، فقام يالو بإغلاق التابوت وطلب من الحفّار إنزاله في التراب. في تلك اللّحظة وجدت نينا طريقها بين الكاهن وماريو، رأت الجمجمة فصرخت: «هيدا مش ابني»، وبدأت تشتم. تكوّرت الشتائم التي لا عدد لها في فم المرأة الواقفة، وامتقع وجهها باصفرار أبيض وصرخت: «هيدا مش ألكسي، ليش عم تعملوا فيّي هيك، وين ابني؟» حاول ماريو تهدئتها، لكنّها اندفعت إلى التابوت تريد رميه وبعثرة محتوياته. غير أنّ ماريو وطوني استطاعا دفش المرأة بعيدًا، وتمّ إنزال التابوت إلى القبر.

أمّا ماذا جرى بعد ذلك، فيالو لا يستطيع أن يتذكّر. سقطت ما يشبه الغشاوة السّوداء على عينيه، وانمحى كلّ شيء عن شاشة ذاكرته، لكنّه سمع الحكاية من رفاقه. سمع كيف حملت المرأة إلى بيتها لأنّها رفضت مغادرة المقبرة، وكيف أُخذت بعد ذلك إلى مأوى العجزة في العطشانة، لكنّها رفضت الإقامة فيه لأنّ جميع العجائز كنّ يتكلّمن السريانيّة أو التركيّة، وهي لا تعرف أيًّا منهما، ثمّ أُخذت بعد ذلك لتموت في مأوى العجزة الأرثوذكسي في الأشرفيّة، قرب مستشفى الرّوم، وسط يقين العاملات في المأوى بأنّ المرأة أصيبت بالجنون. فهي ليست روسيّة مثلما تدّعي، لأنّها لا تعرف كلمة روسيّة واحدة، وابنها ليس قدّيسًا ولم يتحوّل هيكلاً عظميًّا لحظة وفاته، فهذا محال، عدا عن أنّ إحدى علامات القداسة هي احتفاظ القدّيس بجسد لا يفنى بعد الموت. فكيف تقول نينا إنّ ابنها خلع جسده، كما يخلع الإنسان ثوبه، وتحوّل كتلة من العظام.

ماتت نينا وحيدة وحزينة، ووصلت بها الأمور إلى حدّ تصديق أنّها مجنونة، مثلما أشاع العجائز في المأوى، بعد أن

استمعوا إلى قصّة الابن الذي خلع جسده. كانت نينا تحاول تمثيل المشهد، وتبدأ بخلع ملابسها، ويرتفع الصراخ الذي ينتهي بالممرّضات راكضات نحوها، يهدّئنها، قبل تكبيلها. ونينا تحاول إقناع الممرّضات بالسماح لها بخلع جسدها كي تصبح قدّيسة مثل ابنها مار ألكسي.

صدّقت نينا جنونها، وذهبت إلى كنيسة المأوى من أجل أن تطلب من الخوري الشاب، الذي يخدم القدّاس صباح كلّ أحد لأبناء الجالية الروسيّة الصغيرة في بيروت، أن يُخرج منها الشياطين كما كان يفعل السيّد المسيح. أبعدها الكاهن بقفا يده من أجل أن يفتح طريقه إلى الهيكل، ويبدأ خدمة صلاة السحر التي تسبق القدّاس، فسقطت نينا أرضًا، وحصل هرج ومرج، ثمّ حملت إلى المأوى بعد أن تمَّ استدعاء ممرّضين وحمّالة، حيث ماتت بعد يومين، ودُفنت في مقبرة الغرباء إلى جانب ابنها.

الكاهن لم يقتلها مثلما أوحت الأخت بلاجيا، المشرفة على المأوى، للمعزّين. فالأخت بلاجيا كانت تكره الرّوس البيض ولا تحبّ طريقتهم في الترتيل، وتقول إنّ الصلاة الوحيدة المقبولة يجب أن تكون باللّغة اليونانية وباللّحن البيزنطي، لأنّهم هناك في السماء، هكذا يصلّون.

الكاهن لا علاقة له، والمرأة جاءت إلى الكنيسة كي تموت، ولم تكن شياطين من أجل أن تخرج، فلم يجد الكاهن الرّوسيّ ما يخرجه منها سوى روحها، فذهبت إلى حيث سيذهب الجميع، وهذا كلّ ما في الأمر. أمّا حكاية ابنها القدّيس فلم يصدّقها أحد: أصيب بطلقة في صدره، اتّكأ القدّيس على رفيقه يالو وقال له إنّه سوف يخلع جسده لحظة موته لأنّه يكره أن ينتفخ

كبقيّة الموتى الذين تأكلهم الحشرات والديدان، ثمّ أحنى رأسه ولفظ روحه. انحنى صديقه من أجل أن يحمله فلم يجده، بل وجد هيكلاً عظميًا.

قالت نينا إنّ يالو لمّا شاهد الهيكل العظميّ أُصيب بالرّعب، وركض إلى رفاقه يخبرهم الأعجوبة. وحين جاء الرّفاق كانت المنطقة قد سقطت تحت نيران الطرف الآخر، فلم يستطع أحد الوصول إلى حيث خلع ألكسي جسده واستلقى هيكلاً عظميًا فتركوه. «وعندما عرفت ذهبت وحدي وعدت به إلى البيت، كانت عظامه بيضاء كالثلج كأنّها غُسلت بالماء والصابون. ذهبت وحدي تحت الرّصاص وجلبته، ورفض جميع رفاقه المجيء معي خوفًا على حياتهم. كنت مفكرتهم الجيش الأبيض، تفو شو طلعوا جبنا، رحت لوحدي، وجبت عظامه حتّى حافظ على اسمه، هيدا جدّه كان ضابط بجيش القيصر، وأنا كنت بدّي إيّاه يطلع لجدّه، العمى، تركوا لحمه يهرّ عن عظامه، تركوه وحده، وما حدن شاف الأعجوبة، حتّى هيدا السريانيّ الطويل يالو ابن غابي، يلّلي صارت العجيبة قدّام عيونه، وقف متل الأخرس. طويل وهبيل، شو بيقدر الواحد يحكي؟ جدّ ألكسي خبّرني، هيدا النّوع من العجايب كانت تصير بروسيا أيّام الحرب الأهليّة، خبّرني أنّه لمّن بيموت الضابط بصير هيكل عظمي، وبكون العظم أبيض متل التلج، وهيدا يلّلي صار مع ابني، بروسيا كانوا يطوّبوا الضابط يلّلي بيشلح جسمه لحظة موته، ويعلنوه قدّيس. بس ألكسي تركوه لأنّهم جبنا وما بيأمنوا بالثالوث القدّوس. أنا سلّمته للثالوث، أبوه مات وهو وصغير، وأنا ما إلي حدن إلاّ الثالوث وهالصبي.»

كانت الأخت بلاجيا تستمع إليها وتريد تصديقها، ولكن نينا بدأت في إقامة مشاهد خلع ملابسها وجسدها أمام العجائز الأخريات، فتأكّدت الراهبة من أنّ المرأة مجنونة. قالت لها إنّ هذه الأفكار هي من عمل الشيطان.

لماذا عادت نينا من مأوى العجزة في العطشانة وهي تشتم السريان؟ فالأخت بلاجيا تعلم أنّ ابنها سريانيّ مثل جميع هؤلاء الشّباب، وأنّه ينتمي إلى عائلة أتت من منطقة ماردين. من أين جلبت نينا حكاية الجدّ الذي كان ضابطًا في الجيش الأبيض؟

قرّرت الرّاهبة أنّ المرأة مجنونة، وأصدرت الأوامر بأن تُعطى مهدّئات قويّة أدخلتها في سبات هذيانيّ، ربّما كان سبب هلوستها بالشيطان الذي قادها إلى حتفها.

يالو لا يذكر شيئًا ممّا حصل أمام المقبرة. امّحى المشهد من عينيه، وصارت المرأة مغطّاة بما يشبه الضباب. عاد إلى بيته وقرّر أن يترك الشباب والحرب وكلّ شيء.

في البداية، رأى يالو في نفسه بطلاً. فالحرب جاءت من أجل أن تعلّمه أسرار الحياة. هكذا شعر في معسكر التدريب حيث صار تيسًا. صار هو ورفاقه من فقراء حيّ السريان أسياد الشّوارع. لم يكن يالو يفهم كثيرًا في تعقيدات الحرب ومنعطفاتها التي جعلت الكلام عنها يشبه التبن. كان يؤمن بأنّه يدافع عن وجود شعب ذاب في عتمة التاريخ مثلما كان الكوهنو يصف الهجرات المتواصلة التي قادته من عين ورد إلى بيروت. «نحن مشينا في عتمة التاريخ، ورح نبقى بالعتمة، حتّى تطلع شمس العدل.» وحين يسأله يالو عن «شمس العدل»، كان الكوهنو يجاوب أنّه المسيح. «نحن يا ابني ناطرين مملكة

المسيح، وهو قال إنّ مملكته مش من هالعالم.»

لم يكن يالو يفهم السياسة اللبنانيّة ولغة الحرب، لكنّه كان يشعر بنفسه غريبًا عن كلّ شيء، يرى ظلّه القادم من عتمة التاريخ، ويعيش مع رفاقه القادمين في أغلبهم من نواحي الجزيرة في سوريا، من أجل أن يموتوا دفاعًا عن وطن ليس لهم.

أراد يالو أن ينسى كلام الحرب، ويأخذها بوصفها لعبة. كان يلعب كأنّه يمثّل في فيلم سينمائيّ، وعندما يشارك في معركة يشعر أنّه بطل. غير أنّ شعور البطولة تلاشى مع الوقت. وصار حين يسمع كلام أمّه نقلاً عن الكوهنو عن لا جدوى الحرب، يشعر بالحزن. «نحن يجب أن نبقى خميرة، نحن لا نحارب يا ابني، الخميرة لا تتقاتل مع العجين، بل تدخل فيه وتخمّره كي يصير خبزًا. توقّف عن الحرب واذهب إلى المدرسة، لازم تصير كوهنو متل جدّك.»

كان يالو يخاف من صورته حين يراها في عيني أمّه، وقد تحوّلت نسخة مصغّرة عن جدّه الكوهنو. يخاف من اللّحية البيضاء ويشعر بالسأم. لا، ليس مشهد العظام المغطّاة بالثياب الممزّقة هو ما أخافه، إنّه السأم. فالحرب تصير رتيبة عندما تصبح حقيقيّة. فكرة الحرب تغري وتعطيك شعورًا بالبطولة، أمّا الحرب نفسها فأمر مضجر وثقيل الظلّ.

سعيد المنصوراتي كان يحلم بأن يصبح مطربًا. يا حرام كيف اختفى، حتّى عظامه لم يعثر عليها أحد. لذلك وافق يالو على الذهاب إلى باريس، رأى شبحه يمشي في باريس قبل أن يصبح شبحًا في ليل بلّونة المليء بأشجار الصنوبر وتأوّهات العاشقين. وحين صار في السّجن، وأمامه الأوراق البيضاء، بدا الأمر

مضحكًا. فهو يكره الكتابة، ولا يحب فروض الإنشاء. لكن عليه الآن أن يكتب قصّة طويلة اسمها قصّة حياته!

في مدرسة القدّيس ساويروس لم يكن يالو تلميذًا خاصًا، كان عاديًا في كلّ شيء، يدرس وينجح ويصعد من صفّ إلى صفّ، لكنّه لم يكن يمتلك شعلة الرّوح بحسب جدّه الكوهنو. كان متفوّقًا في اللّغة العربيّة بسبب الكتب التي كانت تجلبها أمّه ولا تقرأها، وهذا كلّ شيء. لكن يالو لم يكن يكره المدرسة. يطفو رأسه فوق تلامذة صفّه، لأنّه كان الأطول، يجلس في المقاعد الخلفيّة، ويقول له الملفونو حليم بأنّه جميل مثل فتاة حلوة.

«أنا متل البنت يا ملفونو؟ ولو!»، يقول يالو في مكتب المدير الذي كان يدعوه دائمًا من أجل أن يعطيه كتبًا للمطالعة. يضع الملفونو يديه على عيني تلميذه الواسعتين، ويقول له إنّ فمه مثل الكرز.

لم يكن يالو يفهم في تلك الأيّام معنى الجنس. لكنه رأى في عينيّ الملفونو الذي كان يدرّسهم اللّغة العربيّة والحساب شيئًا يحترق. لا ليس صحيحًا ما قاله سعيد منصوراتي: «كلّنا مرقنا على حليم، ما كان يشبع.» يالو لا يذكر سوى يد الملفونو على عينيه وشفتيه. لكنّهم يقولون شيئًا آخر. يتحدّثون عن قدرة الملفونو على التحايل، ويرسمون بأصابعهم دوائر حول الفخذين.

«يا عيني على حليم يا عيني»، يقول طوني، بعد أن يصبّ لنفسه كأس عرق «والله ما في حدن بالعالم عنده أصابع خفيفة مثله.» يضع يده على عضوه ويشدّ معيدًا جملته، «والله ما في متله.» والغريب هو ذلك الإجماع على أنّ الملفونو حليم

ضاجعهم جميعًا.

ذاكرة يالو تقول غير ذلك. فالمسألة لم تتعدَّ، في رأيه، الملامسات البريئة. يجلس الملفونو خلف مكتبه، ويطلب من تلميذه الاقتراب من أجل أن يريه أخطاءه الإملائيّة، وعندما يقترب من الطاولة، يطلب منه أن يبرم ويأتي ناحية الكرسيّ حيث يجلس الملفونو، يمدّ الملفونو يده ويضعها على أعلى الفخذ.

«والله ما في متله»، يصرخ طوني، «وينك يا حليم وينك.»

«ما تقول حليم»، يقول سعيد المنصوراتي، «كنّا نسمّيه الملفونو حليب، يا عيني ما ألذّه، كانت إيدو تلعب بطريقة عجيبة، وأنا ما بحياتي حسّيت هيك إلاّ على إيدو.»

«شو كنت تحسّ؟» يسأل يالو.

«ليك ليك، عامل حالو ما بيعرف. أكيد افتعل فيه متل ما افتعل فينا كلّنا»، يقول سعيد ضاحكًا.

يالو لا يذكر شيئًا.

«أنت كنت البنت»، يقول سعيد، «كان يقول إنّك أحلى من البنات، ومرّة وحياة الله، مرّة وهو عم بملحسلي، صار يحكي عنّك وعن جمالك، ويمكن هيدي كانت أكتر مرّة تهيّجت فيها.»

«عنّي أنا!» يسأل يالو.

«نعم أنتِ، ما كلّنا مرقنا من تحت إيدو، كان يقول إنّه هيدي هي الطريقة الفلسفيّة لاكتشاف الحياة، هيك عمل أفلاطون مع أرسطو وأحمد شوقي مع عبد الوهاب، وهيك كلّ العباقرة.»

الملفونو حليم كان يقول إنّ يالو أجمل من الفتيات، ويمدّ أصابعه إلى الوركين كي يأخذ الفتى إلى النشوة التي تنبع من داخله. «الملفونو الفيّاض»، كانوا يسمّونه، «لأنّ اللّذة تفيض من

يديه»، قال طوني.

لكن يالو لا يذكر شيئًا، بلى يذكر أنّه كان أجمل من الفتيات، وكان ينسب هذا القول لأمّه.

عاش يالو مغامرات صغيرة مع الفتيات كانت أشبه بلحظات يسرق فيها الفتى اللّذّة. صحيح أنّه يستطيع أن يجد رابطًا بين سرقة اللّذّة في الحرب، وسرقات بلّونة، لأنّه في الحالين كان يشعر أنّه يقطف زهرة تتكوّر في أعلى الفخذين. كان يتروّس حول زهرته مستعيدًا ذلك المذاق الذي رسمته أصابع الملفونو حليم على شفتيه وعنقه وأعلى فخذيه.

لماذا الآن؟

لماذا يأتيه شبح الملفونو كأنّه يوقظه من موته ويعيده إلى حياة سرقتها منه شيرين ودعستها تحت قدميها؟

الشعور نفسه، الشعور بأنّك تتكوّر وتتقوّس. شعور بدأ مع ألڤيرا ثمّ استمرّ مع كلّ النساء. حتّى ترندده كان جزءًا من ذلك القوس الذي يشدّه إلى ما يشبه الموت. وكان حين يشعر بالزهرة تتكوّر بين فخذيه، يتذكّر مارون، ويرى الألم يشعّ من عينيه، ينحني على ألڤيرا ويكتشف الألم مرسوماً على فخذيها الأبيضين.

«الحرب تمحو الأسماء»، سوف يقول للمحقّق. لا لم يقل ذلك، قال إنّه في الحرب، لم يكن يسأل عن الأسماء.

«وفي الحرج؟» سأله المحقّق.

«لا يا سيدنا، هونيك أبدًا، ولا مرّة سألت عن الأسامي.»

«وشيرين؟!»

«شيرين غير شي.»

«مش ركّعتها وهدّدتها بالبارودة، وسألتها شو اسمها قبل ما تغتصبها؟»

«أنا؟»

«إي، إنتِ، لكن مين؟»

«أنا!»

«ليش ركّعتها وسألتها عن اسمها، وليش اغتصبتها بالقوّة والتهديد؟»

لا يعرف يالو من أين جاء المحقّق بهذه الحكاية. أراد أن يقول له إنّه مع شيرين نسي الألم. لكنّه لم يجرؤ، كيف يحكي عن الألم الذي انبجس من أحشائه كلّها. وعن زهرته التي ذبلت في التعذيب؟ كيف يحكي عن جدّه الكوهنو أفرام الذي كان يجلس في مواجهته يفتح الإنجيل ويقرأ عن بولس الرّسول: «شوكة في جسدي»، يطوي الكتاب ويقول: «انتبه يا ابني، الشوكة هي الخطيّة، والخطيّة بتوجع، انتبه على شوكتك.»

لم يكن يالو يعرف كيف يستطيع الإنسان الانتباه على شوكته ومن شوكته، والشوكة تتحرّك بين فخذيه كلّ يوم.

«مارون حرّكها»، قال لطوني حين كانا يحرسان اللّيل في ثكنة جورج عرموني ويتحدّثان عن النّساء، وطوني يفشّط عن مغامراته، ويكذب ويصدّق نفسه.

أخبر طوني عن مارون. قال، بعد أن علك سيجارته وأخذ منها نفسًا طويلاً وصل إلى أعماق رئتيه، إنّ مارون ابن سلمى الطبّاخة دلّه على شوكته. كان يالو في العاشرة من عمره عندما ذهب مع مارون إلى قنّ الدّجاج داخل حديقة منزل الطبّاخة. جلس مارون على حجر، أخرج عضوه وأمسك به وبدأ يردّد اسم

ماري. «على نيّة ماري، يلله شيلو والحقني.» أصيب يالو بالدهشة من حجم عضو مارون، كان طويلاً ورفيعًا ولم يكن مختونًا. أمسك مارون الذي كان في الرّابعة عشرة، شوكته الطويلة، بينما كانت اللّذّة تنتشر على وجهه، وضعها في راحة يده وخضّها صارخًا باسم جارتهم الأرملة ماري. توقّف مارون ونظر إلى يالو باحتقار: «شو باك خايف، ورجيني حمامتك»، فكّ يالو سحّاب بنطلونه وأخرج شيئه، كان صغيرًا وثخينًا ومنتصبًا. نظر إليه مارون وقال: «بعدو صغير، ما تخاف بكرا بيكبر، يلله الحقني على نيّة ماري.» لحقه يالو، جلس على حجر في مواجهته، أمسك عضوه وبدأ يخضّه، وجاءه الألم. ربّما جاء الألم من الدجاج، فيالو شعر بالقرف من مشهد الدجاجات السوداء التي وقفت مذعورة في زاوية القنّ. لكن مارون لم يتوّقف، كان يصرخ باسم ماري ويتأوّه ويحرّك كتفيه، ثمّ بدأ الاسم يتسارع ومعه تسارعت اليد أيضًا، ثمّ همد مارون. امتلأت يده بالأبيض الصمغيّ وصرخ مستحثًّا زميله. على صرخات مارون التي تردّد اسم الأرملة السوداء انبثق الألم في يد يالو. «عليها»، صرخ مارون، «عليها» قال يالو الذي بدأت حركة يده تتسارع، ثمّ فجأة انبثق شيء من داخله، وبدأت يده ترتجّ على وقع ضربات تأتي من عضوه، لكنّ الارتجاجات كانت تصطدم بحائط سميك يمنعها. تدافعت الارتجاجات في يد يالو ثمّ انطفأت ولم يخرج السّائل الأبيض.

ضحك مارون وبدأ ينشد: «قاديشات الوهو، قديشات حيلطونو، قديشات لو يو موتو.» قال ليالو أن لا يخف، فهو ما يزال صغيرًا، وعندما يكبر سوف يسقي بطون النّساء من سائله

الذي يحمل روحه. «الإنسان بصير يرجف لأنّه الروح موجودة هون بقلب الأبيض»، قال مارون.

انتظر يالو روحه التي أتت إليه أخيرًا. هذا الانتظار هو سبب الألم الذي سوف يرافق يالو في علاقته بروحه الداخليّة. فتلك الشوكة كانت تتحوّل زهرة، لكنّها تعود إلى شوكيّتها عندما يبدأ السّائل الأبيض في الانبثاق وتتسوّر بالألم.

«شوكتي تؤلمني»، قال يالو، وهو يقف وحيدًا أمام المرآة في الحمّام. رأى ماري، الأرملة المتّشحة بالسواد تحمل ابنها وتذهب إلى بيت إدوار سائق التاكسي؛ أمسك شوكته وصرخ بالألم. لم تخلع المرأة الثوب الأسود بعد وفاة زوجها الشّاب الذي كان يعمل في التمديدات الكهربائيّة ومات فجأة إثر إصابته بسكتة قلبية اهتزّ لها حيّ السريان في المصيطبة. كان في الأربعين، وكانت ماري زوجته في التاسعة والعشرين، أنجبا طفلهما الأوّل نجيب قبل الوفاة بستّة أشهر.

«سكتة قلبيّة»، قال الكوهنو لحفيده.

«كيف يعني بيسكت القلب؟» سأل يالو.

«يعني ببطّل يحكي»، قال الجدّ.

«ببطّل يحكي!»

«القلب بيحكي بالدقّ، قلب الإنسان بضلّ يدقّ وما بنام ولمّن القلب بنام يعني مات الإنسان»، قال الكوهنو.

شعر يالو بنبضات قلبه في عنقه، وسأل جدّه إذا كان يخاف من الموت.

«ما في موت»، قال الجدّ، «نحن منسمّي الموت رقاد، يعني نوم، الميت بنام، بيشلح الجسم وبنام، وبعدين يفيق فوق عند

أبو عيسى.»

«مين أبو عيسى؟» سأل يالو.

«أبو عيسى هو الله يا ابني، المسيح ابن الله، منشان هيك منسمّي الله أبو عيسى.»

نام قلب إدمون تاركًا الزوجة الشابّة، التي اتّشحت بالسواد، وحملت طفلها نجيب على ذراعيها.

الزوجة التي وجدت نفسها من دون معيل أو سند، صارت تشتغل في شركة الريجي، تلفّ السجائر، كما قالوا، وأصبحت عشيقة إدوار سائق التاكسي الذي روى عنها الأعاجيب.

تقرع الباب، فيفتح إدوار الذي يكون قد أعدّ مائدة مليئة بما لذّ وطاب، وخصوصًا قنّينة العرق البلدي وسمك البزري الصغير المقليّ، تشرب وتأكل وترقص. تلبس ثوب الرّقص الشرقيّ وترقص على إيقاع أغنيات الستّ أمّ كلثوم، وإدوار يركع بين قدميها ويغنّي.

ارتسمت صورة ماري في أذهان فتيان الحيّ على صورة راقصة شرقيّة تتلوّى كالحيّة على أنغام الموسيقى. ولا تتعب. وهذا يعود إلى الأخبار التي رواها إدوار أمام دكّان عبّودي، عندما كان يشرب البيرة مع الشباب ويتناقش معهم في أمور سباق الخيل.

تأتي حاملة ابنها على ذراعها، وقبل أن تشرب أو تأكل، تضع قليلاً من العرق على إصبعها، وتلحّسه لابنها، فينام الصبيّ، تضعه في الغرفة ثمّ تعود. تبدأ في الشرب ويبدأ جسدها في الانبلاج. روى إدوار كلّ شيء. قال إنّها في البداية كانت ترفض خلع فستان الحداد، فكان ينام معها بثيابها، ثمّ شيئًا فشيئًا بدأت

ترحرح، «وبعدين لمّن شلحت يا أبو الشّباب، يا عيني على البياض. كانت لابسة صدريّة حمرا وشنتيان أحمر، وقالت إنّ اللّون الأسود بيعملها حساسيّة، أحمر وأبيض وخود على رقص، يا عيني على الجمال، بياض متل لون الحليب، بياض مغربل بالبياض، أبيض على أبيض، وأنا دوب. وبعدين راحت، والله ضيعانها، أنا قلتلّها من الأوّل إنّي ما بقدر، الحقيقة أنّي خفت، أنا صحيح كنت مقرّر ضلّ أعزب، بس قلت ليش لا، ما بعرف شو صرلي، قلت بتجوّزها، بعدين قلت لا، ما بقدر. أكيد هي يللي قتلت زوجها، مين بيقدر يروّض هيك مهرة، أنا ما بحياتي شفت هيك، بسّ قرّب عليها حسّ إنه الميّ عم تطلع من جوّاتها، بير، والله فيها بير ميّ ما بيخلص، يا عيني ما أطيبها، بس أنا خفت. قالتلي إنّو كلّ النّاس صارت عارفة بقصّتنا وأنّو لازم نستر يعني لازم نتزوّج. قلتلّها ما بقدر، خفت تقتلني متل ما قتلت زوجها. مية مرّة سألتها كيف مات، ومية مرّة ما جاوبت. يا عمتي ما حدن شاف الزلمي بالصالون. قالوا مات بالصالون بعدما طلب شربة ماي وفنجان قهوة. ركضنا على الصريخ، وفتنا على الدّار، وما لاقينا حالنا إلاّ بغرفة النّوم والمرحوم ممدّد على التخت ومغطّى بشرشف أبيض. كان لابس قميص بيضا من فوق، بس ما حدن شاف إذا كان لابس شي من تحت، وكانت ماري واقفة حد التخت وشعرها منبوش. ولمّن وصل الحكيم أمرنا نطلع من الغرفة، وما سمح إلاّ لماري تبقى جوّا. وبعد دقيقة ظهر الحكيم وقال العوض بسلامتكم، سكتة قلبيّة. وكان كأنّه عم يبتسم. يعني شو؟ يعني القصّة مش فنجان قهوة. مية مرّة سألتها، وكانت تبتسم متل الحكيم وما تجاوب.

تكرع من كأس العرق ويطلع شي متل النار من صدرها. يعني شو... يعني مزبوط، مات لأنّه ما قدر يتحمّل جمالها، وبدكم ياني أتزوّجها وموت أنا كمان.»

الكلام الذي نُسب إلى السّائق، جاء بعد رحيل ماري وابنها إلى جهة مجهولة. قيل إنها انتقلت للإقامة في قرية الشويفات، حيث عاشت في كوخ بالقرب من معمل الريجي. لكن كلام إدوار شكّل فتنة ليالو ورفاقه.

فتنة ماري جاءت من بياضها الموشّى بشامة في أعلى عنقها. امرأة في الثلاثين، وجهها الأبيض مرشوش بالنّمش الذي ينحدر إلى أعلى نحرها، متوسّطة القامة، شعرها الأسود الطويل مرفوع كقبّعة على رأسها، تحمل طفلها الصغير وتمشي، والشهوة تمشي حولها.

يالو ومارون وجميع فتيان الحيّ ظلّوا يستحلبون على نيّتها، رغم اختفائها من الحيّ. مارون يتدفّق بالأبيض، ويالو مع الشوكة التي نبتت بين فخذيه، يصرخ باسمها وبالألم.

مع ماري صار يالو ينظر إلى النّساء بطريقة مختلفة. صار مسكونًا بالجنس، يرى امرأة تسير في الشارع فيتخيّلها خارجة لتوّها من السّرير. يراها عارية وإلى جانبها رجل غامض الملامح مغمض العينين. كانت العينان المغمضتان تضاجعان جميع النساء في شوارع بيروت. وبدأ خياله يأخذه إلى مطارح بعيدة إذ لم يعد يميّز بين امرأة صبيّة وامرأة كهلة. كلّ النّساء أصبحن في خياله عاريات في سرير العينين المغمضتين. حتّى أمّه دخلت في الصّورة. يرى غابي، التي تربط شعرها كوكينة مدوّرة وتجلس خلف ماكينة الخياطة بقميصها الأصفر الفاتح، والخيّاط الياس

الشامي يحوم حولها ويضاجعها. كان يالو لا يرى سوى عالم مكتظّ بالرّغبات. كأنّ كلّ النّساء أصبحن امرأة واحدة متعدّدة الرّأس. يمشي في الشّارع أو يلعب مع أقرانه، وحين يرى امرأة يمحي كلّ شيء، ولا تبقى أمام عينيه سوى صورة اللّون الأبيض.

وحين انطلق الأبيض في يده، كان يالو وحده، ولم تكن ماري، بل كانت ألڤيرا. في ذلك الصباح الرّبيعي استيقظ يالو على ماء يغسله من الأسفل، وعلى شفتيه ترتسم ابتسامة بلهاء. وبعد سنوات، عندما ستسأله شيرين لماذا يبتسم، سوف يجاوبها بأنّ الحبّ يجعل العاشق أبله، وسيسألها متى ستصاب بالبلاهة مثله.

متى قال لها ذلك؟ ومتى أجابته بأنّه يضحكها؟ ومتى شعر نحوها بحبّ جارف افترسه من الدّاخل، وجعله يمارس الاستحلاب قبل اللّقاء بها، من أجل أن يأتي إليها شفّافًا وطاهرًا بالحب؟

يحار يالو المرمي هنا وحيدًا ومعزولاً كيف ينظّم ذاكرته؟ يحار لأنّ الأشياء تأتيه دفعة واحدة، الصور تختلط في رأسه، والأزمنة تتداخل في وعيه، كأنّه صار كهلاً. الكوهنو قال له مرّة وهو يرتجف فوق أوراقه، إنّ المرحلة الأخيرة من العمر تصبح منامًا طويلاً، وإنّ القدّيس أفرام السريانيّ استفاق من منام الموت حين نجح في تحويل جسده صلصالاً متماسكًا، وصار مثل جدّنا آدم قبل أن ينفخ الله روحه فيه.

«وكيف دفنوا مار أفرام؟» يسأل يالو.

«كسّروه، ما قدروا يدفنوه قبل ما يكسروه قطع صغيرة،

وهيك نزّلوه على القبر.»

...

«وأنا هيك»، قال الجدّ، «لمّن بيخلص العمر بصير الإنسان متل الفخّار، وما بيعود يقدر يميّز الحقيقة من الوهم والماضي من الحاضر، وبصير متل الولد الصغير.»

ابتسم الجدّ وهو يروي لحفيده عن جسد مار أفرام الذي صار مثل الفخّار، فرأى يالو الهبل يرتسم على الوجه المغطّى بالشعر الأبيض، ورأى الصلصال وقد امتدّ إلى الكفّين الخارجين من ثنايا الجبّة السوداء. ارتسمت الكهولة على يدي الجدّ على شكل فخّار مخبوز بالشمس، بقع سوداء وأصابع رفيعة، وعظام كأنّها طبقة صلصاليّة تحتيّة، ورائحة تراب. وعندما اشتدّت أوجاع الروماتيزم على الجدّ، وبدأ التخشّب يصيب اليدين والقدمين، شعر يالو بالخوف، ورأى جدّه وكأنّه صار تمثالاً من الفخّار، وبدأ يتخيّل نفسه وهو يقوم بتكسير الجسد الفخّاري من أجل وضعه في التابوت.

صار ليل يالو مليئًا بهوس الفخّار. يرى جدّه في أشكال متعدّدة، يراه جثّة ضخمة منتفخة بالتراب الذي خمّرته الشمس، ثمّ يراه قطعًا صغيرة مرصوفة على السّرير، أو يرى نفسه حاملاً مطرقة ضخمة ينهال بها على الجسد الفخّاريّ تحطيمًا، والدم يسيل على يديه وثيابه.

وأمام ألكسي، الذي لم يبق منه سوى عظامه البيضاء وثيابه الممزّقة، رأى يالو وجه جدّه وهو يتأفّف من إصرار ابنته على إطعام حفيده قطع كبد الخروف النيئة من أجل شفائه من فقر الدم الذي يعاني منه. الجدّ يسدّ أنفه بأصابعه من رائحة الدم التي

تطفو على شفتي يالو العاجز عن مقاومة يدي الأمّ التي تحاصر شفته بلقمة الكبد النيئ المصحوبة بالنعناع الأخضر والبصل الأبيض.

يغادر الجدّ المائدة وهو يردّد نظريّته عن المقبرة: «بطن الإنسان ليس قبرًا» يقول الجد، «ليش يا بنتي عم تعملي هيك بالصبي، معدة الإنسان ما لازم تكون مقبرة للحيوانات الميتة، الإنسان صورة الله. شو هالوحشيّة، منقتل الحيوانات ومنقبرها ببطوننا، ومنصير كأنّا قبور ماشية على الطرقات. بصير الإنسان مقبرة كبيرة. المعدة قبر والرّأس والعيون هنّي الشواهد. وبعدين لمّن بموت الإنسان بياكلو القبر يلّلي ببطنو. بصير بطن الإنسان هو قبره. لمّن الإنسان بياكل الحيوانات التي بيقتلها بكون عم يبني القبر ببطنو. القدّيسين ما بتتعفن أجسادهم وما بياكلهم الدود لأنّهم ما بياكلوا لحم الموتى. شو الإنسان مقبرة؟!»

الجدّ يتكلّم عن القبور، ويالو يتخيّل بطنه قبرًا للحيوانات، ويبكي أمام يد أمّه الصارمة التي لا ترحم الخروف الصغير الذي صار كبده النيئ قطعًا تدحشها في فم ابنها الذي يعاني من الهزال. في الثامنة من عمره، أعلن يالو إضرابًا عن أكل اللّحم، وكان على الأمّ أن تتحايل على ابنها، فتطبخ اللّحم مع البرغل، وتكذب عليه وتقول إنّها كبّة بطاطا. عاش يالو على الأكل المزوّر. هذا ما روته له أمّه، عندما صار يذهب إلى نادي «سنحاريب» ويمارس الرياضة البدنيّة وكمال الأجسام، وصار لا يأكل سوى اللّحم، ولا يبحث في الطعام إلاّ عن البروتيين كي يتجاوز هزاله وتتشكّل عضلاته.

الحرب أنست يالو كمال الأجسام، لكنّها لم تنسه حكايات

جدّه عن المعدة ـ المقبرة، أو عن حياته مع الأكراد ومشاهد الذبائح المعلّقة على مدخل البيت وروائح الدم، والملاّ يرفع عباءته عن قدميه ويفشخ فوق الدم وينتقي قطع اللّحم التي يأكلها نيئة، وحوله نساؤه وأولاده.

«كنت آكل متلهم، أهجم على الحيوان المدبوح ومد إيدي على الدم، وكنت ضلّني جوعان، ما كنت خاف إلاّ من الجوع، حسّ حالي وحيد وغريب، وكانوا إخوتي يعني أولاده يسمّوني ابن النصرانيّة ويسرقوا الأكل من قدّامي، وضلّني خايف موت من الجوع. ولمّن هربت، لا أنا ما هربت، خالي إجا وعرض يشتريني، بس بيّي، يعني الملاّ، رفض يبيعني، بصق على الأرض وقال هو حرّ يعمل شو ما بريد، وما لقيت حالي إلاّ وأنا مع خالي بالقامشلي، وهونيك حسّيت إنّي غلطت، فهربت على بيروت واشتغلت بلاّط، وبعدين إجتني الدعوة وصرت كوهنو. كنت راكع تحت إيد سيدنا المطران وهو عم بباركني فشفت حياتي كلّها. مش بقولوا إنّه الواحد بلحظة موته بشوف حياته كلّها متل شريط صور، أنا شفت حياتي تحت إيد سيدنا المطران وشفت الدم. شفت الخواريف والعجول معلّقة قدّامي، وصرت أبكي، حسّيت الدم عم ينزل من عيوني بدال الدموع، وكان طعم كلّ شي مالح، وشفت العجول عم تبكي. العجل قبل ما يندبح بصير يبكي متل الولد الصغير، حسّيت حالي عم بندبح. خلصت الصّلاة وضلّيتني راكع مطرحي، كان لازم فوت على الهيكل وشارك بالقدّاس، بس ما قدرت أوقف، حسّيت إجريي تجمّدوا، فضلّيت راكع وعم ببكي. بعدين مسكني سيدنا الله يرحمه من كتفي وقلّلي يا أفرام، وأنا راح عن بالي أنّهم سمّوني

أفرام، أنا اسمي هابيل أبيض، قلت مين أفرام؟ قلّلي شو باك يا ابني يلّلا قوم، إنت صار اسمك بقوّة الرّوح أفرام، اسمك العتيق لازم تنساه، ابصق على الشيطان وقوم. قمت، ويومها قرّرت بطّل آكل لحم، وصارت مرتي تضحك عليّي، متل ما أمّك كانت تضحك عليك، وما صرت سيّد مصيري إلاّ بعدما توّفتْ ستّك الله يرحم ترابها، كانت تخلط اللّحمة بكلّ شي وتقلّلي هيدا أكل نباتي، وأنا يا غافل إلك الله، وبعدين اكتشفت لأنّه بعد موتها تغيّرت ريحة جسمي، راحت منّي ريحة الزنخة، وقرّرت أنّني لازم صير فخّار، وما آكل إلاّ من نبات الأرض. الأساسي بالأكل لازم يكون العشب، وأهمّ عشب هو خبز العرب، يعني الخبّيزة. كول عشب وبس، ليش صرت هيك يا ابني، أنت وصغير كنت متل القدّيس، هلّق صرت وحش وبطنك صار مقبرة.»

ألكسي صار مقبرة نفسه، ولم يبق منه سوى كتلة من العظام والثياب الممزّقة، التي تجمّعت حولها شهقات رفاقه الخائفين منه.

رأى يالو نفسه قبرًا بعد ليلة ألكسي، رأى موته على شكل صرخات تتداخل بالنّهش الذي افترس أسفله، وأحسّ أنّ الموت رحمة. كانت ضحكات الضابط الذي يحمل قضيب الخيزران في يده، وكأنّها أصداء أصوات بعيدة آتية من خلف الموت. حاول أن يصرخ، لكن صوته جاء على شكل مواء خافت،ثمّ أخذه الدوار إلى السّكون. هناك في الصّمت لعق بقاياه، دون وعي منه، كأنّه بدأ يأكل نفسه قبل أن يدخل إلى القبر.

يومها اعترف يالو بكلّ شيء.

ماذا قال؟ لم يعد يذكر، لكنّه استمع إلى صوته المرتجف

وركع على الأرض وقال للضابط إنّه مستعدّ أن يبوس حذاءه. انحنى على الحذاء وقبّله، ولم يرَ كيف تقلّصت عضلات وجه الضّابط بالمجد والعظمة. الضابط كان يتمتّع بنصره على هذا الرّجل المستلقي أمامه وقد تحوّل كتلة من الخراء والبول.

«إنت خرا»، قال الضابط، «سامعني، عم بسألك إنت شو؟»

...

«جاوب على السؤال.»

«أنا خرا»، قال يالو.

امتدّت قهقهات الضابط في فضاء الغرفة المليء بالرّائحة النتنة، وصارت تشبه لسعات الكرباج الذي انهال على ظهر يالو.

اكتشف يالو أنّ الإنسان يستطيع كلّ شيء. هكذا علّمته مدام رندة. معها اكتشف جسده كأعضاء متفرّقة للّذّة، ثمّ علّمته التقبيل. لا، القبلة كانت الدرس الأوّل الذي لقّنته إيّاه ألڤيرا التي تزوّجت عيسى مدير فرع بنكو دي روما في الحمرا، رغم أنّها تحبّ يالو. لكن نساء الحرب أنسينه طعم تلك القبلة إلى أن جاءت مدام رندة وترنددت بشفتيه.

قالت له ألڤيرا إنّها تحبّه لكنّها سوف تتزوّج عيسى لأنّه غنيّ. ويالو لم يحزن، صحيح أنّه كان يحبّ تلك الفتاة التي تكبره بخمس سنوات، لكن حين قالت إنّها ستتزوّج، شعر وكأنّه سمع هذا الكلام من قبل، وأنّه كان يتوقّع هذه اللّحظة من زمان. نظر إليها بعينين حزينتين ثمّ رفع فستانها كي يلقي على فخذيها الأسمرين لمسة الوداع.

بعد ألڤيرا نسي يالو الحبّ في غمرة انغماسه في الحرب ونسائها. من أين كنّ يأتين؟ ولماذا كان الحبّ مثل القتل؟ ولماذا

كان طعم كلّ شيء خشبيًّا؟.

القبلة الأولى كانت في مدرسة البنات الرسميّة، هناك كان يالو ورفاقه يتلصّصون على الفتيات، وهنّ يلعبن الكرة الطائرة، ويلبسن شورتات قصيرة تكشف أفخاذهنّ. كانت العيون تتسلّل من خلال الباب الحديديّ المشبوك، حيث تولد الرّعشة التي تكسر البنطلون وتنتصب شوكة تحتاج إلى قطاف. ألڤيرا كانت تقفز بفخذيها السمراوين المصقولتين خلف الشبك الحديديّ. هناك علّمته ألڤيرا كلّ شيء. كانت تعود إلى الحيّ معه، وتتلفّت إلى الخلف كأنّها خائفة. ينتظرها بعد ظهر كلّ سبت خلف باب المدرسة، وعندما ينتهي اللّعب، تلبس تنورتها الكحليّة القصيرة فتجده في انتظارها، يمشيان سويًّا من رمل الظّريف حيث مدرستها إلى البيت في حيّ السريان. تمسك بذراع يالو وتقول: «إنت أصغر منّي بخمس سنين، يا دلّي إذا عرفت التانت غابي إنّي شنكلتك.» وعندما قال لها إنّه يحبّها، ربّتت على ظهره وقالت: «روح العب مع بنات من عمرك.» وشدّت على كوعه، فاشتعلت شوكته بالرّغبة وحاول أن يقبّلها على عنقها، «مش هون على الطريق»، قالت. وأمام بيتها دعته إلى الصعود، فتردّد. «طلاع بدّي ورجيك شي.» صعد معها ليجد البيت فارغًا، جلس في الصالون، فطلبت منه أن ينتظرها قليلاً لأنّها سوف تأخذ دوشًا. جاءت بعد الدّوش بفستان أبيض واسع، وجلست إلى جانبه وقبّلته على شفتيه. فانحنى نحوها، ووضع شفتيه على شفتيها وشدّ متخيّلاً أنّه يفعل كما في الأفلام السينمائيّة. أبعدت ألڤيرا رأسها وقالت: «مش هيك، غمّض عيونك وما تتحرّك.» أغمضهما، وشعر بشيء يعربش حول شفتيه، فضمّها من جديد.

«قلتلّك مش هيك، قعود وما تتحرّك.»

طلبت منه إغماض عينيه، فأغمضهما، وبدأت شفتاها تتسلّقان وجهه، ثمّ أحسّ بشفة تدخل بين شفتيه، وبدأ الطعم يتسلّل إلى فمه، وأحسّ لسانها على لسانه وبدأ الدوار. انسحبت الشفتان وسمع صوت ألڤيرا تطلب منه أن يفتح عينيه، ويقبّلها كما قبّلته. أغمضت عينيها واتّكأت على حافّة الكنباية، فتقدّمت شفتاه من وجهها، وبدأت تتسلّقه في بطء، وصلت إلى شفتيها، حاول أن يدخل شفته العليا بين شفتيها فلم يستطع، أحسّ أنّه سوف يأكل الشفتين الملوّنتين بالأحمر، فتح شفتيه وأخذ شفتيها داخلهما، فأحسّ يدها تدفعه إلى الوراء، لكنّه لم يتراجع، أخذ فمها كلّه، ثمّ شعر بلسانه، وبدأت شفتاه تنفرجان وتدخلان لعبة التقبيل. قبّلها ولم يشبع، حتّى انتشر الألم على شفتيه، وألڤيرا تنتظر قبلاته، تسند رأسها على يدها وتغمض عينيها وتدعوه إلى مائدة الشفتين.

«أخ»، قال يالو، «صاروا شفافي يوجعوني.»

وقفت وقالت إنّها ستعدّ فنجاني شاي، وقف يالو واحتضنها. وفي تلك اللّحظة حين التصق جسده بجسدها انبجس الماء، وارتجف يالو باللّذة التي أتت قبل أن يبدأ، أحسّ بوجع شوكته وظلّ قابضًا على خصر الفتاة التي همست ترجوه أن يتراجع قليلاً إلى الوراء.

«الله يخلّيك الله يخلّيك، هلّق بتبلّلي فستاني.»

تراجع، فرأى البقع على بنطلونه، وظلالاً من الماء على فستانها، قبّلته بسرعة وطلبت منه أن يذهب قبل أن تعود أمّها إلى البيت وتراه في هذه الحال.

«وأنا شو بعمل؟» سألها.

«ما تعمل شي»، قالت، «امش شوي قبل ما تروح على البيت، بنشّف البنطلون.»

أصبح المشي رياضته الإجبارية مع ألڤيرا، يوصلها إلى بيتها ويضمها خلف البوّابة في مدخل البناية، ثمّ يمشي ساعة كاملة من أجل أن ينشف الماء قبل أن يعود إلى بيته.

كلّ شيء تغيّر حين أخذته ألڤيرا إلى «ستيريو» اسمه «كارتييه لاتان»، يقع في حيّ الرملة البيضاء قرب السفارة المصريّة. هناك جلسا في العتم ورقصا «التانغو»، وبينما كان يراقصها أحسّ بشوكته فقالت له: «لا، مش هيك اليوم»، وعادت به إلى الزاوية المعتمة حيث كانا يجلسان. طلبت منه أن يفكّ سحّاب بنطلونه وأخذت الشوكة بيديها ووضعتها بين فخذيها، وهناك في العتمة رآها، رأى الشورت القصير والفتاة التي تنطّ مع الطابة الطائرة، وانفتح قلبه وأراد أن يصرخ، وضعت يدها على فمه وطلبت منه أن يأتي. «يلله تعا يا حبيبي.» عندما سمع كلمة «تعال» انفجر كلّ شيء، وانتشر دمه الأبيض على فخذيها. أخذت ورقة كلينكس ومسحت الماء المتدفّق: «شو هيدا يا بطل»، قالت. مسحت الشوكة وأعادتها إلى مكانها داخل البنطلون.

أمسك يالو كأس النبيذ أمامه كي يشرب. «لا»، قالت، «مش هلّق، هلّق أعطيني إيدك.» أخذت يده ووضعتها تحت تنورتها، وصارت تتحرّك وتتأوّه، وطلبت منه أن يقبّل أذنها.

«لا مش هيك، حطّها بين شفافك.»

وضع أريلة الأذن بين شفتيه ولحسها بلسانه، فسمع صرخة ألڤيرا المكتومة، لكنّه تابع تحريك إصبعه.

«خلص»، قالت، «شيل إيدك عم بتوجعني.»

سحب يده وشرب كأس النبيذ الأحمر دفعة واحدة، وقال لها إنّه يحبّها، «بحبّك أكتر شي بالعالم.»

«بعدك صغير على الحب» قالت. «هلّق انبسط وبعدين منشوف.»

صارا يذهبان إلى «الستيريو» مرّة في الأسبوع. تنتهي من الرّياضة، فينتظرها في مقهى «الجندول»، تذهب إلى بيتها، تتحمّم وتعود، ويذهبان إلى عتمة المرقص.

مرّة واحدة مارس معها هذا النّوع من الحبّ في الضّوء وكان ذلك يوم أخبرته قرارها بالزواج من عيسى.

«بس هو أكبر منّك بكتير»، قال.

«وأنا أكبر منّك»، قالت.

طلبت منه أن يلبس بنطلونه ويعود إلى بيته. عاد دون أن يضطر إلى المشي في الشوارع، عاد وهو يشعر بلسانه. يومها قبّل ثدييها ولحوسها كلّها واكتشف خريطة جسدها. لكنّها تركته إلى الزواج، وعاد إلى مرآته يحاول أن يتذكّر الأرملة السوداء، ويحترق بنار الغيرة من رجل لا يعرفه.

استفاق يالو أمام الحذاء. مدّ يده إلى أسفله كي يتأكّد من أنّ أعضاءه لاتزال في مكانها ولم يفترسها الهرّ. انحنى وقبّل الحذاء، معلنًا استعداده للاعتراف بكلّ شيء.

«بتعترف بالاغتصاب؟» سأل الضابط.

«بعترف.»

«وأنّكم عملاء لإسرائيل.»

«بعترف.»

«وأنّكم كنتم تتلقّوا الأوامر من أبو أحمد النذّاف.»

«بعترف.»

«وأنّكم حطّيتوا المتفجّرات بأنطلياس والأشرفيّة.»

«بعترف.»

«وأنّك كنت مسؤول الشبكة ببيروت وجبل لبنان.»

«بعترف.»

«عال، هلّق بعد ما اعترفت بكلّ شي رح ننقلك على الحبس، وأكيد رح تاخد المحكمة بعين الاعتبار أنّك تعاونت مع التحقيق، وتلاقيلك أسباب تخفيفيّة.»

«شكرًا يا سيدنا.»

«هلّق بتمضي على أقوالك، وبعدين بتبلّش الجلسات الحقيقيّة.»

«بعد في جلسات يا سيدنا، أنا اعترفت متل ما بدكم.»

قال يالو إنّه يريد الاعتراف بكلّ شيء الآن كي يخلص. قال خلص وأحسّ بطعم الكاوتشوك في فمه، قال إنّه عطشان وجائع.

«أنا عطشان يا سيدنا، وجوعان كمان، ممكن إشرب.»

«أكلت كلّ شي، وبعدك جوعان؟»

«أنا جوعان، بس متل ما بتريدوا.»

«ممكن تاكل وتشرب»، قال المحقّق، «بس بالأوّل لازم تمضي هالأوراق، رح نقرالك اعترافاتك وإذا كنت موافق عليها بتمضي وبعدين بيمشي الحال.»

«بمضي متل ما بتريدوا، ما في لزوم تقروا، بمضي على كلّ شي.»

بدأ صوت يقرأ. سمع يالو اسمه واسم والده واسم أمّه، سمع عن بلّونة وشيرين وإميل شاهين وعن عصابة المتفجّرات. سمع أسماء الضحايا، وهزّ رأسه موافقًا.

انحنى الضابط فوقه وأعطاه أوراقًا وقال إنّ الجلسات الحقيقيّة سوف يقضيها بمفرده لأنّ عليه أن يكتب قصّة حياته كلّها من الأوّل إلى الآخر، دون أن ينسى شيئًا.

في الزنزانة لم يستطع يالو أن يكتب، شعر أنّه سقط في البئر وصار عاجزًا عن التنفّس. فبعد جلسات التحقيق المضنية التي انتهت باعترافه بكلّ شيء، لم يعد يالو قادرًا على التذكّر. كما أنّه لا يعرف أن يكتب، فماذا يكتب؟ في مترو الأنفاق في باريس كتب الورقة الكبيرة وجلس حدّها مثل الشحّاذين تحت صفعات عيون المارّة. هناك شعر بوحشيّة اللّغة. كانت الكلمات الفرنسيّة التي لا يفهم معانيها تنهال على رأسه كالسياط. اشتاق إلى أمّه، واشتاق إلى أحد يتكلّم معه اللّغة العربيّة التي لا يعرف سواها. في نفق المترو بكى يالو عندما كلّمه الأستاذ ميشال سلّوم، بكى لأنّه سمع كلامًا عربيًا وشمّ رائحة لبنان. لكنّه هنا، في الزنزانة الانفراديّة يشعر أنّه لا يعرف أن يكتب.

قرأوا عليه اعترافاته بالفصحى، ووقّع الشاب الطويل النحيل بالعاميّة. في المرّة الأولى وقّع اسمه هكذا. أخذ المحقّق الورقة ورفع حاجبيه إلى الأعلى، ورفع الحاجبين في مخفر جونيه ثمّ في السجن، حين زاره المحقّق عدّة مرّات ليطلب منه إعادة كتابة ما كتب، فهذا يعني أنّ الأمور لا تسير على ما يرام، وأنّ التحقيق سوف ينعطف بيالو إلى التعذيب.

«شو هيدا؟» صرخ به الضابط.

«هيدا إمضائي.»

«شو عم تضحك علينا، مفكّر حالك ذكي!»

وعندما شرح يالو توقيعه انفجر المحقّق غاضبًا: «شو جايي تعلّمنا سرياني، ما إنت قلت إنّك ما بتعرف سرياني.»

«ما بعرف، بس أنا هيك بمضي.»

«لا، هيدا ما بجوز»، قال الضابط، نظر حواليه ورفع حاجبيه إلى الأعلى، فتيقّن يالو من أن التعذيب آتٍ لا محالة، فقال إنّه يعتذر عن هذا الخطأ غير المقصود، وإنّه مستعدّ أن يوقّع كما يريدون، فنظر الضابط إلى الكاتب وأمره بإعادة كتابة الصفحة الأخيرة، من أجل أن يوقّعها يالو باللّغة العربيّة.

أمسك يالو الورقة الجديدة بأصابع مرتعشة ووقّع عليها هكذا: يالو. ومرّة ثانية شتمه الضابط:

«شو هالخرينة، ليش ما بتكتب اسمك الحقيقيّ؟»

«هيدا اسمي»، قال يالو.

فاحتار الضابط قبل أن يطلب من الكاتب كتابة الاسم الكامل للمتّهم، ويكتب إلى جانبه الملقّب بـ يالو.

«خذوه»، قال الضابط.

أصعدوه إلى شاحنة أخذته إلى زنزانة انفراديّة، كانت عبارة عن غرفة صغيرة مساحتها أربعة أمتار مربّعة، لها طاقة في أعلى الجدار مسوّرة بشبك حديديّ، وعلى اليمين سرير حديديّ عليه ثلاث بطّانيّات صوفيّة، وفي الزاوية اليسرى طاولة فورمايكا خضراء وكرسي بلاستيكيّ أبيض. وعلى الطاولة وضعت أوراق بيضاء وقلم حبر سائل ومحبرة. وكان على يالو أن يكتب على هذه الطاولة قصّة حياته.

لو كان شاعرًا لكتب أنّه غرق في بئر الكلام وأنّه عانق اللّيل. وصار حبره أكثر سوادًا من اللّيل.

لو كان روائيًا لكتب مذكّراته بإيقاع واحد وأسماها «عين ورد». وبدأ الحكاية من الفتى الصغير الذي كان جدّه، وكيف عاش مجزرة القرية التي تقع في طور عابدين، وكيف قادته قدماه إلى القامشلي ومنها إلى بيروت، وكيف تحوّل من بلّاط إلى كوهنو، ومن جاهل باللّغة السريانيّة إلى باحث عن إحياء لغة تموت في فمه.

لو كان يالو حكواتيًا لجلس في السجن، وروى عن يالو الذي حارب كما لا أحد، وكان فارسًا وشجاعًا، ثمّ التحق بالتغريبة التي بدأها جدّه وهاجر إلى فرنسا التي عاد منها ليصير سيّدًا للعاشقين ومخدوعًا مثلهم جميعًا.

لو كان.

لكنّه لم يكن.

كان يالو شابًّا يحاول أن يقرأ في بياض الورقة حكايته التي لا يعرف كيف يرويها، ولغته التي لا يعرف كيف يكتبها، وذاكرته التي لا يعرف كيف يستنطقها. ورأى نفسه على صورة حمار وحشيّ تائه في البراري.

ألم يقل له جدّه الكوهنو، إنّ إسماعيل كان جدّ العرب والسريان والنصارى والمسلمين.

«يسمع الله، إسماعيل يعني الله بيسمع، والله ما بيسمع إلاّ لغة الدموع، نحن أولاد إسماعيل، تعمّدنا بالدمع قبل ما يجي المسيح وياخدنا على معموديّة الماء».

«سيكون أبًا لجمهور من الناس، وسيسكن البرّيّة كحمار

وحشيّ»، قال الكوهنو: «تذكّر يا ابني هالآية المأخوذة من العهد القديم، من سفر التكوين واحفظها، لأنك أنت أيضًا حفيد إسماعيل ورح تكون حمار وحشيّ.»

يكتب يالو عن الحمار الوحشيّ، يمزّق الأوراق ويكتب من جديد، ويغرق في بياض الصفحة الذي ينتصب أمامه مثل صحراء شاسعة.

اسمي يالو، دانيال جلعو، ابن جورج جلعو، ولقبي يالو. من حيّ السريان في منطقة المصيطبة بيروت. أمّي غابي، غبريال هابيل أبيض. أنا وحيد لا أخوة ولا أخوات. عشت مع أمّي وجدّي، أبي لا أعرفه، وستّي ماتت قبل أن أولد، يعني لا أتذكّرها أبدًا، أمّا أبي فلا أعرفه على الإطلاق، لأنّه سافر عندما كانت أمّي حبلى في شهرها السّابع بي. هيك أخبروني. قالوا إنّه هاجر إلى السويد، وإنّ جدّي طرده من البيت عندما اكتشف أنّه ليس سريانيًا. لا أعرف أكثر عنه. أعرف أنّ جدّي الكوهنو أفرام أبيض وافق على زواج أمّي منه من أجل حلّ مشكلة كبيرة. أمّي كانت تحبّ رجلاً متزوّجًا وأكبر منها بعشرين سنة، كانت تشتغل عنده في معمل الخياطة، واسمه الياس الشامي، وهو خيّاط مشهور. أنا لا أعرفه بشكل جيّد، كان يزورنا بعض المرّات في البيت، ويأخذني مشاوير مع أمّي، وأذكر عويناته وحواجبه يلّلي كانوا سماك وشايبين. كنت أخاف منه ومن عويناته السود، ثمّ انقطع فجأة عن زيارتنا، بعد أن اكتشف جدّي أنّ أمّي عادت إلى علاقتها مع الخيّاط. أمّي حلفت لجدّي أنّني لست ابن

الخيّاط، بل أنا ابن جورج جلعو، جدّي لم يصدّقها، لكن ما هو الفرق؟ لو كان هذا أبي أو ذاك، فإنّه لا يغيّر شيئًا في حياتي لأنّ أبي الحقيقيّ هو جدّي الكوهنو.

أمّي تزوّجت أبي عندما كانت في العشرين من عمرها. أي أنّ أمّي تكبرني بواحد وعشرين سنة فقط، وأنا أحبّها كثيرًا. جدّي اكتشف أنّ جورج جلعو كذّاب، ولما قرّر أبي أن يهاجر، رفض جدّي أن تذهب أمّي معه، قال له روح ودبّر حالك وبعدين ابعث ورا مرتك. هلّق مرتك حبلى ويجب أن تهتمّ بصحّتها. فذهب ولم يعد. قالوا إنّه لم يسافر إلى السويد بل رجع إلى حلب، فهو حلبيّ من عائلة كانت غنيّة ثمّ افتقرت، وكانوا يشتغلون في تعشيق الخشب، ثمّ تراجعت صنعتهم. جاء أبي إلى بيروت واشتغل في دكّان سليم رزق الأعمى، وسليم كان صديقًا لجدّي، لكن أبي سرقه. وهيك عرف جدّي أنّ أبي حلبيّ من طائفة الرّوم الكاثوليك مثل الخواجة رزق، وأنّه كذّاب وسرّاق. كان جدّي عندما يزعل منّي يقول لي إنّي طالع لأبي، وسوف أصير سرّاقًا مثله، ولازم روح على حلب فتّش على أصلي وفصلي، لأنّني بلا أصل. وبعدين يرجع يندم ويقول لي إنّي أنا ابنه الوحيد، وإنّ الله لم يرزقه صبيًا، رزقه ابنتين أمّي وأختها سارة التي تزوّجت جاك كسّاب وسافرت معه إلى السويد، وإنّهم هناك يحكون سريويو في

الشّوارع، وصار عندهم راديو وتلفزيون بالسريويو، بس هذا لا يفيد، لأنّ اللّغة خارج أرضها تموت. وإنّ الله عوّض عليه من خلالي، أرسل له ابن جلعو من أجل أن يجيء الصبيّ، وإنّه مثل زكريا النبيّ أصيب بالخرس قبل أن تلدني أمّي. بقي ثلاثة أيّام لا يستطيع أن يحكي. وبعدين، عندما كانت أمّي في الطلق نطق جدّي، وقال إنّه صبيّ، وإنّه رأى النبيّ دانيال في منامه، لأجل ذلك أسموني دانيال، وصار اسمي يالو.

اسمي الكامل هو دانيال جورج جلعو، من مواليد بيروت ١٩٦١ درست في مدرسة القدّيس ساويروس في حيّ السريان في منطقة المصيطبة. وكنت أشتغل في الصيف في دكّان الخواجة رزق. ثمّ بدأت الحرب. اضطرينا للهجرة إلى منطقة عين الرمّانة - حي المراية، ودرست في العطشانة، ثمّ انتقلت إلى مدرسة التقدّم قرب مركز ميرنا شالوحي في سنّ الفيل. عام ١٩٧٩ التحقت بالقوّات اللبنانيّة، وصرت مقاتلاً، وبقيت مقاتلاً حتّى أواخر سنة ١٩٨٩. خضعت لعدّة دورات عسكريّة في منطقة ضهر الوحش، لكنّي لم أذهب إلى إسرائيل للتدريب لأنّني لم أكن أهلاً لدورة مظليين بسبب طولي، فأنا طويل جدًّا، ١٩١ سنتم، بعض شباب كتيبتنا التي كانت تسمّى «كتيبة التيوس»، ذهبوا إلى هناك وتدرّبوا هذا صحيح، أمّا أنا فلا. صديقي طوني عتيق أخذني إلى

دورة التدريب، وقال إنّ الخواجة نبيل أفرام يجنّد شباب الطائفة، وإنّنا أصبحنا نسيطر على أكبر ثكنة في الأشرفيّة، وهي ثكنة جورج عرموني.

في الحرب، تعرّفت على كثير من الشباب، وخصوصًا شباب سريان جاؤوا من سوريا، وكان دافعهم للالتحاق بالحرب هو الحصول على الجنسيّة اللبنانيّة. حاربنا، ومات منّا عدد كبير، وسرقنا قليلاً كما فعل جميع الذين حاربوا، لكنّنا كنّا نخاف، خصوصًا على الشباب السوريين، لأنّ لهجتهم لم تكن لبنانيّة، وكان هناك خطر أن يعلقوا على حواجزنا، وهذا أخذ الكثير من جهد ماريو، قائد الكتيبة.

في أواخر سنة ١٩٨٩، شعرت باليأس من كلّ شيء. وطوني عتيق كان صاحب فكرة الهجرة إلى فرنسا. سرقنا أنا وطوني صندوق الثكنة وهربنا إلى فرنسا. سافرنا بحرًا من جونية إلى قبرص، ومن قبرص أخذنا الطيّارة إلى باريس. كانت هذه أوّل مرّة أركب فيها الطيّارة في حياتي. انبسطت في الطيّارة كثيرًا، لكن طوني شرب كثيرًا من الويسكي، ثمّ بدأ يستفرغ، وتبهدلنا. لكن ركوب الطيّارة شيء جميل. وفي باريس، تركني طوني في الأوتيل، قرط المصاري وهرب وتركني وحدي. ولم يكن معي فرنك واحد. كان هو صندوق السفر واختفى الصندوق. وأنا لا أعرف اللّغة الفرنساويّة، تركت الأوتيل وصرت

كلوشار. هكذا يسمّون المشرّدين هناك، صرت كلوشار ولا أملك ثمن عضّة رغيف، أي صرت شحّاذًا وأنام في نفق مترو محطّة «المونبرناس».

في محطّة المترو التقيت الخواجة ميشال سلّوم، الله يوجّه له كلّ خير، أخذني إلى بيته في شارع فكتور هوغو رقم ٤٥، حمّمني وألبسني ثيابًا جديدة وأطعمني، وعندما عرف قصّتي عرض عليّ شغلاً في لبنان. قال إنّه لا يحبّ شباب الميليشيات، لكنّه رأى فيّ شخصًا مختلفًا، ومن عائلة كريمة، وأنّ جدّي الكوهنو هو الذي شفع لي عنده. رجعت على قبرص بالطيّارة، وانبسطت كثيرًا، ولم أشرب سوى كأس ويسكي واحد خوفًا من أن يحصل لي مثل الذي حصل مع طوني في الطيّارة. وفي لارنكا التقيت الخواجة ميشال، وعدنا سويًا بالباخرة إلى جونية، ومن جونية إلى بلّونة، واشتغلت حارسًا في ڤيلّلا «غاردينيا»، وسكنت في بيت صغير تحت الڤيلّلا، وهناك بدأت الزعرنة.

نعم، الزعرنة، أقولها وأنا أشعر بالندم، وأرجو من الله أن يسامحني، وأصلّي لجدّي الكوهنو كي يتوسّط لي عند الله، لأنّي زنيت بنساء النّاس. كنت أجلس وأتفرّج على سيّارات العشّاق الذين يأتون إلى حرش الصنوبر ويمارسون الجنس في السيّارات. جدّي كان يقول لي إنّي طالع لأبي وسوف أصير سرّاقًا مثله. وهذا ما حصل. الحقيقة أنا هدفي الأساسيّ كان

الفرجة، ولم أكن أريد سرقة أحد. كنت أتمتّع كثيرًا وأنا أتفرّج على ذلك النوع من الجنس الذي كان يمارس في السيّارات. وأنا أخجل الآن من كتابة تلك المشاهد التي تسيء إلى عيون القارئ الكريم وتوقعه في الخطيئة.

الشيطان أغراني، وبدأت الزعرنة. بالأوّل بدأت بالسرقة. كنت أغطّ على السيّارات ومعي البطّاريّة وبارودة الكلاشينكوف تبع الخواجة ميشال، وكانوا حين يرونني يخافون من الفضيحة والموت، ويعرضون عليّ كلّ ما يملكون من أجل أن أسمح لهم بمغادرة المكان. وبدأت أسرق، ثمّ تطوّرت معي الأمور، وهنا أريد أن أقول إنّ الحقّ لم يكن عليّي وحدي، الحقّ كان عليهم أيضًا، لأنّهم لو قاوموني لما فعلت ما فعلت. فأنا لم يكن في نيّتي قتل أحد. لذلك كنت لا أعرف، لكنّي كنت يعني سأتراجع.

المهمّ يا سيدي، أنّني أوّل مرّة اغتصبت امرأة حصل ذلك بالصدفة ودون تخطيط أو تفكير، لكنّ الرّجل الذي كان معها هرب، ووقفت هي تنتظر، كانت ترتجف من الخوف، فاقتربت منها ونمت معها.

أنا لا أكذب. لقد وعدت حضرة الضابط أن أكتب الحقيقة، والحقيقة أنّني أسأت فهم ارتجافتها، اعتقدت أنّها كانت تنتظر منّي ذلك الشيء، فنمت معها، وكنت غلطانًا. شعوري كان غلط، لأنّ وضعي كان غلط. فعندما باشرت النوم معها بدأت تبكي.

وضعت كفّيها على عينيها وصارت تبكي، لكنّي بدلاً من أن أتوقّف، تابعت، شعرت بلذّة غريبة. مثل كأنّي صرت وحش. والله لا أعرف ماذا جرى لي، والآن أي بعد أن علقت بغرام شيرين فهمت أنّ ذلك الشعور معيب ويسمّونه الاغتصاب.

بعد المرّة الأولى صارت الأمور أسهل. وصرت أخلط السرقة بالاغتصاب. لكنّي مرّات كنت أكتفي بالسرقة وأشعر أنّني شهم وخصوصًا عندما أرى كيف تشكرني المرأة بعيونها المكسورة لأنّني لم أفعل شيئًا أكثر من السرقة. كنت أشعر أنّني شهم ونبيل، وهذا يردّ لي شيئًا من كرامتي.

أنا راضٍ بالقصاص الذي سوف تنزله بي المحكمة. لقد قاصصني الله سبحانه وتعالى على أفعالي الشنيعة، وتعرّضت لتعذيب أستحقّه، وأنا أعلن الآن توبتي.

وفي بيروت رآني هيكل، وهو كان معنا في ثكنة جورج عرموني، وأغراني بالمال. أعطاني ٥٠٠ دولار أميركي وقال هيدول من أبو أحمد النّداف وطلب منّي أن أخبّئ الأغراض في بيتي أو كوخي أسفل الفيلّلا. خبّأتها، أنا لم أكن أعرف أبو أحمد النّداف، ولم ألتقِ به. لكن هيكل شارك في دورة مظلّيين في إسرائيل، وهناك تعرّف إلى النّداف. الأغراض التي خبّأتها في كوخي كانت ١٠ كيلو جنجلايت و٢٠ صاعق و٥ قنابل يدويّة، وبعدين بدأنا.

جاء هيكل وقال إنّ الشغل بلّش، وصاروا يأخذون المتفجّرات ويذهبون إلى لا أعرف أين. أنا لم أكن مهتمًا بالموضوع. كان همّي الأوّل هو شيرين، كنت أعطيها المواعيد وألاحقها من مكان إلى مكان وأحبّها. لا تسألني يا سيّدي لماذا أحببتها، فالحبّ يأتي من عند الله. أحببتها وصارت نور عيوني ودفء قلبي، وهي أيضًا أحبّتني بشكل من الأشكال. كنت أحسّ حبّها لي وضحكها معي، لكنّها كانت تخاف منّي، والآن أعرف أنّ معها حقّ، لأنّ تصرّفاتي كانت يعني لا تليق بمقامها. لكن أن تذهب وتتشكّى عليّ وتخرب بيتي، كما فعلت، فهذا ما لا أفهمه. كان يكفي يا سيّدي أن تطلب منّي بشكل جدّي قطع علاقتي بها، لقطعتها. حدن بيقدر يغصب حدن تاني إنّو يحبّه. لكنّها لم تطلب ذلك بشكل قاطع، كنت أحسّ أنّها متردّدة. وهذا ما دفعني إلى متابعة العلاقة معها. هدفي كان شريفًا، كنت أريد أن أتزوّجها وأخلص من عيشة الكلاب التي أعيشها. جدّي حين كان يزعل منّي، كان يسمّيني ابن الكلب من أجل أن يذكّرني بأبي الذي تركني في بطن أمّي وذهب إلى لا أعرف أين. والخواجة ميشال قال لي إنّه لم يجلب كلبًا لمساعدتي في حراسة الڤيلّلا لأنّ الست رندة تخاف من الكلاب، فكلّفني بالحراسة وحدي. وأنا كنت أشعر أنّني مثل الكلب. قلت أشتغل مع النّداف، أجمع قليلاً من المصاري وأتزوّج شيرين وأعيش معها

في بيت جميل وصغير في الحازميّة. لكن قبل ذلك يجب أن أجمع رأسمالاً صغيرًا أفتح به دكّانًا لتعشيق الخشب. عندما كنت صغيرًا، أرسلني جدّي لتعلّم مهنة تعشيق الخشب عند الخواجة رزق، وهكذا تعلّمت أصول المهنة.

وحصل أن اعتقلت.

وأنا أعترف الآن أمام الله وأمام القضاء، وأطلب الرّحمة لروحي. فأنا قرّرت التوبة، ومتابعة طريق جدّي الله يرحمه، والعناية بأمّي المسكينة، ولن أتزوّج. قرّرت عدم الزواج والتخلّي عن شيرين، وعن الغرام وعن كلّ شيء. كما قرّرت التوقّف عن أكل اللّحم.

هذه قصّة حياتي كلّها، من لحظة ولادتي إلى الآن، كتبتها وحدي في السجن في شهر شباط ١٩٩٢، والله يشهد أنّني صادق في كلّ ما كتبته، وأنا على استعداد لتكرار أقوالي أمام المحكمة.

أعاد يالو قراءة ما كتب فشعر بالإحباط. قضى أكثر من عشرة أيّام من أجل أن يكتب هذه الصفحات. بكى وتعذّب، وشعر بالعجز عن الكتابة. المهلة سوف تنتهي بعد عشرين يومًا. أعطاه الضابط الأوراق وقال له إنّه لا يملك أكثر من شهر. «معك شهر واحد، ولازم تكتب قصّة حياتك كلّها، اكتب كلّ شيء، ويا ويلك إذا نسيت شي.»

أقام يالو في زنزانته الصغيرة، وعصر دماغه، وحاول. تمنّى أن يستمع إلى أغنية لفيروز أو مارسيل خليفة من أجل أن يموّه عن نفسه ويشعر أنّه إنسان، لكنّهم رفضوا إعطاءه راديو، قال له الحارس إنّ القرار هو أن يكون في عزلة كاملة من أجل أن يركّز ويكتب.

«بس أنا مش عم بعرف أكتب»، قال يالو.

«اصطفل، بس أنا عم قلّك يا ويلك، يلّلي كان هون قبلك ما كتب، ولو بتعرف شو صار فيه.»

«شو صار؟» سأل يالو.

«ضلّوا يضربوه حتّى صار يجعر متل التّور، وما وقفوا ضرب فيه، حتّى مات.»

«مات!» قال يالو.

«طبعًا لا»، جاوب الحارس، «هيدا معناة الحكي، يعني كأنّه

مات.»

«وبعدين؟»

«بعدين كتب، قعد ورا الطاولة وكتب شي خمسين صفحة.»

«خمسين صفحة!»

«طبعًا»، قال الحارس، «ما هو الواحد لازم يكتب كلّ قصّة حياته. يعني حياة الإنسان بدها عالقليلة خمسين صفحة.»

«وقدّيش أخد وقت حتّى يكتبها؟»

«شهر، هون ما بيعطوا إلاّ شهر، مرّات إذا كانت القصّة مهمّة، والمحبوس عم يكتب بيطوّلوا المدّة، بس عادة هون ما بيعطوا إلاّ شهر. ويلّلي ما بيكتب بتروح عليه.»

«يعني راحت عليك يا يالو، أنا مش ممكن، ما فيّي أكتب هيك، لازمني راديو ودخان، أنا ما بقدر أكتب بلا تدخين.»

«أنا بدبّرلك دخان»، قال الحارس، «طلاع بالمصاري.»

«ما معي مصاري، أخذوا منّي كلّ مصرياتي.»

«هات الوصل وأنا بسحبلك قد ما بدّك.»

«ما عطيوني وصل.»

«ما بصير، هون بيعطوا المحبوس وصل بالمبلغ يلّلي أخذوه منه، وبساعته وخواتمه وكلّ شي»، قال الحارس.

«قلتلّك ما عطيوني وصل»، قال يالو.

«يمكن الوصل مع المحامي، اطلب مقابلة المحامي، أكيد الوصل معه، وساعتها مندبرك، تكرم عينك.»

«بس أنا ما عندي محامي»، قال يالو.

«مش ممكن، هون هنّي بعيّنوا محامي، إذا كان المتّهم ما معه مصاري هنّي بعيّنوا واحد.»

وندم يالو.

الآن يذكر أنّ المحقّق جلب له محاميًا بعد ليلة الكيس، لكن يالو رفض أن يتكلّم معه، وقال إنّ محاميه هو الله، ولا يحتاج إلى إنسان يدافع عنه.

المحامي وقّع المحضر دون أن يقرأه، أو يتكلّم مع المتّهم. توشوش مع المحقّق، ووقّع المحضر وذهب.

فكّر يالو أن يطلب حضور المحامي كي يطلب مساعدته في الكتابة، وطلب من الحارس أن يتّصل له بالمحامي الذي لا يعرف اسمه، لكنّ الحارس أعطاه في اليوم التالي سيجارة مارلبورو واحدة، وقال إنّه لا يستطيع أن يفعل شيئًا من أجله، وإنّه جلب له السيجارة شفقة عليه، «بركي بتساعدك السيجارة منشان يفتح راسك، وحياتك ما قدرت دبّرلك أكتر من هيك. اتّكل على الله ونفّخ وجرّب تكتب.»

اتّكل يالو على الله، ودخّن السيجارة بعد الترويقة، وشعر بدوخة هائلة. منذ أشهر لم يذق طعم التدخين، وها هي السيجارة تكشف طعمها الحقيقيّ، الدخان أفضل من الحشيش، يأخذك إلى ارتعاشات الارتخاء ودوخة الأشياء، لكنّ النّاس بهدلت التدخين، عندما حوّلته عادة بلا معنى. وقرّر يالو أنّه عندما سيخرج من السّجن، سيدخّن سيجارة واحدة في النهار، ويسكر بها.

عاد إلى أوراقه، قرأها من جديد، واكتشف أنّها لا تصلح. من المؤكّد أنّ المحقّق عندما سيقرأها، سيعتقد أنّ يالو يضحك عليه، وسيأخذه إلى مصير الثور الذي أخبره عنه الحارس.

لم يسأل الحارس عن اسمه، فلقد تعلّم في هذه الزنزانة

الانفراديّة أن يسمع صوت الصّمت الذي يطنّ في أذنيه. فالحارس القصير المحدودب الذي يمتلئ وجهه الأبيض بالندوب، لم يوجّه ليالو أيّ كلمة، كان يفتح الكوّة في باب الزنزانة ليدخل منها الطعام مرّتين في اليوم، في الثامنة صباحًا والخامسة مساء، ويفتح الباب في العاشرة صباحًا مشيرًا إلى سجينه بأن يتبعه إلى الحمّام. وكان كأنّه يلبس حذاء مطاطيًّا، فلم يكن يالو يسمع حتّى صوت قدميه. تشكّل الصّمت حول الزنزانة مثل جدران سوداء مغلقة، إلى درجة أنّ يالو لم يكن يجرؤ على السّعال أو التكلّم مع نفسه بصوت مرتفع. كان يوشوش نفسه، ويتلفّت يمينًا ويسارًا خوف أن يكون قد سمعه أحد. لم ينكسر الصّمت إلاّ يوم انتهى من كتابة قصّة حياته، التي كانت قصيرة ولا تصلح، وهو لا يعرف كيف يعيد كتابتها. ساعتها اشتاق إلى الموسيقى والدخان، ولا يعلم من أين جاءته الجرأة فتكلّم مع الحارس وطلب مساعدته، لكنّ النتيجة لم تكن حرزانة: سيجارة واحدة، وحكاية الثّور.

قرأ يالو ما كتب وقرّر تمزيقه، ما كان يجب أن يكتب عن أبيه وعن الخواجة سليم رزق الأعمى، لأنّه بهذا يفضح نفسه. سوف يقول له المحقّق إنّه ليس لبنانيًا لأنّ والده سوري حلبي، وهذه تهمة سوف تضاف إلى تهم السرقة والاغتصاب والمتفجّرات. سوف يُتّهم بتزوير جنسيّته وانتحال صفة اللّبناني، لأنّ والده جورج جلعو لا يحمل الجنسيّة اللبنانيّة.

«لكنّني لبناني»، سوف يقول للمحقّق. «وهذا مثبت في بطاقة هويّتي».

وهنا تقع المشكلة.

لم يصدّقوه في التحقيق حين قال إنّ جورج جلعو والده، والكوهنو أفرام جدّه. المسجّل على بطاقة هويّته يختلف عن ذلك، إذ قام جدّه بتسجيله في دوائر النفوس اللبنانيّة بوصفه ابنه. فهو على الهويّة ابن هابيل أبيض وماري سمحو، وأمّه غابي هي شقيقته. لكن هذا ليس صحيحًا بالطّبع. فالكوهنو أفرام كان يدعى هابيل في الحياة المدنيّة، ولم يتغيّر اسمه على بطاقة هويّته بعد دخوله سلك الكهنوت، حيث أسماه المطران أفرام. قام الكوهنو بتسجيل حفيده على اسمه من أجل أن يعطيه هويّة لبنانيّة، ويجنّبه قانون الجنسيّة في لبنان الذي لا يسمح للمرأة بأن تعطي جنسيّتها لابنها، حتّى وإن مات والده أو اختفى أو طلّقها أو غادر البلاد إلى غير رجعة.

عندما سُئل في التحقيق ابن من يكون، وأجاب وقال الحقيقة، اعتبر منتحلاً وكاذبًا، وضُرب بوحشيّة قبل أن يقتنع المحقّق.

«طيّب، أنت بالهويّة ابن هابيل أبيض!»

«نعم»، قال يالو، «لكنّ الحقيقة هي أنّ هابيل جدّي، أمّا والدي فيدعى جورج جلعو.»

«هذا تزوير»، قال المحقّق، «يجب أن نستدعي السيّد هابيل إلى التحقيق.»

«السيّد هابيل صار كوهنو، وتغيّر اسمه، وصار الأبونا أفرام»، قال يالو.

«نستدعي الكاهن أفرام أبيض.»

«بس هو مات من شي عشر سنين يا سيدنا، وأنا ما إلي ذنب بالموضوع، أنا شو خصّني، كنت شي خلقت لمّن هو زوّر لي

هويّتي، خلّينا نفترض أنّه تبنّاني وبتنحلّ القضيّة.»

«هيك رح نفترض»، قال المحقّق.

«يعني لمّن بيسألوني عن اسمي لازم قول دانيال أبيض مش هيك؟» سأل يالو.

«بالزّبط هيك، ولكن»...

«ولكن شو؟»

«قلتلّك إنّي هيك رح إفترض بشكل موقّت، يعني مش رح أعتبرك مواطن سوري زوّر هويّته اللبنانيّة، رح أعتبرك لبناني مؤقّتًا، وبعدين منشوف.»

«متل ما بتريد»، قال يالو.

«لا، متل ما إنت بتريد»، قال المحقّق، «يعني إذا تعاونت واعترفت مننسى الموضوع.»

«أنا بأمرك»، قال يالو.

«ولكن إذا ما تعاونت معنا، مش بس رح تتبهدل وتتعذّب، وكمان رح تخسر جنسيّتك اللبنانيّة.»

ماذا أكتب؟ فكّر يالو.

هل يكتب عن أبيه الحقيقيّ الذي لا يعرف عنه الشيء الكثير، أم يكتب اسمه كما هو مكتوب على بطاقة هويّته؟ وإذا تناسى والده الحقيقيّ، ثمّ جاء من يتّهمه بأنّه يكذب أو يخفي الحقائق فماذا سيقول؟

الحلّ الأفضل هو عدم التطرّق إلى هذه المسألة لا من قريب أو من بعيد. يجب أن لا يكتب اسمه الثلاثيّ أبدًا. عليه بعد أن يقوم بحذف أبيه أن يحذف حكايات الخواجة سليم رزق الذي

تسبّب في فضح أصل أبيه، سوف يكتب أنّ اسمه يالو، حتّى اسم العائلة يجب تلافيه، وعليه حذف الخواجة رزق من الصورة، ولكن كيف سيبرّر ولعه بالخطّ العربيّ والفنّ الشرقيّ وصناعة الخشب التي قادته إلى أحضان المدام رندة؟

النجّار الأعمى الذي كان يرى بحاجبيه ويقرأ بأصابع يديه، احتلّ حيّزًا كبيرًا من أحاديث الكوهنو الذي كان يريد لحفيده أن يتعلّم مهنة، فكان يرسله خلال العُطل الصيفيّة للعمل في دكّان هذا النجّار الأعمى، قرب فندق «السان جورج»، حيث كان يبيع أجمل أبواب الخشب الدمشقيّ الأصيل الذي يزيّن بها أغنياء بيروت منازلهم، كجزء من نكهة الذوق الاستشراقيّ التي اجتاحت بيروت في أوائل السبعينات.

أراد الجدّ لحفيده أن يتعلّم بأنّ على الإنسان أن يتعب ويشقى، وأنّه «بعرق جبينك تأكل خبزك.»

عمل يالو في دكّان رزق ثلاث صيفيّات، وبدأ يحبّ المهنة، وصار ينتظر نهاية الفصل الدراسيّ من أجل أن يذهب للعمل في الخشب. قرّر يالو أنّ مهنته في المستقبل، سوف تكون في تعشيق الخشب، وأنّه لا يحتاج إلى مزيد من العلم، يحتاج فقط إلى القراءة والكتابة، وهذه صار يعرفها. كما أنّ ابن الخواجة سليم، الذي كانوا يسمّونه المهندس، اكتشف فيه موهبة كتابة الخط العربيّ، وصار يدرّبه على كتابة الآيات القرآنيّة بالخطّ الكوفيّ الذي كان مرغوبًا بكثرة في تلك الأيّام.

«أنا فنّان»، قال يالو لجدّه، بصوت المهندس الذي كان يرنّ في أذنيه، وهو يدرّبه على الإمساك بالرّيشة وكتابة آية الكرسيّ.

لكن في صيف عام ١٩٧٤، حين كان يالو في الثالثة عشرة

من عمره، لم يذهب للعمل في الدكّان. جدّه قال له إنّه لم يعد هناك من ضرورة للعمل خلال فصل الصّيف. «الصّيف للراحة يجب أن تقرأ وتدرس وتستعدّ، فالسنة القادمة تبدأ المرحلة الإعداديّة، وهي مرحلة صعبة وتحتاج إلى تحضير.»

لم يفهم يالو سبب عدم إرساله للعمل في الدكّان إلاّ بعد سنوات، حين جمع الحكايات التي روتها أمّه عن ظروف وفاة الخواجة سليم، وعن المهندس وتريز.

قالت غابي إنّ زوجة المهندس لم تأتِ إلى دفن عمّها والد زوجها، أغلقت بيتها وذهبت مع ولديها إلى الجبل ولم تقم بواجباتها، يا عيب الشّوم.

«والمهندس وين؟» سأل يالو بسذاجة.

«عامل حالك مش عارف»، قالت غابي، وأكملت رثاءها المتقطّع للأعمى الذي واجه خطيئة ابنه بنبل وشجاعة.

قال لتريز: «إنتِ متل بنتي، تعي واسكني معي، شو بقدر أعمل أكتر من هيك.»

اختفى الابن، قيل إنّه أراد التكفير عن ذنوبه، فذهب إلى حلب حيث قرّر أن يبني لنفسه عمودًا قرب عمود مارسمعان، ويجلس عليه متصوّفًا وزاهدًا في الدنيا. فاعتقلوه وأرسلوه إلى مستشفى المجاذيب.

الخواجة سليم روى الحكاية لصديقه الكوهنو. والكوهنو أفرام الذي ربطته بالخواجة سليم صداقة عميقة، بدأت بعد مجيئه إلى بيروت، حيث عمل بلاّطًا في ورشه، قبل أن تأتيه الدعوة الكهنوتيّة. قال لصديقه أن يستتر، «وإذا ابتُليتم بالمعاصي فاستتروا.» كما تطوّع للقيام بوساطة مع رئيسة دير الخنشارة. لكن

رئيسة الدّير رفضت استقباله حين علمت أنّه مبعوث من آل رزق.

كان الكوهنو لا يحبّ الرّاهبات، ويقول بوجوب فصل الحياة الرهبانيّة عن الحياة المدنيّة في شكل كامل. «شو هالحركات، قال راهبات وعايشين كأنّهم نسوان عاديّات. الرّاهبة مطرحها بالدّير مش بين النّاس، لازم ينضبّوا.» قال أفرام لسليم رزق، وهو يروي لصديقه كيف رفضت رئيسة دير الخنشارة استقباله.

الحكاية التي دمّرت مستقبل يالو المهنيّ، بدأت حين أتت تريز، وهي راهبة مبتدئة تشتغل معلّمة في مدرسة التباريس، إلى مشغل رزق، كي توصي على إطارات للأيقونات، وأبدت دهشتها لجمال الخشب الذي يعشّق هنا، دون أن يدخله مسمار واحد. وطلبت إذنًا من رئيسة المدرسة أن تأخذ دروسًا من المهندس في صناعة الخشب. وصارت تأتي هي وراهبة تدعى الأخت ريتا للتتلمذ على يديّ المهندس.

ماذا حصل بعد ذلك، ولماذا ادّعت الأخت تريز أنّها ذاهبة لزيارة أهلها في قرية عين دارا، واختفت في «فندق كامل الكبير» في بلدة سوق الغرب مع وجيه مدّة ثلاثة أيّام قبل أن تعود إلى المدرسة؟

يبدو أنّ المهندس وجيه وعد تريز بالزواج حين رأى كيف انهدل شعرها الطويل على كتفيها في غرفة الفندق. ولكن لماذا اعترفت الرّاهبة المبتدئة بذنبها وجاءت مع رئيسة الدير بعد حادثة الفندق بأربعة أشهر إلى الدكّان، وحين لمحهما وجيه داخلتين خرج من الباب الخلفيّ متسلّلاً؟ ووجد السيّد سليم نفسه أمام مشهد لم يسبق لعينيه قبل أن تغمضا منذ عشرين سنة أن رأتا شيئًا يشبهه.

قال سليم بعد أن استمع إلى اعترافات الأخت تريز وقرارها ترك الحياة الرهبانية والزواج من وجيه الذي فضّ بكارتها، إنّه لا يعرف ماذا يقول.

قالت الرّئيسة السمينة والطويلة والتي تجاوزت الستّين من عمرها، إنّ تريز تلقّت أقسى العقوبات في الدير. أرسلت إلى الخنشارة وسُجنت ثلاثة أشهر في قبو يقع أسفل الدير، كان مخصّصًا في الماضي للرّاهبات اللواتي يقمن علاقة بالشيطان، «تركناها تلات أشهر مربوطة بجنازير الحديد، وما كانت تاكل إلاّ خبز وميّ، وبعدين شفنا أنّه يكفي. سألناها شو بدها، قالت إنّها بدها تجي لهون. وأنا جايي معها حتّى نتفاهم مع المهندس وجيه.»

«بس وجيه مزوّج»، قال الأب، وغرق في نوبة من الضحك الهستيري، «يا عكروت يا وجيه، طلعت أعرس من بيّك، معقولة هالقصّة يا ماسّور، أنا والله مش قادر صدّق.»

تقدّم الرّجل الكهل الأعمى من تريز، التي كان سمار وجهها يرتعش بالخوف والشعور بالمهانة، مدّ يده إلى وجهها ثمّ أمسك بيدها الصغيرة التي ترشح بالعرق، وقال لها أن تأتي وتعيش معه، وهو مستعدّ أن يفعل ما تشاء.

«قرّبي يا تريز يا بنتي، شو بدّي قلّك، نحن روم كاثوليك، وما فينا نطلّق. ابني وجيه مزوّج وعنده ولدين الله يخلّيك ويخلّيهم، بس شو بدّك أعمل حتّى أعمل، تعي واسكني معي، أنا مرتي ماتت وعايش لوحدي، وضرير. أنا مستعد صلّح غلطة ابني، هيدا إذا كان إنتِ هيك بدّك، وكانت هيدي إرادة الله.»

«أنت!» صرخت الرئيسة. «أنت بدّك تتزوّج هالبنت العدرا

عروس المسيح، بها العمر وأعمى وما بتستحي على حالك!»

حاول أن يشرح لها أنّه لم يقصد الزواج، رغم أنّ في الزواج سترة للبنت الجميلة وسترا للفضيحة.

«ليش أنت شايف بالأوّل حتى تقول إنّها حلوة؟» قالت الرئيسة وهي تكتم صراخها في صوت متوتّر ومتقطّع.

«نعم يا ماسّور، أنا بشوف الجمال، لأنّ الجمال بشوفني»، وأشار إلى التحف الخشبيّة التي يمتلئ بها معمله الصغير، «شايفي هيدول، هيدول أنا، بعدني لهلّق أنا يلّلي بصمّم الأشياء الصعبة، أنا بقرا بإيديّ يا ماسّور، بعدين أنا شو قلت؟ والله منين إجتني هالقصّة. أنا قلبي طيّب، ما كان لازم إحكي ولا كلمة، أنا شو خصّني، هيدا وجيه، ووجيه مش هون، شو بتريدوا بصير.»

قالت الرّئيسة إنّهما ستعودان في العاشرة من صباح الغد، «قول للأستاذ ينطرنا»، وغادرتا.

عندما رجع وجيه إلى الدكّان، وواجهه والده بالحقيقة، أنكر كلّ شيء في البداية، وقال إنّ تريز مجنونة، وإنّها اخترعت القصّة، وإنّه لا علاقة له.

«بسيطة»، قال الأب، «بتدبّر، بس خبّرني كيف نمت معها، كيف يعني راهبة وقبلت، قلّلي شو عملت معها بالأوتيل.»

في البداية أصرّ الابن على القول إنّ تريز ليست راهبة بل هي مبتدئة، وهناك فرق كبير، وإنّها مصابة بمسّ من الجنون لأنّها اخترعت القصّة من الألف إلى الياء، لكن عندما أخبره والده أنّ رئيسة الدّير سوف تأتي في الغد، انهار واعترف بكلّ شيء، وقال إنّه لا يعرف كيف يخرج من هذه العلقة.

«ما تخاف يا ابني، إذا أنت ما بتقدر، أنا باخدها.»

«أنت يا ختيار النحس بدّك تتزوّج بنت عمرها ١٩ سنة!»

روى سليم للكوهنو كيف ضربه ابنه بيديه ولبطه بقدميه، وكيف صار وجيه شخصًا آخر، كأنّ شيطانًا خرج منه. «راح الصبي، راح يا أبونا، أنا والله ما كان بدّي أتزوّجها، ليش بعد فيّي شي بيتحرّك، وبعدين هيدي طفلة، قلت هيك بسترها وبستر ابني، وبعدين ليش حكيت الريّسة هيك، وجيه قلّلي إنّه ما فتحها، هي كانت مفتوحة، وبعدين والله ما عدت أعرف شي.»

اختفى وجيه، قالوا إنّ زوجته طردته من البيت، فذهب وأقام في أحد الفنادق الرخيصة في ساحة البرج قبل أن ينتهي إلى ذلك المصير في مارستان حلب.

يالو لم ينم في تلك الليلة، حين روت له أمّه نتفًا من الحكاية، وكيف صارت الرّاهبة المبتدئة تجيء كلّ يوم في العاشرة صباحًا إلى الدكّان، قبل أن تختفي وتضيع آثارها. أمّا زوجة وجيه فأصيبت بانهيار عصبيّ، ثمّ طلبت من سليم رزق حصّة زوجها من الدكان وقطعت علاقتها بعائلة رزق بشكل نهائيّ.

الفضيحة هاجرت إلى مسقط رأس العائلة في حلب، وجيه ذهب ليبني عموده إلى جانب عمود القدّيس سمعان الحلبي، واعتقل ثمّ أرسل إلى مستشفى المجاذيب. غير أنّ الأب لم يعثر على أيّ أثر لابنه، لا عند أقربائه هناك ولا في المستشفى، فتيقّن من أنّ وجيه أطلق إشاعة العمود، من أجل أن يتخلّص من زوجته، ويعيش مع راهبته العذراء.

لم ينم يالو تلك اللّيلة، رأى أمامه الرّاهبة السمراء الجميلة، وتقمّص شخصيّة وجيه المهندس وأخذها إلى «فندق كامل

الكبير» في سوق الغرب، وتنشّق شعرها الطويل الذي تهدّل على كتفيها، وغرق في رائحة البخّور التي تخرج من عنقها، وبقي معها ثلاثة أيّام دون أن يغادرا الغرفة. كان الطعام يأتيهما إلى الغرفة، يتحمّمان ويأكلان وينامان معًا. قالت له إنّها تحبّه وتحبّ السيّد المسيح. طلبت منه أن يركع إلى جانبها لأنّ الربّ يبارك حبّهما. ويالو أي وجيه، يشرب شبابها الذي ينسكب حبّات من العرق تتسرّب من مسامها إلى مسامه، ويرتّل معها صلواتها، ويأخذها كلّها، فتحتويه.

يالو لم يرَ أيضًا دم بكارتها.

«وين الدم؟» سألها.

أشارت إلى ما يشبه الفراشات المرسومة بلون زهريّ على الشّرشف الأبيض. فضمّها إليه وقال لها إنّها ستبقى عذراء إلى الأبد.

يجب أن لا يشير يالو إلى الخواجة سليم وابنه المهندس في قصّة حياته، لكن كيف سيبرّر ولعه بالخشب المصفّد والخطّ العربيّ؟

«أنا فنّان»، قال لجدّه، عندما اقترح عليه الكوهنو الالتحاق بالمدرسة الإكليريكية. «لا ما بدّي أعمل كوهنو، أنا فنّان، وبكرا بس أكبر بدّي إشتغل خطّاط.»

لكنّه لم يصر خطّاطًا. مات جدّه بعد سنة من مغادرتهم بيروت الغربيّة خلال الحرب، فالتحق يالو بالثكنة وصار مقاتلاً مثل آلاف الشباب الذين تركوا دراستهم وذهبوا إلى المصير الذي صنعته لهم الحرب.

كيف سيشرح للمحقق خطّه الجميل وولعه بالخشب وعلاقته بالستّ رندة؟

صحيح أنّ اسم رندة لم يرد خلال شهري التحقيق اللذين قضاهما في العذاب. ولكن من يضمن له أن لا تظهر السيّدة الأربعينيّة في أيّة لحظة، وتدّعي أنّه اغتصبها؟ وكيف سيبرّر معرفته فنّ تعشيق الخشب، فيما لو اعترفت هي بعلاقتها به؟

عاش يالو وحيدًا في تلك القرية الكسروانيّة التي تدعى بلّونة، والتي عرفت ازدهارًا عمرانيًا كبيرًا خلال الحرب الأهليّة اللبنانيّة، مثلها مثل العديد من قرى كسروان، قلب المنطقة المارونيّة في جبل لبنان، التي بقيت على هامش الحرب، فصارت ملجأ الهاربين إليها من المناطق اللبنانيّة المختلفة. فيها بنى الرّوم الأرثوذكس الذين غادروا حي المصيطبة في بيروت الغربيّة حيًّا لهم، يشبه حيّهم البيروتيّ القديم، وأسّسوا كنيسة أعطيت اسم القدّيس نيقولاس، وصار اسمها كنيسة مار نقولا، يخدمها الأبونا سيرافيم عازار. وفيها اختلطت اللّهجة البيروتيّة التي تثقّل الأحرف وتلفظها من الخدّين، باللّهجة الكسروانيّة التي تلوي اللّغة العربيّة وتجعل حروفها تتداخل بطريقة غريبة.

عاش يالو وحيدًا في كوخه وتآخى مع السّأم. وفي أحد الأيّام، نادته المدام، كان الخواجة قد سافر إلى فرنسا لمتابعة أعماله هناك، لتطلب منه مساعدتها على إصلاح أحد الكراسي الخشبيّة الثمينة المزيّنة بالأصداف، بعد سقوطها على الأرض وانخلاع أحد أقدامها. طلبت منه حمل الكرسيّ إلى السيّارة من أجل أخذه إلى النجّار.

«لشو النجّار؟» قال يالو، «أنا بعرف صلّحها.»

جلس يالو أرضًا وبدأ في إصلاح الكرسيّ، وعندما رأته المدام يعمل سألته لماذا لا يستخدم المسامير، فشرح لها أنّ هذا النّوع من الخشب لا يحتاج إلى مسامير.

«كيف بتلزّقها؟ بتستعمل صمغ؟»

أخبرها يالو عن التعشيق، وكيف يمكن تحويل الخشب ذكرًا وأنثى، وعندما يتمّ تداخلهما تلتصق الأطراف ببعضها بشكل أبديّ.

«يعني دكر وإنتاية!» قالت.

«تعي تفرّجي مدام»، قال يالو.

انحنت السيّدة فوق ظهر الشّاب النحيل الذي كان يحنو على الخشب، ففحّت منها رائحة الياسمين.

«هيدا هو التعشيق؟» سألت.

«أيوه تعشيق»، قال.

«يعني الخشب متل النّاس بعشقوا مع بعض؟»

«الخشب أحسن من النّاس يا مدام، لأنّه إذا عشق بعشّق على طول.»

«وما بيزهقوا؟» قالت وضحكت، ثمّ غادرت الصالون. في تلك اللّحظة، رأى يالو شبح ترندده، وسيسمّي تلك السنة، سنة التعشيق.

قالت له إنّها أحبّته لحظة كان يعشّق الخشب، وإنّها تمنّت أن يأخذها كما يأخذ الخشب الخشب، ويبقى فيه إلى الأبد.

يجب أن يقوم بحذف الخواجة سليم وابنه والخشب المعشّق من قصّته. صحيح أنه حدّث مدام رندة عن سليم الأعمى وولعه بالخط العربيّ، وكيف أجبره وجيه المهندس على حفظ آيات

كاملة من القرآن الكريم من أجل حفرها على الأبواب الخشبيّة. لكن ماذا يفعل؟ إذا كتب الحكاية قد يخسر جنسيّته اللبنانيّة، وإذا لم يكتبها قد يدخل في متاهة لا نهاية لها. احترق يالو شوقًا إلى سيجارة ثانية، وضع طرف القلم بين شفتيه، وصار يمتصّه وينفخ دخانه الوهميّ في الزنزانة الضيّقة، وقف، مشى ذهابًا وإيابًا وهو يحاول ترتيب ذاكرته. «يجب أن أربط القصّة بخيط واحد»، فكّر يالو، وارتسم أمامه خيط الدم الذي يمتدّ من عين ورد إلى بيروت، «هذا خيطي»، قال يالو لنفسه، «أنا بدأت هناك مع جدّي الكوهنو الذي قُتل جميع أفراد عائلته في المذبحة. من يستطيع أن يحاسب مذبوحًا، سوف أكتب أنّني مذبوح. أنا دانيال سليل المذبوحين، جدّي ولد في الدم، وصار يشرب الدم نهار الأحد مع كلّ قدّاس يقيمه، وأنا أسكرني الدم، أنا شو خصّني، شو أنا عملت الحرب لوحدي، كلّ شي عم بتقولوه صحيح، بس أنا كمان صحيح، وبعدين ما في متفجّرات، والله لا وجود لهذه القصّة عن المتفجّرات، أو عن هيكل وأبو أحمد الندّاف. هيدي لزقة، جبروني إعترف بالمتفجرّات حتّى يوقف تعذيب الكيس، يا بعترف أنّي شاركت بعصابة المتفجّرات يا البسّ يلّلي قاعد بالكيس بياكلني من تحت. يا بقبل يا باكل خرا. وبعدين انتهت أنّي قبلت وأكلت خرا بنفس الوقت.»

جلس يالو خلف الطاولة الخضراء، نزع القلم الذي كان مثل سيجارة بين شفتيه، نظر إلى الأوراق البيضاء، وكتب قصّته من جديد.

اسمي دانيال، وملقّب بيالو، من حيّ السريان في بيروت، مواليد ١٩٦١. وحيد، لا أخوة ولا أخوات. هاجرنا من حيّ السريان في المصيطبة عام ١٩٧٦، بسبب اشتداد الحرب، وخوفنا من المشاعر الطائفيّة التي تصاعدت بشكل كبير. كان بيتنا كبيرًا ومحاطًا بجنينة تحوي جميع أنواع الشجر. أكدينية ولوز وفتنة وزنزلخت وبلح. تركنا بيتنا من دون أن نأخذ العفش، وذهبنا إلى منطقة عين الرمّانة - حي المراية، وهناك استأجرت أمّي بيتًا مفروشًا من إحدى زبائنها. أمّي خيّاطة، والزبونة دبّرت لنا البيت بسعر ٢٥٠ ليرة شهريًا، وقالوا إنّه موقّت. أنا انتقلت من مدرسة القدّيس ساويروس إلى مدرسة التقدّم. جدّي الكوهنو صار عاطلاً عن العمل، لأنّه في الحيّ الجديد الذي أقمنا فيه، لا وجود لعائلات سريانيّة. جدّي مات من القهر، وأمّي تعطّلت أشغالها في عين الرمّانة، وصارت تدور على البيوت وتشتغل باليوميّة. يعني تذهب إلى أحد البيوت، وتقضي فيه كلّ النّهار، وتخيط لهم ما يريدون، تطوّل الثياب أو توسّعها، ترقّع وتفصّل، تقبض أجرتها عن يوم الشغل وليس

عن نوع الشغل. صارت أوضاعنا الماديّة صعبة جدًّا، وأنا لم أنسجم في مدرستي الجديدة، كانت الصفوف مخلوطة ببعضها، وأكثريّة التلاميذ من مهجّري الدامور. تركت المدرسة والتحقت بالحرب. طوني أخذني إلى الأشرفية، وهناك تعرّفت على شاب اسمه ألكسي، وهو روسي أبيض، لكنّه كان أحد قادة كتيبة التيوس. سألني ألكسي إذا كنت أريد أن أصبح تيسًا، جاوبته لا. قلتلّلو إنّي بدّي حارب حتّى دافع عن وطني، فصار طوني يضحك عليّي، وقال إنّي ما بفهم بلغة الحرب، قلّلي قول إنّك بدّك تصير تيس. قلت إنّي موافق صير تيس، وصرت مقاتلاً وحاربت.

حاربت لأنّ جدّي أوصاني أن لا أهاجر. قال لي إنّ الهجرة تقتل روح الإنسان وتجعله مثل التائه، وأخبرني عن هجرته من عين ورد إلى القامشلي عندما كان عمره ١٥ سنة.

قال لي جدّي أن لا أهاجر. لكنّني هاجرت إلى فرنسا، وهجرتي كانت السبب في كلّ مصائبي. الحقيقة أنّي تعبت، تعبت من الحرب وتعبت من الفقر وتعبت من أمّي. أمّي أصبحت مثل المجنونة مع مرآتها وخيال المرحوم جدّي الذي تراه كلّ ليلة في مناماتها. طوني كان صاحب فكرة الهجرة، وأنا تحمّست لها كثيرًا. اسمي على الهويّة دانيال هابيل أبيض. لكنّ الناس يسمّونني ابن جلعو. من مواليد بيروت ١٩٦١. أشتغل حارسًا في ڤيلّلا غاردينيا التي

يملكها الخواجة ميشال سلّوم، في قرية بلّونة من أعمال كسروان.

التحقت بعملي الجديد بعد نهاية الحرب. سافرت أنا وصديقي طوني عتيق إلى فرنسا، هربنا بعد أن سرقنا المال من ثكنة جورج عرموني في الأشرفيّة. وفي باريس أقمنا في فندق صغير في حيّ مونبرناس. كان الفندق جيّدًا، وكانت هذه أوّل مرّة في حياتي يكون لي غرفة مستقلّة. في بيتنا كنت أنام في غرفة جدّي الكوهنو. جدّي قرّر ذلك عندما كنت في الخامسة من عمري، إذ أمر بأن أنقل من غرفة أمّي إلى غرفته، وقال إنّ نظام البيت يجب أن يكون صارمًا. الرّجال في غرفة والنساء في غرفة. فانتقلت إلى الإقامة معه، رغم أنّني لم أتوقّف عن التسلّل إلى غرفة أمّي والنّوم في سريرها كلّ ليلة تقريبًا.

عشنا في الفندق حوالي أسبوعين، كنّا لا نفعل شيئًا، نكزدر في باريس ونأكل في المطاعم ونشرب النبيذ الفرنسي. مرّة واحدة ذهبنا إلى حيّ «بيغال»، وهناك أجبرتني المرأة الفرنسيّة، أي الشرموطة، أن أنام معها وأنا لابس الكبّوت. كرهت ذلك، وكان على وشك أن يحصل معي ما لم يحصل في حياتي، وهو الارتخاء لحظة العمليّة الجنسيّة. فأنا أكره لبس الكبّوت. لكنّهم هنا في فرنسا يجبرون النّاس على ذلك خوفًا من مرض «السيدا».

بدأت أقلق لأنّنا لا نشتغل شيئًا، لكن طوني طمأنني،

قال إنّه سيتّصل ببعض أصدقائه هنا، من أجل أن يدبّروا لنا شغلاً، لكنّنا غير مستعجلين، لأنّ الصندوق الذي كان يحمله طوني مليء بالمصاري.

ثمّ هرب طوني.

لا أعرف كيف أو لماذا؟ حتّى أنّي لم أنتبه إلى أنّه يدبّر لي مكيدة. كنت ماشيًا معه على عماها، وفجأة اكتشفت أنّه اختفى. وصرت وحدي في باريس. وأنا لا أملك فرنكًا فرنسيًّا واحدًا.

صاحبة الأوتيل، وهي سيّدة فرنسيّة محترمة، أشفقت عليّ، تكلّمت معي ببعض الكلمات الإنكليزيّة والإشارات، وأفهمتني أنّ طوني دفع لها قبل أن يترك الأوتيل أجرة ليلتين عنّي، وقالت إنّها مستعدّة أن تبقيني ليلة إضافيّة دون مقابل، وتسمح لي بالترويقة مجّانًا ثلاثة أيّام، وبعد ذلك عليّ أن أدبّر حالي.

طوني كان يعرف اللّغة الفرنسيّة أمّا أنا فلا. أحسست عندما بدأت المرأة تكلّمني كأنّها ترمي عليّ الحجارة. وبقي هذا الشعور معي إلى أن وصلنا إلى لبنان. في فرنسا، فهمت أنّ الكلمات تشبه الحجارة، وحين لا تفهم اللّغة، تصبح وكأنّك تتعرّض للرّجم بالحجارة أو للتعذيب. مع اللّغة السريانيّة كان الوضع يختلف، صحيح أنّني لا أفهمها لكنّني أحسّ بها وأعرف أن أتسلّل بين الكلمات والجمل من أجل أن ألتقط شيئًا من المعنى. جدّي كان يتكلّم مع أمّي بالسريانيّة وهي تجاوبه بالعربيّة، وتقول له أن يتوقّف عن الحكي

بالكرديّ، وهو ينرفز منها كثيرًا. جدّي كان كرديًا، لا، كيف أقول، لم يكن كرديًا، لكنّه عاش طفولته مع الأكراد بعد مذبحة عين ورد، وكان يتكلّم لغتهم. ثمّ هاجر إلى بيروت واشتغل في البلاط، مثل الكثير من شباب السريان الذين تجمّعوا في حيّ السريان في المصيطبة في بيروت. وفي بيروت بدأ يتعلّم اللّغة السريانيّة. لم يدرس السوريويو الدارج الذي يتكلّم به كلّ النّاس، بل تعلّم اللّغة الفصحى في الكنيسة. وعندما صار كوهنو، صار يحكي اللّغة الفصحى، لكن معي كان يتكلّم العربيّة الدارجة ويطعّمها ببعض الكلمات السريانيّة. حين كانت أمّي تسمّيه الكرديّ، كان يحرد، وخصوصًا في أيّامه الأخيرة عندما صارت تأتيه نوبات بكاء طويلة، فتحتار أمّي كيف تراضيه.

بعد أن أصبح جدّي كوهنو، توقّف عن أكل اللّحم، ثمّ توفّيت زوجته بمرض السرطان فصار متزمّتًا جدًّا، ولا يطاق، وخصوصًا في قضايا الأكل والنظافة والأخلاق.

تزمّت جدّي أحدث مشكلة كبيرة في العائلة. أنا لم أكن منتبهًا إلى الموضوع، لكن جدّي روى لي كيف أخصى الخواجة الياس الشامي، فجنّ جنون أمّي. جنّت لا لأنّ أبي أخصاه، فهي لا علاقة لها، ولكن لأنّه أخبرني وفضحها.

لا أعرف كيف، حين سمعت الحكاية شعرت أنّني سمعتها من قبل. فالخواجة الياس كان حاضرًا في

حياتي، رغم أنّه لم يكن يزورنا إلاّ قليلاً. لكن أمّي كانت تأخذني إلى مدينة الملاهي، ويكون هو هناك. أركب في «الدويخة» كلّ الوقت، أجلس في الآلة التي تبرم وأتركهما تحت، وأبقى ساعة أو ساعتين أتفرّج على البحر والمدينة من فوق. أبرم الدنيا، وهما جالسان يشربان القهوة ويتحدّثان.

في إحدى المرّات ضعت. أتذكّر الأمور الآن، وكأنّها حصلت مع شخص آخر. كنت أعتقد أنّ فكرة الشخص الآخر الذي يشبهني هي جزء من الطفولة، يعني حين أتذكّر طفولتي، أحسّ أنّ الطفل الذي كان أنا، هو شخص آخر. لكنّي الآن، وبعد تجربة الحبس والتعذيب، صرت أرى كلّ حياة يالو وكأنّها حياة شخص آخر. لا أعرف كيف أصف هذا الشعور يا سيّدي، لكنّه شعور حقيقيّ، أتطلّع إلى نفسي في مرآة نفسي فأرى رجلاً آخر وأخاف منه ومن أفكاره وأعماله. لا، أنا لا أقول ذلك كي أتهرّب من مسؤوليّاتي، فأنا أعلم أنّني أدفع الآن ثمن أخطائي، وأطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى.

أنا لا أطلب المغفرة من النّاس، ولا أكتب هذا الكلام في سبيل أن أحظى بعطف حضرة القاضي، فالحياة لم تعد تهمّني، أعرف أنّني سأحكم بالإعدام بتهمة زرع المتفجّرات وقتل الأبرياء، لكنّني بريء، والله بريء، ومع ذلك سأقبل الحكم الذي يصدر بحقّي عن طيبة خاطر، وأقول إنّ هذا كتب لي قبل ولادتي، ولا حيلة

لي. أرى جدّي يبكي أمامي وأطلب منه أن يتشفّع لي قدّام مار أفرام السريانيّ، ولا أطلب لنفسي سوى الرّحمة والرّاحة في العالم الآخر.

نزلت من الدولاب أو الدويخة، لا أعرف كيف يجب أن أسمّي هذه اللّعبة، ولم أجد أمّي أو الخواجة الياس تحت، فبدأت أبكي وتجمّع النّاس حولي، وسألوني ابن من أكون وأين بيتي، ولم أعرف كيف أدلّهم على البيت قلت لهم إنّني ابن الأبيض وأنّ بيتنا في حيّ السريان، لكنّني لم أعرف أن أقول أكثر. وقف النّاس حدّي لا يعرفون ماذا يفعلون بي، وأنا أبكي. ثمّ عرفني شخص لا أعرفه، قال هذا ابن الخوري، وأخذني إلى بيتنا بسيّارته، وكان جدّي، وحصلت الفضيحة التي ارتبطت بي، جدّي عرف ساعتها أنّ أمّي لا تزال على علاقة بالخيّاط.

في باريس خفت كثيرًا، فجأة وجدت نفسي على الطريق، في مدينة لا أعرف لغتها أو أحدًا فيها. فلجأت إلى الفنّ الذي أعرفه. كتبت على قطعة كرتون أعطتني إيّاها مدام ڤيوليت، صاحبة الفندق، بخطّ نسخيّ جميل هذه العبارة: «أنا شابّ لبنانيّ مشرّد ووحيد، أطلب العطف لأنّني لا أملك ثمن رغيف خبز».

افترشت محطّة مترو مونبرناس أنا والكرتونة، وبقيت عدّة أيّام، لم آكل خلالها إلاّ قطعًا من الخبز اليابس أعطاني إيّاها كلوشار فرنسيّ مشرّد مثلي، يشرب

النّبيذ من القنّينة مباشرة، وتفحّ منه رائحة عفونة الجسم الإنسانيّ. وهناك التقى بي الخواجة ميشال وأنقذني. أعادني إلى لبنان، وشغّلني عنده، وأكرمني، الله يكرمه، وأنا خنت الأمانة. هذه هي خطيئتي الكبرى، خطيئتي هي خيانة الأمانة. رجل أمّنني على بيته وزوجته، وأنا لم أكن أستحقّ ثقته. بدل أن أكون كلبه، كما طلب منّي، صرت كلبًا شاردًا، وفتحت حياة على حسابي، وبدأت البصبصة انطلاقًا من حرج الصنوبر الذي يقع تحت كنيسة مار نقولا.

أنا أريد أن أقول الحقيقة من أجل أن يرتاح ضميري. فأنا لم أكن في البداية أريد السرقة أو اغتصاب النّساء. بدأت الأمور عندما اكتشفت عن طريق الصدفة، السيّارات التي تتوقّف في الحرش. راقبتها من أجل حماية الڤيلّلا، قلت يمكن هناك أشياء مشبوهة تحصل هنا، وواجبي كحارس أن أعرف كلّ شيء. لكنّ القضيّة كانت مجرّد جنس وتعريس. لم أكن أرى أشياء محدّدة عن بعد، لكنّ المشاهد التي رأيتها، وظلال الرّجال فوق ظلال النسوان، ألهبت خيالي يا سيّدي.

قصّتي بدأت بحبّ التفرّج على التعريس، لا أكثر ولا أقلّ، ثمّ اتّخذت قراري بالنزول إليهم من أجل أن أقترب من المشهد أكثر وأتفرّج بشكل أفضل. لماذا فعلت الأشياء التي حصلت بعد ذلك؟ لا أعرف.

أعرف أنّني أوّل مرّة نزلت كنت أحمل بارودة الكلاشينكوف والبطّاريّة، ورأيت كيف احتلّ الخوف شفتي الرّجل الجالس في السيّارة، واكتشفت أنّ الخوف يبدأ من الشفتين. نكزت شبّاك السيّارة ببوز البارودة، فتح الرّجل الشبّاك وحاول أن يحكي، لكنّ الكلام لم يخرج من فمه، وكانت شفته السّفلى ترتجف. ثمّ مدّ يده إلى جيب بنطلونه وأعطاني كمشة دولارات وليرات لبنانيّة. أنا لم يكن في خطّتي أن أسرقه أو أجبره على الدّفع، لم يكن عندي خطّة محدّدة، كنت أريد فقط أن أتفرّج. مدّ يده بالمصاري فأخذتها، وبقيت واقفًا حدّ الشبّاك، فشلح ساعته وأمر المرأة التي كانت حدّه أن تشلح ساعتها وسنسال ذهبيّ فيه صليب معلّق على رقبتها، وأعطاني إيّاها. أخذتها وبقيت واقفًا حدّ الشبّاك، فسمعت صوت المرأة تقول دخيل عرضك استرنا يا ريّس، لا أعرف لماذا جاوبتها: اسكتي يا شرموطة، وبدل أن تزعل أو يغضب الرّجل وينزل ويمشكلها معي، أحنى الرّجل رأسه كأنّه يوافق، وابتسمت المرأة كأنّها تكشّر، عندها اشتهيتها، لكنّني لم أفعل شيئًا، تهيّجت بشكل غريب، لكنّي مشيت عائدًا إلى بيتي في أسفل الفيلّلا، وسمعت صوت تشفيط السيّارة على التراب، وهي تدور حول نفسها.

وبعد ذلك تطوّرت الأمور بشكل طبيعيّ، صرت أتصيّد مرّة أو مرّتين في الأسبوع لا أكثر، لأنّني لم

أكن طمّاعًا. خفت إذا أكثرت من عمليّات الصيد أن يتوقّف النّاس عن المجيء إلى الحرج، وكان صيدي دائمًا هو آخر سيّارة، يعني السيّارة التي تتأخّر في اللّيل.

شاهدت أشياء لا توصف، علّمتني الكثير عن الطبيعة الإنسانيّة، وجعلتني أفهم جنون أمّي. أمّي امرأة مسكينة، جريمتها أنّها أحبّت رجلاً لا يستأهلها، وذهبت في حبّها إلى النهاية. وأنا أشبهها في هذا. صحيح أنّه من المعيب أن أقارن تصرّفاتي الحمقاء، ورغباتي الخسيسة، بامرأة نبيلة، ذهبت ضحيّة الحبّ، لكنّ الله كتب لي أنا أيضًا أن أذوق الحبّ، وأن أذهب ضحيّة الحبّ، وأن تنتهي حياتي عكس ما بدأت. فأنا بدأت بالخطيئة في الحرج، وانتهيت بالحبّ، أنا عكس أمّي وامتدادها. هي غرقت في المرآة، وأنا لا أحتاج إلى مرآة. هي لم تعد ترى صورتها في المرآة، وأنا أستطيع أن أرى صورتي دون مرآة.

رأيت يا سيّدي، يعني كيف أقول، بعضهم كان يأتي في وضح النّهار، وهؤلاء أقلّيّة، لا شكّ، أحدهم كان يأتي في العاشرة صباحًا، ربّما كان هذا أوقح رجل في العالم، كان يأتي في النهار، يركن سيّارته قرب شجرة الجميّز الضّخمة ويضاجع المرأة، وكنت أرى نهديها الكبيرين من خلال الأغصان. كان لا يعرّيها بشكل كامل، يفكّ لها قميصها، ويُخرج نهداها، وينام معها

على الكرسيّ داخل السيّارة. يجلس على الكرسيّ التي إلى يمين المقود، وهي تأتيه من فوق، ونهداها يتراقصان. يصلان، هي إلى جانبه في سيّارة البيجو الحمراء. يخرج من السيّارة، ويفكّ أزرار بنطلونه، تفتح الباب وتقف في انتظاره. يجلس على المعقد، ثمّ تدخل السيّارة وتجلس فوقه.

مع هذه المرأة كانت إحدى تجاربي الأولى، رأيتها تفتح باب السيّارة وتقف في انتظاره، فلم أتمالك نفسي، كانت الشّمس في كلّ مكان، ورأيتني أمسك البارودة وأضع القبّعة على رأسي وأغطّي بها وجهي وأركض. لم أسرقهما. وصلت إليها قبله، رأى البارودة فجمد في مكانه، أشرت إليه أن يمضي بعيدًا، فمضى دون أن يبدي مقاومة. جلست وأمرتها أن تصعد كما تصعد معه. فكّيت أزرار البنطلون وعرّيت صدرها، وأخذتها كما كان يفعل تمامًا. ثمّ نزلت كي أعود إلى بيتي، فرأيت الرّجل يصعد إلى السيّارة ويمضي.

بدأت الأمور تتّخذ شكلاً جديدًا، فأضيفت إلى متعتي الأولى، أي الفرجة على النّاس وتشليحهم المصاري، متعة جديدة، إلى أن أوقعني الله صريع الهوى.

لقد قرأت الكثير من الكتب التي كنت أجدها في غرفة أمّي. لكنّ الكتاب الذي أثّر عليّ بشكل خاصّ هو كتاب «مصارع العشّاق». هذا هو الكتاب الوحيد الذي قرأته عدّة مرّات. على الورقة الأولى من الكتاب

إهداء مكتوب بحبر أحمر: «إلى حبيبتي الصغيرة من أجل أن تعرف»، وخربشة تشبه توقيعًا غير مفهوم. أعتقد أنّ أمّي لم تقرأ الكتاب، لأنّها لم تكن تحبّ القراءة، حتّى الجريدة لا تقرأها، وأعتقد أنّ الخربشة هي توقيع الخيّاط الذي كان يحبّ أمّي ولم يتزوّجها. كنت أقول لشيرين، حين ألتقي بها، إنّني صريع الهوى، فتضحك لأنّها لا تفهم معنى الكلمات. شرحت لها وأخبرتها حكايات العشّاق الذين ماتوا بسبب العشق، فضحكت عليّ وعليهم. الخيّاط أيضًا، هكذا أتخيّله، الخيّاط كان يروي لأمّي حكايات الكتاب، وهي أيضًا كانت تضحك لأنّها لا تفهم.

وقعت صريع هذه الفتاة التي اشتكت عليّ وأخذتني إلى الحبس. عندما رأيتها في مخفر جونية، فكّرت أنّ الانتقام هو طريقتها في إعلان حبّها لي، وهذا يحدث كثيرًا في قصص الحبّ، فهي لم تكن قادرة على التخلّص منّي إلاّ بواسطة الانتقام، فازداد حبّي لها وهيامي بها، لكن عندما رأيت إميل خطيبها، هذا الشابّ المهبول الحمار الذي لا يعرف شيئًا عن الحقيقة، فهمت أنّ الحبّ انتهى. أنا متأكّد أنّ إميل لم يكن معها. عندما أخذتها إلى بيتي، كان معها رجل آخر، وهو طبيب في الخمسين من عمره، لم أعد أذكر اسمه الآن، لكنّه حكيم مشهور، لماذا لا تجلبونه إلى التحقيق وهو سيقول الحقيقة، وعندها

سوف تظهر براءتي أمام كلّ النّاس. فأنا لم أكن أغتصب، يعني تقريبًا، والله لا أعرف. ولكنّي الآن أعترف أمام الله وأمامكم أنّني كنت أغتصب النسوان، لأنّكم تسمّون هذا اغتصابًا، ولأنّني بعد أن انغرمت بشيرين اكتشفت أنّه كان اغتصابًا بالمقارنة مع الجنس الجميل والرّائع الذي يمكن للإنسان أن يمارسه مع المرأة التي يحبّها. شيرين لم أنم معها إلاّ قليلاً، لكنّني كنت أمارس معها الحبّ في كلّ لقاءاتنا، وكان شيئًا جميلاً وعظيمًا ولا يقارن بالعلاقات الجنسيّة التي أقمتها مع نسوان الحرش. الحبّ شيء إنسانيّ، كأنّك تصلّي، بينما الجنس في الحرش يشبه الحرب، ولذلك اقتنعت أنّه اغتصاب. أنا أعترف أنّني كنت أغتصب، وأطلب الرأفة بي والرّحمة لروحي، من أجل أمّي المسكينة التي تعيش وحدها، وما عندها أحد يهتمّ بها، وهي تحتاج إلى ابنها كثيرًا. وأنا أعد أن أكرّس نفسي لخدمتها.

أعترف أنّي سرقت ونهبت واغتصبت، وأنا مقتنع أنّ الله يقاصصني من خلالكم.

أمّا الفصل الأخير من قصّة حياتي، فهو أكثر الفصول غرابة يا سيّدي، لأنّي لا أعرف كيف تورّطت في المسألة، اتّصل بي هيكل، لا أعرف اسم عائلته، وكان معنا في ثكنة جورج عرموني وأغراني بالمال، أعطاني ٥٠٠ دولار أميركي، وقال لي إنّ المال هو من أبو أحمد الندّاف، وطلب منّي أن أخبّئ الأغراض

في بيتي وخبّأتها. أنا لم أكن أعرف النّداف هذا، لكنّي كنت أسمع به، لأنّه كان مشهورًا في الشريط الحدوديّ الذي تحتلّه إسرائيل، وكان مسؤولاً عن التدريب على المتفجّرات، والكثير من شبابنا تدرّبوا على يديه. أعطاني هيكل ١٠ كيلو جنجلايت و٢٠ صاعق و٥ قنابل يدويّة من أجل أن أخبّئها، وبعد ذلك بدأنا. جاء هيكل وقال إنّ الشغل بلّش، وصاروا يأخذون المتفجّرات ويذهبون. بسّ أنا لم أكن مهتمًّا بالموضوع. كان همّي الوحيد هو شيرين أضرب لها المواعيد وألاحقها من مكان إلى مكان، وأحبّها. هدفي كان الزواج منها كي أتخلّص من عيشة الكلاب التي أعيشها. جدّي الكوهنو عندما كان يزعل منّي كان يسمّيني ابن الكلب، والخواجة ميشال قال لي إنّه لم يجلب كلبًا لمساعدتي في حراسة الڤيلّلا، لأنّ السيّدة رندة، زوجته تخاف من الكلاب، قلت أشتغل مع هيكل وأجمع قليلاً من المال وأتزوّج شيرين ونسكن في الحازميّة، لكن قبل ذلك أكون قد جمعت رأسمالاً صغيرًا أفتح به دكّانًا لتجارة الخشب، فأنا تعلّمت مهنة تعشيق الخشب، لأنّني اشتغلت في دكّان الخواجة سليم رزق عندما كنت صغيرًا.

وأنا أعترف الآن، وأعلن أنّني قرّرت التوبة، ومتابعة طريق جدّي رحمه الله، والعناية بأمّي المسكينة، كما قرّرت أن لا أتزوّج، متخلّيًا عن كلّ شيء، كما قرّرت التوقّف عن أكل اللّحم.

هذه قصّة حياتي كلّها، من لحظة ولادتي إلى الآن، كتبتها في السّجن في شهر شباط ١٩٩٢، والله يشهد أنّني صادق في كلّ ما كتبته، وأنا على استعداد لتكرار أقوالي أمام المحكمة.

قرأ يالو الأوراق التي كتبها، ووضعها جانبًا، وهو يشعر براحة عميقة. لقد نجح في كتابة قصّة حياته كلّها. والآن، حين سيستدعى إلى التحقيق، سوف يقول إنّه اعترف بكلّ شيء وكتب كلّ شيء ولم ينسَ شيئًا.

كتبَ عن طفولته وشبابه وعن الحرب والخواجة ميشال، كتب عن أمّه وعشيقها الخيّاط وعن جدّه الكوهنو، كتب عن شيرين التي أحبّها وعن الصيد في بلّونة. صحيح أنّه اضطرّ إلى كتابة حكاية ملفّقة هي حكاية هيكل والندّاف والمتفجّرات، لكنّ التلفيق هنا كان أمرًا لا مهرب منه. وشعر يالو أنّه أذكى من المحقّق لأنّه ذكر اسمَي رجلين لن يعثر عليهما أحد. هيكل مات منتحرًا في تشرين الثاني ١٩٩١، وقيل إنّه شنق نفسه لأنّه لم يعد يستطيع الحصول على الكوكايين، أمّا الندّاف فقد هاجر إلى البرازيل حيث اختفت آثاره. اعترف كما يريدون، لكنّه لم يفتح لهم ثغرة تسمح لهم بهتك روحه وجسده من جديد. سوف يقرأ المحقّق هذين الاسمين ويبحث عنهما، ثمّ يقرّر إقفال الملفّ لعجزه عن متابعة القضيّة مع رجلين لا وجود لهما.

جلس يالو في أرض الزنزانة، أسند رأسه إلى الحائط وشعر بالجوع. كأنّ الكلمات التي كتبها أحدثت في داخله فجوات لا يملؤها سوى الطعام. رأى أمامه السمكة، وبدأت شفتاه تتحلّبان

بالرّغبة في التهامها. سوف يقول لشيرين، لو كانت شيرين هنا، إنّه لم يعد يخاف شيئًا حين اكتشف الدم في السمك.

أخبرها، أو كان سيخبرها، عن منير شمّو الذي جلب سمكة اللّقز الكبيرة إلى المنزل، وكانت تفرفر بالموت.

ماذا حصل في ذلك اليوم؟

يشعر يالو وهو يستحضر الحكاية من أجل شيرين أنّ الحكي لا يكون إلاّ بالحبّ. حين سقط صريع الهوى شعر بطعم الكلام. فالكلام يمتلئ نكهة حين يأتي مع الحبّ. صحيح أنّه لم يعد يحبّها الآن، وصحيح أيضًا أنّه شعر بالقدرة على قتلها لأنّها كسرت أضلعه بالخيانة التي ارتسمت على فخذيها العاريين في غرفة التحقيق، لكنّه حين يجلس الآن، من أجل أن يكتب، يشعر بها، ويتذكّر كيف صار كتابًا مفتوحًا أمامها. كان يحاول إغراءها بسماعه، يخترع حكايات حصلت أو لم تحصل، لكنّها كانت غير مبالية، كتب أمامها حياته، لكنّها رفضت أن تقرأ. كانت مستعجلة دائمًا وشاردة الذّهن كأنّها لا تفهم، أو لا تريد أن تفهم.

إنّها الآن هنا، كأنّها تجلس إلى جانبه في الزنزانة وتستمع إلى حكاية السمكة. لكن ذهنه شطّ قليلاً بسبب أحمر الشّفاه الذي يلوّن شفتيها. بدأت تأكل، قلبت شفتيها كأنّها تريد إدخال الأكل إلى شفتيها دون أن تمسّ الحمرة، ثمّ حين أحسّت باستحالة الأمر، أمسكت محرمة ورقيّة من أجل أن تمسح الأحمر، فصرخ بها يالو لا، وشعر برغبة إلى شفتيها، وتخيّل نفسه يمرغ شفتيه بهما ويلحس الأحمر العالق على شفتيه. كان يعرف أنّها لا تحبّ الأغاني العربيّة أو الشعر العربيّ، لكنّه لم يتمالك نفسه، فقال لها

اسمعي، وضعت شيرين المحرمة على الطاولة، ونظرت إليه تنتظر كلامه.

«اسمعي هذه القصيدة»، قال. «كان المنصوراتي يقعد معنا بالثكنة ويغنّي، وكنّا نغنّي معه، بالأوّل سحرني، المنصوراتي سحرني بصوته وبعوده. أنا ما بحياتي كنت قادر طلّع نغمة مزبوطة، صوتي كان نشازًا، أمّا المنصوراتي فيا عيني. لمّن كان يحمل عوده ويبلّش يغنّي كنت حسّ بروح العالم يلّلي ما بقدر أوصلها. إنت ما بتحسّي هيك لمّن بتسمعي موسيقى؟»

أجابت بصوت يشبه الغمغمة أنّ الموسيقى التي تلتقط روح العالم هي الموسيقى الكلاسيكيّة، وأنّها تحبّ باخ، وتعتقد أنّ الأغاني هي اعتداء على الموسيقى.

«ما بتحبّي نزار قبّاني؟» سألها.

«مش عم بحكي عن الشعر العربيّ»، قالت، «بس يعني حتّى جاك بريل، بتعرف جاك بريل؟»

أشار برأسه إلى الأسفل ليقول إنّه يعرف، لكن جهله بدا واضحًا من الطريقة التي عقد فيها حاجبيه من أجل أن يوحي بأنّه يفهم.

«شو هالحكي؟» قال.

«كنت عم قلّك إنّه حتّى جاك بريل يلّلي أغانيه بتعقّد، بحسّ أنّه عم بنزّل مستوى الموسيقى لمّن بحطّ فيها معاني وكلام.»

«بس إنتِ مش عارفة عن شو رح خبّرك»، قال. «يلّلي رح خبّرك عنها هي أحلى غنّيّة بالعالم، أحلى حتّى من عبد الحليم حافظ، اسمعي.»

قال اسمعي، وتراجع رأسه إلى الوراء، أسند صدغه بيده

اليمنى، قبل أن يبدأ في تلاوة القصيدة بصوت منغّم:

«في الأشرفيّة يوم جئتِ وجئتُها	نفسي على شفتيك قد جمّعتُها
ذقتُ الثمار ونكهةً إن لم تكنُ	هي نكهة العنب الشهيّ فأختُها
لولا طراوة ما بها وحنوّ ما بي	في الهوى لَلَقَمْتُها ولُلُكتها.»

وصار يرندح «الكتُ، لكتُ... لـ.. كـ.. ت.. ها. حلوة ما هيك، هيدي كانت غنّيتنا بالثكنة كنّا نغنّي لكتها وكلّ واحد يترجم على ذوقه. وألكسي يشيل اللاّم ويحطّ النون، والمنصوراتي يزعل، والله كان فنّان عظيم، مدري شو صار، قال إنّه زهق من الحرب وبدّو يعمل فنّان، ما نحنا كلّنا زهقنا من الحرب، بس يعني مش كلّ واحد بيزهق بصير فنّان، مش هيك.»

ضحك يالو معتقدًا أنّه يقول نكتة، لكن حين لم يرَ أثرًا للابتسام على شفتيها، عاد إلى الجدّيّة وروى لها عن السّمكة والحرب.

حين يذكر كيف تذكّر هذه الحادثة يُصاب بالذهول. فالسمكة المليئة بالدم غارت في ذاكرته كأنّها لم تكن. وعندما حاولت الفتاة مسح الأحمر عن شفتيها كي لا تلوّث الأكل، استيقظت السمكة وصارت حكاية.

يذكر رأس السمكة الذي احتلّته عينان زئبقيّتان وفم كبير ينفتح وينغلق كأنّها تريد أن تحكي ولا تستطيع. منير شمّو، صديق الكوهنو، الذي صار بعد تقاعده من مهنة البلاّط، لا يمارس سوى هواية صيد السّمك، أتى صبيحة ذلك السّبت حاملاً في سلّته سمكة ووضعها في المطبخ ومضى. عندما دخلت غابي إلى

المطبخ وهي تلعن حظّها لأنّ عليها تنظيف السمك الأسود القبيح الذي يجلبه منير شمّو عادة، وهو سمك مليء بالحسك ويسمّونه في لبنان «البولشفيك»، جمدت في مكانها حين رأت السمكة الكبيرة في أرض المطبخ وصرخت. كانت السمكة قد قفزت من المجلى إلى أرض المطبخ، وصارت تزحف وتفرفر. ركض الجدّ على صوت ابنته ورأى هو أيضًا.

«السمكة عم تحكي مع الله»، قال الجدّ، ركع محاولاً حملها، لكنّ السمكة زحطت من يده. كان طول السمكة حوالي المتر وجلدها الرّماديّ الذي يلتمع ببقع بيضاء يزحف على الأرض، وعيناها تلتمعان بالحياة. انحنى أفرام أرضًا وأمسكها بذراعيه كأنّه يحمل طفلاً، وقال إنّه ذاهب ليردّها إلى البحر، لكنّ السمكة سقطت من بين يديه، تراجع الكوهنو إلى الوراء وقال إنّه ذاهب لاستدعاء الصيّاد. لا يذكر يالو أين اختفت أمّه، لكنّه وجد نفسه وحيدًا مع السمكة في المطبخ. اقترب منها فزحط أرضًا وانفدغ رأسه وسال الدم. بين البن الأسود المطحون الذي وضعته الأمّ على رأس ابنها من أجل إيقاف الدمّ والمذبحة التي دارت في المجلى، لا يذكر يالو سوى الجدّ باكيًا فوق السمكة التي تناثر دمها على المجلى وحائط المطبخ.

«دبحتيها!» صرخ الكوهنو، «ولو يا بنتي حدن بيدبح سمكة؟»

كانت غابي قد شقّت بطن السمكة وانتزعت أحشاءها، وبدأت في إزالة حراشفها بسكّين كبير، حين عاد الكوهنو بصحبة منير شمّو.

السمكة المذبوحة التي سال دمها من أحشائها، كانت تفرفر بين يديّ غابي المنهمكة في تقشيرها وهي تقول إنّها أفضل سمكة

رأتها في حياتها، وإنّها سوف تعدّ منها ثلاث طبخات، سوف تقلي نصفها الأسفل للغذاء، وتشوي نصفها الأعلى يوم الأحد، أمّا الرّأس الضخم فستطبخه مع الرزّ صيّاديّة سمك.

«سلّم إيديك عمّو منير، أنت معزوم لعندنا على أكل السّمك تلات أيّام.»

الجدّ الذي أعاد جملته حول ذبح السّمكة خرج من البيت مع صديقه ولم يعد قبل المساء، وأعلن التخلّي عن أكل السّمك.

«وهيك بطّل جدّي يأكل السّمك، حتّى الصبيدج بطّل يأكل منه، مع أنّ الصبيدج حبر، شرايينه محبرة ما فيها ولا نقطة دمّ.»

«بتعرفي أنّهم بفرنسا بياكلوا دمّ.»

«شو؟» سألت شيرين.

«عم قلّك بياكلوا دم. الخواجة ميشال طعماني أكلة اسمها بودان، قال بيحشو مصارين الخنزير دم وبياكلوها.»

«أنت أكلتها؟»

«طبعًا، ليش شوفيها، بعدين أنا عشت ببيت بينشرب فيه دمّ كلّ يوم تقريبًا.»

«بتشربوا دمّ؟» سألت وعلامات التقزّز على وجهها، برمت كأنّها لا تريد أن ترى محدّثها، ثمّ أمسكت المحرمة الورقيّة من أجل أن تمسح الأحمر عن شفتيها.

«لا، ما تشيلي الحمرة، أنا بحبّ الحمرة.»

نظرت إلى ساعتها، وحين تنظر شيرين إلى ساعتها فهذا يعني أنّها قرّرت أن تغادر، عندما فاجأها بالسؤال عن إيمانها بالله.

«طبعًا، طبعًا»، قالت.

«وبتروحي على العتدو؟»

«شو؟»

«بتروحي على الكنيسة؟»

«مش دايمًا، بس يعني أكيد على الميلاد والجمعة الحزينة، يعني متل كلّ النّاس.»

«وبتتناولي؟»

«يعني... مرّات.»

«وبس تتناولي شو بتحسّي؟»

«شو هالأسئلة السّخيفة، يلّلا.»

«لا مش يلّلا، عم بسألك، جاوبي.»

«طيّب، بفتح تمّي وباكل القربانة.»

«والدّم!»

قالت إنّ هذا مجرّد رمز، الخمر لا يستحيل دمًا في القدّاس إلاّ بشكل رمزيّ.

«مش صحيح»، قال يالو، «القدّاس هو ذبيحة، يعني مدبحة، مدبحة حقيقيّة، أنا هيك بعرف.»

«أنت ما بتعرف شي»، قالت.

قالت إنّها لا تحبّ الحديث في الدّين، فهي لا تفهم شيئًا في الموضوع، لكنّها تؤمن بالله وهذا يكفي.

«طبعًا يكفي»، قال يالو، «بس كنت عم خبّرك عن الكوهنو، جدّي عامل نباتي، وهو كلّ يوم بيشرب دمّ.»

«بيشرب دمّ؟»

«طبعًا بيشرب دمّ، ما هو كوهنو، وبالقدّاس بيشرب دمّ المسيح، بيحطّ نبيذ حلو وميّ بالكاس وبيشرب.»

«هيدا نبيد، خوّفتني، مدري ليش بعدني بصدّقك.»

«لا، هيدا مش نبيد، هيدا بصير دمّ»، قال يالو، لكنّه لم يقل لها إنّه كان يخاف في القدّاس، كان يغمض عينيه ويفتح فمه للمناولة، فيشعر بطعم الدمّ ويلفّه الدوار. أراد أن يروي لها عن عجائب جدّه، وعن أعجوبة الملاّ الكرديّ، وعن ألكسي وأمّه الموسكوبيّة، لكنّه شعر أنّ الكلام مع شيرين يفتح في داخله فجوات لا عدد لها، وهو عاجز عن إيصالها إليها. معها يشعر أنّ الحكي يسيل منه، ويكتشف أنّه لم يحكِ شيئًا، لأنّه عاجز عن أن يوصل لها فكرة واضحة وبسيطة عن حبّه لها.

«بس أنت ما بتعرفني»، قالت.

«أنا بعرف كلّ شي»، جاوبها. فالحبّ هو المعرفة الكبرى، أراد أن يقول لها إنّ رائحتها لا تغادره، وإنّه مستعدّ أن يغيّر حياته من أجلها، وإنّه ليس مجرّد أزعر أو حارس ڤيلّلا، لكنّ الظروف قادته إلى هنا، وإنّه سيفتح دكّانًا للخشب المعشّق. لكنّه لم يقل. فالكلام يحتاج إلى شيء آخر لن يتعلّمه يالو إلاّ في الزنزانة الانفراديّة. الكلام يحتاج إلى حيلة، والحيلة لم تأتِهِ إلاّ هنا، حين وجد نفسه محاصرًا بحائطين: حائط السّجن الرّماديّ الذي تقشّر دهانه، وامتلأ بكسور وفجوات متعدّدة تتّخذ في اللّيل أشكالاً بشريَّة، وحائط الأوراق البيضاء التي وضعت أمامه من أجل أن يكتب عليها قصّة حياته. يالو لم يكن يعلم أنّ هذه التقنية لسحب الاعترافات من المتّهم، هي التقنية الأكثر شيوعًا في العالم العربيّ مع السجناء السياسيين، فبعد حفلات التعذيب التقليديّة. يجد السّجين نفسه أمام القنّينة، حيث يُجبر على الجلوس عاريًا على قنّينة كولا فارغة، فإذا نجح في تجاوز الموت تسمّمًا أو بسبب النزيف، يُعطى مجموعة من الأوراق

البيضاء، ويُطلب منه كتابة قصّة حياته. هنا يبدأ التعذيب الحقيقيّ، فتتحوّل الكتابة وسيلة قتل وطريقًا إلى الانتحار. تصير الكلمات أشبه بالسكاكين التي تطعن حاملها. فينحدر السجين إلى هاوية يحفرها بنفسه، ينزلق على الحروف ويسقط في دمه الذي يصير بلون الحبر. ويشمّ رائحة دمه.

لم يشمّ يالو رائحة دمه قبل دخوله إلى السّجن. حتّى عندما وقف أمام عظام ألكسي التي غادرها اللّحم، ثمّ استمع إلى حكايات نينا الروسيّة، فإنّه لم يشمّ هذه الرّائحة التي يشمّها في الزنزانة حين يحاول أن يتحايل على موته بكتابة قصّة موته.

صورة نينا تعود إليه في الزنزانة كأنّها تقفز من الحائط.

«إنتو روس يا خالتي؟» سألها يالو وهو يشرب ماء الورد الممزوج بالسكّر الذي كانت تعدّه الموسكوبيّة بطريقة خاصّة.

«هيدا منشان عيد مار الياس الحيّ»، قالت المرأة وهي تشير إلى ماء الورد. «منشرب ماورد مع تلج مكسّر مش لأنّ. . . مش لأنّ العيد بصاقب بتمّوز، وبتكون الدنيا شوب، لا، لأنّ مار الياس هو نبيّ النّار، طلع بعربيّة بتجرّها أحصنة من نار على السّما. التلج المكسّر منشان النّار. أنا قبل عيد مار الياس لا يمكن أعمل ماورد. والماورد يا ابني هو روح الورد الجوري الأحمر يلّلي لونه متل النّار. منحطّ النّار مع التلج ومنشرب على عيد النّار، اشرب يا ابني.»

«شكرًا، شكرًا»، قال يالو وأخذ شفةً من هذا المشروب السحريّ الذي ينعش القلب، تردّد قليلاً قبل أن يعود إلى سؤاله.

«إنتو روس يا خالتي؟»

«ما قلتلّي يا ابني أنت من وين؟»

«من هون.»

«لا، قبل هون من وين؟»

«نحن من عين ورد، هيك جدّي بخبّر، هيدي ضيعة بطور عابدين.»

«أبو ألكسي الله يرحمه من ماردين»، قالت الروسيّة، «منشان هيك ما كان يحكي سريانيّ، أهل ماردين ما بيحكوا إلاّ عربي، لمّن إجا طلبني قلتلّه إنّي ما باخد واحد سرياني، قلّلي إنّ هو سرياني ومش سرياني، وتزوّجنا.»

«يعني إنتو سريان؟» سأل يالو.

«هنّي يعني، عيلة زوجي، أنا لا.»

«إنتِ روسيّة؟»

«هيك بيقولوا، بسمّونا أولاد الموسكوبيّة، بس نحن عرب. شي نهار بخبّرك قصّة ست ستّي، هي كانت الموسكوبيّة، ومن أيّامها لصق الاسم علينا ومنشان هيك سمّيت ابني ألكسي، أبوه كان بدّو يسمّيه اسكندر، أنا قلت لا، اسكندر يعني ألكسي، هيك منعطي الصبي اسم روسي متل القياصرة، في أحلى من القياصرة؟»

يدخل يالو في عباءة النّوم. يتلفلف بنفسه على السّرير الحديديّ الموضوع في زاوية الزنزانة، يغمض عينيه فيرى شبح المرأة الحبلى يركض والثوب الطويل ملطّخ بالدمّ. خرجت المرأة من مكان في الحائط، فرآها. تبدأ الصورة من بطنها الملوّث باللّون الأحمر. بطن منتفخ بجنين في شهره السّادس، يخرج البطن من شقوق الحائط بثوبه الأسود المبقّع بدم أسود. تبدأ الصورة باللّون الأسود، ثمّ يختفي الأسود ويحلّ مكانه

الأبيض. يصير الثوب أبيض، والدم ينتشر فوق نتوءاته، كأنّ الدمّ يرسم رأس الجنين ووجهه الذاهل أمام الموت، أمّا وجه المرأة فلم يكن واضحًا، كأنّه مغطّى بلطخة صفراء باهتة.

تخرج المرأة من الحائط وتبدأ في الرّكض في شوارع ضيّقة، فجأة تختفي الشوارع، وتصير المرأة وحيدة في البراري، قبل أن تصل إلى أطراف مدينة صور. تقف أمام مبنى مسوّر. تطرق الباب، فتفتح لها راهبة، ثمّ يغلق الباب الحديديّ في وجهها. لكنّ الثوب الأبيض المبقّع بالدم يقرع من جديد، ويخرج منه نشيج يشبه صوت طفل رضيع، تفتح الراهبة الباب من جديد، وتمسك المرأة من يدها وتدخلها إلى الدّير.

نتف الحكاية التي سمعها يالو من نينا الرّوسيّة، تحوّلت صورة ملتصقة بحائط الزنزانة. في اللّيل تخرج الصّورة من الحائط وتمضي راكضة بحثًا عن دير الرّاهبات الموسكوبيّات في صور الذي سوف يستقبلها ببطنها المنتفخ بالجنين الذي بكى في داخله، وأنقذ حياته وحياتها.

يالو لا يستطيع تذكّر الحكاية في شكل متناسق. نينا قالت اسم القرية، وأخبرت كيف ذُبح الرّجل على بطن امرأته، لكن يالو لا يذكر الاسم الآن، ولا يعرف كيف يشرح ما جرى عام ١٨٦٠، في المذبحة التي افتتحت مذابح لبنان كلّها. قالوا إنّ الراهبة الموسكوبيّة عندما سمعت بكاء الجنين في بطن المرأة الحامل الذي يفيض الدّم من حوله، أصابها الذهول، ولم تستطع سوى أن تفتح الباب من جديد، وتسمح للمرأة بالإقامة في الدّير حيث أنجبت ابنتها الوحيدة.

«هيدي البنت هي أمّ ستّي، وكانوا يعيطولها الموسكوبيّة،

لأنها خلقت بدير الراهبات الروسيّات بصور، وصاروا أولادها وأحفادها أولاد الموسكوبيّة، وهيك صار اسمنا.»

ماذا حدث في ذلك اليوم الحارّ من شهر تمّوز عام ١٨٦٠؟

رسم يالو صورة القرية في ذهنه، وأسماها «ضيعة نينا.» هناك في القرية التي تنام على سفح جبل الشيخ، بدأت المذبحة في بيت المرأة التي كانت حاملاً في شهرها السّادس.

دخل رجل يحمل البارودة، وقال لزوج المرأة الحامل إنّه صديقه، لذلك سوف يذبحه هو، ولن يسمح لأحد بتعذيبه قبل قتله. وضع عنق الرّجل على بطن الزوجة الصبيّة الحامل، وذبحه بالسكّين كأنّه خروف. تدفّق الدّم واخترق أحشاء المرأة التي فقدت القدرة على النطق، وخرجت من بيتها راكضة، لتجد نفسها في دير الرّاهبات الموسكوبيّات في صور، حيث أنجبت ابنتها.

قبل أن تصل الحكاية إلى الرّجل الغنيّ الذي طلب الابنة اليتيمة من رئيسة الدّير، ثمّ مات بعد أن ترك لها ولابنها الوحيد ثروة كبيرة، هناك أمور تحتاج إلى إيضاح. لكنّ يالو لم يجرؤ أن يقول لنينا إنّ قصّة وضع رأس الرّجل على بطن زوجته الحامل قبل ذبحه صعبة التصديق، كما أنّ الكلام الذي قيل إنّه قيل يبدو أقرب إلى مقطع من رواية أو من فيلم سينمائيّ، منه إلى الحقيقة.

يالو مقتنع أنّ اللّبنانيّين نبشوا في هذه الحرب تاريخ حروبهم الماضية، من أجل أن يبرّروا جنونهم، الذي يجعل الحكي معهم مستحيلاً. صحيح أنّه تصرّف كلبنانيّ خلال الحرب، وهو لبنانيّ ولم يسمح للمحقّق بالتلاعب وتهديده بأبيه الذي ليس أباه أو

الذي لا يعرفه. حارب يالو تحت الرايات التي ارتفعت وابتلع كلّ الكلام الذي قيل، لكنّه شعر عندما روت له نينا الروسيّة عن جدّتها بأنّه انتفخ بالحكايات ولم يعد يحتمل. نينا روت كأنّها شهدت الحادثة، بل ردّدت الكلمات نفسها التي قالها القاتل لحظة ارتكب الجريمة.

«أنت صديقي، وأنا يلّلي رح أقتلك، ما تخفش، عقصة دبّور، ما بتحس شي، بس عقصة صغيرة.»

قالت إنّ القاتل قال «عقصة دبّور»، وإنّه جاء في اللّيلة التي سبقت الجريمة، إلى منزل الضحيّة وطمأنه، قال إنّه لا شيء سوف يحدث في قريتهم، وإنّ التعايش فيها مقدّس. نام الرّجل مطمئنًّا رغم رائحة الخوف التي كانت تلفّ القرية. في صباح اليوم التالي سمع طرقًا على الباب، فتحه، ورأى وجه الموت. أصيب الرّجل بهول المفاجأة فلم ينطق بحرف، أحنى رأسه ووضعه على بطن زوجته ومات.

قال «عقصة دبّور»، قبل أن يأخذ سكّينًا ويشخط العنق على بطن الزوجة الحامل التي لم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة، ثمّ مضى، تاركًا المرأة لجنونها الذي جعلها تتيه في الطرقات والبراري أيّامًا قبل أن تصل إلى دير الرّاهبات الموسكوبيّات.

«مش معقول يكون صار هيك»، فكّر يالو، وهو يرى المرأة تخرج من الحائط ببطنها المنتفخ، وتبدأ في الرّكض نحو دير الرّاهبات في صور.

قرعت، فشقّت راهبة الباب الحديديّ، وحين رأت البطن المستدير ببقع الدّم، أغلقت الباب بعنف.

قرعت من جديد، وبكى الجنين في بطنها.

قالت نينا إنّه لو لم تسمع الرّاهبة الروسيّة صوت بكاء الجنين يخرج من بطن المرأة، لما فتحت لها الباب من جديد.

«الجنين بكى ببطن أمّه»، قالت نينا.

«معقول!» سأل يالو.

«طبعًا معقول يا ابني، هيدي أعجوبة، وكانت الدليل على أنّ الراهبة قدّيسة. صاروا الرّاهبات يبوسوا إيد الرّاهبة يلّلي فتحت الباب لأنّها سمعت الصوت يلّلي ما حدن سمعه إلاّ اليصابات. حدن بيقدر يسمع صوت جنين إلاّ إذا كان قدّيس؟»

«بس يمكن تكون القدّيسة هي ستّك، لأنّ يلّلي حكي هو الجنين ببطنها»، قال يالو.

«لا يا ابني، هيدي مش ستّي، هيدي ست ستّي، هي ما سمعت الجنين يلّلي حكي ببطنها، لأنّ الله ما فتحلها دينيها. الدينين ما بتنفتح إلاّ بتدبير إلهي.»

قال يالو إنّه فهم، لكنّه لم يفهم شيئًا. المرأة الصبيّة هربت من قريتها والتجأت إلى الدير حيث أنجبت ابنتها، وعاشتا هناك، الأمّ تخدم والفتاة الصغيرة تدرس. عندما بلغت الابنة الرابعة عشرة التقى بها الخواجة نخلة صادق، وهو تاجر صوري في الخمسين من عمره، هاجر إلى الأرجنتين، وجاء إلى لبنان من أجل أن يتزوّج ويعود إلى بلاده الجديدة. رأى الفتاة مرّة واحدة أمام الدّير ووقع في غرامها. طلب يدها من أمّها، فرفضت الأمّ أن تبحث معه الموضوع، وقالت إنّها وابنتها ملك الدّير، وعليه أن يتكلّم مع الرّئيسة. استدعت الرّئيسة الفتاة وهي على يقين من أنّها سترفض الزواج، فهي ابنة الأعجوبة، وسوف تختار أن تنذر العفّة وتصبح عروس المسيح. لكنّ الرّئيسة فوجئت بموافقة

الفتاة على الزواج، لكنّها اشترطت أن تقيم أمّها معها في البيت، وأن لا يهاجر الخواجة نخلة إلى الأرجنتين. غير أنّ المفاجأة الكبرى كانت حين وافق الخواجة نخلة على الشرطين. وتزوجت الفتاة التاجر الغنيّ، وأنجبت منه ابنها الوحيد موسى.

«منشان هيك صرنا من عيلة موسى، بس النّاس بتسمّينا ولاد الموسكوبيّة»، قالت نينا.

«يعني إنتو مش روس بيض»، قال يالو.

«نحن قلبنا أبيض ومنحبّ روسيا»، قالت نينا.

رأى يالو الفتاة تخرج من الحائط ببطنها المنفتخ المبقّع بالدّم، والذي اتّخذ شكل جنين على صورة طفلة ملتصقة ببطن أمّها. الأمّ تركض صوب الحرج، وتختبئ تحت أوّل شجرة صنوبر، ثمّ تنهض راكضة صوب دير الرّاهبات الروسيّات.

يالو لم يسأل ماذا جرى لجثّة الزّوج الذي اضطرّت امرأته إلى إزاحة رأسه المقطوع عن بطنها، قبل أن تلملم ثوبها المليء بالدّم وتمضي. هل رمت المرأة الرّأس؟ أم أنّ الصّديق القاتل لم يقطع الرّأس عن الجسد، بل اكتفى بذبح الرّجل من الوريد إلى الوريد؟ ومن دفن الجثّة بعد ذلك؟ هل دفنت أم تركت تتعفّن وحدها في البيت المهمور؟

الحكاية تبدو ليالو غير ممكنة، لكنّه حين يرى المرأة الحبلى تخرج من حائط الزنزانة وتقترب منه وتمسح جبينه بدم لزج يتدفّق من ثوبها الطويل، يشعر أنّ كتابة هذه الحكاية، أكثر سهولة من كتابة قصّة حياته.

كيف يكتب وماذا؟ وهو لا يعرف أن يضع المسافة الضروريّة بين الكلمة وصورتها. يكتب اسم نينا فيرى المسيحيين والدروز

وقد غرقوا في دمهم. يكتب اسمه، فيرى صورته وقد التصقت بالاسم، فيضطر إلى محو الصورة من أجل متابعة الكتابة، لكنّ الاسم يمحى مع الصورة، ويجد يالو نفسه في صمت الحبر الأسود.

غدًا عندما يأتي المحقّق، سوف يعطيه الأوراق التي كتبها، ويقول إنّ هذا كلّ شيء، كلّ الاعترافات كتبت، وهذا يكفي.

«أنا لا أعرف أن أكتب يا سيدنا»، سوف يقول.

أغمض يالو عينيه وتغطّى بالنّوم، حين جاءت تلك المرأة البلا ملامح، جاءت وجلست إلى جانبه وبكت. وصار يالو هو الرّجلين، الزوج القتيل والجار القاتل. وضع رأسه على بطنها المنتفخ وسمع دقّات القلبين وهي تتمازج في إيقاع غريب، وفهم كلام أمّه عن الأحاسيس التي لا يستطيع الرّجل أن يشعر بها.

كانت الأمّ تشرب القهوة في الصالون مع صديقتها كاترين، روت حادثة الياس الشامي مع والدها وبكت. فالكوهنو بعد أن حقّر الياس الشامي وطرده من منزله، رفع إصبعه في وجه ابنته وقال لها: «خلص بيكفي بهدلة، بفتكر صار لازم توعي على حالك وتسيطري على مشاعرك وتطردي الشيطان من جسمك.»

قالت إنّ والدها رجل، والرّجال لا يفهمون شيئًا. فالكوهنو يعتقد أنّها مثله، وأنّ دافعها إلى إقامة تلك العلاقة الطويلة مع الخيّاط هو إشباع رغبتها الجنسيّة. حتّى الياس كان يعتقد ذلك. «ينام معي ويخلص، وبعدين يطّلّع فيّي ويسألني جيتي؟» بالأوّل كنت قول الحقيقة وفكّر ليش عم بيسأل ما دام بيعرف، المرأة لمّن بتجي بتصير متل النبع. شو بدّو يحكي الواحد، ولمّن كنت قول إنّي ما جيت يزعل ويصير يعمل حركات، وأنا ما بحبّ

الحركات، بعدين صرت كذّب عليه، قول إنّي جيت، وهيك يرتاح، يولّع السيكار ويبلّش ينفُخ ويصير متل الدّيك.»

«يعني ما كان يجي معك أبدًا؟» سألت كاترين.

«أكيد، يعني مرّات ولو»، ضحكت غابي بقهقهة خرجت من أعماق حنجرتها، «بس هي مش كبسة زرّ.»

قالت غابي إنّ الرّجال لا يفهمون الرّغبة، يعتقدونها دائرة ملتصقة برأس عضوهم، لذلك ينتهي الرّجل قبل أن يبدأ ولا يعرف طعم الموج الذي يصعد من الداخل ويأخذ الجسد إلى أمكنة مجهولة لا نهاية لتعرّجاتها.

«أنا ما كان بدّي شي من الياس، بيي فهم كلّ شي غلط، القصّة مش قصّة جنس، القصّة قصّة حنان. أنا كنت عارفة أنّه ما بيقدر يتزوّجني، صحيح أنّي تعذّبت كتير، وكنت أكرهه لمّن يخبّرني عن مرتو وأولادو، قلتلّلو هيدا الموضوع ما تفتحو معي الله يخلّيك، لأنّي ما بقدر أتحمّل، هيدي إشيا بعرفها. بس ما بقدر أتحمّلك عم تحكي عنها. وقت بتجيب سيرة مرتك وأمراضها، بكرهك وبكره حالي.»

قالت غابي إنّها منعته من الكلام عن عائلته، لأنّه حين كان يحكي على إڤلين زوجته يصبح شخصًا آخر. يفقد رجولته وجاذبيّته ويصير كهلاً تفوح منه رائحة عفونة أسنانه الاصطناعيّة.

لم تروِ غابي لأحد.

كيف تحكي ما لا يُحكى؟ كيف تقول إنّها لم تعد تذكر من ذلك اليوم سوى رائحة كلمات الرّجل التي انتشرت على جسدها، كيف تقول إنّها حين تعرّت على يديه انبثقت من العتمة. وطلعت مثل شمس كانت مختبئة في ظلام ثيابها التي

تشبه الكَفن.

كانت غابي في الثامنة عشرة حين ذهبت لتتعلّم مهنتها في مشغل الخياطة الذي يملكه الياس الشامي، وهناك رأت كيف تفتّح العالم بالحبّ الذي استولى على حياتها كلّها.

قال لها، تذكر أنّه قال شيئًا عن ضرورة أن تخيط ثوبًا جديدًا. كان المساء التشرينيّ قد بدأ ينشر ظلاله، لكنّ الياس الشّامي لم يضئ الكهرباء، والخيّاطتان المساعدتان كانتا قد غادرتا، وغابي تقوم بأعمال الترتيب الأخيرة في المشغل، قبل أن تعود إلى بيتها. أحسّت بالخواجة الياس إلى جانبها يقول شيئًا عن ضرورة أن يخيط لها فستانًا، وأنّه وجد قطعة قماش جميلة من أجلها.

«إلي أنا»، قالت الفتاة.

«طبعًا إلك، بدّي ياكِ تلبسي فستان يبيّن جمالك، حرام هالتياب المسكرة كأنّها مغطّيتك، التياب مش لتغطّي الجسم، التياب معمولة حتّى تكون امتداد للجسم. هيدا هو سرّ الخياطة، وهيدا يلّلي عمل منها فنّ.»

«قرّبي لشوف»، قال الياس.

دنت الفتاة متردّدة. أخذ الماسورة القماشيّة وبدأ يقيسها، قاس الطول ثمّ قاس الوركين، ثمّ اقترب من النهدين ورأت كيف سقط ثوبها أرضًا دون أن تشعر باليدين اللّتين فكّتا أزراره الأماميّة. سقط الثوب ووقفت غابي بثيابها الداخليّة تحت نظرات الخيّاط التي كانت تزحف على جسدها وتلتصق به. وضعت يديها على زنديها كأنّها تغطّيهما، لكنّها كانت تحاول إخماد شعر بدنها الذي انتصب واقفًا وكأنّ حقلاً مغناطيسيًّا أحاط به.

تركها واقفة أمامه، ورسم جسدها بصابونة خضراء على

الأوراق الشفّافة، ثمّ نظر إلى ثدييها وقال: «شو هالصدريّة، أنا بكرا رح اشتريلك غيرها.» ثمّ جلس على الكرسيّ وطلب منها أن تتقدّم نحوه.

سقطت الصدريّة أرضًا، ورأت غابي نفسها تقف أمام الرّجل الجالس. شعرت بأنفاسه على ثدييها. وضع رأسه بين الثديين وأخذ نفسًا عميقًا وقال إنّه يشمّ رائحة الأزهار. أحسّت بالشفتين تأخذان حلمة نهدها الأيسر قبل أن يبدأ الخيّاط بمصّ الرّحيق. هكذا سيقول كلّما أخذ نهدها في شفتيه، «بدّي مصّ روح الوردة.» وكانت الفتاة تشعر بنهديها بين شفتي الرّجل اللتين تزحفان وتعربشان وتتراجعان وتتقدّمان، وترتجف بشيء يصعد من أعماقها إلى الأعلى، ثمّ ينحدر إلى الأسفل.

أرجع رأسه إلى الوراء، نهض عن الكرسيّ وذهب إلى الغرفة الثانية. ظلّت غابي جامدة في مكانها لا تدري ماذا يجب أن تفعل. كانت أعماقها ترتجّ بتدفّقات واعتصارات تأتي وتمضي. بقيت جامدة زمنًا لا ينتهي. ثمّ انحنت، التقطت الصدريّة ولبستها، ولبست الفستان، فرأته قادمًا، فقالت: «بدّك شي يا معلّم أنا رايحة»، وأحسّت أنّها تسمع صوتها للمرّة الأولى، خرج صوتها كأنّه صوت امرأة أخرى، أحسّت به عريضًا يخرج من صدرها. سألته إذا كان يريد شيئًا، فرفع رأسه إلى الأعلى ولم يجاوب.

فجأة سقط الظلام. انحنت تلمّ صدريّتها، وعندما أمسكتها ووقفت تلبسها أمام المرآة، كان الظلام قد حلّ. انحنت ولم يكن ظلام، كان الضّوء الأبيض الشاحب يغطّي الأشياء، لكن حين حملت الصدريّة ووقفت أمام المرآة، رأت الظلام ولم ترَ نفسها

في المرآة. لبست على عجل، وقرّرت العودة إلى بيتها، رأته يقف على باب الغرفة مثل شبح، سألته إذا كان يريد شيئًا، وسمعت صوتها ومضت. في البيت دخلت إلى الحمّام واغتسلت، وحين غطّت ثدييها بالصابون عاد إليها الإحساس بحقل الجاذبيّة الذي أخذها إلى أماكن بعيدة، وجعلها تكتشف أنّ جمال عريها لم تعد تناسبه كوكينة شعرها المربوطة بالدبابيس، وأنّها صارت في حاجة إلى شعرها الطويل كي يكون لها ظلّ في داخلها.

في الأيّام التالية شعرت غابي بالإحباط. كانت في كلّ مساء، وبعد أن تنتهي من تكنيس المشغل وترتيبه، تنتظر الصابونة الخضراء ومشروع الفستان. لكنّ الخواجة الياس كان يتجاهلها كأنّ شيئًا لم يكن، وكأنّه لم يأخذ نهديها بين يديه ويقول إنّ جمالها يؤلمه. «جمالك بيوجعني أنتِ ما بتنوجعي منه»، سوف يقول لها حين سيستعيدها من أمسيات الانتظار، إنّه رآها مثل طفلة صغيرة فخاف عليها، «أنا والله حاسس بالذنب، أنتِ قد بنتي، ما بعرف شو عم بعمل معك.»

انتظرته أكثر من شهر قبل أن يعود إليها حاملاً الفستان الجديد. كانت قد انتهت من عملها وتستعدّ للمغادرة حين رأته يتقدّم نحوها حاملاً الفستان الأصفر الذي يلتمع بالشّمس.

«شو رأيك؟» سألها.

«ياي شو حلو»، قالت.

أخذت الفستان وأدارت له ظهرها من أجل أن تخلع ثيابها وتلبسه، فسمعته يقول: «لا مش هيك»، وطلب منها أن تتحمّم قبل أن تلبس الفستان الجديد. وأشار بيده إلى الحمّام.

نظرت غابي إلى حيث مدّ يده خائفة: «أتحمّم هون؟» سألت.

...

«بس ما معي غراضي.»

تركها تقف متردّدة، وعاد حاملاً منشفة وثيابًا داخليّة، ومشى أمامها إلى الحمّام. تبعته كالمسحورة، فتح الحنفيّة فوق البانيو وتدفّق الماء الساخن، وعلا البخار. انحنى الرّجل، ووضع صابونًا سائلاً في الماء، حرّكه بيده، فبدأت رغوة الصابون تطفو، ومعها رائحة التفّاح، وشعرت غابي كأنّها سكرانة. دخل البخار في عينيها ولفتّها عتمة بيضاء. قامت يدان رطبتان بنزع فستانها وثيابها الداخليّة، ودخلت عارية في الماء، ركع الرّجل على حافّة الماء، أخذ ليفة وبدأ يفرك بها الجسد. لو روت غابي لقالت إنّها رأت رجلاً يتدلّى كما تتدلّى أغصان الأشجار. كانت أغصانه فوقها وحولها، وجسدها يزحط بالصابون والرائحة ويتماوج على إيقاعات الماء. وحين أمسك بها من يدها وأوقفها، بدأ في تقبيلها منحدرًا كأنّه يكتشفها بشفتيه ورموش عينيه. أخرجها من الماء واحتضنها، وبدأت قطرات الماء المتساقطة من جسدها تبقّع قميصه وبنطلونه. غابي لم تره عاريًا، كانت مغمضة العينين، لكنّها أحسّت عريه، وكيف صار الرّجل جزءًا من مائه، صارت بقامتها المعتدلة وجسدها الأبيض ورائحتها امتدادًا للرّجل الذي وقف يحتضن جسد المرأة الذي انبثق من الماء والصابون. نشّفها قطعة قطعة، ثمّ ألبسها ثيابها الجديدة، وطلب منها أن تنظر في المرآة. رأت غابي كيف وُلدت صورتها في المرآة، وطلعت امرأة جديدة، لها جسد

جديد وعينان جديدتان وصوت جديد. وقفت أمام المرآة وفكّت كوكينتها، وتركت شعرها ينسدل إلى كاحليها.

«شو هيدا؟» قال الياس الشامي، «تعي، تعي، لازم حممك من جديد.»

بدأت تعيد ربط كوكينتها، وطلبت منه أن لا يمسّ شعرها.

«شو عم بتعملي؟»

«عم بربط شعري.»

«مجنونة!»

قال إنّها مجنونة، وقال إنّ هذا الشعر يجب أن يبقى مرميًّا على الكتفين، وحين حاولت أن تشرح له أنّها لا تستطيع لأنّ الشعر يجب أن يبقى مربوطًا مثل كعكة تزيّن الرّأس، وأنّه لا ينفلت إلاّ في الأعجوبة: ليلة الغطاس أو يوم الزواج، ضحك الخيّاط وقال إنّها خرافات، «الشعر حرام، الشعر هو روح الأنثى.»

ربطت شعرها من جديد، شكّته بعدد كبير من الدبابيس، ولفّته دوائر حول رأسها، والخيّاط يقول: «مش معقول، مش معقول، لازم تتركيه فالت»، وهي تقول: «عيب عيب يا معلّم الياس.»

ربطت الكوكينة وخرجت دون أن تلتفت إلى الوراء، لكنّها اكتشفت أنّ قلبها سقط على الأرض، أحسّت بضرورة أن تنحني وتلمّه، لكنّها تماسكت حول عمودها الفقريّ، ومشت إلى البيت.

هكذا بدأت غابي، خلعت غابي القديمة، ولبست مع فستانها الأصفر صورة جديدة. وسوف تكتشف في الشارع الذي يوصل

طلعة شحادة حيث مشغل الخيّاط، بحيّ السريان، حيث بيتها، أنّ وقع خطواتها على الأرض قد تغيّر، وشعرت بوركيها ودائرة حوضها، وعنقها الذي يقودها.

أخذها الياس الشامي إلى أسرار العالم، حيث صارت سُرتها هي سرّ الحياة. هناك كان يبدأ، شارحًا لحبيبته الصغيرة أنّ فنّ الخياطة بدأ في السرّة. فحين ربط الإنسان سرّة الطفل لحظة ولادته، اكتشف أنّه يستطيع ربط الجلود واختراع الأقمشة والخيطان. وروى لها حكاية السرّة والكلب. وقال إنّه قرأها في إنجيل برنابا. وحين سألت الفتاة والدها عن هذا الإنجيل، لعن الكوهنو الشيطان وبصق، وطلب من ابنته أن تبصق على الشيطان.

كان البصق على الشيطان، هو أحد عادات آل أبيض في بيروت. وحمل يالو هذه العادة إلى كلّ مكان. حتّى هنا في السّجن، حين يكتب جملة خاطئة، أو تأتيه فكرة غير ملائمة، يشعر بطعم غريب يصعد من عنقه إلى لسانه، فيقول: تفو على الشيطان ويبصق. شيرين كانت تكره البصق، ويتقلّص وجهها بالقرف حين يكوّر يالو بصقته. وحين حاول أن يشرح لها أنّه يجب البصق على الشيطان، لأنّه هو من ابتدأ بالبصق على الإنسان، ازداد القرف المرسوم على عينيها كثافة. لكنّ يالو كان يشعر بأنّه يجب أن يبصق كي لا يتقيّأ. ثمّ فهم أنّه أصيب بالتقرّح المعويّ حين كان في الحادية عشرة من عمره. وقد جاءت القرحة مصحوبة بتقشّر في جلدة الرأس، والمرضان ناجمان عن الرّعب. لا ينكر يالو أنّه اكتشف كيف يميّز بين الرّعب والخوف خلال الحرب الأهليّة. يالو لا يستطيع أن ينسى ليلته الأولى في

موقع السوديكو على الخطّ الأخضر في بيروت، حين بدأ إطلاق النّار، فشعر أنّه لم يعد قادرًا على السيطرة على أمعائه، وأنّ ركبتيه لم تعودا قادرتين على حمله. زحف إلى زاوية الموقع وقرفص وتبرّز، ولم يره أحد. كان جميع الشبّان مشغولين بالحرب، أمّا هو فكان مشغولاً بخرائه، مثلما قال له ألكسي في اليوم التالي عندما فحّت الرّائحة. وكاد الخراء يلتصق باسمه، لو لم تنسحب كتيبة التيوس من السوديكو، وتتّخذ موقعها الجديد قرب المتحف. هناك، على خطّ المتحف، تعلّم يالو أن يخاف دون أن يفقد السيطرة على أمعائه. لكنّه كان، مع بداية كلّ إطلاق نار، يشعر بحاجة إلى التبوّل. كان يضبط نفسه في البداية، ثمّ حين يكاد يفقد السيطرة، يمازح الشباب بأنّه سوف يفنتر على العدوّ. وعندما يرى نظرات التعجّب، كان يخرج من خلف المتراس، يقرفص ويبوّل تحت زخّات الرّصاص.

«ليش بتفنتر هيك متل البدو؟» قال طوني.

أجاب يالو إنّ هذه هي الطريقة الإنسانيّة للتبوّل: «لازم تقرفص وما نتفاخر بيلّلي الله أعطانا يّاه»، قال يالو متقمّصًا صوت جدّه.

في الحرب تعلّم يالو الفرق بين الخوف والرّعب. المقاتل يخاف أمّا الإنسان العاديّ فيصاب بالرّعب. لذلك اختار يالو أن يكون مقاتلاً. يُقاتل من أجل أن يُرعب ولا يرتعب. صحيح أنّه يخاف، لكنّ الخوف لا شيء أمام الرّعب الذي يشلّ الإنسان ويمحو ذاكرته.

حين كان يالو في الحادية عشرة، وسقطت القذيفة في الشارع حيث كان يلعب، لم يخف، لكنّه ارتعب وجمد في مكانه. بعد

ذلك بأيّام، نبتت قشرة بيضاء على رأسه، وقال الجميع إنّه مهدّد بالصّلع، وصار يخرج من جوفه طعم الاحتراق. أخذته أمّه إلى الطبيب الذي قال إنّه الرّعب. وسأل يالو ماذا جرى. لكنّ الفتى لم يستطع أن يتذكّر، فلقد امّحت من عينيه صورة الفتاة نجوى التي كانت تلعب معه بالطابة أمام البيت، حين سقطت القذيفة، وتحوّلت الفتاة أشلاء. يالو لا يذكر الحادثة، استمع إليها من أمّه التي قالت للطبيب إنّ ابنها ظلّ أخرس وأطرش مدّة يومين، ثمّ بدأ يتقيّأ سائلاً أخضر، ونبتت البقعة البيضاء في رأسه.

قال الحكيم إنّه الرعب، ووصف ليالو مرهمًا أصفر لرأسه، وسائلاً أسود يشربه صباح كلّ يوم قبل الفطور من أجل التقرّح المعويّ. وهذا هو سبب الثقب الأبيض الصغير الذي يبرز في الجهة اليمنى من رأس يالو، والذي أسماه عينه الثالثة.

«أنا عندي ثلاث عيون»، قال لشيرين.

«كيف شفتني؟» سألت.

«أنا عندي تلات عيون»، قال، وأشار إلى الثقب الأبيض البارز في الجهة الأماميّة من رأسه.

«عندي عين بيضا بشعري الأسود، بس بكرا لمّن رح شيب، ما بعرف شو رح يصير بهالعين.» قال وابتسم، فكشّرت شيرين قبل أن تبتسم، وتقبل دعوته إلى شرب فنجان قهوة في المقهى القريب.

سألته عن العين التي تشبه ثقبًا أبيض، فأخبرها أنّه لا يذكر الحادثة، حتّى أنّه نسي ملامح الفتاة التي ماتت، وقال إنّه لم يسمع شيئًا، حتّى صوت القذيفة لم يسمعه. «هذا هو الرّعب»، قال، «الرّعب هو أن تنسى.» أشعلت الفتاة سيكارة، أخذت منها

نفسًا عميقًا وسعلت، ثمّ صارت السيكارة تتراقص بين أصابعها.

«يعني بدّك تقلّلي إنّك انرعبت، ومنشان هيك ما بتتذكّر شي من الحادثة؟»

«قلتلّك إنّي نسيت بسبب الرّعب، ليش ما بتصدّقيني؟»

«وليش أنتِ كمان ما بتصدّقني لمّن بقلّك إنّي نسيت كلّ شي صار ببلّونة، لازم تفهم، أنا كمان كنت مرعوبة.»

«مرعوبة!» ردّد الكلمة عدّة مرّات بصوت منخفض، «بس إنتِ مدّيت إيديك، وطلعت ريحة البخّور.»

هل قالت شيرين ذلك، أم أنّ يالو يستمع في وحدته وصمته وأساه إلى أصوات تأتيه من قعر مخيّلته، بحيث لم يعد قادرًا على التمييز بين الحقيقة والوهم.

يالو لم يخبرها عن القذيفة وموت الفتاة، قال إنّها عينه الثالثة، والعين الثالثة لا تنبت إلاّ لمن امتلك القدرة على رؤية الأشياء من زواياها المختلفة، ثمّ شعر بالأخضر الذي يصعد من أحشائه إلى بلعومه، فبصق على الشيطان، وطلب منها أن تبصق، فأطفأت شيرين سيكارتها بعصبيّة في فنجان القهوة، وابتلعت ريقها ومضت.

عندما روت غابي حكاية السرّة، وأشارت إلى إنجيل برنابا، قال لها والدها ابصقي على الشيطان يا بنتي. بصق الكوهنو، وبصقت ابنته، وبصق حفيده. لكنّ غابي اقتنعت أنّ إنجيل برنابا قد يكون كلّه كاذبًا ما عدا حكاية السرّة.

الياس الشامي قال إنّ الله هو الخيّاط الأوّل، لأنّه حين أمر الملاك بإزالة البصقة عن جسد آدم الطينيّ، أمره أيضًا بأن يخيط الثقب في بطن الإنسان الأوّل. فتحوّل الثقب سرّة، وصارت

السرّة علامة الإنسان.

«بتعرفي يا غابي شوهيّ السرّة؟» قال الياس.

كانت تقف عارية كما يحبّها أن تكون. يطلب منها أن تتعرّى وتمشي حافية في المشغل، ثمّ يركع على الأرض ويبدأ في تقبيل سرّتها قبل أن يلتهم جسدها بيديه.

«بتعرفي شو يعني السرّة؟» سألها.

«طبعًا بعرف، هي المصران المربوط بالخلاص.»

«لا، لا يا غابي، اسمعي يا حبيبتي، أنا رح خبّرك، بس هيدا لازم يضلّ سرّ بيناتنا، لأنّ السرّة هي سرّ الإنسان.»

نهض الياس الشامي ومضى إلى غرفة ثانية، ثمّ عاد حاملاً كتابًا له غلاف أخضر. جلس على الكرسيّ، وضع نظّارتيه، ويدأ يقلب الصفحات، ثمّ حين وصل إلى المقطع الذي يبحث عنه، قال «اسمعي»، ويبدأ يقرأ:

«ثمّ قال الله يومًا، لما التأمت الملائكة كلّهم. ليسجد توًّا كلّ من اتّخذني ربًّا لهذا التراب. فسجد الذين أحبّوا الله، أمّا الشيطان والذين على شاكلته فقالوا: يا ربّ إنّنا روح، ليس من العدل أن نسجد لهذه الطينة. حينئذ قال الله، انصرفوا أيّها الملاعين، لأنّه ليس عندي رحمة لكم. وبصق الشيطان أثناء انصرافه على كتلة التراب. فرفع جبريل ذلك البصاق مع شيء من التراب. فكان للإنسان بسبب ذلك سرّة في بطنه.»

«فهمتي القصّة؟» سأل الياس.

قالت إنّها فهمت، لكنّه لم يقتنع. كان الخيّاط يعاملها دائمًا وكأنّها لا تستوعب. يقول لها شيئًا، ويسألها إذا فهمت، وحين تجاوب بنعم، يبدأ في الإعادة. يعيد كلامه عدّة مرّات، حتّى

تشعر الفتاة بأنّها تكاد تطقّ، فتنظر إليه بعينين تصغران، عندها يفهم أنّه زادها قليلاً، ويبدأ في لفلفة جمله وتقصيرها منهيًا شروحه.

بهذه الطريقة التكراريّة، تعلّمت غابي فنّ الخياطة وفنّ الحبّ، وكلّ الفنون الشاميّة التي كان المعلّم ينسبها إلى عائلته الدمشقيّة التي نزحت من دمشق إلى بيروت إثر مذابح ١٨٦٠.

كان المعلّم الياس يفاجئ دائمًا حبيبته الصغيرة بسؤال واحد: «شو هو أهمّ شي في الحياة؟»

وعندما تقول الجواب الذي تعلّمته من جواب سابق على السؤال نفسه، تكتشف أنّ المعلّم يخفي جوابًا آخر، في البداية كان أهمّ شيء في الحياة هو فنّ الخياطة، ثمّ صار السرّة، ثمّ الكلب، ثمّ لا تعرف...

كان المعلّم الياس الشامي متيّمًا بسرّة عشيقته الصغيرة، يقرأ لها عن سُرّة سيّدنا آدم عليه السلام، في هذا الكتاب المزوّر الذي كتبه راهب إيطالي اعتنق الإسلام في القرن السادس عشر، وأراد من خلاله حلّ المشكلة المستعصية التي اخترعها البشر عندما قاموا باقتسام الله فيما بينهم، ثمّ ينحني على سرّتها ضمًّا وتقبيلاً.

«الله ما بينقسم»، قال الياس، «هيدا هو أهمّ شي.»

انحنى على سرّة الفتاة التي كانت مغمورة بالماء. سرّة صغيرة تشبه وردة مضمومة داخل بطن أملس، ركع وقال إنّ السرّة هي الأيقونة الأولى التي صنعها الله، أيقونة مصنوعة من إزالة دنس بصقة الشيطان.

قالت إنّها فهمت، وأحسّت بالحاجة إلى الجلوس. تقف أمامه عارية تستمع إليه وهو يُعلن أنّ الحبّ هو الدرس الأوّل

الذي يتعلّمه الإنسان حين يرضع من ثديي أمّه. اقترب من ثدييها، لكن برد الخوف هبط فجأة على غابي، وقالت إنّ ما يقومان به خطيئة. جاءتها الخطيئة التي يتحدّث عنها والدها الكوهنو في شكل دائم حين يحكي عن المرأة: «الله ما رزقني إلاّ بنتين، واحدة راحت على بلاد بعيدة والتانية مطلّقة ومش مطلّقة، أرملة ومش أرملة، الله ينجّينا من الخطيّة.»

قالت غابي إنّها عادت إليه بعد أن اختفى زوجها ووضعت ابنها، ليس من أجل السرّة أو الجنس. عادت لأنّها شعرت بأنّها وحيدة، وأنّ اللّيل كثيف على جسمها. عادت وأرادته في اللّيل: «قلتلّلو بس ليلة واحدة، بدّي نام كلّ اللّيل حدّك بالتخت حتّى ما حسّ اللّيل كأنّه وادي رح يبلعني.» لم تكن غابي قادرة على أن تصف للرّجل علامات خوفها من اللّيل، لا لأنّها لا تعرف أن تحكي، بل لأنّ الحكي لا يأتي إذا لم يكن الآخر مستعدًا لسماعه. الكلام. دون وجود هذا الاستعداد، يسقط في المسافة التي تفصل الإنسان عن الإنسان. هذا ما تعلّمه يالو من مدام رندة. في البداية، حين سحره ترنددها به، كانت لا تتوقّف عن الكلام، وكان يشرب كلماتها وحبّها. لم يكن يتكلّم كثيرًا معها، لأنّه لا يعرف أن يحكي مثلها، لكن كلامها يصير كأنّه كلامه. وحين انتهى الكلام انتهى الحبّ. وفهم يالو أنّ الإنسان لا يتكلّم إلاّ إذا أصبح الآخر جزءًا من كلامه. لذلك كانت شيرين تتركه حزينًا. يحتال على صمتها بالكلام، يروي لها مغامراته وحروبه وحكايات عاشها ولم يعشها، من أجل أن يمدّ لها خيطًا تتسلّقه نحوه، وكانت تقترب من الخيط، تمسك طرفه ثمّ تتراجع.

الياس الشامي كان مختلفًا. حين رجعت غابي إليه شعر أنّه

يستفيق من النوم. لم يكذب عليها، قال إنّه لا يريد أن يكون مثل جميع الرّجال الذين يكذبون. قال إنّها حين تزوّجت سقطت من حافّة حياته وغادرتها. قال إنّه نسيها وارتاح. «شو راجعة تعملي، كنت مرتاح وقلت خلص.»

كيف تخبره، أنّها في السّادسة مساء، أحسّت هبوبًا في داخلها، وهذا الهبوب أمرها بأن تذهب إلى مشغل الخياطة. كانت تعلم أنّ المعلّم سوف يكون وحيدًا الآن، وكانت تشعر بالهبوب في ذراعيها. فتح الباب وفرك عينيه كأنّه لم يصدّقها.

«فوتي، فوتي»، قال بصوت متردّد.

دخلت ووقفت في «الليوان»، حيث كانت تقف كلّ يوم في السادسة مساء، وتتعرّى أمام ناظريه، وتأخذها يداه. وقفت متردّدة ومتلعثمة.

«بعدك حلوة يا غابي»، قال، أشعل سيجارة وجلس على الكرسيّ الهزّاز دون أن يدعوها إلى الجلوس. فبقيت واقفة تلفّ يديها على زنديها. قال ما قاله عن كيف نسيها وعاد إلى حياته الطبيعيّة، وتصالح مع زبائنه. عاد إلى مزاجه الجنسيّ البريء الذي يسمح له بأن يتديّك على العاملات في مشغله دون أن يكلّفه ذلك أيّ اضطراب، ودون أن يضطر إلى خلع ملابسه، وغرق في الضّحك: «بتعرفي يا غابي، أنتِ علّمتيني أتزلّط، يمكن أنا علّمتك كلّ شي، بس أنتِ جبرتيني أشلح تيابي، أنا ما بحبّ أشلح تيابي وأتلبّك بحالي، حتّى مع مرتي أنا. . . .»

«ما تجيب سيرة مرتك»، قالت.

لا تعلم غابي من أين خرج هذا الكلام القديم، ففي أيّام الحبّ، لم تكن تسمح له بأن يتكلّم عن زوجته وأولاده الثلاثة.

وهي الآن، رغم أنها جاءت من أجل العمل، ولا تريد لتلك القصّة أن تعود وللغيرة أن تجنّنها من جديد، عادت إلى كلامها القديم في شكل لا إراديّ، وقالت إنّها لا تريد أن تسمع شيئًا عن تلك المرأة.

عندما وافقت غابي على الزواج، كانت كمن يرمي بنفسه في الوادي. رأت الرّجل الذي جاء إلى البيت، وسمعت والدها يقول إنّه موافق، فأغمضت عينيها وقالت نعم وسقطت من علوّ شاهق. قالت نعم وذهبت في صباح اليوم التالي إلى المشغل، ذهبت إلى غرفة المعلّم الياس الذي كان يرسم بالصابونة الخضراء على قطعة القماش وقالت له دون مقدّمات أنّها خطبت وسوف تتزوّج. رفع الرّجل رأسه عن قطعة القماش، ونظر إليها من تحت نظّارتيه وقال، «مبروك، ما بقدر قول شي، مبروك يا حبيبتي هيدا حقّ، أنا ما إلي حقّ فيكِ، إنشالله بتتهنّي.»

خرجت من غرفته وعادت إلى ماكينة الخياطة أمامها وغرقت فيها. وفي المساء، لم تتلكّأ كعادتها من أجل أن تبقى معه، بل كانت أوّل من خرج من المشغل. عند الباب سمعت صوته يناديها بأن تبقى قليلاً لأنّ أحد الفساتين يحتاج إلى تزبيط، فقالت «معليش بعتذر أنا مستعجلة، بكرا.»

لكنّها انقطعت عن العمل. قالت لوالدها إنّها لم تعد تشعر برغبة في الشغل، فقال الكوهنو إنّ هذا أفضل. ولم يخطر في باله أنّ ابنته التي أغمضت عينيها حين وافقت على الزواج من جورج جلعو كانت ترمي بنفسها في وادي اليأس بعدما يئست من حبيبها.

قالت إنّها لم تأتِ من أجل الماضي، فهي الآن امرأة

متزوّجة، بل أتت من أجل العمل، وسألته إذا كان من الممكن لها العودة إلى عملها.

«كلّ شي رح يرجع متل الأوّل»، قال. «من بكرا الصبح فيكي تبلّشي شغل.» ثمّ تقدّم منها ومدّ يده كما كان يفعل في السّابق، لكنّها لم تمدّ يدها أو تقترب.

«شكرًا يا معلّم»، قالت وخرجت.

غير أنّ هذه الشكرًا تلاشت سريعًا، وعادت غابي إلى حكايتها القديمة. وها هو يجلس أمامها ويسألها «شو هو أهمّ شي في الحياة؟»

لا تفهم غابي كيف لا يسأم هذا الرّجل من كلامه. إنّها عنده هنا، لأنّها في حاجة إلى العمل، ولأنّها تخاف من كثافة اللّيل على حياتها. تريده فقط لليلة واحدة، يذهبان فيها إلى فندق أو إلى أيّ مكان يريده. كان يعدها بأنّهما سيذهبان إلى «الغران أوتيل» في صوفر، ويضرب لها المواعيد، لكنّه في اللّحظة الأخيرة، وبعد أن تكون قد اخترعت كذبتها وأقنعت بها والدها، يقول إنّه لا يستطيع ويجب تأجيل المسألة، وحين تزعل ينقبض بالحزن والغضب، وتصير مضطرّة إلى مراضاته، كأنّها هي من ارتكب خطأ يحتاج إلى مغفرة.

«ما قلتيلي شو أهمّ شي بالحياة؟»

كانت تعرف أنّه ينتظر منها الجواب نفسه عن السرّة وفنّ الخياطة. لكنّه فاجأها في المرّة الأخيرة بالكلب. قال إنّ أهمّ شيء هو الكلب. وعاد إلى إنجيل برنابا كي يقرأ كيف خلق الله الكلب.

«اسمعي»، قال.

وقفت نصف عارية تتثاءب، وكانت متأكّدة من أنّها سوف تستمع إلى قصّة آدم والبصقة وإلى آخره...

أمسك الكتاب وبدأ يقرأ:

«اقترب الشيطان يومًا من أبواب الجنّة، فلمّا رأى الخيل تأكل العشب، أخبرها أنّه إذا تأتّى لتلك الكتلة من التراب أن يصير لها نفس أصابها الضنك، لذلك كان من مصلحتها أن تدوس هذه الكتلة من التراب على طريقة لا تعود بها صالحة لشيء. فثارت الخيل وصارت تعدو بشدّة على تلك القطعة من التراب التي كانت بين الزنابق والورود. فأعطى الله من ثمّ روحًا لذلك الجزء النّجس من التراب الذي وقع عليه بصاق الشيطان الذي أخذه جبريل من الكتلة. وأنشأ الكلب فأخذ ينبح، فروّع الخيل فهربت، ثمّ أعطى الله نفسه للإنسان، وكانت الملائكة كلّها ترنّم ربّنا تبارك اسمك القدّوس.»

«فهمتي؟» سأل.

«الله يخلّيك بكفّي، أنا بدّي روح على البيت. تعبانة وطعمة تمّي مُرّة.»

«أنتِ فهمتي أنّه الله خلق الكلب منشان يدافع عن الإنسان، وهيدا صحيح، بسّ الأساسي مش هون، اسأليني شو هو الأساسي؟»

«خلّصني، شو هو الأساسي؟»

«الأساسي يا حبيبتي أنّ الإنسان والكلب من نفس الطّينة، ولمّن الخطيّة بتفوت بالإنسان، بصير كلب.»

«يعني نحن كلاب؟» قالت.

«أبدًا، الحبّ مش خطيّة»، قال.

عندما حدّثها عن الكلب، شعرت أنّ كلّ شيء صار رتيبًا ولا طعم له، وأنّها لم تعد تحبّه. قالت غابي لكاترين إنّها لم تعد تحبّه، «بطّلت بس ضلّيت معه، وهيدا أفظع شي، أنّك ما تحبّ وتضلّ معه من دون ما يكون زوجك، يعني أنا بفهم، مرا مزوّجة أو رجّال مزوّج بيحسبها، ودايمًا بالحسابات بيربح الرّجال، بس أنا شو خصّني، ما بعرف شو صرلي.»

«وكيف تركتيه؟» سألت كاترين.

«ما تركته، ضلّيت معه للآخر، حتّى بعد ما بيّي طرقوا هيديك البهدلة، ما بعرف، صارت الأمور تموت لوحدها.»

هنا روت غابي ماذا جرى بين والدها وبين الياس الشامي، وكيف شعرت وهي تستمع من شقّ الباب إلى الحوار بين الرّجلين، أنّ والدها افترس الرّجل.

«أكله، هيدا أوّل مرّة بحياتي بشوف كيف بيقدر الإنسان يصير مفترس. أكله بالحكي، ما بعرف كيف بدّي خبّرك، كان بيّي كأنّه عم بلعوس، وكان هيداك، يعني الياس كأنّه عم بزمّ، ما بعرف كيف، بس الله يسّر، وأنا كنت مبسوطة، عملت حالي زعلانة لأنّ لازم أزعل، بس من جوّا كان زعلي أحلى من الفرح.»

قالت غابي إنّها فرحت عندما رأت والدها يأكله بالكلام، كأنّه فرش الكلمات مثلما يفرش الإنسان المائدة قبل أن يبدأ في التهام طعامه. صار الكوهنو يمضغ الكلمات كأنّه يمضغ الرّجل، والرّجل يصغر ويكاد يمحى.

سألها، فلم تعرف بماذا تجاوب.

فكّرت أن تقول إنّه المخمل، فالخيّاط كان يحبّ المخمل

كثيرًا، يطلب منها لبس البنطلون المخمليّ الأزرق من أجل أن يفكّ أزراره، ويترك يده تضيع بين مخمل بنطلونها وحرير نهديها الأبيضين.

«اتطلّعي بالمراية»، يقول عندما ينتهيان من ممارسة الحبّ، «شوفي قدّيشك حلوة، شوفي الحبّ شو بحلّي.»

قالت إنّه الكلب، «أهمّ شي هو الكلب، الكلب يلّلي طلع من سرّة الإنسان.»

قال لا، واتّسع الأخدود الصغير الذي يخترق خدّه الأيسر. كانت غابي تحبّ هذا الجرح الذي شكّل العلامة الأخيرة على رجولة معلّمها، حيث ضرب بالموس على خدّه من قبل نصّاب كان يلعب الكشاتبين في ساحة البرج. روى الياس حكايته مع لاعب الكشاتبين مرّات عديدة، وفي كلّ مرّة كان ينهي الحكاية بالدم الذي سال على وجهه، وكيف نجح في اعتقال النصّاب وسوقه إلى المخفر، ثمّ يضع يده على خدّه ويقول: «آخ.»

لكنّها اليوم لم تعد تجاوبه «سلامتك من الآخ»، لأنّها لم تعد تبالي. فالحبّ بدأ في التلاشي، والتوقّعات امّحت، ولم يعد هناك سوى شعور قاتل بالوحدة مع رجل لا تستطيع تركه لأنّها لا تعرف.

عندما قال لا، قرّرت غابي أن تغادر، برمت ظهرها ومشت، بينما بدأ في تحليل جديد للأولويّات، جاعلاً من الطعام أهمّ شيء في الدنيا.

لم تخبر غابي أحدًا أنّها تشعر بشوق لا يوصف إلى الرّجل، وأنّ الشوق يبدأ في ذراعيها، وأنّها تشعر بقشعريرة تلفّ الذراعين قبل أن تتحوّل موجة تحاصر القفص الصدريّ بما يشبه

الاختناق، وأنّها لا تفهم ذلك، فهي تكرهه وتكره رائحته، «لمَن بلّشت شم ريحته قرفت حياتي»، قالت غابي. وغابي لم تكن تعلم أنّها خلال كلّ تلك الأعوام كانت تشمّ رائحتها هي. كانت حين تقترب من الرّجل تفوح منها رائحة الأنثى التي تغمر كلّ شيء. وعندما توقّفت رغبتها بدأت غابي تشمّ رائحته، رائحة جلد متشقّق ممزوج بالعفونة.

يالو لا.

يالو لم يشمّ رائحته إلاّ هنا، حين امتزج ببقاياه. اقتنع يالو أنّه لن يستطيع إثبات براءته، وأرعبته الكلمات التي يكتبها.

قال يالو إنّ عليه الخروج من السّجن من أجل تحقيق هدف واحد، سوف يذهب إلى شيرين، من أجل أن يشمّ رائحة عطر البخّور التي خرجت من ذراعيها. الرّائحة هي الحبّ، ويالو يريد أن يتذكّر الحبّ من أجل أن يستعيد نكهة الحياة. حاول أن يكتب كلّ شيء لكنّه لم يكتب إلاّ القليل. يقرأ الصفحات ويشعر بلسعات السياط والكهرباء التي تقتلع أظافر يديه وقدميه. سوف يمسك المحقّق الأوراق ويرميها في وجهه، لأنّه لم يكتب قصّة حياته كلّها. ويالو لا يعرف كيف، هل يمكن للإنسان أن يتذكّر قصّة حياته كلّها، وإذا تذكّرها فإنّ وقت كتابتها لن يكون أقصر من وقت عيشها. ابتسم يالو لهذه الفكرة. سوف يقول له نعم يا سيّدي، قبل أن يعلن نظريّته عن أنّ لا أحد في الدنيا يستطيع أن يكتب قصّة حياته كلّها. حتّى جرجي زيدان، الذي كانت غابي تجلب كتبه إلى البيت ولا تقرأها، حتّى جرجي زيدان الذي قرأ يالو كلّ رواياته عن تاريخ العرب، اضطرّ أن يكتب مليون صفحة عن الآخرين، ثمّ حين كتب مذكّراته، لم يكتب شيئًا.

يالو لا يفهم لماذا عذّبوه كلّ هذا العذاب، ولماذا لا يزال ينتظره فصل من العذاب لم يخطر له على بال. هل هذا بسبب شيرين وسيّارات اللّيل في بلّونة؟ لماذا لا يحاكمون كلّ الشّعب اللّبنانيّ. يالو مقتنع أنّ كلّ الشّعب اللّبنانيّ يمارس الحبّ في السيّارات. لماذا هو وحده؟ لماذا لا يُحاكم العشّاق الآخرون، هل لأنّه سرق؟ ومن لا يسرق؟ جدّه قال له إنّهم جميعهم يسرقون، وإنّ أحد القدّيسين كتب أنّ جميع الأغنياء لصوص، إذ لا يمكن أن يغتني الإنسان إلاّ إذا سرق الآخرين، «اتطلّع يا ابني»، قال الكوهنو «اتطلّع منيح كلّ واحد حاطط إيده بجيبة التاني، اتطلّع منيح يا ابني، لازم تشوف خلف الأشيا، ما بيقدر الإنسان يشوف خلف الأشيا إلاّ إذا كانت معه نعمة الإنجيل، اتطلّع وتعلّم تستقبل النّعمة وساعتها بتشوف، ولمّن بتشوف بتكتشف أنّ اللّعنة الكبرى على الإنسان هي الإيد. الخطيّة موجودة بالإيد، لمّن الواحد بحطّ إيدو بجيبة جاره والجار بجيبة واحد تاني، وهكذا دواليك، ساعتها بصير في مجتمع. منشان هيك الآباء القدّيسين اعتزلوا النّاس.»

«وأنت يا جدّي ليش ما اعتزلت؟»

«لأنّي مش قدّيس، أنا رجّال خاطي، أنا حتّى ما بعرف، حياتي راحت بلا معنى.»

يضحك يالو حين يرى أمامه يد جدّه المرتجفة بالخوف من الله. فيالو كان يعلم أنّ المسألة مختلفة، فالاكتشاف الذي توصّل إليه يالو في بلّونة، كان أكبر من كلّ تجاربه في الحزب. الحرب علّمته الموت، لكن بلّونة علّمته أنّ كلّ شيء موت أو يشبه الموت. وأنّ المسألة هي أنّ اليد امتداد للعضو الجنسيّ، وهذا

ما تعلّمه مع رندة، ثمّ اكتشف العتمة في الحرج، حيث تمحى الفروق بين أعضاء جسد الإنسان، عشّاق السيّارات علّموه أن الإنسان يستطيع أن يصير مثل السردين المغطّى بزيت الجنس. السيّارات مثل علب السّردين، والنّاس أسماك مطعوجة تسبح في الزيت. أعجبته هذه الفكرة وقرّر إضافتها إلى الفكرة الأولى عن الكتابة. أخذ ورقة بيضاء وكتب، وكانت هذه هي المرّة الأولى التي يكتب فيها خارج ضرورات التحقيق.

كتب أوّلاً أنّ الإنسان لا يستطيع أن يكتب حياته، وعليه أن يختار بين أن يعيش أو يكتب. ويالو اختار أن يعيش، لذلك فهو يكتب من أجل ضرورات التحقيق. لكنّه لا يريد أن ينتهي كما انتهى جرجي زيدان منقّبًا في حيوات النّاس، بل يفضّل أن ينقّب الكتّاب في حياته، هذا إذا أرادوا كتابة قصّة حبّ لا تشبه أيّة قصّة حبّ أخرى.

وكتب ثانيًا أنّ جميع النّاس يضعون رغباتهم في جميع النّاس، وأنّ تجربته علّمته وهو يرى عشّاق بلّونة، أنّ أغلبيَّة العشّاق يمارسون الخيانة أو يقبلون بها. وأنّه حتّى هو، حتّى في عزّ عشقه لشيرين كان يخونها حين تسنح له الفرصة، لأنّ «نكهة الخيانة هي أحلى نكهة»، وهذه الفكرة سرقها من مدام رندة، التي قالت له في إحدى ترنداتها معه، إنّ الخيانة هي أجمل شيء، وإنّها بدأت تخاف أن تتعوّد عليه ولا تعود تشعر معه بالخيانة.

وكتب ثالثًا أنّ جميع الأفكار مسروقة، وأنّ الناس تقضي وقتها في سرقة أفكار بعضها.

فرح يالو عندما كتب هذه الأفكار الثلاث، على شكل ثلاث

جمل متتالية:

١ ـ لا أحد يستطيع أن يكتب الحياة.

٢ ـ الرّغبات في الرّغبات.

٣ ـ جميع الأفكار مسروقة.

وشعر براحة غريبة، وقرّر إعادة النظر في قصّة حياته. سوف يكتبها بشكل مختصر وواضح، وسوف يقدّم إلى المحقّق غدًا نصّين: نصّ أوّل تفصيلي، ونصّ مختصر يعبّر ببلاغة عن حياته.

جلس خلف الطاولة الخضراء، نفخ قلمه كأنّه يدخّن سيجارة، وبدأ.

سيّدي القاضي المحترم.

أريد أن أضيف هذه الصفحات إلى قصّة حياتي، التي طلبتم منّي كتابتها، والتي تجدونها في الملفّ الخاصّ بالمتّهم دانيال هابيل أبيض، الملقّب بيالو.

أريد يا سيّدي أن أطلب العفو. فخلال شهرين قضيتهما في الحبس الانفراديّ وليس معي سوى الأوراق البيضاء والكتاب المقدّس، اكتشفت أنّني لست يالو المجرم.

لا، لا، أنا لا أدّعي الجنون كما يفعل المجرمون من أجل التخلّص من حبل المشنقة. لا يا سيّدي أنا لم أعد ذلك اليالو. اكتشفت وأنا أكتب قصّة حياتي، أنّني لم أعد هو. فالأيّام التي قضيتها في التحقيق، وقراءتي الدائمة للكتاب المقدّس، جعلتني أكتشف أنّني ولدت من جديد. وأنا يا سيّدي أرجع في هذا إلى الإنجيل الشريف وإلى كلّ الكتب المقدّسة. فحين يقولون في البدء كان الكلمة، فهذا يعني أنّ الكلمة كانت الشيء الأوّل. وأنا عندما كتبت قصّة حياتي اكتشفت الكلمة التي أعادت خلقي من جديد. لا أعرف كيف أشرح ذلك بالعربيّ الفصيح، بس يعني

كأنّي ما بعرف، عندما رأيت حياتي من أوّلها إلى آخرها، اقتنعت أنّني صرت إنسانًا جديدًا. كما اقتنعت أنّ يالو العتيق لم يكن واعيًا للأمور التي يقوم بها. يعني هو لم يصنع حياته كما يشاء، كأنّه كان منوّمًا بشكل مغناطيسيّ، وليس من العدل أن يدفع الإنسان ثمن أعمال لم يكن هو من اختار القيام بها. يالو الشبح الطويل الذي يلبس كبّوتًا أسود، وينزل على سيّارات العشّاق، يالو الذي كان يحارب ويقتل وهو يضحك، لم يعد موجودًا.

أؤكّد لك يا سيّدي القاضي أنّني صرت إنسانًا آخر. أعرف قصّتي لأنّني كتبتها، وسوف أكتبها من جديد إذا أردتم، لكنّني أشعر، وأنا في السّجن أنّه لم يعد لي أيّ علاقة بالماضي. لم أتعلّم من الماضي سوى الحبّ. نعم يا سيّدي، لقد بدأ يالو حياته عندما اكتشف الحبّ، لكن هذا الحبّ كان أيضًا سبب موته. يعني يالو وقع عندما وقف، وتشرشح عندما أصبح بني آدم. نعم يا سيّدي، لقد أساء التصرّف مع شيرين ولاحقها، لكنّه اكتشف الحبّ. البني آدم يا سيّدي هو الرّجل الذي يحبّ، هكذا علّمني جدّي الكوهنو رحمه الله، لكنّ جدّي هو السبب في ضياعنا، منع أمّي المسكينة من أن تبقى مع الرّجل الذي أحبّته، لأنّه كان متزوّجًا وجبانًا، ولم يجرؤ أن يطلّق زوجته. هل يجب أن تنحرم أمّي من الحبّ لأنّ حبيبها جبان؟! أمّي انحرمت من الحبّ، والمرأة

المحرومة لا تستطيع أن تعطي. أعتقد أنّ هذا هو السبب العميق للخربطة التي عشت فيها.
أنا يا سيّدي هربت من الحرب، ولم أهرب من أجل سرقة مال ثكنة جورج عرموني. على كلّ حال، فلقد تبهدلت في باريس، لأنّ طوني صديقي سرق المال وتركني وحيدًا.
هربت من الحرب لأنّي لم أعد أفهم. لا لم أكن جبانًا، ولا مرّة جوبنت، حتّى عندما كنت أخاف، كنت أضبط نفسي وأدّعي أنّني لا أخاف. أليست هذه هي الشجاعة؟ إذن كنت شجاعًا، وتركت الحرب لأنّني زهقت منها. كنت في البداية مثل جميع الشباب، أريد أن أدافع عن لبنان، وبعد ذلك اكتشفت أنّني أحارب فقراء مثلي وأنّني سوف أبقى غريبًا مهما فعلت. لأنّ الإنسان غريب في هذا العالم. جدّي كان يقول إنّه غريب لأنّه إنسان. عندما اكتشفت أنّني إنسان هربت إلى باريس، وتبهدلت، وأنقذني الخواجة ميشال سلّوم، الذي أعطاني وظيفة حارس في ڤيلّلا غاردينيا في بلّونة.
كلّ الذي كتبته عن قصّة حياتي صحيح، لكن هناك مسألة أريد توضيحها، وأنا لا أقصد من هذا التوضيح الإساءة إلى أحد، أعوذ بالله، أنا الآن طاهر وأبيض مثل هذه الورقة البيضاء التي أكتب عليها قصّة حياتي.
أريد فقط أن يكون ضميري مرتاحًا وأن أنهي حياتي السابقة بالاعتراف عن كلّ شيء، وهذا لن يسيئ إلى

الخواجة ميشال، على كلّ أنا أكنّ لهذا الرّجل احترامًا كبيرًا، لكنّ الحقيقة يجب أن تقال.

أريد أن أعترف عن شيء حاولت كلّ فترة تعذيبي وحبسي أن لا أعترف به، خوفًا على سمعة الناس. لكنّي اكتشفت أنّ الاعتراف هو وسيلتي الوحيدة من أجل أن أصير إنسانًا جديدًا وأبدأ حياتي، وأنا واثق من أنّكم ستأخذون بعين الاعتبار ظروفي وستصدرون عنّي عفوًا، لأنّه من غير المعقول أن يكون قانون العفو قد شمل كلّ مجرمي الحرب، بينما أقضي أنا حياتي في الحبس لأنّي نمت مع امرأة أو مع عدّة نساء.

عندما عدت يا سيّدي من فرنسا واشتغلت في الڤيلّلا كنت يائسًا من الحياة. كنت أرى كلّ شيء أسود قدّامي. ولم أعد أستطيع أن أرى الألوان. والآن أشعر بالنّدم على تلك الأيّام. كنت أعيش في ڤيلّلا وسط غابة صنوبر خضراء، ولم أكن أرى ألوان الطبيعة. هل يوجد أحد لا يرى الطبيعة؟

يالو لم يكن يرى الألوان، كان يقضي وقته مغمض العينين، نعم يا سيّدي كنت مغمّض عينيّ منشان ضلّني بقلب اللّون الأسود. الأسود صار حياتي، وفقدت إحساسي بالحياة. والله كنت كأنّني في منام طويل. ثمّ دخلت امرأة في حياتي، امرأة محترمة لا أكنّ لها سوى التقدير. هذه المرأة التي عشت في بيتها، وكنت حارسها، رأتني فقيرًا ووحيدًا وعطفت عليّ ثمّ علّمتني أن أحبّ جسمي. لولاها لما تفتّحت

مسامي التي كانت مغلقة وسوداء. أوّل مرّة تكلّمت معي قالت لي ليش لون وجهك كحلي؟ أنا حنطي وأميل إلى الاسمرار، ولم أكن أعرف أنّ لوني صار كحليًا غامقًا. عندما رجعت إلى بيتي في أسفل الفيلّلا، نظرت في المرآة، واكتشفت أنّ لوني صار أسود مثل لون الأشياء التي أراها. هذه المرأة أعادت لي لوني، وإحساسي بالحياة. الجنس والحبّ الذي ذقته من مدام رندة سلّوم، أكثر من الحبّ الذي ذاقه كلّ الرّجال في العالم. أعادني حبّها إلى الحياة، لكنّه فتح في قلبي بئرًا لا يملؤه شيء. وصربت لمّن أوقف بالجنينة وشمّ ريحة الصنوبر حسّ بالتهيّج، نعم يا سيّدي، صرت جزءًا من الطبيعة، والطبيعة لا تعرف الحدود بين الأشياء. وهذا ما قادني إلى السيّارات ومشاكلها. فجأة حسّيت حالي وكأنّي عايش بحلم، فوق بتعلّمني الست فنون الحبّ، وبالحرش بحسّ السيّارات كأنّها حيوانات عم بتنام مع بعضها كلّ الوقت. وصارت رائحة الجنس في كلّ مكان.

كنت أسكن في ڤيلّلا غاردينيا لصاحبها ميشال سلّوم القريبة من كنيسة مار نقولا. وأنا لم أذهب إلى القدّاس إلاّ مرّة واحدة لأنّني اشتقت إلى الأيقونات ورائحة البخّور. وصارت بلّونة مثل مثلّث: الڤيلّلا والحرج والكنيسة.

لقد أخطأ يالو لأنّه سرق، لكن هدفه لم يكن السرقة، سرق عن طريق الصدفة، سرق لأنّهم سرّقوه. يعني

لمّن كان ينزل حتّى يتفرّج عن قريب، سقط في فخّ المال وإغراء المجوهرات، وهذا لا يجوز يا سيّدي، ليس فقط لأنّ السرقة حرام، ولكن أيضًا لأنّ المال يشوّه الأشياء ويفرط اللذّات.

أمّا في خصوص الاغتصاب، فالصحيح أنّني اغتصبت، لكنّي لم أكن أعرف أنّ هذا يُسمّى اغتصابًا. كنت أعتقد أنّ الجنس هكذا، تأتي إلى المرأة ولا لزوم للشرح، وكان هذا حماقة.

يالو كان أحمق، لأنّه اكتشف بعد ذلك، عندما أصيب بمرض العشق، أنّ هذا الجنس لا معنى له. ولكن مع ذلك، حتّى الحبّ لم يمنعه من ممارسة هذا الجنس لأنّ الإنسان خاطئ بطبيعته.

احترت يا سيّدي في أمري. يالو كان عاشقًا لشيرين ولا يفكّر إلاّ فيها، ومع ذلك كان لا يتوقّف عن الهبوط إلى العشّاق وممارسة الجنس مع النّساء حين تسمح له الظروف بذلك. ربّما المكان، المكان يا سيّدي، الحرج مليء بالشياطين التي تحوم حول رائحة صمغ الصنوبر والأعشاب البرّيّة. لا أعرف، أنا لم أعش في الجبل، جدّي عاش في قرية كان يقول عنها إنّها تشبه الجنّة، أمّا أنا فلم أعش إلاّ في المدينة، بين حيّ السريان في المصيطبة ومنطقة المراية في عين الرمّانة. كان في بيتنا الأوّل حديقة مليئة بالأشجار، وخصوصًا شجر الفتنة الذي لا يحمل سوى زهور بيض وصفر ولها رائحة جميلة. لكن روائح حديقة

بيتنا لا علاقة لها بروائح حرج بلّونة. وحده الصنوبر يا سيّدي، حين تختلط رائحة الصنوبر برائحة الشربين، يصبح المكان غريبًا وتثور الشهوة.

أمّا شيرين فأنا متأكّد من أنّها أحبّتني. مشكلتي أنّني لم أفهم حبّها، ولم أعرف كيف أتعامل معه. الفتاة كانت تمرّ في أزمة نفسيّة بعد أن تركها خطيبها وأحبّت الطبيب الذي أجهضها. علاقة يالو بها كانت ستنجح لو أظهر يالو شخصيّته الحقيقيّة، لكنّه لعب معها لعبة التخويف، وكان مستقتلاً عليها ويحلم بالزواج منها. وفي الحبّ حين تستقتل يفرط كلّ شيء، وهذا ما حصل. شيرين خافت ومعها حقّ. حين يريد الإنسان الشيء كثيرًا، يهرب هذا الشيء منه. وهذا ما حصل للمدام معي، لأنّني صرت أشعر أنّني أداة في يديها من أجل ذلك الشيء، وأنّها لم تعد تستطيع الاستغناء عنّي، فهربت. وشيرين حصل معها الشيء نفسه. لكنّها أحبت يالو. أستطيع أن أؤكّد لك يا سيّدي أنّها أحبّتني. كانت عندما نلتقي ترتجف بالحبّ، الآن صرت أراها، في الماضي كنت أعتقد أنّها ترتجف لأنّها خائفة، فأزيد في تخويفها، لكنّني أعرف الآن أنّها كنت تحبّني وتغار من بلّونة، وبدل أن أخبرها أنّني فنّان وخطّاط ومتعلّم أي أنّني مثقّف، صرت أخبرها عن جرائم ارتكبتها ولم أرتكبها، ممّا جعلني أسقط من عينيها، فصارت تريد أن تتخلّص منّي بأيّة طريقة.

أنا متأكّد يا سيّدي أنّها تتعذّب الآن، لقد ارتكبت أنا وشيرين خطأً كبيرًا في حقّ الحبّ وأريدها أن تعرف أنّني مستعدّ لإصلاح الخطأ، أنا مستعدّ أن أفتح معها صفحة جديدة بيضاء، وإذا أرادت الزواج فلا مانع.

أريد لشيرين أن تعرف أنّني مستعدّ أن أتزوّجها ساعة تشاء، وهي تعرف أنّني أقول هذا الكلام، لأنّني أحبّها.

أنا لم أنم معها في بلّونة فقط، حين كمشتها في السيّارة مع ذلك الطبيب التافه، ولم يكن معها خطيبها كما ادّعت، لكنّي لا أريدكم أن تحققوا معها، لأنّني أعرف أنّها هشّة وجسمها النحيل لا يحتمل التعذيب، بل نمت معها عدّة مرّات بعد ذلك في أحد فنادق جونية. أرجوكم سامحوها لأنّها كذبت وقالت إنّها كانت في الحرش مع خطيبها إميل، وهو شابّ جبان كان يرتجف من الخوف خلال التحقيق معي، مع أنّني أنا من تعرّض للتعذيب وليس هو.

أمّا بخصوص المتفجّرات، فإنّني مستعدّ أن أحافظ على اعترافي عن هيكل والندّاف، إذا كان هذا ضروريًّا بالنّسبة لكم، وهذه يا سيّدي تضحية منّي من أجل خدمة السلام الأهليّ في لبنان.

أرجو يا سيّدي أن تكون هذه المعلومات الجديدة مفيدة، وتساعد على إغلاق ملفّاتي وتثبت براءتي. إنّني أتّكل عليكم يا سيّدي، فأنا شابّ يتيم، أبي لا أعرفه، وجدّي ليس أبي، وأمّي ليست أختي.

وأخيرًا أريد يا سيّدي أن أشكركم وأشكر المحقّق وجميع معاونيه، الذين سمحوا لي خلال هذه الإقامة في الحبس أن أتصالح مع نفسي، وأكتشف أشياء لم تكن تخطر على بالي.

أغمض يالو عينيه وبصق على الشيطان. كان يقف في غرفة التحقيق، ويشعر بارتجافة في داخله. وجه المحقّق يأتيه من خلال ضوء لمبات النيون الشاحبة الموضوعة على السقف. يقف يالو تحت الضّوء ويرى. كان شعر المحقّق الأشيب يميل إلى الاصفرار، ووجهه الصغير وكأنّه زرع على الطاولة، والمحقّق يقلّب الأوراق وينظر إلى الشبح الطويل الذي يتداخل بلون النيون الأبيض.

أغمض يالو عينيه، ورأى بعينه الثالثة، شعر رعدة تسري داخل عضلات ذراعيه وفخذيه فبصق على الشيطان. تعلّم يالو في السجن كيف يبصق في قلبه. لم يعد يكوّر شفتيه ويخرج بصاقه في كتلة واحدة يرميها على الأرض. صار يكتفي بأن يقول تفو على الشيطان، واعدًا نفسه بأنّه يومًا ما، عندما سيخرج من هذا الكابوس، سوف يبصق كلّ الشياطين التي اضطرّ إلى التعامل معها. قال تفو على الشيطان من أجل أن يوقف الرّعدة في قلبه وعضلاته، لكنّ الارتعاد كان ينتشر مثل موج خفيف يجتاح جسد الشبح الطويل من رأسه إلى قدميه. وفهم يالو، قبل أن ينطق المحقّق القصير بأيّة كلمة، أنّه وقع في الفخّ.

«شو يا ملك السيكس»، قال المحقّق وهو يضع مساحات بين كلماته، موحيًا بأنّ كلامه يحمل تهديدات متنوّعة.

يالو لم يكن خائفًا، أو هكذا أقنع نفسه، ممَّ يخاف بعد كلّ شيء؟ أكثر من الكيس لا يوجد، أكثر من ذلك الشعور بأنّه صار خصيًّا ومدوّرًا ويتدحرج بين الأحذية؟ إذن لماذا يخاف؟ وضع يديه على أعلى فخذيه من أجل أن يوقف الرّعدة في جسده، لكنّه خلال انحناءته سمع فرقعة على رقبته. كيف صار المحقّق خلفه بهذه السّرعة، وصفعه؟ استقام جسد يالو من جديد فرأى المحقّق القصير واقفًا خلفه ملوّحًا بالأوراق.

«عم بتضحك علينا يا ملك السيكس؟» قال المحقّق الذي دار حول الرّجل الطويل الذي احتار إلى أين ينظر كي يتلقّى كلمات المحقّق القصير السمين. بصق يالو على الشيطان وأغمض عينيه. وفكّر أن يقترح على المحقّق ذي الفخذين السمينين والوجه المدوّر أن يقف على الكرسي في مواجهته كي يستطيع التفاهم معه. لكن قبل أن يفتح يالو فمه، وجّه إليه المحقّق لكمة على رأس معدته، فانقطع الهواء عن رئتي يالو وانحنى على معدته، فاتحًا فمه إلى أقصاه كأنّه يشحذ هواء يتنفّسه قبل أن يغلق عينيه ويموت.

سوف يقول يالو إنّه شعر بالموت. عندما كان في الكيس أو تحت السياط أو في الفلقة أو في بركة الماء، لم يشعر بموته النهائيّ. ربّما مات دون أن يدري لكنّه كان واثقًا من أنّه سوف يقوم. أمّا الآن، وأمام المحقّق القصير الذي يدور حوله، حاملاً الأوراق في يده، أو يضربه بوكسًا على معدته، أو يركله على مؤخّرته، فلقد دخل يالو في تداعيات الموت، وشعر باحتقار لنفسه التي لا تدافع عن هوائها.

عاد المحقّق إلى كرسيه خلف الطاولة، ودخل رأسه في بياض

النيون من جديد، ووجد يالو نفسه وهو يحاول ربط الكلمات التي يسمعها من فم المحقّق، من أجل أن يفهم معناها.

سمع يالو اسم ميشال سلّوم وزوجته رندة كثيرًا، واستنتج أنّ المحقّق يسأله عن الصفحات القليلة التي أضافها إلى اعترافاته. لم يفهم السؤال كي يجاوب عليه. سمع الأسماء تتشظّى بين شفتي المحقّق الرّفيعتين.

«ليش مش عم بتجاوب يا كلب؟»

«سيدنا ما بعرف.»

«ما بتعرف؟ لكن مين بيعرف؟»

«أنا كتبت يا سيدنا أنّي رح بلّش حياتي من جديد، أعطوني فرصة، والله خلص.»

قال المحقّق إنّه فهم اللّعبة، وإنّ دانيال سوف يذوق العذاب الذي سيجبره على قول الحقيقة.

«أنت يا كلب مفكّر حالك ذكي وفيك تلعب فينا، نحن أعطيناك أوراق منشان تكتب الحقيقة مش منشان تألّف قصص، وتتّهم النّاس وتخرب بيوت العالم. أنت يا عكروت بدّك تقلّلي، قول، استرجي قول إنّك نمت مع مدام رندة؟ قول من شو خايف؟»

يالو لم يقل، لكنّه أحسّ برغبة في الرّقص، فالمحقّق كان يوقّع جمله كأنّه يغنّي على موسيقى متقطّعة تخرج من حنجرته. وارتسمت ابتسامة على شفتيّ الشبح النّحيل.

«عم تضحك يا عرس»، وأشار بيده.

انتصب ثلاثة عمالقة في الغرفة، لم يكن يالو قد أحسّ بوجودهم من قبل، كان ضوء النيون الذي يتموّج باللّون الأصفر

ينتشر فوق كتلة الشعر الرماديّة التي تغطّي وجه المحقّق المستدير، نظر يالو مليًّا إلى هذا الوجه فضربته قشعريرة الخوف. كأنّ هذا الوجه الذي تخرج الكلمات من شقّ في أسفله ليس وجهًا حقيقيًّا. لم يسبق ليالو أن رأى وجهًا كهذا: أنف رخو يمحو الشفتين واستدارة على شكل طابة. عمله في الحرج جعله خبيرًا في الوجوه، يميّز الوجه الطيّب عن الوجه اللّئيم دون عناء: الأنف الكبير يعني الخوف والشفة الرفيعة تعني اللّؤم والوجه الممتلئ يعني الاستسلام وإلى آخره... كان يعرفهم من وجوههم، يقرأهم بالضوء قبل أن يقرّر طريقة التصرّف، هل يستخدم العنف فيقفل حاجبيه ويقرع النافذة ببوز البندقيّة، أم يكون لطيفًا، فينحّي البندقيّة ويشير برأسه، أم يكون لا مباليًا فيطرق بالبندقيّة وينظر إلى الأرض. كان يالو يعرف كلّ الوجوه، لكن هذا الوجه... في المرّات السّابقة لم يكن يرى وجه المحقّق، كان هو الفريسة والفريسة لا ترى وجه الصيّاد. أمّا في ذلك اليوم، وبعد أن كتب يالو حكايته مرّات عديدة، ضربته القشعريرة حين رأى وجه المحقّق: أنف رخو يمّحي داخل الوجه اللّحميّ المستدير، وشفتان كأنّهما خيطان مرسومان باللّون الأخضر، وعينان بيضاوان كأنّ ليس فيهما بؤبؤان وصوت يخرج من مكان غامض في هذه الطابة الملقاة فوق الطاولة.

عندما أنهى يالو كتابة قصّة حياته، كان متأكّدًا من أنّ رحلة عذابه قد انتهت. كان يريد للقصّة أن تنتهي من أجل أن يعود إلى الحياة التي تركها وراءه. اكتشف يالو، حين جلس خلف الطاولة وتفكّك بالألم الجسديّ والرّوحيّ أنّ حياته كانت غير حقيقيّة. كانت الحياة التي يكتبها تأتيه مثل قصص ممزّقة لا تكتمل، ويرى

نفسه في القصص كأنّه ليس هو، لذلك كره يالو الكتابة وكره نفسه. العمى، يغمض عينيه ويقول العمى، هذا اليالو الذي أكتب قصّته سوف يخرج من الأوراق إلى حبل الإعدام، يقف تحت المشنقة، ثمّ يتدلّى مثل شبح غير حقيقيّ. هكذا رأى نفسه، كأنّه في كابوس، وهو الآن يخرج من المنام ويقف أمام المحقّق، وسيقول إنّه كتب كلّ شيء، وإنّه لا يملك جديدًا يضيفه، ولا لزوم للتعذيب.

وقف يالو أمام المحقّق من أجل أن يقول له إنّه يريد أن يعود إنسانًا حقيقيًا، ويخرج من الغيبوبة التي أخذته إليها ذكرياته وقصّة حياته. صار ظلاً مثل جدّه هابيل أفرام أبيض. كان الجدّ الذي حوّلته الكهولة ظلاًّ لنفسه يحكي عن حياته كأنّها ليست حياته، ويالو يستمع إليه بنصف أذن. هنا في الزنزانة، اكتشف يالو أنّه لم يكن يستطيع الاستماع إليه، لأنّ الكوهنو كان يموت، ولا يستطيع الأحياء سماع الموتى إلاّ إذا ماتوا معهم. لكن شذرات صوت الجدّ عادت إليه في وحدته، وسمع في الزنزانة الانفراديّة الكلام الذي رفضت أذناه سماعه، وعاش مع الموت وصارت حكايته ظلاً لحياته. عاش يالو في الظلال، وكره اللّون الأسود الذي يتنفّسه الحبر على الورقة وقرّر أن يعود إلى الحياة.

وقف أمام المحقّق كي يقول، لكنّ المحقّق لم يكن يشبه رجلاً حقيقيًا، يضع رأسه فوق الطاولة، ويتكلّم بصوت خفيض يكاد لا يُسمع، فشعر يالو أنّه لا يزال حبرًا على الورق، وأنّ روحه لم تعد إليه، فأغمض عينيه.

لم يصرخ به المحقّق طالبًا منه فتح عينيه، كما كان يفعل في المرّات السابقة، تركه مغمضًا. لكنّ الفتى أحسّ الرّجال الثلاثة

الطوال القامة يقفون خلفه مباشرة. رآهم بعينه الثالثة التي عادت إليه فجأة، فمنذ اعتقاله انطفأت هذه العين ولم تعد ترى. حاول في الحبس أن يجعلها ترى، كما كانت ترى في الحرج حين كان يشعر بأنّه يشبه بُرجًا طويلاً يشرف على العالم ويرى الجهات كلّها. هل صحيح أنّه كان يرى نفسه هكذا، أم جاءته الفكرة هناك في المقهى في الأشرفيّة، حين حاول أن يقنع شيرين بأن تؤمن به وبحبّه لها. هناك روى لها كيف نبتت له هذه العين الثالثة، وكيف صار يحاول النظر من خلالها بعد أن سمع الكوهنو يقول لابنته إنّ الصبيّ صار عنده عين ثالثة، وكيف صار يغمض عينيه كي يرى بهذه العين الجديدة. وشيرين تضحك، وتفتح عينيها الصغيرتين دهشة. هناك صار يالو برجًا، مع شيرين صار يملك ثلاث عيون، وصار يرى ما يحلو له. ويتصرف وكأنّه برج عال يهبط على ضحاياه ويمتلئ بالرّؤية التي تمتزج برغبته في امتلاك كلّ نساء العالم.

لكنّه هنا، أمام المحقّق، في هذه الغرفة التي يتوشّح بياض نيونها باللّون الأصفر، رأى بعينه الثالثة، ثلاثة رجال يقفون خلفه، وشمّ رائحة الضرب، وأيقن أنّه لم يخرج بعد من المصيدة، ورأى كيف انكسر ظلّه على الحائط وهو ينحني تلافيًا للضربات التي جاءته من الخلف.

«استرجي قول إنّك نمت مع المدام»، قال المحقّق.

«أنا... قلت... ما...» أجاب يالو.

كانت الضربات تنهال على الظلّ الذي رآه يالو بعيونه الثلاث، الظلّ يتلوّى من الألم، والألم يمتدّ من الحائط إلى العين الثالثة التي انطفأت عنها الرؤية فجأة.

«أنت»؟ قال المحقّق. ثمّ وقف وخرج من خلف الطاولة وتقدّم من يالو. وقف المحقّق فتوقّفت الضربات، واستمع يالو إلى المحقّق يقرأ رسالة كتبها المتّهم، طالبًا من القاضي توجيهها إلى الخواجة ميشال سلّوم.

أريد أن أوجّه هذه الكلمة إلى الخواجة ميشال المحامي. أنا أشعر بالامتنان نحو هذا الرّجل الشريف الذي أنقذ حياتي وأعادني إلى وطني لبنان، بعد العذاب الذي ذقته في فرنسا. أريد أن أعتذر منه على كلّ شيء. لقد أسأت الأمانة وعضّيت اليد التي امتدّت إليّ بالإحسان، وأكلت من لحم الإنسان الذي أطعمني وأسكنني في بيته وأعاد لي كرامتي. لم أكتفِ باستخدام الرشّاش الذي أعطاني إيّاه في أمور غير شريفة، بل استخدمت المسدّس الصغير كولت ٧,٥ملم، الذي كان يخبّئه في سيّارته في أعمال السطوّ التي ارتكبتها. المسدّس خبّأته في غرفتي تحت الڤيلّلا، وهو موجود تحت البلاطة الرابعة إلى يمين المدخل، وملفوف بالقماش وورق النايلون.

وأريد أن أطلب من الخواجة ميشال المحامي مسامحتي على أخطائي، وأنا أعرف أنّ قلبه طيّب، وسيسامحني. ولكنّني وهنا، لقد تردّدت كثيرًا قبل أن أقرّر الاعتراف، لكن ما بصير، هذا الرّجل الطيّب الآدمي يجب أن يعرف الحقيقة، هذا واجبي الأخلاقي، يجب أن أقول له الحقيقة مهما كانت

صعبة وقاسية كي يعرف، وكي أشعر أنا بأنّني ردّيت له جزءًا صغيرًا من جميله. لقد نمت مع زوجته السيّدة رندة. السيّدة أغوتني، أنا لا أقول إنّ الحقّ عليها وإنّني بريء، فأنا أيضًا مذنب، وأعتقد أنّ الشيطان أغوانا نحن الاثنين. وأطلب من الخواجة ميشال أن يسامحني ويسامحها.

أنا اعتقدت في الأوّل، أنّ الستّ رندة هي التي وشت بي، لأنّني قرّرت أن لا أكمل هذا الشيء المعيب واللّاأخلاقيّ الذي كنّا نقوم به، هي هدّدتني واحتقرتني ومنعتني من أن أتكلّم مع ابنتها غادة، وأنا كل علاقتي بغادة لم تتعدّ أنّني كنت أشتري لها الكتب. غادة فتاة جيّدة ومهذّبة، كنت أشتري لها روايات آغاتا كريستي، ولم تتجاوز علاقتي بها مناقشة الروايات البوليسيّة. أنا لا أحبّ الروايات البوليسيّة لأنّها تخيفني، وأجدها تمرينًا على تخويف القارئ، أمّا غادة فكانت ترى فيها متعة عقليّة.

أطلب من الخواجة ميشال المحامي أن يسامحني وأن ينتبه إلى حياته وإلى أخلاق هذه المرأة التي يعيش معها تحت سقف واحد. وهكذا أكون قد أرحت ضميري نهائيًا، وأنا مستعدّ لتلقّي العقاب الذي أستحقّه، وأطلب من الله أن يساعد الخواجة ميشال لأنّ مشكلته أكبر من مشكلتي.

رأى يالو الوجه الذي يقرأ وأصابه الحزن، لقد انكشفت

الحقيقة التي لم يُرِد لها أن تنكشف. لا يدري لماذا زحط قلمه وكتب هذه الأشياء. سوف يقول للمحقّق إنّه نادم أيضًا على كلّ ما كتبه، وإنّه يسحب اعترافاته، لكنّه ليس مستعدًّا لكتابة كلّ شيء من جديد. فهو لا يستطيع. الفيلّلا الجميلة المؤلّفة من طابقين لا بدّ وأنّها صارت جحيمًا الآن، أمّا الدرج الذي يصل بين الصالونات في الطابق الأرضيّ وغرف النّوم في الطابق الثاني فلا بدّ وأنّه تحطّم على وقع أقدام الخواجة ميشال الذي اكتشف أنّ كلّ حياته كانت خدعة.

«مين مفكّر حالك يا خرا، أوّلاً تأكّدنا من وجود المسدّس، والأستاذ ميشال أبرز رخصة المسدّس، وهيك زمط من الورطة يلّلي كان بدّك توقّعه فيها، وبعدين بتعرف شو عمل الأستاذ ميشال لمّن قري هالحكي السّخيف عن الست رندة، فقع من الضحك، وقال يا حرام أنا كنت عارف أنّ هالولد مش طبيعي، بس الحقّ عليّي لأنّي شفقت عليه، شوفوا آخر المعروف، وصار يضحك، ضحك وصرنا كلّنا نضحك، وبعدين صرخ آخ، ووقع على الأرض، وصار أحمر، حملناه على المستشفى. وما عدنا نفهم عليه شو عم بقول، وصار يحمرّ ويحمرّ، وبعدين صرخ آخ، وبالمستشفى اكتشفوا أنّه عمل ذبحة قلبيّة، بس الله نجّاه من إجرامك، وعمل قلب مفتوح، وهلّق بلّش يتحسّن والحمد لله، بس رفض يدّعي عليك، وقال إنّه ما بقى يقدر يسمع اسمك، واترجّانا نسكّر الملف المتعلّق فيه بالتحقيق.»

«عجبك يا كلب!»

...

«جاوب.»

سمع يالو أنينًا يخرج من ظلّه الملقى إلى جانب الحائط، ثمّ بدأ المحقّق يقرأ نصوصًا مأخوذة من تحقيق جرى مع رجال أبلغوا عن جرائم ارتكبها يالو في الحرج، بعد أن نُشر خبر القبض على المتّهم في الصحف، يسمع المحقّق يقول إنّه يريد منه إعادة الكتابة، ووضع التفاصيل التي اعترف بها هؤلاء الرّجال، وأن يكتب عن شبكة المتفجّرات بتفاصيل التفاصيل.

«اسمع يا كلب كيف لازم تكتب»، وأمسك المحقّق أوراقًا وبدأ يقرأ:

«اسمي جورج بن أسعد غطّاس، والدتي أنجيل، مواليد ١٩٦١، ببلّونة وسكّانها ملك والدي، رقم السجلّ ٢٠ بلّونة ـ كسروان، أفيدكم أنّه بتاريخ ٩١/٥/١٦، وحوالي العاشرة والنصف مساء، وأثناء انتقالي من محلّة يسوع الملك، باتّجاه بلّونة بسيّارتي، وهي من نوع مارسيدس طراز ٢٢٠، لون أسود، تحمل الرّقم: ١٧١٣٦٢٠، وبوصولي إلى جعيتا شاهدت فتاة أجهلها واقفة على رصيف الطريق، بانتظار سيّارة، فتوقّفت إلى جانبها، حيث صعدت معي في السيّارة، وتبيّن لي أنّها تدعى جورجيت، أجهل كامل هويّتها ومكان إقامتها. وبعد تجاذب الأحاديث أوقفت سيّارتي في محلّة بلّونة بالقرب من كنيسة الرّوم وأخذنا نتساير داخل السيّارة. وبعد حوالي خمس دقائق من توقّفي في المحلّة التي ذكرت، وإذ بشخص أجهله تقدّم منّي وطرق زجاج السيّارة التي بجانبي، شاهرًا رشّاشًا حربيًّا من نوع كلاشينكوف في وجهي، حيث أمرني بإعطائه ما لديّ من أموال ومصاغ. على الفور وخوفًا من أن يتصرّف ضدّي بأيّ أذىً أعطيته مبلغ مئة وثمانين دولارًا أميركيًّا، وثلاثون ألف ليرة لبنانيّة

كانت بحوزتي، كما أخذ من الفتاة التي كانت برفقتي زوج حلق من الذهب المرصّع بالماس. وأخذ يهدّد ويشتم. كما أقدم على سلب ساعة الفتاة، وعندما تأكّد من أنّ هذه الساعة ليست ذات قيمة، رماها من السيّارة وأخذ يهدّدني بالقتل وأمرني أن أصعد إلى صندوق السيّارة، فما كان منّي إلاّ أن رفضت ذلك، وحصل بعض الجدل بيني وبين هذا الشخص المسلّح، كما أقدم على التحرّش بالفتاة التي كانت برفقتي طالبًا منها التعرّي، ولمّا رفضت وضع فوهة الرشّاش على بطني وقال إنّه سيقتلني إذا لم تتعرَّ الفتاة، فما كان منها إلاّ أن بدأت تصرخ بأنّها لا تعرفني ولا تعرف أحدًا. فجرّني من السيّارة إلى الخارج ولبطني على خصيتي، فسقطت أرضًا من الألم، ورأيت الفتاة تتعرّى، ثمّ غاب كلّ شيء عن نظري لأنّي فقدت الوعي. وعندما استيقظت كان رأسي يؤلمني كثيرًا. رأيت السيّارة فارغة والفتاة ليست فيها والمسلّح لم يكن هناك، فقدت سيّارتي وعدت إلى البيت حيث أخذت حبّتي إسبرين ونمت. وأنا في حال مشاهدتي لهذا الشخص ثانية أستطيع التعرّف إليه. كما أفيدكم أنّه طويل القامة، نحيف البنية، عمره حوالي الثلاثين سنة، كما كان يرتدي معطفًا طويلاً أسود. وبعد أن عرضتم عليّ صور المدعو دانيال هابيل أبيض أؤكّد لكم أنّه نفس الشخص الذي أقدم على سلبي.»

«عم تفهم كيف لازم تكتب.»

...

«اسمع يا كلب، عندي هون كلّ قصص يللي اعتديت عليهم واغتصبتهم وسرقتهم، بس القصص فيها فراغات، بدّي يّاك تعبّي الفراغات. يعني تكتب شو صار لمّن الزلمي أغمي عليه،

فهمت؟»

قال يالو، حاول أن يقول إنّه لم يعد قادرًا على الكتابة. قال إنّه لا يعرف أن يعبّئ الفراغات، قال إنّه اعترف بكلّ شيء، قال إنّه لا يعرف.

«وبعدين»، صرخ المحقّق، «بعدين ما تنسى شبكة المتفجّرات، وإيّاك تفتري على نسوان العالم، فهمت.»

«فهمت»، قال يالو.

«وهلّق عبّيلي الفراغات»، قال المحقّق.

«أيّ فراغات يا سيدنا؟»

«عن جورجيت، لبطت الزلمي وبعدين شو صار؟»

«ما لبطت حدن يا سيدنا.»

«بلّش يكذب، انتبه نحن منعرف كلّ شي.»

«ما دامك بتعرف ليش بدّك ياني أكتب، أعطيني يا سيدنا، أعطيني وأنا بمضيلك على بياض، بس خلص، دخيلكم خلص.»

رأى يالو ثلاثة رجال يتقدّمون من الشّبح الطويل الذي حاول أن يحمي رأسه بيديه. ثمّ رأى كيف ارتفع الشبح إلى أعلى. ارتفع ولم يشعر بالألم، صار يالو فوق الألم. صار أعلى وأعلى. ورأى العالم مثل دائرة، ورأى روحه تتدوّر في داخله، وأحسّ بشيء يطعنه في قلبه طعنة واحدة ويستقرّ هناك، حيث صار كلّ شيء أنينًا مكتومًا وبكاء مكتومًا وصراخًا مكتومًا، ووجعًا يدخل في ثنايا العظم وقشور الأعصاب.

أمرهم المحقّق بإجلاسه على القنّينة. سمع الشّبح الطويل الأمر لكنّه لم يفهم معناه. رأى المحقّق يحمل في يده قنّينة

يالو لا يفهم لماذا عذّبوه كلّ هذا العذاب، ولماذا لا يزال ينتظره فصل من العذاب لم يخطر له على بال. هل هذا بسبب شيرين وسيّارات اللّيل في بلّونة؟ لماذا لا يحاكمون كلّ الشّعب اللّبنانيّ. يالو مقتنع أنّ كلّ الشّعب اللّبنانيّ يمارس الحبّ في السيّارات. لماذا هو وحده؟ لماذا لا يُحاكم العشّاق الآخرون، هل لأنّه سرق؟ ومن لا يسرق؟ جدّه قال له إنّهم جميعهم يسرقون، وإنّ أحد القدّيسين كتب أنّ جميع الأغنياء لصوص، إذ لا يمكن أن يغتني الإنسان إلاّ إذا سرق الآخرين، «اتطلّع يا ابني»، قال الكوهنو «اتطلّع منيح كلّ واحد حاطط إيده بجيبة التاني، اتطلّع منيح يا ابني، لازم تشوف خلف الأشيا، ما بيقدر الإنسان يشوف خلف الأشيا إلاّ إذا كانت معه نعمة الإنجيل، اتطلّع وتعلّم تستقبل النّعمة وساعتها بتشوف، ولمّن بتشوف بتكتشف أنّ اللّعنة الكبرى على الإنسان هي الإيد. الخطيّة موجودة بالإيد، لمّن الواحد بحطّ إيدو بجيبة جاره والجار بجيبة واحد تاني، وهكذا دواليك، ساعتها بصير في مجتمع. منشان هيك الآباء القدّيسين اعتزلوا النّاس.»

«وأنت يا جدّي ليش ما اعتزلت؟»

«لأنّي مش قدّيس، أنا رجّال خاطي، أنا حتّى ما بعرف، حياتي راحت بلا معنى.»

يضحك يالو حين يرى أمامه يد جدّه المرتجفة بالخوف من الله. فيالو كان يعلم أنّ المسألة مختلفة، فالاكتشاف الذي توصّل إليه يالو في بلّونة، كان أكبر من كلّ تجاربه في الحرب. الحرب علّمته الموت، لكن بلّونة علّمته أنّ كلّ شيء موت أو يشبه الموت. وأنّ المسألة هي أنّ اليد امتداد للعضو الجنسيّ، وهذا

ما تعلّمه مع رندة، ثمّ اكتشف العتمة في الحرج، حيث تمحى الفروق بين أعضاء جسد الإنسان، عشّاق السيّارات علّموه أن الإنسان يستطيع أن يصير مثل السردين المغطّى بزيت الجنس. السيّارات مثل علب السّردين، والنّاس أسماك مطعوجة تسبح في الزيت. أعجبته هذه الفكرة وقرّر إضافتها إلى الفكرة الأولى عن الكتابة. أخذ ورقة بيضاء وكتب، وكانت هذه هي المرّة الأولى التي يكتب فيها خارج ضرورات التحقيق.

كتب أوّلاً أنّ الإنسان لا يستطيع أن يكتب حياته، وعليه أن يختار بين أن يعيش أو يكتب. ويالو اختار أن يعيش، لذلك فهو يكتب من أجل ضرورات التحقيق. لكنّه لا يريد أن ينتهي كما انتهى جرجي زيدان منقّبًا في حيوات النّاس، بل يفضّل أن ينقّب الكتّاب في حياته، هذا إذا أرادوا كتابة قصّة حبّ لا تشبه أيّة قصّة حبّ أخرى.

وكتب ثانيًا أنّ جميع النّاس يضعون رغباتهم في جميع النّاس، وأنّ تجربته علّمته وهو يرى عشّاق بلّونة، أنّ أغلبيّة العشّاق يمارسون الخيانة أو يقبلون بها. وأنّه حتّى هو، حتّى في عزّ عشقه لشيرين كان يخونها حين تسنح له الفرصة، لأنّ «نكهة الخيانة هي أحلى نكهة»، وهذه الفكرة سرقها من مدام رندة، التي قالت له في إحدى ترندداتها معه، إنّ الخيانة هي أجمل شيء، وإنّها بدأت تخاف أن تتعوّد عليه ولا تعود تشعر معه بالخيانة.

وكتب ثالثًا أنّ جميع الأفكار مسروقة، وأنّ الناس تقضي وقتها في سرقة أفكار بعضها.

فرح يالو عندما كتب هذه الأفكار الثلاث، على شكل ثلاث

جمل متتالية:

١ ـ لا أحد يستطيع أن يكتب الحياة.

٢ ـ الرّغبات في الرّغبات.

٣ ـ جميع الأفكار مسروقة.

وشعر براحة غريبة، وقرّر إعادة النظر في قصّة حياته. سوف يكتبها بشكل مختصر وواضح، وسوف يقدّم إلى المحقّق غدًا نصّين: نصّ أوّل تفصيلي، ونصّ مختصر يعبّر ببلاغة عن حياته.

جلس خلف الطاولة الخضراء، نفخ قلمه كأنّه يدخّن سيجارة، وبدأ.

سيّدي القاضي المحترم.
أريد أن أضيف هذه الصفحات إلى قصّة حياتي، التي طلبتم منّي كتابتها، والتي تجدونها في الملفّ الخاصّ بالمتّهم دانيال هابيل أبيض، الملقّب بيالو.
أريد يا سيّدي أن أطلب العفو. فخلال شهرين قضيتهما في الحبس الانفراديّ وليس معي سوى الأوراق البيضاء والكتاب المقدّس، اكتشفت أنّني لست يالو المجرم.
لا، لا، أنا لا أدّعي الجنون كما يفعل المجرمون من أجل التخلّص من حبل المشنقة. لا يا سيّدي أنا لم أعد ذلك اليالو. اكتشفت وأنا أكتب قصّة حياتي، أنّني لم أعد هو. فالأيّام التي قضيتها في التحقيق، وقراءتي الدائمة للكتاب المقدّس، جعلتني أكتشف أنّني ولدت من جديد. وأنا يا سيّدي أرجع في هذا إلى الإنجيل الشريف وإلى كلّ الكتب المقدّسة. فحين يقولون في البدء كان الكلمة، فهذا يعني أنّ الكلمة كانت الشيء الأوّل. وأنا عندما كتبت قصّة حياتي اكتشفت الكلمة التي أعادت خلقي من جديد.
لا أعرف كيف أشرح ذلك بالعربيّ الفصيح، بس يعني

كأنّي ما بعرف، عندما رأيت حياتي من أوّلها إلى آخرها، اقتنعت أنّني صرت إنسانًا جديدًا. كما اقتنعت أنّ يالو العتيق لم يكن واعيًا للأمور التي يقوم بها. يعني هو لم يصنع حياته كما يشاء، كأنّه كان منوّمًا بشكل مغناطيسيّ، وليس من العدل أن يدفع الإنسان ثمن أعمال لم يكن هو من اختار القيام بها. يالو الشبح الطويل الذي يلبس كبّوتًا أسود، وينزل على سيّارات العشّاق، يالو الذي كان يحارب ويقتل وهو يضحك، لم يعد موجودًا.

أؤكّد لك يا سيّدي القاضي أنّني صرت إنسانًا آخر. أعرف قصّتي لأنّني كتبتها، وسوف أكتبها من جديد إذا أردتم، لكنّني أشعر، وأنا في السّجن أنّه لم يعد لي أيّ علاقة بالماضي. لم أتعلّم من الماضي سوى الحبّ. نعم يا سيّدي، لقد بدأ يالو حياته عندما اكتشف الحبّ، لكن هذا الحبّ كان أيضًا سبب موته. يعني يالو وقع عندما وقف، وتشرشح عندما أصبح بني آدم. نعم يا سيّدي، لقد أساء التصرّف مع شيرين ولاحقها، لكنّه اكتشف الحبّ. البني آدم يا سيّدي هو الرّجل الذي يحبّ، هكذا علّمني جدّي الكوهنو رحمه الله، لكنّ جدّي هو السبب في ضياعنا، منع أمّي المسكينة من أن تبقى مع الرّجل الذي أحبّته، لأنّه كان متزوّجًا وجبانًا، ولم يجرؤ أن يطلّق زوجته. هل يجب أن تنحرم أمّي من الحبّ لأنّ حبيبها جبان؟! أمّي انحرمت من الحبّ، والمرأة

المحرومة لا تستطيع أن تعطي. أعتقد أنّ هذا هو السبب العميق للخربطة التي عشت فيها.
أنا يا سيّدي هربت من الحرب، ولم أهرب من أجل سرقة مال ثكنة جورج عرموني. على كلّ حال، فلقد تبهدلت في باريس، لأنّ طوني صديقي سرق المال وتركني وحيدًا.
هربت من الحرب لأنّي لم أعد أفهم. لا لم أكن جبانًا، ولا مرّة جوبنت، حتّى عندما كنت أخاف، كنت أضبط نفسي وأدّعي أنّني لا أخاف. أليست هذه هي الشجاعة؟ إذن كنت شجاعًا، وتركت الحرب لأنّني زهقت منها. كنت في البداية مثل جميع الشباب، أريد أن أدافع عن لبنان، وبعد ذلك اكتشفت أنّني أحارب فقراء مثلي وأنّني سوف أبقى غريبًا مهما فعلت. لأنّ الإنسان غريب في هذا العالم. جدّي كان يقول إنّه غريب لأنّه إنسان. عندما اكتشفت أنّني إنسان هربت إلى باريس، وتبهدلت، وأنقذني الخواجة ميشال سلّوم، الذي أعطاني وظيفة حارس في ڤيلّلا غاردينيا في بلّونة.
كلّ الذي كتبته عن قصّة حياتي صحيح، لكن هناك مسألة أريد توضيحها، وأنا لا أقصد من هذا التوضيح الإساءة إلى أحد، أعوذ بالله، أنا الآن طاهر وأبيض مثل هذه الورقة البيضاء التي أكتب عليها قصّة حياتي.
أريد فقط أن يكون ضميري مرتاحًا وأن أنهي حياتي السابقة بالاعتراف عن كلّ شيء، وهذا لن يسيئ إلى

الخواجة ميشال، على كلّ أنا أكنّ لهذا الرّجل احترامًا كبيرًا، لكنّ الحقيقة يجب أن تقال.
أريد أن أعترف عن شيء حاولت كلّ فترة تعذيبي وحبسي أن لا أعترف به، خوفًا على سمعة الناس. لكنّي اكتشفت أنّ الاعتراف هو وسيلتي الوحيدة من أجل أن أصير إنسانًا جديدًا وأبدأ حياتي، وأنا واثق من أنّكم ستأخذون بعين الاعتبار ظروفي وستصدرون عنّي عفوًا، لأنّه من غير المعقول أن يكون قانون العفو قد شمل كلّ مجرمي الحرب، بينما أقضي أنا حياتي في الحبس لأنّي نمت مع امرأة أو مع عدّة نساء.
عندما عدت يا سيّدي من فرنسا واشتغلت في الڤيلّلا كنت يائسًا من الحياة. كنت أرى كلّ شيء أسود قدّامي. ولم أعد أستطيع أن أرى الألوان. والآن أشعر بالنّدم على تلك الأيّام. كنت أعيش في ڤيلّلا وسط غابة صنوبر خضراء، ولم أكن أرى ألوان الطبيعة. هل يوجد أحد لا يرى الطبيعة؟
يالو لم يكن يرى الألوان، كان يقضي وقته مغمض العينين، نعم يا سيّدي كنت مغمّض عينيّ منشان ضلّني بقلب اللّون الأسود. الأسود صار حياتي، وفقدت إحساسي بالحياة. والله كنت كأنّني في منام طويل. ثمّ دخلت امرأة في حياتي، امرأة محترمة لا أكنّ لها سوى التقدير. هذه المرأة التي عشت في بيتها، وكنت حارسها، رأتني فقيرًا ووحيدًا وعطفت عليّ ثمّ علّمتني أن أحبّ جسمي. لولاها لما تفتّحت

مسامي التي كانت مغلقة وسوداء. أوّل مرّة تكلّمت معي قالت لي ليش لون وجهك كحلي؟ أنا حنطي وأميل إلى الاسمرار، ولم أكن أعرف أنّ لوني صار كحليًا غامقًا. عندما رجعت إلى بيتي في أسفل الفيلّلا، نظرت في المرآة، واكتشفت أنّ لوني صار أسود مثل لون الأشياء التي أراها. هذه المرأة أعادت لي لوني، وإحساسي بالحياة. الجنس والحبّ الذي ذقته من مدام رندة سلّوم، أكثر من الحبّ الذي ذاقه كلّ الرّجال في العالم. أعادني حبّها إلى الحياة، لكنّه فتح في قلبي بئرًا لا يملؤه شيء. وصرت لمّن أوقف بالجنينة وشمّ ريحة الصنوبر حسّ بالتهيّج، نعم يا سيّدي، صرت جزءًا من الطبيعة، والطبيعة لا تعرف الحدود بين الأشياء. وهذا ما قادني إلى السيّارات ومشاكلها. فجأة حسّيت حالي وكأنّي عايش بحلم، فوق بتعلّمني الست فنون الحبّ، وبالحرش بحسّ السيّارات كأنّها حيوانات عم بتنام مع بعضها كلّ الوقت. وصارت رائحة الجنس في كلّ مكان.

كنت أسكن في ڤيلّلا غاردينيا لصاحبها ميشال سلّوم القريبة من كنيسة مار نقولا. وأنا لم أذهب إلى القدّاس إلاّ مرّة واحدة لأنّني اشتقت إلى الأيقونات ورائحة البخّور. وصارت بلّونة مثل مثلّث: الڤيلّلا والحرج والكنيسة.

لقد أخطأ يالو لأنّه سرق، لكن هدفه لم يكن السرقة، سرق عن طريق الصدفة، سرق لأنّهم سرّقوه. يعني

لمَن كان ينزل حتّى يتفرّج عن قريب، سقط في فخّ المال وإغراء المجوهرات، وهذا لا يجوز يا سيّدي، ليس فقط لأنّ السرقة حرام، ولكن أيضًا لأنّ المال يشوّه الأشياء ويفرط اللذّات.

أمّا في خصوص الاغتصاب، فالصحيح أنّني اغتصبت، لكنّي لم أكن أعرف أنّ هذا يُسمّى اغتصابًا. كنت أعتقد أنّ الجنس هكذا، تأتي إلى المرأة ولا لزوم للشرح، وكان هذا حماقة.

يالو كان أحمق، لأنّه اكتشف بعد ذلك، عندما أصيب بمرض العشق، أنّ هذا الجنس لا معنى له. ولكن مع ذلك، حتّى الحبّ لم يمنعه من ممارسة هذا الجنس لأنّ الإنسان خاطئ بطبيعته.

احترت يا سيّدي في أمري. يالو كان عاشقًا لشيرين ولا يفكّر إلاّ فيها، ومع ذلك كان لا يتوقّف عن الهبوط إلى العشّاق وممارسة الجنس مع النّساء حين تسمح له الظروف بذلك. ربّما المكان، المكان يا سيّدي، الحرج مليء بالشياطين التي تحوم حول رائحة صمغ الصنوبر والأعشاب البرّيّة. لا أعرف، أنا لم أعش في الجبل، جدّي عاش في قرية كان يقول عنها إنّها تشبه الجنّة، أمّا أنا فلم أعش إلاّ في المدينة، بين حيّ السريان في المصيطبة ومنطقة المراية في عين الرمّانة. كان في بيتنا الأوّل حديقة مليئة بالأشجار، وخصوصًا شجر الفتنة الذي لا يحمل سوى زهور بيض وصفر ولها رائحة جميلة. لكن روائح حديقة

بيتنا لا علاقة لها بروائح حرج بلّونة. وحده الصنوبر يا سيّدي، حين تختلط رائحة الصنوبر برائحة الشربين، يصبح المكان غريبًا وتثور الشهوة.

أمّا شيرين فأنا متأكّد من أنّها أحبّتني. مشكلتي أنّني لم أفهم حبّها، ولم أعرف كيف أتعامل معه. الفتاة كانت تمرّ في أزمة نفسيّة بعد أن تركها خطيبها وأحبّت الطبيب الذي أجهضها. علاقة يالو بها كانت ستنجح لو أظهر يالو شخصيّته الحقيقيّة، لكنّه لعب معها لعبة التخويف، وكان مستقتلاً عليها ويحلم بالزواج منها. وفي الحبّ حين تستقتل يفرط كلّ شيء، وهذا ما حصل. شيرين خافت ومعها حقّ. حين يريد الإنسان الشيء كثيرًا، يهرب هذا الشيء منه. وهذا ما حصل للمدام معي، لأنّني صرت أشعر أنّني أداة في يديها من أجل ذلك الشيء، وأنّها لم تعد تستطيع الاستغناء عنّي، فهربت. وشيرين حصل معها الشيء نفسه. لكنّها أحبّت يالو. أستطيع أن أؤكّد لك يا سيّدي أنّها أحبّتني. كانت عندما نلتقي ترتجف بالحبّ، الآن صرت أراها، في الماضي كنت أعتقد أنّها ترتجف لأنّها خائفة، فأزيد في تخويفها، لكنّني أعرف الآن أنّها كنت تحبّني وتغار من بلّونة، وبدل أن أخبرها أنّني فنّان وخطّاط ومتعلّم أي أنّني مثقّف، صرت أخبرها عن جرائم ارتكبتها ولم أرتكبها، ممّا جعلني أسقط من عينيها، فصارت تريد أن تتخلّص منّي بأيّة طريقة.

أنا متأكّد يا سيّدي أنّها تتعذّب الآن، لقد ارتكبت أنا وشيرين خطأً كبيرًا في حقّ الحبّ وأريدها أن تعرف أنّني مستعدّ لإصلاح الخطأ، أنا مستعدّ أن أفتح معها صفحة جديدة بيضاء، وإذا أرادت الزواج فلا مانع.
أريد لشيرين أن تعرف أنّني مستعدّ أن أتزوّجها ساعة تشاء، وهي تعرف أنّني أقول هذا الكلام، لأنّني أحبّها.
أنا لم أنم معها في بلّونة فقط، حين كمشتها في السيّارة مع ذلك الطبيب التافه، ولم يكن معها خطيبها كما ادّعت، لكنّي لا أريدكم أن تحقّقوا معها، لأنّني أعرف أنّها هشّة وجسمها النحيل لا يحتمل التعذيب، بل نمت معها عدّة مرّات بعد ذلك في أحد فنادق جونية. أرجوكم سامحوها لأنّها كذبت وقالت إنّها كانت في الحرش مع خطيبها إميل، وهو شابّ جبان كان يرتجف من الخوف خلال التحقيق معي، مع أنّني أنا من تعرّض للتعذيب وليس هو.
أمّا بخصوص المتفجّرات، فإنّني مستعدّ أن أحافظ على اعترافي عن هيكل والنداف، إذا كان هذا ضروريًّا بالنسبة لكم، وهذه يا سيّدي تضحية منّي من أجل خدمة السلام الأهليّ في لبنان.
أرجو يا سيّدي أن تكون هذه المعلومات الجديدة مفيدة، وتساعد على إغلاق ملفّاتي وتثبت براءتي.
إنّني أتّكل عليكم يا سيّدي، فأنا شابّ يتيم، أبي لا أعرفه، وجدّي ليس أبي، وأمّي ليست أختي.

وأخيرًا أريد يا سيّدي أن أشكركم وأشكر المحقّق وجميع معاونيه، الذين سمحوا لي خلال هذه الإقامة في الحبس أن أتصالح مع نفسي، وأكتشف أشياء لم تكن تخطر على بالي.

أغمض يالو عينيه وبصق على الشيطان. كان يقف في غرفة التحقيق، ويشعر بارتجافة في داخله. وجه المحقّق يأتيه من خلال ضوء لمبات النيون الشاحبة الموضوعة على السقف. يقف يالو تحت الضّوء ويرى. كان شعر المحقّق الأشيب يميل إلى الاصفرار، ووجهه الصغير وكأنّه زرع على الطاولة، والمحقّق يقلّب الأوراق وينظر إلى الشبح الطويل الذي يتداخل بلون النيون الأبيض.

أغمض يالو عينيه، ورأى بعينه الثالثة، شعر رعدة تسري داخل عضلات ذراعيه وفخذيه فبصق على الشيطان. تعلّم يالو في السجن كيف يبصق في قلبه. لم يعد يكوّر شفتيه ويخرج بصاقه في كتلة واحدة يرميها على الأرض. صار يكتفي بأن يقول تفو على الشيطان، واعدًا نفسه بأنّه يومًا ما، عندما سيخرج من هذا الكابوس، سوف يبصق كلّ الشياطين التي اضطرّ إلى التعامل معها. قال تفو على الشيطان من أجل أن يوقف الرّعدة في قلبه وعضلاته، لكنّ الارتعاد كان ينتشر مثل موج خفيف يجتاح جسد الشبح الطويل من رأسه إلى قدميه. وفهم يالو، قبل أن ينطق المحقّق القصير بأيّة كلمة، أنّه وقع في الفخّ.

«شو يا ملك السيكس»، قال المحقّق وهو يضع مساحات بين كلماته، موحيًا بأنّ كلامه يحمل تهديدات متنوّعة.

يالو لم يكن خائفًا، أو هكذا أقنع نفسه، ممَّ يخاف بعد كلّ شيء؟ أكثر من الكيس لا يوجد، أكثر من ذلك الشعور بأنّه صار خصيًّا ومدوّرًا ويتدحرج بين الأحذية؟ إذن لماذا يخاف؟ وضع يديه على أعلى فخذيه من أجل أن يوقف الرّعدة في جسده، لكنّه خلال انحناءته سمع فرقعة على رقبته. كيف صار المحقّق خلفه بهذه السّرعة، وصفعه؟ استقام جسد يالو من جديد فرأى المحقّق القصير واقفًا خلفه ملوّحًا بالأوراق.

«عم بتضحك علينا يا ملك السيكس؟» قال المحقّق الذي دار حول الرّجل الطويل الذي احتار إلى أين ينظر كي يتلقّى كلمات المحقّق القصير السمين. بصق يالو على الشيطان وأغمض عينيه. وفكّر أن يقترح على المحقّق ذي الفخذين السمينين والوجه المدوّر أن يقف على الكرسي في مواجهته كي يستطيع التفاهم معه. لكن قبل أن يفتح يالو فمه، وجّه إليه المحقّق لكمة على رأس معدته، فانقطع الهواء عن رئتي يالو وانحنى على معدته، فاتحًا فمه إلى أقصاه كأنّه يشحذ هواء يتنفّسه قبل أن يغلق عينيه ويموت.

سوف يقول يالو إنّه شعر بالموت. عندما كان في الكيس أو تحت السياط أو في الفلقة أو في بركة الماء، لم يشعر بموته النهائيّ. ربّما مات دون أن يدري لكنّه كان واثقًا من أنّه سوف يقوم. أمّا الآن، وأمام المحقّق القصير الذي يدور حوله، حاملاً الأوراق في يده، أو يضربه بوكسًا على معدته، أو يركله على مؤخّرته، فلقد دخل يالو في تداعيات الموت، وشعر باحتقار لنفسه التي لا تدافع عن هوائها.

عاد المحقّق إلى كرسيه خلف الطاولة، ودخل رأسه في بياض

النيون من جديد، ووجد يالو نفسه وهو يحاول ربط الكلمات التي يسمعها من فم المحقّق، من أجل أن يفهم معناها.

سمع يالو اسم ميشال سلّوم وزوجته رندة كثيرًا، واستنتج أنّ المحقّق يسأله عن الصفحات القليلة التي أضافها إلى اعترافاته. لم يفهم السؤال كي يجاوب عليه. سمع الأسماء تتشظّى بين شفتي المحقّق الرّفيعتين.

«ليش مش عم بتجاوب يا كلب؟»

«سيدنا ما بعرف.»

«ما بتعرف؟ لكن مين بيعرف؟»

«أنا كتبت يا سيدنا أنّي رح بلّش حياتي من جديد، أعطوني فرصة، والله خلص.»

قال المحقّق إنّه فهم اللّعبة، وإنّ دانيال سوف يذوق العذاب الذي سيجبره على قول الحقيقة.

«أنت يا كلب مفكّر حالك ذكي وفيك تلعب فينا، نحن أعطيناك أوراق منشان تكتب الحقيقة مش منشان تألّف قصص، وتتّهم النّاس وتخرب بيوت العالم. أنت يا عكروت بدّك تقلّلي، قول، استرجي قول إنّك نمت مع مدام رندة؟ قول من شو خايف؟»

يالو لم يقل، لكنّه أحسّ برغبة في الرّقص، فالمحقّق كان يوقّع جمله كأنّه يغنّي على موسيقى متقطّعة تخرج من حنجرته. وارتسمت ابتسامة على شفتيّ الشبح النّحيل.

«عم تضحك يا عرس»، وأشار بيده.

انتصب ثلاثة عمالقة في الغرفة، لم يكن يالو قد أحسّ بوجودهم من قبل، كان ضوء النيون الذي يتموّج باللّون الأصفر

ينتشر فوق كتلة الشعر الرماديّة التي تغطّي وجه المحقّق المستدير، نظر يالو مليًا إلى هذا الوجه فضربته قشعريرة الخوف. كأنّ هذا الوجه الذي تخرج الكلمات من شقّ في أسفله ليس وجهًا حقيقيًا. لم يسبق ليالو أن رأى وجهًا كهذا: أنف رخو يمحو الشفتين واستدارة على شكل طابة. عمله في الحرج جعله خبيرًا في الوجوه، يميّز الوجه الطيّب عن الوجه اللّئيم دون عناء: الأنف الكبير يعني الخوف والشفة الرفيعة تعني اللّؤم والوجه الممتلئ يعني الاستسلام وإلى آخره... كان يعرفهم من وجوههم، يقرأهم بالضوء قبل أن يقرّر طريقة التصرّف، هل يستخدم العنف فيقفل حاجبيه ويقرع النافذة ببوز البندقيّة، أم يكون لطيفًا، فينحّي البندقيّة ويشير برأسه، أم يكون لا مباليًا فيطرق بالبندقيّة وينظر إلى الأرض. كان يالو يعرف كلّ الوجوه، لكن هذا الوجه... في المرّات السّابقة لم يكن يرى وجه المحقّق، كان هو الفريسة والفريسة لا ترى وجه الصيّاد. أمّا في ذلك اليوم، وبعد أن كتب يالو حكايته مرّات عديدة، ضربته القشعريرة حين رأى وجه المحقّق: أنف رخو يمّحي داخل الوجه اللّحميّ المستدير، وشفتان كأنّهما خيطان مرسومان باللّون الأخضر، وعينان بيضاوان كأنّ ليس فيهما بؤبؤان وصوت يخرج من مكان غامض في هذه الطابة الملقاة فوق الطاولة.

عندما أنهى يالو كتابة قصّة حياته، كان متأكّدًا من أنّ رحلة عذابه قد انتهت. كان يريد للقصّة أن تنتهي من أجل أن يعود إلى الحياة التي تركها وراءه. اكتشف يالو، حين جلس خلف الطاولة وتفكّك بالألم الجسديّ والرّوحيّ أنّ حياته كانت غير حقيقيّة. كانت الحياة التي يكتبها تأتيه مثل قصص ممزّقة لا تكتمل، ويرى

نفسه في القصص كأنّه ليس هو، لذلك كره يالو الكتابة وكره نفسه. العمى، يغمض عينيه ويقول العمى، هذا اليالو الذي أكتب قصّته سوف يخرج من الأوراق إلى حبل الإعدام، يقف تحت المشنقة، ثمّ يتدلّى مثل شبح غير حقيقيّ. هكذا رأى نفسه، كأنّه في كابوس، وهو الآن يخرج من المنام ويقف أمام المحقّق، وسيقول إنّه كتب كلّ شيء، وإنّه لا يملك جديدًا يضيفه، ولا لزوم للتعذيب.

وقف يالو أمام المحقّق من أجل أن يقول له إنّه يريد أن يعود إنسانًا حقيقيًا، ويخرج من الغيبوبة التي أخذته إليها ذكرياته وقصّة حياته. صار ظلًّا مثل جدّه هابيل أفرام أبيض. كان الجدّ الذي حوّلته الكهولة ظلًّا لنفسه يحكي عن حياته كأنّها ليست حياته، ويالو يستمع إليه بنصف أذن. هنا في الزنزانة، اكتشف يالو أنّه لم يكن يستطيع الاستماع إليه، لأنّ الكوهنو كان يموت، ولا يستطيع الأحياء سماع الموتى إلاّ إذا ماتوا معهم. لكن شذرات صوت الجدّ عادت إليه في وحدته، وسمع في الزنزانة الانفراديّة الكلام الذي رفضت أذناه سماعه، وعاش مع الموت وصارت حكايته ظلًّا لحياته. عاش يالو في الظلال، وكره اللّون الأسود الذي يتنفّسه الحبر على الورقة وقرّر أن يعود إلى الحياة.

وقف أمام المحقّق كي يقول، لكنّ المحقّق لم يكن يشبه رجلاً حقيقيًا، يضع رأسه فوق الطاولة، ويتكلّم بصوت خفيض يكاد لا يُسمع، فشعر يالو أنّه لا يزال حبرًا على الورق، وأنّ روحه لم تعد إليه، فأغمض عينيه.

لم يصرخ به المحقّق طالبًا منه فتح عينيه، كما كان يفعل في المرّات السابقة، تركه مغمضًا. لكنّ الفتى أحسّ الرّجال الثلاثة

الطوال القامة يقفون خلفه مباشرة. رآهم بعينه الثالثة التي عادت إليه فجأة، فمنذ اعتقاله انطفأت هذه العين ولم تعد ترى. حاول في الحبس أن يجعلها ترى، كما كانت ترى في الحرج حين كان يشعر بأنّه يشبه بُرجًا طويلاً يشرف على العالم ويرى الجهات كلّها. هل صحيح أنّه كان يرى نفسه هكذا، أم جاءته الفكرة هناك في المقهى في الأشرفيّة، حين حاول أن يقنع شيرين بأن تؤمن به وبحبّه لها. هناك روى لها كيف نبتت له هذه العين الثالثة، وكيف صار يحاول النظر من خلالها بعد أن سمع الكوهنو يقول لابنته إنّ الصبيّ صار عنده عين ثالثة، وكيف صار يغمض عينيه كي يرى بهذه العين الجديدة. وشيرين تضحك، وتفتح عينيها الصغيرتين دهشة. هناك صار يالو برجًا، مع شيرين صار يملك ثلاث عيون، وصار يرى ما يحلو له. ويتصرف وكأنّه برج عال يهبط على ضحاياه ويمتلئ بالرّؤية التي تمتزج برغبته في امتلاك كلّ نساء العالم.

لكنّه هنا، أمام المحقّق، في هذه الغرفة التي يتوشّح بياض نيونها باللّون الأصفر، رأى بعينه الثالثة، ثلاثة رجال يقفون خلفه، وشمّ رائحة الضرب، وأيقن أنّه لم يخرج بعد من المصيدة، ورأى كيف انكسر ظلّه على الحائط وهو ينحني تلافيًا للضربات التي جاءته من الخلف.

«استرجي قول إنّك نمت مع المدام»، قال المحقّق.

«أنا... قلت... ما...» أجاب يالو.

كانت الضربات تنهال على الظلّ الذي رآه يالو بعيونه الثلاث، الظلّ يتلوّى من الألم، والألم يمتدّ من الحائط إلى العين الثالثة التي انطفأت عنها الرؤية فجأة.

«أنت»؟ قال المحقّق. ثمّ وقف وخرج من خلف الطاولة وتقدّم من يالو. وقف المحقّق فتوقّفت الضربات، واستمع يالو إلى المحقّق يقرأ رسالة كتبها المتّهم، طالبًا من القاضي توجيهها إلى الخواجة ميشال سلّوم.

أريد أن أوجّه هذه الكلمة إلى الخواجة ميشال المحامي. أنا أشعر بالامتنان نحو هذا الرّجل الشريف الذي أنقذ حياتي وأعادني إلى وطني لبنان، بعد العذاب الذي ذقته في فرنسا. أريد أن أعتذر منه على كلّ شيء. لقد أسأت الأمانة وعضّيت اليد التي امتدّت إليّ بالإحسان، وأكلت من لحم الإنسان الذي أطعمني وأسكنني في بيته وأعاد لي كرامتي. لم أكتفِ باستخدام الرشّاش الذي أعطاني إيّاه في أمور غير شريفة، بل استخدمت المسدّس الصغير كولت ٧,٥ملم، الذي كان يخبّئه في سيّارته في أعمال السطوّ التي ارتكبتها. المسدّس خبّأته في غرفتي تحت الڤيلّلا، وهو موجود تحت البلاطة الرابعة إلى يمين المدخل، وملفوف بالقماش وورق النايلون.

وأريد أن أطلب من الخواجة ميشال المحامي مسامحتي على أخطائي، وأنا أعرف أنّ قلبه طيّب، وسيسامحني. ولكنّني وهنا، لقد تردّدت كثيرًا قبل أن أقرّر الاعتراف، لكن ما بصير، هذا الرّجل الطيّب الآدمي يجب أن يعرف الحقيقة، هذا واجبي الأخلاقي، يجب أن أقول له الحقيقة مهما كانت

صعبة وقاسية كي يعرف، وكي أشعر أنا بأنّني ردّيت له جزءًا صغيرًا من جميله. لقد نمت مع زوجته السيّدة رندة. السيّدة أغوتني، أنا لا أقول إنّ الحقّ عليها وإنّني بريء، فأنا أيضًا مذنب، وأعتقد أنّ الشيطان أغوانا نحن الاثنين. وأطلب من الخواجة ميشال أن يسامحني ويسامحها.

أنا اعتقدت في الأوّل، أنّ الستّ رندة هي التي وشت بي، لأنّني قرّرت أن لا أكمل هذا الشيء المعيب واللّاأخلاقيّ الذي كنّا نقوم به، هي هدّدتني واحتقرتني ومنعتني من أن أتكلّم مع ابنتها غادة، وأنا كل علاقتي بغادة لم تتعدّ أنّني كنت أشتري لها الكتب. غادة فتاة جيّدة ومهذّبة، كنت أشتري لها روايات آغاتا كريستي، ولم تتجاوز علاقتي بها مناقشة الروايات البوليسيّة. أنا لا أحبّ الروايات البوليسيّة لأنّها تخيفني، وأجدها تمرينًا على تخويف القارئ، أمّا غادة فكانت ترى فيها متعة عقليّة.

أطلب من الخواجة ميشال المحامي أن يسامحني وأن ينتبه إلى حياته وإلى أخلاق هذه المرأة التي يعيش معها تحت سقف واحد. وهكذا أكون قد أرحت ضميري نهائيًا، وأنا مستعدّ لتلقّي العقاب الذي أستحقّه، وأطلب من الله أن يساعد الخواجة ميشال لأنّ مشكلته أكبر من مشكلتي.

رأى يالو الوجه الذي يقرأ وأصابه الحزن، لقد انكشفت

الحقيقة التي لم يُرِد لها أن تنكشف. لا يدري لماذا زحط قلمه وكتب هذه الأشياء. سوف يقول للمحقّق إنّه نادم أيضًا على كلّ ما كتبه، وإنّه يسحب اعترافاته، لكنّه ليس مستعدًّا لكتابة كلّ شيء من جديد. فهو لا يستطيع. الڤيلّلا الجميلة المؤلّفة من طابقين لا بدّ وأنها صارت جحيمًا الآن، أمّا الدرج الذي يصل بين الصالونات في الطابق الأرضيّ وغرف النّوم في الطابق الثاني فلا بدّ وأنّه تحطّم على وقع أقدام الخواجة ميشال الذي اكتشف أنّ كلّ حياته كانت خدعة.

«مين مفكّر حالك يا خرا، أوّلاً تأكّدنا من وجود المسدّس، والأستاذ ميشال أبرز رخصة المسدّس، وهيك زمط من الورطة يلّلي كان بدّك توقّعه فيها، وبعدين بتعرف شو عمل الأستاذ ميشال لمّن قري هالحكي السّخيف عن الست رندة، فقع من الضحك، وقال يا حرام أنا كنت عارف أنّ هالولد مش طبيعي، بس الحقّ عليّي لأنّي شفقت عليه، شوفوا آخر المعروف، وصار يضحك، ضحك وصرنا كلّنا نضحك، وبعدين صرخ آخ، ووقع على الأرض، وصار أحمر، حملناه على المستشفى، وما عدنا نفهم عليه شو عم بقول، وصار يحمرّ ويحمرّ، وبعدين صرخ آخ، وبالمستشفى اكتشفوا أنّه عمل ذبحة قلبيّة، بس الله نجّاه من إجرامك، وعمل قلب مفتوح، وهلّق بلّش يتحسّن والحمد لله، بس رفض يدّعي عليك، وقال إنّه ما بقى يقدر يسمع اسمك، واترجّانا نسكّر الملف المتعلّق فيه بالتحقيق.»

«عجبك يا كلب!»

...

«جاوب.»

سمع يالو أنينًا يخرج من ظلّه الملقى إلى جانب الحائط، ثمّ بدأ المحقّق يقرأ نصوصًا مأخوذة من تحقيق جرى مع رجال أبلغوا عن جرائم ارتكبها يالو في الحرج، بعد أن نُشر خبر القبض على المتّهم في الصحف، يسمع المحقّق يقول إنّه يريد منه إعادة الكتابة، ووضع التفاصيل التي اعترف بها هؤلاء الرّجال، وأن يكتب عن شبكة المتفجّرات بتفاصيل التفاصيل.

«اسمع يا كلب كيف لازم تكتب»، وأمسك المحقّق أوراقًا وبدأ يقرأ:

«اسمي جورج بن أسعد غطّاس، والدتي أنجيل، مواليد ١٩٦١، ببلّونة وسكّانها ملك والدي، رقم السجلّ ٢٠ بلّونة ـ كسروان، أفيدكم أنّه بتاريخ ١٦/٥/٩١، وحوالي العاشرة والنصف مساء، وأثناء انتقالي من محلّة يسوع الملك، باتّجاه بلّونة بسيّارتي، وهي من نوع مارسيدس طراز ٢٢٠، لون أسود، تحمل الرّقم: ١٧١٣٦٢٠، وبوصولي إلى جعيتا شاهدت فتاة أجهلها واقفة على رصيف الطريق، بانتظار سيّارة، فتوقّفت إلى جانبها، حيث صعدت معي في السيّارة، وتبيّن لي أنّها تدعى جورجيت، أجهل كامل هويّتها ومكان إقامتها. وبعد تجاذب الأحاديث أوقفت سيّارتي في محلّة بلّونة بالقرب من كنيسة الرّوم وأخذنا نتساير داخل السيّارة. وبعد حوالي خمس دقائق من توقّفي في المحلّة التي ذكرت، وإذ بشخص أجهله تقدّم منّي وطرق زجاج السيّارة التي بجانبي، شاهرًا رشّاشًا حربيًّا من نوع كلاشينكوف في وجهي، حيث أمرني بإعطائه ما لديّ من أموال ومصاغ. على الفور وخوفًا من أن يتصرّف ضدّي بأيّ أذىً أعطيته مبلغ مئة وثمانين دولارًا أميركيًّا، وثلاثون ألف ليرة لبنانيّة

كانت بحوزتي، كما أخذ من الفتاة التي كانت برفقتي زوج حلق من الذهب المرصّع بالماس. وأخذ يهدّد ويشتم. كما أقدم على سلب ساعة الفتاة، وعندما تأكّد من أنّ هذه الساعة ليست ذات قيمة، رماها من السيّارة وأخذ يهدّدني بالقتل وأمرني أن أصعد إلى صندوق السيّارة، فما كان منّي إلاّ أن رفضت ذلك، وحصل بعض الجدل بيني وبين هذا الشخص المسلّح، كما أقدم على التحرّش بالفتاة التي كانت برفقتي طالبًا منها التعرّي، ولمّا رفضت وضع فوهة الرشّاش على بطني وقال إنّه سيقتلني إذا لم تتعرَّ الفتاة، فما كان منها إلاّ أن بدأت تصرخ بأنّها لا تعرفني ولا تعرف أحدًا. فجرّني من السيّارة إلى الخارج ولبطني على خصيتي، فسقطت أرضًا من الألم، ورأيت الفتاة تتعرّى، ثمّ غاب كلّ شيء عن نظري لأنّي فقدت الوعي. وعندما استيقظت كان رأسي يؤلمني كثيرًا. رأيت السيّارة فارغة والفتاة ليست فيها والمسلّح لم يكن هناك، فقدت سيّارتي وعدت إلى البيت حيث أخذت حبّتي إسبرين ونمت. وأنا في حال مشاهدتي لهذا الشّخص ثانية أستطيع التعرّف إليه. كما أفيدكم أنّه طويل القامة، نحيف البنية، عمره حوالي الثلاثين سنة، كما كان يرتدي معطفًا طويلاً أسود. وبعد أن عرضتم عليّ صور المدعو دانيال هابيل أبيض أؤكّد لكم أنّه نفس الشخص الذي أقدم على سلبي.»

«عم تفهم كيف لازم تكتب.»

...

«اسمع يا كلب، عندي هون كلّ قصص يللي اعتديت عليهم واغتصبتهم وسرقتهم، بس القصص فيها فراغات، بدّي يّاك تعبّي الفراغات. يعني تكتب شو صار لمّن الزلمي أغمي عليه،

فهمت؟»

قال يالو، حاول أن يقول إنّه لم يعد قادرًا على الكتابة. قال إنّه لا يعرف أن يعبئ الفراغات، قال إنّه اعترف بكلّ شيء، قال إنّه لا يعرف.

«وبعدين»، صرخ المحقّق، «بعدين ما تنسى شبكة المتفجّرات، وإيّاك تفتري على نسوان العالم، فهمت.»

«فهمت»، قال يالو.

«وهلّق عبّيلي الفراغات»، قال المحقّق.

«أيّ فراغات يا سيدنا؟»

«عن جورجيت، لبطت الزلمي وبعدين شو صار؟»

«ما لبطت حدن يا سيدنا.»

«بلّش يكذب، انتبه نحن منعرف كلّ شي.»

«ما دامك بتعرف ليش بدّك ياني أكتب، أعطيني يا سيدنا، أعطيني وأنا بمضيلك على بياض، بس خلص، دخيلكم خلص.»

رأى يالو ثلاثة رجال يتقدّمون من الشّبح الطويل الذي حاول أن يحمي رأسه بيديه. ثمّ رأى كيف ارتفع الشبح إلى أعلى. ارتفع ولم يشعر بالألم، صار يالو فوق الألم. صار أعلى وأعلى. ورأى العالم مثل دائرة، ورأى روحه تتدوّر في داخله، وأحسّ بشيء يطعنه في قلبه طعنة واحدة ويستقرّ هناك، حيث صار كلّ شيء أنينًا مكتومًا وبكاء مكتومًا وصراخًا مكتومًا، ووجعًا يدخل في ثنايا العظم وقشور الأعصاب.

أمرهم المحقّق بإجلاسه على القنّينة. سمع الشّبح الطويل الأمر لكنّه لم يفهم معناه. رأى المحقّق يحمل في يده قنّينة

كولا، فتحها، ثمّ وضع إبهامه في فوهتها وأخرجه مصدرًا صوتًا يشبه قنّينة تُفتح من جديد. وضع المحقّق بوز القنّينة في فمه وشرب قليلاً، ثمّ وضعها على الطاولة أمامه باشمئزاز، وقال إنّه لا يحبّ الكولا إلاّ إذا كانت مثلّجة.

«وأنتِ كيف بتحبّها؟»

...

اقترب منه المحقّق وأمره بالوقوف. تهدّى يالو بالحائط، فزحطت يده على الحائط، وسقط من جديد.

«ساعدوه حتّى يوقف»، قال المحقّق.

أوقفوه، فوقف وإلى جانبه رجلان يمسكان به من تحت إبطيه.

«قرّب لعندي»، قال المحقّق.

تقدّم الرّجلان بيالو شبه المحمول من تحت إبطيه.

«سألتك كيف بتحبّ الكولا، جاوب.»

«أنا!» قال يالو.

«أنتِ، ليش مفكّرني مع مين عم بحكي؟»

«بحبّها كتير»، قال يالو.

«بعرف أنّك بتحبّها، بس كيف يعني، مصقّعة أو سخنة؟»

«عادي»، قال يالو.

«طيّب خلّلوه يوقف وحده.»

تركه الرّجلان، فشعر يالو بألم ظهره وكتفيه يسقط إلى بطّتي رجليه وقال «آخ»، قبل أن يسند خاصرته ويجد توازن وقفته.

أعطاه المحقّق القنّينة، وطلب منه أن يشرب.

«أنا؟» سأل يالو.

«بدّي يّاك تشرب كلّ القنّينة حتّى ما تعطش.»

شرب يالو، وكان السّائل البنيّ الذي يميل إلى الاحمرار، ينحدر من البلعوم إلى الجهاز الهضميّ محدثًا تقلّصات متتابعة. توقّف يالو عن الشرب لأنّه شعر بحاجة إلى أن يتدشّأ. فصرخ به المحقّق أن يرفع القنّينة من جديد ويشربها دفعة واحدة. أحسّ بالرّجلين قربه. أمسكه الأوّل من كتفيه بينما حمل الثاني القنّينة ودلقها دفعة واحدة في فمه. شعر يالو بالاختناق والقيء، لكنّه رأى نفسه وقد أصبح عاريًا من الأسفل، والرّجلان يأمرانه بالجلوس. لم يرَ القنّينة الفارغة التي وضعت على دكّة خشبيّة مرتفعة يسمّونها العرش. أمسك الأوّل بالقنّينة، بينما أجلسه الرّجلان عليها، وانتابته تقلّصات ما لبثت أن انمحت لأنّ صرخة خرجت من حنجرته وفمه دون أن يشعر. صرخة واحدة وصار يالو على العرش. زجاج يشبه الشظايا خرج من رأس القنّينة واختلط بدمه، وبدأ يرتفع إلى أعلى، ولم يسمع سوى أصوات تأتي من أمكنة بعيدة.

عندما استفاق يالو في زنزانته الانفراديّة، كان كتلة من الأوجاع. يذكر أنّ طبيبًا زاره وأعطاه مرهمًا أسود، يذكر أنّ الطبيب قال إنّ هذه المنطقة من الجسد مؤلمة كثيرًا، لأنّ كتلة كبيرة من الأعصاب تلتقي فيها، وأوصاه بغسل الجرح.

عاش يالو مع عذابه طويلاً. كانت مواعيد الذهاب إلى المرحاض هي الأكثر ألمًا، لأنّ الإمساك الذي شعر به بعد الأيّام الأولى من نزوله عن العرش، ما لبث أن تحوّل إسهالاً، وصارت أيّامه من وجع، لا يستطيع الجلوس على قفاه، أو النوم حتّى على بطنه. ارتفع يالو فوق عمود من النّور اخترقه من أسفله،

وعلا به، فوجد نفسه خارج السّجن، يكتب حين يكتب، لا كما طلب منه المحقّق، بل كما رأى هناك بعيونه الثلاث التي أعطته شعورًا بأنّه يرى من أعلى مكان في العالم.

أريد أن أكتب قصّة حياتي من أوّلها إلى آخرها.

حياتي خلص. الآن فهمت يا سيّدي أنّني كنت لا أستطيع أن أكتب لأنّني تعلّقت بحبال الأمل. كان عندي قناعة بأنّه ممكن. يعني ممكن يتغيّر شي، يمكن شيرين أو الخواجة ميشال أو الستّ رندة. يمكن حدن منهم يشفق عليّي ويساعدني حتّى أخلص من هالعلقة.

الآن خلص. الأمل خلص، وصار على دانيال جورج جلعو أو يالو هابيل أبيض، أن يكتب حكايته من أوّلها إلى آخرها.

يالو على العرش، كأنّه منارة، وعيونه الثلاث أضواء تمتدّ إلى آخر القصّة. يجلس على العمود، مثل القدّيس سمعان العمودي الذي جلس على عموده منذ ألف سنة في مدينة حلب، مدينة والدي جورج جلعو التي لم أرها إلاّ من خلال عيني المعلّم سليم رزق المغمضتين.

نعم يا سيّدي، أرى يالو هناك وأحسده، يعني أحسد نفسي، لأنّ نفسي عرفت كيف تصل إلى أرواح الموتى وتحكي معهم، وتكتشف أنّه باطل الأباطيل كلّ شيء باطل. الإنسان يعيش في الأباطيل ويصدّق الأباطيل، ويجعل من حياته أبطولة تضاف إلى الأباطيل.

وأنا الآن أكتب عن يالو الذي رفعتموه إلى أعلى قنّينة

وأسميتموها العرش. يالو على العرش، كأنّه ملك الموتى. نعم يا سيّدي، أراه ميتًا، والميت لا يكتب لأنّه يموت.

عندما طلبتم منه كتابة قصّة حياته كنتم مخطئين. لا يستطيع يالو أن يكتب لأنّه صار في مكان آخر، حيث لا يكتبون، لأنّهم ليسوا في حاجة إلى الكتابة. أنا دانيال أكتب، وسأكتب كلّ ما تريدونه عنه وعنّي وعن جميع النّاس. أمّا يالو فلا. أريد أن أكون صريحًا معكم وأقول إنّ يالو تركني وذهب إلى البعيد. أنا جسد وهو روح. أنا أتألّم وهو يطير. أنا نزلت عن القنّينة، أمّا هو فيجلس على العرش.

أراه أمامي، أقترب منه وأسأله لكنّه لا يجاوب. قال إنّ كلماته لم تعد تفهم كلماته، يخلط العربيّة بالسريانيّة بلغات لا أعرفها. فكيف أفهم عليه؟

أكتب باللّغة العربيّة، ليس فقط لأنّكم طلبتم منّي ذلك، بل لأنّني ابن عرب. فحتّى إن لم يكن والدي هو جورج جلعو الحلبيّ، فسيكون الياس الشامي الدمشقيّ. لا وجود لاحتمال ثالث. أنا أرجّح الاحتمال الثاني، رغم أنّ المسألة لا أهمّيّة لها بالنّسبة لي. أمّي كانت تخفي عنّي السرّ. قالت عدّة مرّات إنّها ستخبرني شيئًا لكنّها تخاف عليّ من الصدمة. وفي كلّ مرّة تبدأ في الحكاية تتوقّف عند اختفاء زوجها أو هجرته، وعندما أسألها عن السرّ تتثاءب. لا أعرف امرأة تتثاءب هكذا، تخفي السرّ في فمها المفتوح الذي تخبّئه في راحة كفّها، ثمّ تمشي منحنية في البيت كأنّها تبحث عن شيء أضاعته.

أنا أعرف أنّ أمّي المسكينة لم تعد قادرة على رؤية صورتها في المرآة، لأنّها أرادت أن تمحو سرّها. تعتقد أنّ حياتها ذهبت

هدرًا لأنّ الخواجة الياس لم يعرض عليها الزواج. لكن عندما سألتها، قالت إنّها لم تكن تريده. قالت إنّها تمنّت أن يطلبها للزواج من أجل أن ترفضه، لكنّه لم يطلبها. غريب أمر غابي، هل يمكن أن تكون حسرة حياتها أنّها لم تعط فرصة للرّفض؟

يالو لم يهتمّ بأمّه ومشاكلها لأنّه كان مأخوذًا بفكرة مغادرة لبنان. ويجب أن نفهمه، أنّه ضحيّة يا سيّدي، والضحيّة تصبح أشرس من الجلّاد حين تتاح لها الفرصة. الحرب كانت فرصة يالو. أنا معكم، يجب أن نكره الحرب الأهليّة والفوضى، لكن تخيّلوا معي وضع هذا الفتى الذي كان والده جدّه، وشقيقته أمّه، تخيّلوا معي ماذا تستطيع الحرب أن تفعل به. الحرب كانت فرصته لكنّه ضيّعها، وبدل أن يزبّط حاله مثل الكثيرين، ترك كلّ شيء في أرضه وهاجر إلى فرنسا.

أنا لا أوافق أنّ مأساة الأمّ كانت بسبب الياس الشامي، الياس كان نتيجة، أمّا السبب فيجب أن نبحث عنه عند الكوهنو أفرام. عاشت غابي معه بعد وفاة زوجته، وكانت ابنته وزوجته وأمّه. رجل موسوس ومهووس بفكرة الموت. كانت غابي تعرف السريانيّة، لكنّها تفضّل أن تحكي بالعربيّة. قالت لي إنّ السريانيّة تشبه وردة مضمومة تفتحت فصارت اللّغة العربيّة. كانت تضمّ أصابعها الخمسة في قبضتها ثمّ تفتحها وهي تقول لابنها الوحيد أن لا يبكي عندما كان جدّه يضربه لأنّه لا يحفظ الكلمات السريانيّة.

عندما التقى يالو شيرين في الجبل أحبّها. أنا أفضّل أن أقول إنّه التقى بها، ولا أحبّ استخدام كلمة الاغتصاب التي فرضتموها على الفتى المسكين. يالو لم يغتصب شيرين، لأنّ

الإنسان لا يستطيع أن يحبّ امرأة اغتصبها. الاغتصاب يا سيّدي عمل شنيع. اسألوني لأنّني أعرف. يالو يعرف معنى الاغتصاب لأنّه مارسه. مارسته وندمت، ولكن ليس مع شيرين. شيرين أحببتها لأنّها أعادت ترتيب روحي وجسدي.

لم تصدّق غابي ابنها حين أبلغها بأنّه قرّر ترك الدراسة نهائيًا. كانت تعتقد أنّها مجرّد نزوة. لكنّ الفتى ضرب قدمه بالأرض بعد تسعة أشهر على وفاة جدّه، وقال خلص.

عاشت الأمّ كالتائهة في بيتها الجديد، بعدما أجبرتها الحرب على الانتقال من بيروت الغربيّة إلى بيروت الشرقيّة. هناك، في ضاحية بيروت الشرقيّة، قرّر يالو الالتحاق بالحرب، ولم يعد يأتي إلى البيت إلاّ برائحة الدّم. أمّا غابي فعاشت وحيدة. برمت على بيوت حيّها الجديد من أجل أن تستعيد مهنتها كخيّاطة، بينما اختفى الياس الشامي من الوجود. لم تبحث عنه، لكنّها سألت فقيل لها إنّه اشترى بيتًا في بلّونة مع مجموعة من سكّان الحيّ البيروتيّ القديم، الذين هجروا بيروت.

حكاية يالو يا سيّدي، اسمها الحرب.

كيف أصف لك ماذا جرى ليالو بعدما عرض عليه الخواجة ميشال سلّوم في باريس، العودة إلى لبنان والعمل حارسًا في الڤيلّلا في بلّونة. يومها رأى يالو القرية مثل كلمة مكتوبة فوق جبين الخيّاط الكهل. رأى شبح الياس الشامي الذي احتل طفولته برائحة أسنانه الاصطناعيّة التي تشبه رائحة نعناع متعفّن، وخاف. أراد يالو أن يرفض عرض الخواجة ميشال، لكنّه لم يكن يملك خيارًا آخر.

لكنّ الحقيقة التي لا يعرفها سوى الله سبحانه وتعالى، الحقيقة

يالو لا يفهم لماذا عذّبوه كلّ هذا العذاب، ولماذا لا يزال ينتظره فصل من العذاب لم يخطر له على بال. هل هذا بسبب شيرين وسيّارات اللّيل في بلّونة؟ لماذا لا يحاكمون كلّ الشّعب اللّبنانيّ. يالو مقتنع أنّ كلّ الشّعب اللّبنانيّ يمارس الحبّ في السيّارات. لماذا هو وحده؟ لماذا لا يُحاكم العشّاق الآخرون، هل لأنّه سرق؟ ومن لا يسرق؟ جدّه قال له إنّهم جميعهم يسرقون، وإنّ أحد القدّيسين كتب أنّ جميع الأغنياء لصوص، إذ لا يمكن أن يغتني الإنسان إلاّ إذا سرق الآخرين، «اتطلّع يا ابني»، قال الكوهنو «اتطلّع منيح كلّ واحد حاطط إيده بجيبة التاني، اتطلّع منيح يا ابني، لازم تشوف خلف الأشيا، ما بيقدر الإنسان يشوف خلف الأشيا إلاّ إذا كانت معه نعمة الإنجيل، اتطلّع وتعلّم تستقبل النّعمة وساعتها بتشوف، ولمّن بتشوف بتكتشف أنّ اللّعنة الكبرى على الإنسان هي الإيد. الخطيّة موجودة بالإيد، لمّن الواحد بحطّ إيدو بجيبة جاره والجار بجيبة واحد تاني، وهكذا دواليك، ساعتها بصير في مجتمع. منشان هيك الآباء القدّيسين اعتزلوا النّاس.»

«وأنت يا جدّي ليش ما اعتزلت؟»

«لأنّي مش قدّيس، أنا رجّال خاطي، أنا حتّى ما بعرف، حياتي راحت بلا معنى.»

يضحك يالو حين يرى أمامه يد جدّه المرتجفة بالخوف من الله. فيالو كان يعلم أنّ المسألة مختلفة، فالاكتشاف الذي توصّل إليه يالو في بلّونة، كان أكبر من كلّ تجاربه في الحزب. الحرب علّمته الموت، لكن بلّونة علّمته أنّ كلّ شيء موت أو يشبه الموت. وأنّ المسألة هي أنّ اليد امتداد للعضو الجنسيّ، وهذا

ما تعلّمه مع رندة، ثمّ اكتشف العتمة في الحرج، حيث تمحى الفروق بين أعضاء جسد الإنسان، عشّاق السيّارات علّموه أن الإنسان يستطيع أن يصير مثل السردين المغطّى بزيت الجنس. السيّارات مثل علب السّردين، والنّاس أسماك مطعوجة تسبح في الزيت. أعجبته هذه الفكرة وقرّر إضافتها إلى الفكرة الأولى عن الكتابة. أخذ ورقة بيضاء وكتب، وكانت هذه هي المرّة الأولى التي يكتب فيها خارج ضرورات التحقيق.

كتب أوّلاً أنّ الإنسان لا يستطيع أن يكتب حياته، وعليه أن يختار بين أن يعيش أو يكتب. ويالو اختار أن يعيش، لذلك فهو يكتب من أجل ضرورات التحقيق. لكنّه لا يريد أن ينتهي كما انتهى جرجي زيدان منقّبًا في حيوات النّاس، بل يفضّل أن ينقّب الكتّاب في حياته، هذا إذا أرادوا كتابة قصّة حبّ لا تشبه أيّة قصّة حبّ أخرى.

وكتب ثانيًا أنّ جميع النّاس يضعون رغباتهم في جميع النّاس، وأنّ تجربته علّمته وهو يرى عشّاق بلّونة، أنّ أغلبيّة العشّاق يمارسون الخيانة أو يقبلون بها. وأنّه حتّى هو، حتّى في عزّ عشقه لشيرين كان يخونها حين تسنح له الفرصة، لأنّ «نكهة الخيانة هي أحلى نكهة»، وهذه الفكرة سرقها من مدام رندة، التي قالت له في إحدى ترنداداتها معه، إنّ الخيانة هي أجمل شيء، وإنّها بدأت تخاف أن تتعوّد عليه ولا تعود تشعر معه بالخيانة.

وكتب ثالثًا أنّ جميع الأفكار مسروقة، وأنّ الناس تقضي وقتها في سرقة أفكار بعضها.

فرح يالو عندما كتب هذه الأفكار الثلاث، على شكل ثلاث

جمل متتالية:

١ ـ لا أحد يستطيع أن يكتب الحياة.

٢ ـ الرّغبات في الرّغبات.

٣ ـ جميع الأفكار مسروقة.

وشعر براحة غريبة، وقرّر إعادة النظر في قصّة حياته. سوف يكتبها بشكل مختصر وواضح، وسوف يقدّم إلى المحقّق غدًا نصّين: نصّ أوّل تفصيلي، ونصّ مختصر يعبّر ببلاغة عن حياته.

جلس خلف الطاولة الخضراء، نفخ قلمه كأنّه يدخّن سيجارة، وبدأ.

سيّدي القاضي المحترم.

أريد أن أضيف هذه الصفحات إلى قصّة حياتي، التي طلبتم منّي كتابتها، والتي تجدونها في الملفّ الخاصّ بالمتّهم دانيال هابيل أبيض، الملقّب بيالو.

أريد يا سيّدي أن أطلب العفو. فخلال شهرين قضيتهما في الحبس الانفراديّ وليس معي سوى الأوراق البيضاء والكتاب المقدّس، اكتشفت أنّني لست يالو المجرم.

لا، لا، أنا لا أدّعي الجنون كما يفعل المجرمون من أجل التخلّص من حبل المشنقة. لا يا سيّدي أنا لم أعد ذلك اليالو. اكتشفت وأنا أكتب قصّة حياتي، أنّني لم أعد هو. فالأيّام التي قضيتها في التحقيق، وقراءتي الدائمة للكتاب المقدّس، جعلتني أكتشف أنّني ولدت من جديد. وأنا يا سيّدي أرجع في هذا إلى الإنجيل الشريف وإلى كلّ الكتب المقدّسة. فحين يقولون في البدء كان الكلمة، فهذا يعني أنّ الكلمة كانت الشيء الأوّل. وأنا عندما كتبت قصّة حياتي اكتشفت الكلمة التي أعادت خلقي من جديد. لا أعرف كيف أشرح ذلك بالعربيّ الفصيح، بس يعني

كأنّي ما بعرف، عندما رأيت حياتي من أوّلها إلى آخرها، اقتنعت أنّني صرت إنسانًا جديدًا. كما اقتنعت أنّ يالو العتيق لم يكن واعيًا للأمور التي يقوم بها. يعني هو لم يصنع حياته كما يشاء، كأنّه كان منوّمًا بشكل مغناطيسيّ، وليس من العدل أن يدفع الإنسان ثمن أعمال لم يكن هو من اختار القيام بها. يالو الشبح الطويل الذي يلبس كبّوتًا أسود، وينزل على سيّارات العشّاق، يالو الذي كان يحارب ويقتل وهو يضحك، لم يعد موجودًا.

أؤكّد لك يا سيّدي القاضي أنّني صرت إنسانًا آخر. أعرف قصّتي لأنّني كتبتها، وسوف أكتبها من جديد إذا أردتم، لكنّني أشعر، وأنا في السّجن أنّه لم يعد لي أيّ علاقة بالماضي. لم أتعلّم من الماضي سوى الحبّ. نعم يا سيّدي، لقد بدأ يالو حياته عندما اكتشف الحبّ، لكن هذا الحبّ كان أيضًا سبب موته. يعني يالو وقع عندما وقف، وتشرشح عندما أصبح بني آدم. نعم يا سيّدي، لقد أساء التصرّف مع شيرين ولاحقها، لكنه اكتشف الحبّ. البني آدم يا سيّدي هو الرّجل الذي يحبّ، هكذا علّمني جدّي الكوهنو رحمه الله، لكنّ جدّي هو السبب في ضياعنا، منع أمّي المسكينة من أن تبقى مع الرّجل الذي أحبّته، لأنّه كان متزوّجًا وجبانًا، ولم يجرؤ أن يطلّق زوجته. هل يجب أن تنحرم أمّي من الحبّ لأنّ حبيبها جبان؟! أمّي انحرمت من الحبّ، والمرأة

المحرومة لا تستطيع أن تعطي. أعتقد أنّ هذا هو السبب العميق للخربطة التي عشت فيها.
أنا يا سيّدي هربت من الحرب، ولم أهرب من أجل سرقة مال ثكنة جورج عرموني. على كلّ حال، فلقد تبهدلت في باريس، لأنّ طوني صديقي سرق المال وتركني وحيدًا.
هربت من الحرب لأنّي لم أعد أفهم. لا لم أكن جبانًا، ولا مرّة جوبنت، حتّى عندما كنت أخاف، كنت أضبط نفسي وأدّعي أنّني لا أخاف. أليست هذه هي الشجاعة؟ إذن كنت شجاعًا، وتركت الحرب لأنّني زهقت منها. كنت في البداية مثل جميع الشباب، أريد أن أدافع عن لبنان، وبعد ذلك اكتشفت أنّني أحارب فقراء مثلي وأنّني سوف أبقى غريبًا مهما فعلت. لأنّ الإنسان غريب في هذا العالم. جدّي كان يقول إنّه غريب لأنّه إنسان. عندما اكتشفت أنّني إنسان هربت إلى باريس، وتبهدلت، وأنقذني الخواجة ميشال سلّوم، الذي أعطاني وظيفة حارس في ڤيلّلا غاردينيا في بلّونة.
كلّ الذي كتبته عن قصّة حياتي صحيح، لكن هناك مسألة أريد توضيحها، وأنا لا أقصد من هذا التوضيح الإساءة إلى أحد، أعوذ بالله، أنا الآن طاهر وأبيض مثل هذه الورقة البيضاء التي أكتب عليها قصّة حياتي.
أريد فقط أن يكون ضميري مرتاحًا وأن أنهي حياتي السابقة بالاعتراف عن كلّ شيء، وهذا لن يسيئ إلى

الخواجة ميشال، على كلّ أنا أكنّ لهذا الرّجل احترامًا كبيرًا، لكنّ الحقيقة يجب أن تقال.
أريد أن أعترف عن شيء حاولت كلّ فترة تعذيبي وحبسي أن لا أعترف به، خوفًا على سمعة الناس. لكنّي اكتشفت أنّ الاعتراف هو وسيلتي الوحيدة من أجل أن أصير إنسانًا جديدًا وأبدأ حياتي، وأنا واثق من أنكم ستأخذون بعين الاعتبار ظروفي وستصدرون عنّي عفوًا، لأنّه من غير المعقول أن يكون قانون العفو قد شمل كلّ مجرمي الحرب، بينما أقضي أنا حياتي في الحبس لأنّي نمت مع امرأة أو مع عدّة نساء.
عندما عدت يا سيّدي من فرنسا واشتغلت في الڤيلّلا كنت يائسًا من الحياة. كنت أرى كلّ شيء أسود قدّامي. ولم أعد أستطيع أن أرى الألوان. والآن أشعر بالنّدم على تلك الأيّام. كنت أعيش في ڤيلّلا وسط غابة صنوبر خضراء، ولم أكن أرى ألوان الطبيعة. هل يوجد أحد لا يرى الطبيعة؟
يالو لم يكن يرى الألوان، كان يقضي وقته مغمض العينين، نعم يا سيّدي كنت مغمّض عينيّ منشان ضلّني بقلب اللّون الأسود. الأسود صار حياتي، وفقدت إحساسي بالحياة. والله كنت كأنّني في منام طويل. ثمّ دخلت امرأة في حياتي، امرأة محترمة لا أكنّ لها سوى التقدير. هذه المرأة التي عشت في بيتها، وكنت حارسها، رأتني فقيرًا ووحيدًا وعطفت عليّ ثمّ علّمتني أن أحبّ جسمي. لولاها لما تفتّحت

مسامي التي كانت مغلقة وسوداء. أوّل مرّة تكلّمت معي قالت لي ليش لون وجهك كحلي؟ أنا حنطي وأميل إلى الاسمرار، ولم أكن أعرف أنّ لوني صار كحليًا غامقًا. عندما رجعت إلى بيتي في أسفل الڤيلّلا، نظرت في المرآة، واكتشفت أنّ لوني صار أسود مثل لون الأشياء التي أراها. هذه المرأة أعادت لي لوني، وإحساسي بالحياة. الجنس والحبّ الذي ذقته من مدام رندة سلّوم، أكثر من الحبّ الذي ذاقه كلّ الرّجال في العالم. أعادني حبّها إلى الحياة، لكنّه فتح في قلبي بئرًا لا يملؤه شيء. وصرت لمّن أوقف بالجنينة وشمّ ريحة الصنوبر حسّ بالتهيّج، نعم يا سيّدي، صرت جزءًا من الطبيعة، والطبيعة لا تعرف الحدود بين الأشياء. وهذا ما قادني إلى السيّارات ومشاكلها. فجأة حسّيت حالي وكأنّي عايش بحلم، فوق بتعلّمني الست فنون الحبّ، وبالحرش بحسّ السيّارات كأنّها حيوانات عم بتنام مع بعضها كلّ الوقت. وصارت رائحة الجنس في كلّ مكان.

كنت أسكن في ڤيلّلا غاردينيا لصاحبها ميشال سلّوم القريبة من كنيسة مار نقولا. وأنا لم أذهب إلى القدّاس إلاّ مرّة واحدة لأنّني اشتقت إلى الأيقونات ورائحة البخّور. وصارت بلّونة مثل مثلّث: الڤيلّلا والحرج والكنيسة.

لقد أخطأ يالو لأنّه سرق، لكن هدفه لم يكن السرقة، سرق عن طريق الصدفة، سرق لأنّهم سرّقوه. يعني

لمَن كان ينزل حتّى يتفرّج عن قريب، سقط في فخّ المال وإغراء المجوهرات، وهذا لا يجوز يا سيّدي، ليس فقط لأنّ السرقة حرام، ولكن أيضًا لأنّ المال يشوّه الأشياء ويفرط اللذّات.

أمّا في خصوص الاغتصاب، فالصحيح أنّني اغتصبت، لكنّي لم أكن أعرف أنّ هذا يُسمّى اغتصابًا. كنت أعتقد أنّ الجنس هكذا، تأتي إلى المرأة ولا لزوم للشرح، وكان هذا حماقة.

يالو كان أحمق، لأنّه اكتشف بعد ذلك، عندما أصيب بمرض العشق، أنّ هذا الجنس لا معنى له. ولكن مع ذلك، حتّى الحبّ لم يمنعه من ممارسة هذا الجنس لأنّ الإنسان خاطئ بطبيعته.

احترت يا سيّدي في أمري. يالو كان عاشقًا لشيرين ولا يفكّر إلاّ فيها، ومع ذلك كان لا يتوقّف عن الهبوط إلى العشّاق وممارسة الجنس مع النّساء حين تسمح له الظروف بذلك. ربّما المكان، المكان يا سيّدي، الحرج مليء بالشياطين التي تحوم حول رائحة صمغ الصنوبر والأعشاب البرّيّة. لا أعرف، أنا لم أعش في الجبل، جدّي عاش في قرية كان يقول عنها إنّها تشبه الجنّة، أمّا أنا فلم أعش إلاّ في المدينة، بين حيّ السريان في المصيطبة ومنطقة المراية في عين الرمّانة. كان في بيتنا الأوّل حديقة مليئة بالأشجار، وخصوصًا شجر الفتنة الذي لا يحمل سوى زهور بيض وصفر ولها رائحة جميلة. لكن روائح حديقة

بيتنا لا علاقة لها بروائح حرج بلّونة. وحده الصنوبر يا سيّدي، حين تختلط رائحة الصنوبر برائحة الشربين، يصبح المكان غريبًا وتثور الشهوة.

أمّا شيرين فأنا متأكّد من أنها أحبّتني. مشكلتي أنّني لم أفهم حبّها، ولم أعرف كيف أتعامل معه. الفتاة كانت تمرّ في أزمة نفسيّة بعد أن تركها خطيبها وأحبّت الطبيب الذي أجهضها. علاقة يالو بها كانت ستنجح لو أظهر يالو شخصيّته الحقيقيّة، لكنّه لعب معها لعبة التخويف، وكان مستقتلاً عليها ويحلم بالزواج منها.

وفي الحبّ حين تستقتل يفرط كلّ شيء، وهذا ما حصل. شيرين خافت ومعها حقّ. حين يريد الإنسان الشيء كثيرًا، يهرب هذا الشيء منه. وهذا ما حصل للمدام معي، لأنّني صرت أشعر أنّني أداة في يديها من أجل ذلك الشيء، وأنّها لم تعد تستطيع الاستغناء عنّي، فهربت. وشيرين حصل معها الشيء نفسه. لكنّها أحبت يالو. أستطيع أن أؤكّد لك يا سيّدي أنها أحبّتني. كانت عندما نلتقي ترتجف بالحبّ، الآن صرت أراها، في الماضي كنت أعتقد أنّها ترتجف لأنّها خائفة، فأزيد في تخويفها، لكنّني أعرف الآن أنّها كنت تحبّني وتغار من بلّونة، وبدل أن أخبرها أنّني فنّان وخطّاط ومتعلّم أي أنّني مثقّف، صرت أخبرها عن جرائم ارتكبتها ولم أرتكبها، ممّا جعلني أسقط من عينيها، فصارت تريد أن تتخلّص منّي بأيّة طريقة.

أنا متأكّد يا سيّدي أنّها تتعذّب الآن، لقد ارتكبت أنا وشيرين خطأً كبيرًا في حقّ الحبّ وأريدها أن تعرف أنّني مستعدّ لإصلاح الخطأ، أنا مستعدّ أن أفتح معها صفحة جديدة بيضاء، وإذا أرادت الزواج فلا مانع.
أريد لشيرين أن تعرف أنّني مستعدّ أن أتزوّجها ساعة تشاء، وهي تعرف أنّني أقول هذا الكلام، لأنّني أحبّها.
أنا لم أنم معها في بلّونة فقط، حين كمشتها في السيّارة مع ذلك الطبيب التافه، ولم يكن معها خطيبها كما ادّعت، لكنّي لا أريدكم أن تحقّقوا معها، لأنّني أعرف أنّها هشّة وجسمها النحيل لا يحتمل التعذيب، بل نمت معها عدّة مرّات بعد ذلك في أحد فنادق جونية. أرجوكم سامحوها لأنّها كذبت وقالت إنّها كانت في الحرش مع خطيبها إميل، وهو شابّ جبان كان يرتجف من الخوف خلال التحقيق معي، مع أنّني أنا من تعرّض للتعذيب وليس هو.
أمّا بخصوص المتفجّرات، فإنّني مستعدّ أن أحافظ على اعترافي عن هيكل والنذّاف، إذا كان هذا ضروريًّا بالنّسبة لكم، وهذه يا سيّدي تضحية منّي من أجل خدمة السلام الأهليّ في لبنان.
أرجو يا سيّدي أن تكون هذه المعلومات الجديدة مفيدة، وتساعد على إغلاق ملفّاتي وتثبت براءتي.
إنّني أتّكل عليكم يا سيّدي، فأنا شابّ يتيم، أبي لا أعرفه، وجدّي ليس أبي، وأمّي ليست أختي.

وأخيرًا أريد يا سيّدي أن أشكركم وأشكر المحقّق وجميع معاونيه، الذين سمحوا لي خلال هذه الإقامة في الحبس أن أتصالح مع نفسي، وأكتشف أشياء لم تكن تخطر على بالي.

أغمض يالو عينيه وبصق على الشيطان. كان يقف في غرفة التحقيق، ويشعر بارتجافة في داخله. وجه المحقّق يأتيه من خلال ضوء لمبات النيون الشاحبة الموضوعة على السقف. يقف يالو تحت الضوء ويرى. كان شعر المحقّق الأشيب يميل إلى الاصفرار، ووجهه الصغير وكأنّه زرع على الطاولة، والمحقّق يقلّب الأوراق وينظر إلى الشبح الطويل الذي يتداخل بلون النيون الأبيض.

أغمض يالو عينيه، ورأى بعينه الثالثة، شعر رعدة تسري داخل عضلات ذراعيه وفخذيه فبصق على الشيطان. تعلّم يالو في السجن كيف يبصق في قلبه. لم يعد يكوّر شفتيه ويخرج بصاقه في كتلة واحدة يرميها على الأرض. صار يكتفي بأن يقول تفو على الشيطان، واعدًا نفسه بأنّه يومًا ما، عندما سيخرج من هذا الكابوس، سوف يبصق كلّ الشياطين التي اضطرّ إلى التعامل معها. قال تفو على الشيطان من أجل أن يوقف الرّعدة في قلبه وعضلاته، لكنّ الارتعاد كان ينتشر مثل موج خفيف يجتاح جسد الشبح الطويل من رأسه إلى قدميه. وفهم يالو، قبل أن ينطق المحقّق القصير بأيّة كلمة، أنّه وقع في الفخّ.

«شو يا ملك السيكس»، قال المحقّق وهو يضع مساحات بين كلماته، موحيًا بأنّ كلامه يحمل تهديدات متنوّعة.

يالو لم يكن خائفًا، أو هكذا أقنع نفسه، ممَّ يخاف بعد كلّ شيء؟ أكثر من الكيس لا يوجد، أكثر من ذلك الشعور بأنّه صار خصيًا ومدوّرًا ويتدحرج بين الأحذية؟ إذن لماذا يخاف؟ وضع يديه على أعلى فخذيه من أجل أن يوقف الرّعدة في جسده، لكنّه خلال انحناءته سمع فرقعة على رقبته. كيف صار المحقّق خلفه بهذه السّرعة، وصفعه؟ استقام جسد يالو من جديد فرأى المحقّق القصير واقفًا خلفه ملوّحًا بالأوراق.

«عم بتضحك علينا يا ملك السيكس؟» قال المحقّق الذي دار حول الرّجل الطويل الذي احتار إلى أين ينظر كي يتلقّى كلمات المحقّق القصير السمين. بصق يالو على الشيطان وأغمض عينيه. وفكّر أن يقترح على المحقّق ذي الفخذين السمينين والوجه المدوّر أن يقف على الكرسي في مواجهته كي يستطيع التفاهم معه. لكن قبل أن يفتح يالو فمه، وجّه إليه المحقّق لكمة على رأس معدته، فانقطع الهواء عن رئتي يالو وانحنى على معدته، فاتحًا فمه إلى أقصاه كأنّه يشحذ هواء يتنفّسه قبل أن يغلق عينيه ويموت.

سوف يقول يالو إنّه شعر بالموت. عندما كان في الكيس أو تحت السياط أو في الفلقة أو في بركة الماء، لم يشعر بموته النهائيّ. ربّما مات دون أن يدري لكنّه كان واثقًا من أنّه سوف يقوم. أمّا الآن، وأمام المحقّق القصير الذي يدور حوله، حاملاً الأوراق في يده، أو يضربه بوكسًا على معدته، أو يركله على مؤخّرته، فلقد دخل يالو في تداعيات الموت، وشعر باحتقار لنفسه التي لا تدافع عن هوائها.

عاد المحقّق إلى كرسيه خلف الطاولة، ودخل رأسه في بياض

النيون من جديد، ووجد يالو نفسه وهو يحاول ربط الكلمات التي يسمعها من فم المحقّق، من أجل أن يفهم معناها.

سمع يالو اسم ميشال سلّوم وزوجته رندة كثيرًا، واستنتج أنّ المحقّق يسأله عن الصفحات القليلة التي أضافها إلى اعترافاته. لم يفهم السؤال كي يجاوب عليه. سمع الأسماء تتشظّى بين شفتي المحقّق الرّفيعتين.

«ليش مش عم بتجاوب يا كلب؟»

«سيدنا ما بعرف.»

«ما بتعرف؟ لكن مين بيعرف؟»

«أنا كتبت يا سيدنا أنّي رح بلّش حياتي من جديد، أعطوني فرصة، والله خلص.»

قال المحقّق إنّه فهم اللّعبة، وإنّ دانيال سوف يذوق العذاب الذي سيجبره على قول الحقيقة.

«أنت يا كلب مفكّر حالك ذكي وفيك تلعب فينا، نحن أعطيناك أوراق منشان تكتب الحقيقة مش منشان تألّف قصص، وتتّهم النّاس وتخرب بيوت العالم. أنت يا عكروت بدّك تقلّلي، قول، استرجي قول إنّك نمت مع مدام رندة؟ قول من شو خايف؟»

يالو لم يقل، لكنّه أحسّ برغبة في الرّقص، فالمحقّق كان يوقّع جمله كأنّه يغنّي على موسيقى متقطّعة تخرج من حنجرته. وارتسمت ابتسامة على شفتيّ الشبح النّحيل.

«عم تضحك يا عرس»، وأشار بيده.

انتصب ثلاثة عمالقة في الغرفة، لم يكن يالو قد أحسّ بوجودهم من قبل، كان ضوء النيون الذي يتموّج باللّون الأصفر

ينتشر فوق كتلة الشعر الرماديّة التي تغطّي وجه المحقّق المستدير، نظر يالو مليًا إلى هذا الوجه فضربته قشعريرة الخوف. كأنّ هذا الوجه الذي تخرج الكلمات من شقّ في أسفله ليس وجهًا حقيقيًا. لم يسبق ليالو أن رأى وجهًا كهذا: أنف رخو يمحو الشفتين واستدارة على شكل طابة. عمله في الحرج جعله خبيرًا في الوجوه، يميّز الوجه الطيّب عن الوجه اللّئيم دون عناء: الأنف الكبير يعني الخوف والشفة الرفيعة تعني اللّؤم والوجه الممتلئ يعني الاستسلام وإلى آخره... كان يعرفهم من وجوههم، يقرأهم بالضوء قبل أن يقرّر طريقة التصرّف، هل يستخدم العنف فيقفل حاجبيه ويقرع النافذة ببوز البندقيّة، أم يكون لطيفًا، فينحّي البندقيّة ويشير برأسه، أم يكون لا مباليًا فيطرق بالبندقيّة وينظر إلى الأرض. كان يالو يعرف كلّ الوجوه، لكن هذا الوجه... في المرّات السّابقة لم يكن يرى وجه المحقّق، كان هو الفريسة والفريسة لا ترى وجه الصيّاد. أمّا في ذلك اليوم، وبعد أن كتب يالو حكايته مرّات عديدة، ضربته القشعريرة حين رأى وجه المحقّق: أنف رخو يمّحي داخل الوجه اللّحميّ المستدير، وشفتان كأنّهما خيطان مرسومان باللّون الأخضر، وعينان بيضاوان كأنّ ليس فيهما بؤبؤان وصوت يخرج من مكان غامض في هذه الطابة الملقاة فوق الطاولة.

عندما أنهى يالو كتابة قصّة حياته، كان متأكّدًا من أنّ رحلة عذابه قد انتهت. كان يريد للقصّة أن تنتهي من أجل أن يعود إلى الحياة التي تركها وراءه. اكتشف يالو، حين جلس خلف الطاولة وتفكّك بالألم الجسديّ والرّوحيّ أنّ حياته كانت غير حقيقيّة. كانت الحياة التي يكتبها تأتيه مثل قصص ممزّقة لا تكتمل، ويرى

نفسه في القصص كأنّه ليس هو، لذلك كره يالو الكتابة وكره نفسه. العمى، يغمض عينيه ويقول العمى، هذا اليالو الذي أكتب قصّته سوف يخرج من الأوراق إلى حبل الإعدام، يقف تحت المشنقة، ثمّ يتدلّى مثل شبح غير حقيقيّ. هكذا رأى نفسه، كأنّه في كابوس، وهو الآن يخرج من المنام ويقف أمام المحقّق، وسيقول إنّه كتب كلّ شيء، وإنّه لا يملك جديدًا يضيفه، ولا لزوم للتعذيب.

وقف يالو أمام المحقّق من أجل أن يقول له إنّه يريد أن يعود إنسانًا حقيقيًا، ويخرج من الغيبوبة التي أخذته إليها ذكرياته وقصّة حياته. صار ظلًّا مثل جدّه هابيل أفرام أبيض. كان الجدّ الذي حوّلته الكهولة ظلًّا لنفسه يحكي عن حياته كأنّها ليست حياته، ويالو يستمع إليه بنصف أذن. هنا في الزنزانة، اكتشف يالو أنّه لم يكن يستطيع الاستماع إليه، لأنّ الكوهنو كان يموت، ولا يستطيع الأحياء سماع الموتى إلاّ إذا ماتوا معهم. لكن شذرات صوت الجدّ عادت إليه في وحدته، وسمع في الزنزانة الانفراديّة الكلام الذي رفضت أذناه سماعه، وعاش مع الموت وصارت حكايته ظلًّا لحياته. عاش يالو في الظلال، وكره اللّون الأسود الذي يتنفّسه الحبر على الورقة وقرّر أن يعود إلى الحياة.

وقف أمام المحقّق كي يقول، لكنّ المحقّق لم يكن يشبه رجلاً حقيقيًا، يضع رأسه فوق الطاولة، ويتكلّم بصوت خفيض يكاد لا يُسمع، فشعر يالو أنّه لا يزال حبرًا على الورق، وأنّ روحه لم تعد إليه، فأغمض عينيه.

لم يصرخ به المحقّق طالبًا منه فتح عينيه، كما كان يفعل في المرّات السابقة، تركه مغمضًا. لكنّ الفتى أحسّ الرّجال الثلاثة

الطوال القامة يقفون خلفه مباشرة. رآهم بعينه الثالثة التي عادت إليه فجأة، فمنذ اعتقاله انطفأت هذه العين ولم تعد ترى. حاول في الحبس أن يجعلها ترى، كما كانت ترى في الحرج حين كان يشعر بأنّه يشبه بُرجًا طويلاً يشرف على العالم ويرى الجهات كلّها. هل صحيح أنّه كان يرى نفسه هكذا، أم جاءته الفكرة هناك في المقهى في الأشرفيّة، حين حاول أن يقنع شيرين بأن تؤمن به وبحبّه لها. هناك روى لها كيف نبتت له هذه العين الثالثة، وكيف صار يحاول النظر من خلالها بعد أن سمع الكوهنو يقول لابنته إنّ الصبيّ صار عنده عين ثالثة، وكيف صار يغمض عينيه كي يرى بهذه العين الجديدة. وشيرين تضحك، وتفتح عينيها الصغيرتين دهشة. هناك صار يالو برجًا، مع شيرين صار يملك ثلاث عيون، وصار يرى ما يحلو له. ويتصرف وكأنّه برج عال يهبط على ضحاياه ويمتلئ بالرّؤية التي تمتزج برغبته في امتلاك كلّ نساء العالم.

لكنّه هنا، أمام المحقّق، في هذه الغرفة التي يتوشّح بياض نيونها باللّون الأصفر، رأى بعينه الثالثة، ثلاثة رجال يقفون خلفه، وشمّ رائحة الضرب، وأيقن أنّه لم يخرج بعد من المصيدة، ورأى كيف انكسر ظلّه على الحائط وهو ينحني تلافيًا للضربات التي جاءته من الخلف.

«استرجي قول إنّك نمت مع المدام»، قال المحقّق.

«أنا... قلت... ما...» أجاب يالو.

كانت الضربات تنهال على الظلّ الذي رآه يالو بعيونه الثلاث، الظلّ يتلوّى من الألم، والألم يمتدّ من الحائط إلى العين الثالثة التي انطفأت عنها الرؤية فجأة.

«أنت»؟ قال المحقّق. ثمّ وقف وخرج من خلف الطاولة وتقدّم من يالو. وقف المحقّق فتوقّفت الضربات، واستمع يالو إلى المحقّق يقرأ رسالة كتبها المتّهم، طالبًا من القاضي توجيهها إلى الخواجة ميشال سلّوم.

أريد أن أوجّه هذه الكلمة إلى الخواجة ميشال المحامي. أنا أشعر بالامتنان نحو هذا الرّجل الشريف الذي أنقذ حياتي وأعادني إلى وطني لبنان، بعد العذاب الذي ذقته في فرنسا. أريد أن أعتذر منه على كلّ شيء. لقد أسأت الأمانة وعضّيت اليد التي امتدّت إليّ بالإحسان، وأكلت من لحم الإنسان الذي أطعمني وأسكنني في بيته وأعاد لي كرامتي. لم أكتفِ باستخدام الرشّاش الذي أعطاني إيّاه في أمور غير شريفة، بل استخدمت المسدّس الصغير كولت ٧,٥ملم، الذي كان يخبّئه في سيّارته في أعمال السطوّ التي ارتكبتها. المسدّس خبّأته في غرفتي تحت الڤيلّلا، وهو موجود تحت البلاطة الرابعة إلى يمين المدخل، وملفوف بالقماش وورق النايلون.

وأريد أن أطلب من الخواجة ميشال المحامي مسامحتي على أخطائي، وأنا أعرف أنّ قلبه طيّب، وسيسامحني. ولكنّني وهنا، لقد تردّدت كثيرًا قبل أن أقرّر الاعتراف، لكن ما بصير، هذا الرّجل الطيّب الآدمي يجب أن يعرف الحقيقة، هذا واجبي الأخلاقي، يجب أن أقول له الحقيقة مهما كانت

صعبة وقاسية كي يعرف، وكي أشعر أنا بأنّني ردّيت له جزءًا صغيرًا من جميله. لقد نمت مع زوجته السيّدة رندة. السيّدة أغوتني، أنا لا أقول إنّ الحقّ عليها وإنّني بريء، فأنا أيضًا مذنب، وأعتقد أنّ الشيطان أغوانا نحن الاثنين. وأطلب من الخواجة ميشال أن يسامحني ويسامحها.

أنا اعتقدت في الأوّل، أنّ الستّ رندة هي التي وشت بي، لأنّني قرّرت أن لا أكمل هذا الشيء المعيب واللاّأخلاقيّ الذي كنّا نقوم به، هي هدّدتني واحتقرتني ومنعتني من أن أتكلّم مع ابنتها غادة، وأنا كل علاقتي بغادة لم تتعدّ أنّني كنت أشتري لها الكتب. غادة فتاة جيّدة ومهذّبة، كنت أشتري لها روايات آغاتا كريستي، ولم تتجاوز علاقتي بها مناقشة الروايات البوليسيّة. أنا لا أحبّ الروايات البوليسيّة لأنّها تخيفني، وأجدها تمرينًا على تخويف القارئ، أمّا غادة فكانت ترى فيها متعة عقليّة.

أطلب من الخواجة ميشال المحامي أن يسامحني وأن ينتبه إلى حياته وإلى أخلاق هذه المرأة التي يعيش معها تحت سقف واحد. وهكذا أكون قد أرحت ضميري نهائيًا، وأنا مستعدّ لتلقّي العقاب الذي أستحقّه، وأطلب من الله أن يساعد الخواجة ميشال لأنّ مشكلته أكبر من مشكلتي.

رأى يالو الوجه الذي يقرأ وأصابه الحزن، لقد انكشفت

الحقيقة التي لم يُرِد لها أن تنكشف. لا يدري لماذا زحط قلمه وكتب هذه الأشياء. سوف يقول للمحقّق إنّه نادم أيضًا على كلّ ما كتبه، وإنّه يسحب اعترافاته، لكنّه ليس مستعدًّا لكتابة كلّ شيء من جديد. فهو لا يستطيع. الڤيلّلا الجميلة المؤلّفة من طابقين لا بدّ وأنها صارت جحيمًا الآن، أمّا الدرج الذي يصل بين الصالونات في الطابق الأرضيّ وغرف النّوم في الطابق الثاني فلا بدّ وأنّه تحطّم على وقع أقدام الخواجة ميشال الذي اكتشف أنّ كلّ حياته كانت خدعة.

«مين مفكّر حالك يا خرا، أوّلاً تأكّدنا من وجود المسدّس، والأستاذ ميشال أبرز رخصة المسدّس، وهيك زمط من الورطة يلّلي كان بدّك توقّعه فيها، وبعدين بتعرف شو عمل الأستاذ ميشال لمّن قري هالحكي السّخيف عن الست رندة، فقع من الضحك، وقال يا حرام أنا كنت عارف أنّ هالولد مش طبيعي، بس الحقّ عليّي لأنّي شفقت عليه، شوفوا آخر المعروف، وصار يضحك، ضحك وصرنا كلّنا نضحك، وبعدين صرخ آخ، ووقع على الأرض، وصار أحمر، حملناه على المستشفى، وما عدنا نفهم عليه شو عم بقول، وصار يحمرّ ويحمرّ، وبعدين صرخ آخ، وبالمستشفى اكتشفوا أنّه عمل ذبحة قلبيّة، بس الله نجّاه من إجرامك، وعمل قلب مفتوح، وهلّق بلّش يتحسّن والحمد لله، بس رفض يدّعي عليك، وقال إنّه ما بقى يقدر يسمع اسمك، واترجّانا نسكّر الملف المتعلّق فيه بالتحقيق.»

«عجبك يا كلب!»

...

«جاوب.»

سمع يالو أنينًا يخرج من ظلّه الملقى إلى جانب الحائط، ثمّ بدأ المحقّق يقرأ نصوصًا مأخوذة من تحقيق جرى مع رجال أبلغوا عن جرائم ارتكبها يالو في الحرج، بعد أن نُشر خبر القبض على المتّهم في الصحف، يسمع المحقّق يقول إنّه يريد منه إعادة الكتابة، ووضع التفاصيل التي اعترف بها هؤلاء الرّجال، وأن يكتب عن شبكة المتفجّرات بتفاصيل التفاصيل.

«اسمع يا كلب كيف لازم تكتب»، وأمسك المحقّق أوراقًا وبدأ يقرأ:

«اسمي جورج بن أسعد غطّاس، والدتي أنجيل، مواليد ١٩٦١، ببلّونة وسكّانها ملك والدي، رقم السجلّ ٢٠ بلّونة ـ كسروان، أفيدكم أنّه بتاريخ ١٦/٥/٩١، وحوالي العاشرة والنصف مساء، وأثناء انتقالي من محلّة يسوع الملك، باتّجاه بلّونة بسيّارتي، وهي من نوع مارسيدس طراز ٢٢٠، لون أسود، تحمل الرّقم: ١٧١٣٦٢٠، وبوصولي إلى جعيتا شاهدت فتاة أجهلها واقفة على رصيف الطريق، بانتظار سيّارة، فتوقّفت إلى جانبها، حيث صعدت معي في السيّارة، وتبيّن لي أنّها تدعى جورجيت، أجهل كامل هويّتها ومكان إقامتها. وبعد تجاذب الأحاديث أوقفت سيّارتي في محلّة بلّونة بالقرب من كنيسة الرّوم وأخذنا نتساير داخل السيّارة. وبعد حوالي خمس دقائق من توقّفي في المحلّة التي ذكرت، وإذ بشخص أجهله تقدّم منّي وطرق زجاج السيّارة التي بجانبي، شاهرًا رشّاشًا حربيًّا من نوع كلاشينكوف في وجهي، حيث أمرني بإعطائه ما لديّ من أموال ومصاغ. على الفور وخوفًا من أن يتصرّف ضدّي بأيّ أذىً أعطيته مبلغ مئة وثمانين دولارًا أميركيًّا، وثلاثون ألف ليرة لبنانيّة

كانت بحوزتي، كما أخذ من الفتاة التي كانت برفقتي زوج حلق من الذهب المرصّع بالماس. وأخذ يهدّد ويشتم. كما أقدم على سلب ساعة الفتاة، وعندما تأكّد من أنّ هذه الساعة ليست ذات قيمة، رماها من السيّارة وأخذ يهدّدني بالقتل وأمرني أن أصعد إلى صندوق السيّارة، فما كان منّي إلاّ أن رفضت ذلك، وحصل بعض الجدل بيني وبين هذا الشخص المسلّح، كما أقدم على التحرّش بالفتاة التي كانت برفقتي طالبًا منها التعرّي، ولمّا رفضت وضع فوهة الرشّاش على بطني وقال إنّه سيقتلني إذا لم تتعرَّ الفتاة، فما كان منها إلاّ أن بدأت تصرخ بأنّها لا تعرفني ولا تعرف أحدًا. فجرّني من السيّارة إلى الخارج ولبطني على خصيتي، فسقطت أرضًا من الألم، ورأيت الفتاة تتعرّى، ثمّ غاب كلّ شيء عن نظري لأنّي فقدت الوعي. وعندما استيقظت كان رأسي يؤلمني كثيرًا. رأيت السيّارة فارغة والفتاة ليست فيها والمسلّح لم يكن هناك، فقدت سيّارتي وعدت إلى البيت حيث أخذت حبّتي إسبرين ونمت. وأنا في حال مشاهدتي لهذا الشّخص ثانية أستطيع التعرّف إليه. كما أفيدكم أنّه طويل القامة، نحيف البنية، عمره حوالي الثلاثين سنة، كما كان يرتدي معطفًا طويلاً أسود. وبعد أن عرضتم عليّ صور المدعو دانيال هابيل أبيض أؤكّد لكم أنّه نفس الشخص الذي أقدم على سلبي.»

«عم تفهم كيف لازم تكتب.»

. . .

«اسمع يا كلب، عندي هون كلّ قصص يللي اعتديت عليهم واغتصبتهم وسرقتهم، بس القصص فيها فراغات، بدّي يّاك تعبّي الفراغات. يعني تكتب شو صار لمّن الزلمي أغمي عليه،

فهمت؟»

قال يالو، حاول أن يقول إنّه لم يعد قادرًا على الكتابة. قال إنّه لا يعرف أن يعبّئ الفراغات، قال إنّه اعترف بكلّ شيء، قال إنّه لا يعرف.

«وبعدين»، صرخ المحقّق، «بعدين ما تنسى شبكة المتفجّرات، وإيّاك تفتري على نسوان العالم، فهمت.»

«فهمت»، قال يالو.

«وهلّق عبّيلي الفراغات»، قال المحقّق.

«أيّ فراغات يا سيدنا؟»

«عن جورجيت، لبطت الزلمي وبعدين شو صار؟»

«ما لبطت حدن يا سيدنا.»

«بلّش يكذب، انتبه نحن منعرف كلّ شي.»

«ما دامك بتعرف ليش بدّك ياني أكتب، أعطيني يا سيدنا، أعطيني وأنا بمضيلك على بياض، بس خلص، دخيلكم خلص.»

رأى يالو ثلاثة رجال يتقدّمون من الشّبح الطويل الذي حاول أن يحمي رأسه بيديه. ثمّ رأى كيف ارتفع الشبح إلى أعلى. ارتفع ولم يشعر بالألم، صار يالو فوق الألم. صار أعلى وأعلى. ورأى العالم مثل دائرة، ورأى روحه تتدوّر في داخله، وأحسّ بشيء يطعنه في قلبه طعنة واحدة ويستقرّ هناك، حيث صار كلّ شيء أنينًا مكتومًا وبكاء مكتومًا وصراخًا مكتومًا، ووجعًا يدخل في ثنايا العظم وقشور الأعصاب.

أمرهم المحقّق بإجلاسه على القنّينة. سمع الشّبح الطويل الأمر لكنّه لم يفهم معناه. رأى المحقّق يحمل في يده قنّينة

كولا، فتحها، ثمّ وضع إبهامه في فوهتها وأخرجه مصدرًا صوتًا يشبه قنّينة تُفتح من جديد. وضع المحقّق بوز القنّينة في فمه وشرب قليلاً، ثمّ وضعها على الطاولة أمامه باشمئزاز، وقال إنّه لا يحبّ الكولا إلاّ إذا كانت مثلّجة.

«وأنتِ كيف بتحبّها؟»

...

اقترب منه المحقّق وأمره بالوقوف. تهدّى يالو بالحائط، فزحطت يده على الحائط، وسقط من جديد.

«ساعدوه حتّى يوقف»، قال المحقّق.

أوقفوه، فوقف وإلى جانبه رجلان يمسكان به من تحت إبطيه.

«قرّب لعندي»، قال المحقّق.

تقدّم الرّجلان بيالو شبه المحمول من تحت إبطيه.

«سألتك كيف بتحبّ الكولا، جاوب.»

«أنا!» قال يالو.

«أنتِ، ليش مفكّرني مع مين عم بحكي؟»

«بحبّها كتير»، قال يالو.

«بعرف أنّك بتحبّها، بس كيف يعني، مصقّعة أو سخنة؟»

«عادي»، قال يالو.

«طيّب خلّلوه يوقف وحده.»

تركه الرّجلان، فشعر يالو بألم ظهره وكتفيه يسقط إلى بطّتي رجليه وقال «آخ»، قبل أن يسند خاصرته ويجد توازن وقفته.

أعطاه المحقّق القنّينة، وطلب منه أن يشرب.

«أنا؟» سأل يالو.

«بدّي يّاك تشرب كلّ القنّينة حتّى ما تعطش.»

شرب يالو، وكانِ السّائل البنيّ الذي يميل إلى الاحمرار، ينحدر من البلعوم إلى الجهاز الهضميّ محدثًا تقلّصات متتابعة. توقّف يالو عن الشرب لأنّه شعر بحاجة إلى أن يتدشّأ. فصرخ به المحقّق أن يرفع القنّينة من جديد ويشربها دفعة واحدة. أحسّ بالرّجلين قربه. أمسكه الأوّل من كتفيه بينما حمل الثاني القنّينة ودلقها دفعة واحدة في فمه. شعر يالو بالاختناق والقيء، لكنّه رأى نفسه وقد أصبح عاريًا من الأسفل، والرّجلان يأمرانه بالجلوس. لم يرَ القنّينة الفارغة التي وضعت على دكّة خشبيّة مرتفعة يسمّونها العرش. أمسك الأوّل بالقنّينة، بينما أجلسه الرّجلان عليها، وانتابته تقلّصات ما لبث أن انمحت لأنّ صرخة خرجت من حنجرته وفمه دون أن يشعر. صرخة واحدة وصار يالو على العرش. زجاج يشبه الشظايا خرج من رأس القنّينة واختلط بدمه، وبدأ يرتفع إلى أعلى، ولم يسمع سوى أصوات تأتي من أمكنة بعيدة.

عندما استفاق يالو في زنزانته الانفراديّة، كان كتلة من الأوجاع. يذكر أنّ طبيبًا زاره وأعطاه مرهمًا أسود، يذكر أنّ الطبيب قال إنّ هذه المنطقة من الجسد مؤلمة كثيرًا، لأنّ كتلة كبيرة من الأعصاب تلتقي فيها، وأوصاه بغسل الجرح.

عاش يالو مع عذابه طويلاً. كانت مواعيد الذهاب إلى المرحاض هي الأكثر ألمًا، لأنّ الإمساك الذي شعر به بعد الأيّام الأولى من نزوله عن العرش، ما لبث أن تحوّل إسهالاً، وصارت أيّامه من وجع، لا يستطيع الجلوس على قفاه، أو النوم حتّى على بطنه. ارتفع يالو فوق عمود من النّور اخترقه من أسفله،

وعلا به، فوجد نفسه خارج السّجن، يكتب حين يكتب، لا كما طلب منه المحقّق، بل كما رأى هناك بعيونه الثلاث التي أعطته شعورًا بأنّه يرى من أعلى مكان في العالم.

أريد أن أكتب قصّة حياتي من أوّلها إلى آخرها.

حياتي خلص. الآن فهمت يا سيّدي أنّني كنت لا أستطيع أن أكتب لأنّني تعلّقت بحبال الأمل. كان عندي قناعة بأنّه ممكن. يعني ممكن يتغيّر شي، يمكن شيرين أو الخواجة ميشال أو الستّ رندة. يمكن حدن منهم يشفق عليّي ويساعدني حتّى أخلص من هالعلقة.

الآن خلص. الأمل خلص، وصار على دانيال جورج جلعو أو يالو هابيل أبيض، أن يكتب حكايته من أوّلها إلى آخرها.

يالو على العرش، كأنّه منارة، وعيونه الثلاث أضواء تمتدّ إلى آخر القصّة. يجلس على العمود، مثل القدّيس سمعان العمودي الذي جلس على عموده منذ ألف سنة في مدينة حلب، مدينة والدي جورج جلعو التي لم أرها إلاّ من خلال عيني المعلّم سليم رزق المغمضتين.

نعم يا سيّدي، أرى يالو هناك وأحسده، يعني أحسد نفسي، لأنّ نفسي عرفت كيف تصل إلى أرواح الموتى وتحكي معهم، وتكتشف أنّه باطل الأباطيل كلّ شيء باطل. الإنسان يعيش في الأباطيل ويصدّق الأباطيل، ويجعل من حياته أبطولة تضاف إلى الأباطيل.

وأنا الآن أكتب عن يالو الذي رفعتموه إلى أعلى قنّينة

وأسميتموها العرش. يالو على العرش، كأنّه ملك الموتى. نعم يا سيّدي، أراه ميتًا، والميت لا يكتب لأنّه يموت.

عندما طلبتم منه كتابة قصّة حياته كنتم مخطئين. لا يستطيع يالو أن يكتب لأنّه صار في مكان آخر، حيث لا يكتبون، لأنّهم ليسوا في حاجة إلى الكتابة. أنا دانيال أكتب، وسأكتب كلّ ما تريدونه عنه وعنّي وعن جميع النّاس. أمّا يالو فلا. أريد أن أكون صريحًا معكم وأقول إنّ يالو تركني وذهب إلى البعيد. أنا جسد وهو روح. أنا أتألّم وهو يطير. أنا نزلت عن القنّينة، أمّا هو فيجلس على العرش.

أراه أمامي، أقترب منه وأسأله لكنّه لا يجاوب. قال إنّ كلماته لم تعد تفهم كلماته، يخلط العربيّة بالسريانيّة بلغات لا أعرفها. فكيف أفهم عليه؟

أكتب باللّغة العربيّة، ليس فقط لأنّكم طلبتم منّي ذلك، بل لأنّني ابن عرب. فحتّى إن لم يكن والدي هو جورج جلعو الحلبيّ، فسيكون الياس الشامي الدمشقيّ. لا وجود لاحتمال ثالث. أنا أرجّح الاحتمال الثاني، رغم أنّ المسألة لا أهمّيّة لها بالنّسبة لي. أمّي كانت تخفي عنّي السرّ. قالت عدّة مرّات إنّها ستخبرني شيئًا لكنّها تخاف عليّ من الصدمة. وفي كلّ مرّة تبدأ في الحكاية تتوقّف عند اختفاء زوجها أو هجرته، وعندما أسألها عن السرّ تتثاءب. لا أعرف امرأة تتثاءب هكذا، تخفي السرّ في فمها المفتوح الذي تخبّئه في راحة كفّها، ثمّ تمشي منحنية في البيت كأنّها تبحث عن شيء أضاعته.

أنا أعرف أنّ أمّي المسكينة لم تعد قادرة على رؤية صورتها في المرآة، لأنّها أرادت أن تمحو سرّها. تعتقد أنّ حياتها ذهبت

هدرًا لأنّ الخواجة الياس لم يعرض عليها الزواج. لكن عندما سألتها، قالت إنّها لم تكن تريده. قالت إنّها تمنّت أن يطلبها للزواج من أجل أن ترفضه، لكنّه لم يطلبها. غريب أمر غابي، هل يمكن أن تكون حسرة حياتها أنّها لم تعط فرصة للرّفض؟

يالو لم يهتمّ بأمّه ومشاكلها لأنّه كان مأخوذًا بفكرة مغادرة لبنان. ويجب أن نفهمه، أنّه ضحيّة يا سيّدي، والضحيّة تصبح أشرس من الجلّاد حين تتاح لها الفرصة. الحرب كانت فرصة يالو. أنا معكم، يجب أن نكره الحرب الأهليّة والفوضى، لكن تخيّلوا معي وضع هذا الفتى الذي كان والده جدّه، وشقيقته أمّه، تخيّلوا معي ماذا تستطيع الحرب أن تفعل به. الحرب كانت فرصته لكنّه ضيّعها، وبدل أن يزبّط حاله مثل الكثيرين، ترك كلّ شيء في أرضه وهاجر إلى فرنسا.

أنا لا أوافق أنّ مأساة الأمّ كانت بسبب الياس الشامي، الياس كان نتيجة، أمّا السبب فيجب أن نبحث عنه عند الكوهنو أفرام. عاشت غابي معه بعد وفاة زوجته، وكانت ابنته وزوجته وأمّه. رجل موسوس ومهووس بفكرة الموت. كانت غابي تعرف السريانيّة، لكنّها تفضّل أن تحكي بالعربيّة. قالت لي إنّ السريانيّة تشبه وردة مضمومة تفتحت فصارت اللّغة العربيّة. كانت تضمّ أصابعها الخمسة في قبضتها ثمّ تفتحها وهي تقول لابنها الوحيد أن لا يبكي عندما كان جدّه يضربه لأنّه لا يحفظ الكلمات السريانيّة.

عندما التقى يالو شيرين في الجبل أحبّها. أنا أفضّل أن أقول إنّه التقى بها، ولا أحبّ استخدام كلمة الاغتصاب التي فرضتموها على الفتى المسكين. يالو لم يغتصب شيرين، لأنّ

الإنسان لا يستطيع أن يحبّ امرأة اغتصبها. الاغتصاب يا سيّدي عمل شنيع. اسألوني لأنّني أعرف. يالو يعرف معنى الاغتصاب لأنّه مارسه. مارسته وندمت، ولكن ليس مع شيرين. شيرين أحببتها لأنّها أعادت ترتيب روحي وجسدي.

لم تصدّق غابي ابنها حين أبلغها بأنّه قرّر ترك الدراسة نهائيًا. كانت تعتقد أنّها مجرّد نزوة. لكنّ الفتى ضرب قدمه بالأرض بعد تسعة أشهر على وفاة جدّه، وقال خلص.

عاشت الأمّ كالتائهة في بيتها الجديد، بعدما أجبرتها الحرب على الانتقال من بيروت الغربيّة إلى بيروت الشرقيّة. هناك، في ضاحية بيروت الشرقيّة، قرّر يالو الالتحاق بالحرب، ولم يعد يأتي إلى البيت إلاّ برائحة الدّم. أمّا غابي فعاشت وحيدة. برمت على بيوت حيّها الجديد من أجل أن تستعيد مهنتها كخيّاطة، بينما اختفى الياس الشامي من الوجود. لم تبحث عنه، لكنّها سألت فقيل لها إنّه اشترى بيتًا في بلّونة مع مجموعة من سكّان الحيّ البيروتيّ القديم، الذين هجروا بيروت.

حكاية يالو يا سيّدي، اسمها الحرب.

كيف أصف لك ماذا جرى ليالو بعدما عرض عليه الخواجة ميشال سلّوم في باريس، العودة إلى لبنان والعمل حارسًا في الڤيلّلا في بلّونة. يومها رأى يالو القرية مثل كلمة مكتوبة فوق جبين الخيّاط الكهل. رأى شبح الياس الشامي الذي احتلّ طفولته برائحة أسنانه الاصطناعيّة التي تشبه رائحة نعناع متعفّن، وخاف. أراد يالو أن يرفض عرض الخواجة ميشال، لكنّه لم يكن يملك خيارًا آخر.

لكنّ الحقيقة التي لا يعرفها سوى الله سبحانه وتعالى، الحقيقة

يا سيّدي أنّ ذاكرتي مشوّشة ولا أعرف. هل سمع يالو من أمّه أنّ الياس الشامي ذهب للإقامة في بلّونة، أم أنّه سمع اسم هذه القرية الكسروانيّة للمرّة الأولى في حياته من الخواجة ميشال؟ لكنّه، لسبب يجهله، ربط بين القرية الكسروانيّة وبين الخيّاط، وركبت الأمور في رأسه هكذا. الأمّ أضاعت الخيّاط حين هربت من بيروت الغربيّة إلى حيّ المراية في عين الرمّانة، وقالت إنّها تعتقد أنّه ذهب إلى كسروان، لكن ليس من المؤكّد أنّها لفظت اسم القرية. لماذا إذن رأى يالو اسم القرية مكتوبًا على جبين الرّجل؟ ولماذا قادته قدماه إلى ارتكاب خطئه الأوّل بعد شهر على تسلّمه عمله الجديد؟

يجب أن أوضح الأمور من أجل أن نفهم ماذا جرى. عندما عاد يالو إلى لبنان مع ميشال سلّوم، وسكن كوخه الصغير، عاش حياته في اللّيل، لأنّ اللّيل كان غطاءه. في النّهار يشعر بالعري، ولا يكفيه معطفه الأسود الطويل من أجل أن يستتر. لم يخرج نهارًا سوى مرّة واحدة، وكان ذلك من أجل جلب بعض المعدّات اللاّزمة من أجل إصلاح كرسيّ الست رندة الخشبيّ. الغلطة التي كانت بداية الغلط كلّه ارتكبت في الكنيسة. لا يا سيّدي، الغلط لم يبدأ مع شيرين، كلّ ما فعله مع شيرين أنّه تعرّى نهائيًّا تحت ضوء النهار كأنّه لم يعد يبالي بالأخطار المحدقة به. فالحبّ يعمي العيون ويرسم مسحة من الهبل على الوجوه. الخطأ بدأ في الكنيسة، ماذا قال له عقله كي يذهب، لابسًا معطفه الأسود الطويل صبيحة ذلك الأحد، إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة في بلّونة بحثًا عن الياس الشامي؟ هل كان يريد قتله فعلاً مثلما ادّعى حين روى لشيرين عن حبّه للقتل؟ بالطّبع لا.

يالو كان يكذب على شيرين كلّ الوقت، يكذب ويصدّق كذبته. والله كان يكذب، لذلك لم يكن هناك لزوم لحفلة التعذيب التي تعرّض لها حين رُبِط على كرسيّ ثلاثة أيّام، من دون أن يملك الحقّ الطبيعيّ الذي تملكه مخلوقات الله جميعًا من حيوانات وبشر، وهو حقّ الذهاب إلى المرحاض من أجل قضاء حاجته. لم يكن ذلك التعذيب مفيدًا. كذبت على شيرين. قلت لها إنّني دخلت إلى الكنيسة حاملاً مسدّسًا وقنبلة يدويّة لأنّني كنت أريد أن أقوّص الياس الشامي، ثمّ ألقي القنبلة على جثّته كي يصبح قطعًا متناثرة. يالو لم يكن يحمل مسدّسًا وقنبلة حين دخل إلى الكنيسة ولفت إليه الأنظار. دخول الكنيسة كان غلطته الأولى، ثمّ رُبطت هذه الغلطة باعترافات السيّد جورج غطّاس، وهو أحد المقيمين في بلّونة عن رجل يلبس معطفًا طويلاً سبق أن شاهده في الكنيسة، وهو يشكّ في كونه الرّجل نفسه الذي اعتدى عليه حين كان في سيّارته مع امرأة تدعى جورجيت مجهولة باقي الهويّة. لم يخطر في بال يالو أنّ أحد المقيمين في بلّونة سوف يعرّس في حرج البلدة حيث يقيم. ثمّ ماذا جاء به إلى الكنيسة؟ يعرّس ثمّ يأتي مع زوجته إلى القدّاس؟ شو هالوقاحة، قال يالو، قبل أن يتلقى سيلاً من الصفعات والرّكلات. الحقيقة وقحة يا سيّدي، شو بدّكم بالخواجة غطّاس، أنا مستعد أن أعترف بكلّ شيء، لأنّ الأشياء لم يعد لها معنى.

كان التحقيق عن الكنيسة تافهًا، وإجبار يالو على الاعتراف بأنّه كان ينوي قتل الياس الشامي وتفجير الكنيسة لا معنى له. ذهب يالو إلى الكنيسة من أجل أن يرى الرّجل الذي قد يكون والده، لكنّه لم يرَ شيئًا. دخل إلى الكنيسة حين كان الكاهن

يدور بمبخرته وسط جموع المصلّين، فلم يرَ سوى البخّور، وبدأ يسعل، ودمعت عيناه قبل أن يرسم إشارة الصّليب ويخرج.

يالو كذب على شيرين، لأنّه كيف أقول... لأنّ الحبّ يجعل الإنسان يتكلّم. الحبّ منبع الحكي، ومن دون الحكي لا وجود للحبّ. من أجل أن يستمرّ الكلام اضطر يالو إلى اختراع الحكايات. شيرين لم تكن تتكلّم إلاّ نادرًا، ممّا أجبر يالو على التراقص وحيدًا فوق حبال الحكي. اخترع لها القصص من أجل أن يبقى الحبّ. فالحكي هو فرشة الحبّ التي ينام فوقها العشّاق. هذه هي الحقيقة، وهذا هو سبب الوضع الغامض الذي وقع فيه التحقيق.

يالو فوق لا يجاوب. عيونه الثلاث ترى كلّ الجهات: الشمال والجنوب والشرق والغرب، الماضي والمستقبل. المستقبل واضح بالنّسبة إليه، إنّه الموت، ويالو لا يحتاج إلاّ إلى قفزة صغيرة من أجل أن يصير هناك في مملكة الموتى. أمّا الماضي فهو المشكلة. الماضي يخيفه ويخيفني لأنّ الأحداث اختلطت في شكل عجيب. يقول البارحة وهو يقصد منذ عشرين عامًا، ويقول من زمان وهو يقصد منذ أسبوع. هذا هو الضياع الذي أعيشه ويعيشه. وضياع يالو لم يبدأ فوق العرش حيث يجلس الآن، ضياعه بدأ عندما لم يتغطّ باللّيل.

عاش يالو في ليل بلّونة لا لأنّه كان خائفًا، بل لأنّه كان يبحث عن الأمان. وحتّى لو خاف فأين الجريمة؟ يحقّ له أن يخاف، من منكم يا سيّدي لا يخاف؟ يحقّ ليالو أن يشعر بالخوف أو الانزعاج لأنّه سرق مال ثكنة جورج عرموني وسافر إلى فرنسا. هذه هي الحقيقة التي لم يروها للخواجة ميشال سلّوم.

تحمّم في المنزل الباريسيّ وحلق ذقنه ولبس ثيابًا نظيفة مكويّة، وشرب كأس نبيذ فرنسيّ أحمر، وأخبر الخواجة ميشال أنّ صديقه سرق المال وهرب. ضحك الخواجة وقال: السارق من السارق كالوارث من أبيه، صحتين على قلبه. حاول يالو أن يشرح أنّه ليس لصًّا، لكنّ الخواجة ميشال لم يكن يريد أن يسمع، وأوحى أنّه يعرف كلّ شيء لكنّه قرّر غضّ النظر.

الحقيقة أنّ يالو تغطّى باللّيل لأنّه لم يكن يشعر بالأمان. الحرب، حين انتهت، تركت فراغًا كبيرًا في حياته. أقفلت الحرب أبوابها، فبدأ خوف المقاتلين الغامض، كانت الحرب تشبه متراسًا يختبئون خلفه. وعندما سقط المتراس شعر كلّ واحد منّا بالعري. أصعب شيء هو أن يجد الإنسان نفسه بزلط ربّه. وهذا ما علّمتني إيّاه المدام رندة. كانت الست تتعرّى عندما ترفرف شهوتها في عينيها، تقف أمام المرآة عارية وتتأمّل جلدها الأسمر الذي يتلألأ بالشهوة. وحين ينتهي كلّ شيء، تتغطّى باللّحاف، وترفض النهوض من السّرير، إلاّ بعد أن يغادر يالو الغرفة، لأنّها تخجل من عريها. ونحن يا سيّدي مثل الستّ رندة، عندما انتهت الحرب شعرنا بالخجل من عرينا، وذهبنا نبحث عن غطاء.

لا يا سيّدي، أنا لم أكن خائفًا، فالحرب انتهت، ولا يوجد من يستطيع محاسبتي على مال مسروق، سرقته فانسرق منّي. لا أحد يستطيع اتهامي في هذا الأمر. تغطّيت باللّيل لأنّني شعرت بالعري لا بالخوف. حتّى مع مدام رندة، أنهى يالو علاقته بها بثيابه. انتهت العلاقة كما بدأت، بالثياب. في المرّة الأولى خلعت هي كلّ شيء، أمّا هو فلم يخلع سوى بنطلونه، ووجد

نفسه ينقذف في داخلها. يومها وقفت الست رندة أمام المرآة تتأمّل جمال عريها، فاكتشف يالو الفرق بين المرأة المطبوخة والمرأة النيئة. قال لها إنّها امرأة مطبوخة، فعلت قهقهتها، لأنّها اعتقدته يمزح. شمّ يالو رائحة شمس وبهار، ورأى كيف نضجت المرأة في شهوتها وبدأ عمليّة تصنيفه للنّساء التي لم يبح بها لأحد.

والآن يا سيّدي، وحتّى وهو معلّق بين الأرض والسّماء، فإنّ النشوة تسري في شرايين يالو حين يتذكّر الفرق بين المرأة المطبوخة والمرأة النيئة. وهذه النظريّة اخترعها جدّي رحمه الله وأحسن إليه. لا يا سيّدي، جدّي لم يكن له في النّساء، فهو إنسان معقّد، لكنّه قام بتقسيم الطعام إلى نوعين: اللّحم والنبات. وبعد أن تخلّى عن أكل جميع أنواع اللّحوم، قام بتصنيف النبات في ثلاث مراتب: الناقص والحائر والكامل. الناقص لا ينضج ويصبح صالحًا للأكل إلاّ بعد طهيه على النّار مثل الكوسى واللّوبياء والبامية وإلى آخره... الحائر تنضجه النّار أيضًا، ولكن يمكن أكله نيئًا، مثل الباذنجان والسبانخ والفول والحمّص والبازلاء وإلى آخره... أمّا الكامل فتنضجه الشّمس ولا يحتاج إلى نار، لأنّ ناره في داخله. وهنا تدخل جميع أنواع الفاكهة وأرقاها العنب والتين والبندورة. اختار جدّي النّبات الكامل، وأنهى حياته لا يأكل سوى الخضر النيئة والفاكهة حتّى الخبز توقّف عن أكله، وبدأ يصغر ويضمر فتفوخر عظمه وصار لحمه قاسيًا كالعظام، ومات على نيّة أن يصير فخّارًا، أي ترابًا طبخته الشّمس.

هذا مجرّد خرف ولا ضرورة لإدخاله في قصّة حياة يالو، لولا

أنّ نظريّة الجدّ في الطعام لعبت دورًا حاسمًا في تحديد رؤية الشّاب للنّساء. وأستطيع القول إنّ أحد أسباب هوس البصبصة الذي أصابه ناجم عن رغبته في رؤية النساء المطبوخات. نظريّة يالو لم تحمل النسق نفسه الذي حملته نظريّة الجدّ. الكوهنو كان يكره المطبوخ ويفضّل النيء الذي أنضجته الشمس. أمّا يالو فكان يفضّل المطبوخ. المرأة المطبوخة هي التي نضجت على نار رغبتها. أمّا النيئة فلا نار فيها. وأكثر ما كرهه هو محاولة النّساء النيئات إنضاج أنفسهنّ اصطناعيًّا عبر المساحيق، أو عبر السيلكون الذي شاع كثيرًا في بيروت بعد نهاية الحرب.

ورغم أنّ يالو قلب كلمات جدّه، غير أنّه تبنّى في النهاية محتواها دون أن يدري. المرأة المطبوخة لا تحتاج إلى نار من الخارج، تكفيها شمس رغبتها كي تنضج، وهي تشبه في ذلك النبات الكامل الذي تنضجه ناره الداخليّة.

كان يالو حين يعثر على امرأة مطبوخة، يصاب بضربة رغبة لا تردّ، وعندها لم يكن يسرق أو يوجّه أيّ نوع من الإهانات إلى الرّجل المرافق، كان يبدي رغبة حازمة. وكان الرّجل الآخر يفهم أنّ عليه الانسحاب، وإلاّ تعرّضت حياته للخطر.

لذلك أستطيع أن أجزم بأنّ يالو حين وجد نفسه مع شيرين، وشيرين امرأة نيئة بكلّ معنى الكلمة، لم يشعر بأيّ رغبة. الرّجل الأشيب هرب تاركًا الفتاة الصغيرة البيضاء وحيدة، ممّا أجبر يالو على أخذها إلى كوخه. وفي الكوخ فرطت نظريّاته ونظريّات جدّه عن الفاكهة والنّساء. شمّ رائحة البخّور الطالعة من ذراعي الفتاة الممدودين، فسكر ودخل في المجهول الغراميّ الذي أوصله إلى نهايته التعيسة.

أسأله فيشيح وجهه كأنّه يعيش في عالم آخر. مرّة أراد أن يسأل الستّ رندة عن رأيها في الرّجال وهل يمكن تقسيمهم إلى نوعين نيئ ومطبوخ، لكنّه خجل ولم يسأل.

لم يتخلَّ يالو عن نظريّته، اعتبر شيرين استثناء، وكان يعتقد أنّ النساء أيضًا يصنّفن الرّجال بالطريقة التي يصنّف بها النّساء. أنا أعتقد بالطّبع أنّني أنتمي إلى الصنف المطبوخ، وتمنّيت أن أسمع هذا الرأي من امرأة. لم يسأل يالو شيرين عن الموضوع لأنّها كانت تمنعه من الكلام في الجنس. حتّى عندما ذهبا إلى الشاطئ وأكلا سمكًا ووضع يده على خصرها من أجل أن تنحني إلى الوراء في انتظار قبلته، حتّى في تلك اللّحظة التي شعر فيها أنّه امتلك العالم بأسره، فإنّه لم يسأل خوفًا من أن تزعل شيرين. فهذه الفتاة كانت صغيرة ومنمنمة وسريعة العطب.

كيف تحوّل هذا الكائن الملائكيّ إلى نقيضه؟

في قاعة التحقيق لبست شيرين قناع القسوة واللّامبالاة. الرقّة اختفت من عينيها، والأنف الصغير الذي كان يتمخّط استجابة لدموع العينين، صار شوكة مغروسة في الوجه.

لماذا كبر أنفها فجأة؟

جدّه رحمه الله، كان يشكو في أيّامه الأخيرة من أنفه وأذنيه. كلّ شيء فيه صار أصغر، قامته قصرت، جلده التصق بعظمه من شدّة الهزال، لكنّ أنفه كبر. وأذناه صارتا أكثر طولاً وحجمًا، وكان ينظر بقرف إلى وجهه في المرآة. قال مرّة إنّه يتمنّى أن يقصّ أنفه ويقلّم أذنيه كما يقلّم الناس أظافرهم. ويومها أخافني، أنا الذي لم أخف في حياتي كلّها، خفت من أنف الكوهنو وأذنيه، لأنّه قال إنّ الأنف والأذنين هي علامات الموت. أعضاء

الإنسان تتوقّف عن النموّ ما عدا أنفه وأذنيه. الموت رحمة، إذ لو بقي الإنسان حيًّا لصار مجرّد أنف طويل وأذنين كبيرتين، أي مزيجًا من الفيل والحمار. أعوذ بالله.

أعتقد يا سيّدي أنّني شرحت الظروف التي دفعت بيالو إلى ارتكاب أخطائه وجرائمه. والآن سوف أحاول كتابة الحكاية كلّها من الأوّل إلى الآخر. اعتبروني صوته الذي فقده منذ جلوسه على عرشه. إنّه هناك لا يشكو ولا يئنّ. أنا متأكّد من أنّه يعيش لحظة هائلة لم يسبق لأحد أن عاشها إلاّ الذين اعتلوا العذابات الكبرى.

لا تقولوا إنّ لا فضل له لأنّه اعتلى عموده مرغمًا. صحيح أنّكم أجبرتموني على شرب قنّينة الكولا والجلوس عليها. لكن فضل يالو هو قراره بعدم النزول. أنا نزلت أمّا هو فلا. أنا أتألّم أمّا هو فلا. آلامي عظيمة يا سيّدي لأنّ النّار تحرق باب بدني. ولكنّي مقتنع بضرورة أن نكتب الحكاية كلّها من أجل أن نخلص من هذه الورطة.

أريد أن أكتب لكنّني ضائع.

هل حين أكتب عن حياتي، يجب أن أكتب عن جدّي وأمّي وأبي، أم أنّ حياتي تخصّني وحدي. لا أعرف. أنتم تريدون منّي كلّ شيء، وخصوصًا حكايات بلّونة ونسوانها والمتفجّرات. أنا أعتقد أنّ القصّة يجب أن تبدأ بهذه الأحداث. لكنّني لا أستطيع. فأنا منذ أن. . . منذ متى؟ منذ الكيس والبسينات، لا في الماء، لا على الكرسيّ، لا في الفلقة، لا. . . منذ التعذيب الذي تعرّضت له، وأنا لا أستطيع التمييز بين البداية والنهاية. وبالمناسبة، فأنا لا أستطيع سوى تهنئتكم على أصناف التعذيب المبتكرة، وعلى قدرتكم على سحب اعترافات المتّهم وكأنكم تسحبون روحه. يعني بحسّ إنّو روحو رح تطلع وإنّو رجع على بطن إمّو، فبيعترف بكلّ شي. والتعذيب، رغم عنفه، فإنّ آثاره الجسديّة تزول بسرعة، ولا يبقى منه سوى الأثر الرّوحيّ الذي يجعلك تشعر بأنّ الرّوح على وشك مغادرتك. أهنّئكم يا سيّدي، وخصوصًا على القنّينة. القنّينة هي الخاتمة التي لا خاتمة بعدها لأنّها طويلة، أعني أنّها تجعل الوقت طويلاً وبلا نهاية. لقد جلست على القنّينة حوالي ألف ساعة أو أكثر من ذلك بألف مرّة. أنتم تقولون إنّها كانت نصف ساعة فقط، ومعكم حقّ، فأنتم تعرفون أكثر منّي، لأنكم تحملون في معاصمكم

ساعات سويسريّة دقيقة، أمّا أنا فيا حسرتي. لكنّ القنّينة غيّرت معنى الزمن. يعني أنا حسّيت أنّي بالأبديّة، وأنّ الوقت جمد، وأنّني أعيش آخر لحظات عمري، وأنّ عمري طويل لا ينتهي. أنا كان بدّي ياه يخلص حتّى أخلص من الوجع، بسّ هو بطّل يخلص. وهذه هي الأبديّة. لن أحكي عن الأوجاع التي ترافقني حتّى الآن، وخصوصًا عندما أذهب إلى المرحاض. عيب الواحد يحكي عن هالأشيا. بسّ الحقيقة، وأنتم تريدون الحقيقة، الحقيقة أنّ أكثر ما يخيفني هو إحساسي بالحاجة إلى كرسيّ الحمّام. هونيك برجع بحسّ بالأبديّة من جديد وبشم ريحة حالي، وبحسّ أنّ الوجع إلو ريحة. نعم للوجع رائحة، ورائحته خرا. هذا ما أشعر به وأشمّه.

ولكن حظّي كبير، وهذا ما يجعلني أشعر بأنّ صلوات جدّي من أجلي لم تذهب هدرًا. أخبرني أحد حرّاس السّجن هنا، بأنّ العديد من المتّهمين ماتوا بعد القنّينة، لأنّها انكسرت في أقفيتهم فأصيبوا بالغرغرينا في المصران الغليظ، والتهب كلّ شيء في داخلهم. الحمد لله أنّني لم أصل إلى هنا، بالعكس ساعدتني القنّينة كثيرًا. كيف أشرح لكم، لا أدري. لكن لا بدّ أنّ خبرتكم مع السجناء تجعلكم قادرين على فهم ما أكتب. فأنا لست أوّل من تبوّأ هذا العرش المصنوع من زجاج حلزونيّ، ولن أكون الأخير بالطّبع.

عندما اعتليت العرش واخترقني الوجع من تحت إلى فوق ومن فوق إلى تحت، كنت متأكّدًا من أنّني سوف أموت. صعدت فبدأ الموت، أي شعرت بالموت. الموت عنيف وله صوت، شيء ينفجر في داخلك، فتسمع صوتًا لا يسمعه غيرك،

وبعد الصوت يتنمّل جسدك، وتشعر أنّك تتجرجر فوق النّوم الأبيض. ما بتكون نايم، بس بتسبح فوق النّوم، وبعدين خلص، ستوب. كلّ شيء بصير عتم والعوض بسلامتك. أنا هيك صار معي حرفيًا، مش عم كذّب، عم قول الحقيقة يا سيّدي. في شيء فقع وبعدين صرت فوق النّوم، يعني نايم ومش نايم، وبعدين وعيت.

أنتم أوصلتموني إلى الأبديّة، وجعلتموني أفهم معنى الحياة، لأنّني ذقت الموت وشربته من تحت ومن فوق.

أريد أن أقول يا سيّدي إنّني في جميع هذه التجارب، كنت حين أصل إلى جوهر الأشياء أراه أمامي. هل تصدّق يا سيّدي أنّ جدّي الذي هو أبي أيضًا كان في انتظاري في كلّ مكان، وأنا لا أريده. لا أريد حكايته لأنّها بلا معنى، لكنّ الموت يا سيّدي، حين يقترب الموت فإنّه يفرض شروطه. الموت يعني أن نعيش أشياء لم نعشها، وتصبح الحكايات التي سمعناها حقائق. حين اقتربت من الموت، أصبحت أنا جدّي وجد جدّي وكلّ السلالة البشريّة. أنا أتكلّم الآن عن خبرة حياة، لذلك فمهمّتي صعبة جدًا. أنا لا أستطيع أن أكتب لكم حكايات كلّ البشريّة التي أعرفها لكنّني لا أعرف كيف أكتبها. لذلك أرجو من حضرة المحقّق أن يطوّل باله قليلاً عليّ، سوف أختصر وأصل إلى جوهر الموضوع الذي تبحثون عنه، لكنّي رأيت جوهرًا آخر لا أستطيع تجاهله، لذلك سوف أكتبه بأقلّ عدد ممكن من الكلمات، كي أكون صادقًا مع نفسي، ومع روحي المعلّقة هناك فوق عرش الموت.

عندما فكّرت بأنّ الحكاية يجب أن تبدأ بجدّي كرهتها. فأنا

لم أكن أحبّ جدّي، لأنّه كان يجسّد الجبن والأنانيّة. كان جدّي يخاف من كلّ شيء، ربّما لأنّ ضميره أنّبه كثيرًا بعد وفاة جدّتي ماري سمحو الله يرحمها، والتي يُقال، والله أعلم، أنّها ماتت بسببه. جدّتي ماتت قبل أن أولد، وهذا ما جعل جدّي يفرض على والدي أو زوج أمّي، الإقامة معه في بيته. أعتقد أنّ الزوج اكتشف الخديعة منذ اليوم الأوّل، لذلك ضبّ أغراضه وتسهّل هربًا من جوّ البيت الذي لا يطاق. ذهب لأنّه لم يشعر مرّة واحدة أنّه في بيته. لا السّرير سريره، ولا الحياة حياته، ولا الزوجة امرأته. ادّعى جدّي أنّه اكتشف بالصدفة أنّ أبي أو زوج أمّي لم يكن سريانيًّا، بل كان عربيًّا حلبيًّا ينتمي إلى طائفة الرّوم الملكيين الكاثوليك. طيّب شو بغيّر هيدا بالموضوع، وأين الجريمة؟ ولماذا لم يكتشف الكوهنو الحقيقة قبل تزويج ابنته من الرّجل؟ جدّي قتل أبي ودعس على ظلاله بقدميه. هل تعلم يا سيّدي أنّني لا أملك صورة فوتوغرافيّة لوالدي؟ حتّى صور العرس تمّ تمزيقه منها، ولم يبق منه شيء حتّى اسمه اختفى، فأنا أحمل اسم جدّي، وبطاقة هويّتي تقول إنّني من آل أبيض. يعني شو بدّي قول وأنا إلى الآن لا أعرف الفرق بين أن يكون الإنسان سريانيًّا أو عربيًّا. الإنسان إنسان، وكلّنا من آدم وآدم من تراب. لماذا هذه الحركات إذن؟ أنا لا أفهم آلام جدّي الذي جعل من فمه مقبرة للغة المسيح. شو هالكلام السّخيف؟ شو هو المسيح ما بيفهم عربيّ أو يونانيّ أو لاتينيّ؟

كان خوف جدّي لا يوصف. وكانت أمّي تقول إنّ خوفه آتٍ من طفولته، وبسبب المذبحة التي ارتكبت في قرية عين ورد في بدايات القرن العشرين. لكنّني لست متأكّدًا من شيء. ربّما كان

موت جدّتي هو السبب. سمعت خبر جدّتي من الناس وليس من أمّي. أمّي لم تتكلّم عن أمّها إلاّ قليلاً، لكنّني كنت أشعر بوجود نقطة سوداء تخيّم على علاقة الصمت بين أمّي وجدّي. فجأة يحلّ الصمت بينهما ويتكلّمان دون كلمات. وفهمت أنّ الحوار الحقيقيّ بين الناس يتمّ دون كلام. الكلمات لا تقول الأشياء بل تغطّيها. الآن فهمت يا سيّدي لماذا أجد صعوبة في الكتابة، لأنّ المطلوب منّي هو أن أغطّي الحكاية، وهنا أشعر بالعجز، فالذي يريد أن يكتب يجب أن يمتلك نصًّا مضاعفًا ويدوبل على الصّمت بالحكي. أمّا حين يكون الحكي هو حياتك، فإنّك تحكي صامتًا.

أفهم يا سيّدي أن تطلبوا من شخص كتابة قصّة حياته من أجل العبرة أو الموعظة. ولكن ما نفع قصّتي؟ ولماذا أحكي قصّة جدّي بدل أن أحكي قصّتي؟ هل لأنّ الكوهنو قتل زوجته؟ هل صحيح أنّ هابيل أبيض المعروف باسم أفرام قتل زوجته، وهذا هو سبب خوفه من كلّ شيء؟

كان الكوهنو يقول إنّ جسد الإنسان هو بيت الخوف. وإنّ الله خلق للرّوح جسدًا من طين من أجل تهدئة خوفها من الخوف أو من الله. لكنّ البيت الجسديّ تحوّل سببًا جديدًا للخوف، وذلك بسبب الخطيئة. الإنسان يموت لأنّه أخطأ، والموت هو خوفه الأعظم، نخاف من الجسد، لذلك يجب أن نذيبه قبل أن يقوم بإذابة أرواحنا. يجب أن نعيده فخّارًا وأن لا نعتني به إلاّ كما يعتني الفاخوري بالفخّار. يسقيه ماء ويضعه في الشّمس. لا يحتاج الجسد إلاّ إلى الماء وبعض النباتات التي طبختها الشّمس. وما عدا ذلك باطل.

حاول الكوهنو في البداية الدفاع عن نفسه. قال إنّه لم يرد لامرأته العذاب. ولكن حين حلّ العذاب بعد انتشار المرض في عظامها، لم يدرِ ماذا يفعل، فاضطر إلى الاستعانة بالأطبّاء، وتمّ نقل المرأة إلى مستشفى الرّوم في الأشرفيّة حيث ماتت تحت جرعات المورفين، التي لم تستطع التخفيف من آلامها.

الصّمت بين الكوهنو وابنته الذي كان شكل الحوار بينهما، لم يفهمه يالو إلاّ حين سمع جارتهم الست ماري روز تهدّد زوجها بأنّها ستتركه يموت كما ترك الكوهنو امرأته تموت دون أن يعالجها. تخيّل يالو المشهد ورآه في عينيّ أمّه، وفهم كيف يستطيع الإنسان قراءة الممحوّ.

جدّه قال وهو يروي عن المذبحة التي جرت في طور عابدين، إنّه تعلّم قراءة الممحوّ. لازم نتعلّم نقرا الكلمات الممحيّة، هيدي هي قصّتنا، نحن شعب حكايته انمحت ولغته انمحت وإذا ما تعلّم يقرا الممحي بضيع كلّ شي.

في الماضي، لم أصدّق أنّ في استطاعة الكوهنو قراءة الكتب التي محاها الزمن ومزّقها التاريخ. لكنّني بدأت أصدّقه الآن، لأنّني رأيت كيف قرأ يالو الصّمت والكلمات الممحوّة.

أمّي صارت تتكلّم الممحوّ قبل أن تمّحي صورتها في المرآة. كانت تستخدم الصّمت، من أجل أن تُفهم الكوهنو بأنّها تعرف.

نعم يا سيّدي، يبدو أنّ جدّي ترك زوجته تموت. أخذها إلى الطبيب الذي شخّص وجود سرطان في ثديها الأيسر، لكنّه بدلاً من إدخالها إلى المستشفى من أجل إجراء عمليّة استئصال للثدي المصاب، أعادها إلى البيت واشترى علبة أسبرين، وتركها تموت. قال لابنته إنّ السرطان لا دواء له، والأفضل أن لا أسمح

للأطبّاء بتقطيع جسدها، أنا كلّ همّي أن لا تتعذّب.

لكنّها تعذّبت كثيرًا!

لم تقل غابي هذه العبارة، لكنّها نظرت إلى والدها، فقرأها في عينيها، وصار لسانه عاجزًا عن متابعة الكلام. يومها اخترعت غابي لغة الصّمت، وحاولت مخاطبة الياس الشامي بها، لكنّ الخيّاط لم يكن يملك نعمة الصّمت. وحده يالو تعلّمها، وصارت علاقته بأمّه تدور في السّكوت. يأتي إلى البيت فيقرأ في عينيها حزنها ووحدتها وشوقها إليه، ويجيبها دون أن يحكي بأنّه يريد أن يعيش حياته، ولا يستطيع أن يفعل لها شيئًا.

غابي فقدت نكهة الطعام. قالت لابنها إنّ النكهة بقيت في البيت العتيق في المصيطبة، وإنّها صارت عاجزة عن الطبخ لأنّها لم تعد تميّز. كلّ الأطعمة صار لها نكهة واحدة تشبه نكهة البرغل. هيك صار بيّي بآخرتو، وأنا هلّق يمكن صرت بالآخرة، وبطّلت حسّ بطعمة تمّي.

غابي لم تخبر ابنها بماذا أجابت والدها حين قال إنّه فقد النكهة، لأنّها خافت من أن يزعل الكوهنو في قبره. فالكوهنو شعر بإهانة كبيرة حين جاوبته ابنته بأنّه يحنّ إلى النكهة الكرديّة، لأنّه كرديّ. لا يعرف يالو لماذا كان جدّه حسّاسًا إلى هذه الدرجة حول موضوع أصله الكرديّ. فالجدّ حين أتى إلى بيروت هربًا من خاله في القامشلي كان يتكلّم العربيّة والكرديّة، ولم يُتقن السريانيّة الفصحى إلاّ هنا. قال إنّه نسي اللّغة الكرديّة، كأنّها امّحت من ذاكرته، رغم أنّه تكلّمها حين جاء الملاّ الكرديّ إلى بيتهم في المصيطبة، ليفاجأ برفض ابنه للميراث.

هل هذه الحكاية صحيحة؟ أم أنّ أمّي اخترعتها؟ لا أدري.

المطلوب منّي بسيط وسهل، يجب أن أكتب تفاصيل الجرائم التي ارتكبتها، مع مقدّمة قصيرة عن نشأتي وتجربتي في الحرب.

أحاول يا سيّدي حجب التفاصيل التي لا تهمّ حضرة المحقّق ولا تفيد العدالة. لذلك سوف أركّز على نقطتين فقط هما جرائم بلّونة وجرائم المتفجّرات، كما طلبتم منّي. لكنّني حين أسأل يالو أجده في الصمت. فماذا أفعل؟ أسأله فيجيبني صمته بسؤال. هل هذا ممكن يا سيّدي، لو اتّبع النّاس طريقته في الكلام لبطّل الكلام!

سألته، فسألني هل جرائم الحرج أكثر خطورة من جرائم جدّه؟

لم يقتل يالو أحدًا، كان في استطاعته إذا شاء أن يقتل كما يشاء ويدفن ضحاياه في الحرج، ولا من يسأل. لو قتل شيرين هل كانت ستشكوه إلى البوليس؟ أو هل كان الدكتور سعيد الحلبي يمتلك جرأة الذهاب إلى المخفر من أجل تقديم شكوى ضدّ شابّ كمشه في وضع مريب مع فتاة أصغر من أولاده؟

يالو الآن مجرم، وهذا طبيعيّ، وجدّه صار قدّيسًا في نظر النّاس، وهذا طبيعيّ أيضًا، ولكن أين العدالة؟

انكشفت يا سيّدي لأنّني لم أقتل، وجدّي صار قدّيسًا لأنّه قتل، هل تسمّون هذا عدلاً؟ أنا لا أعتقد أنّنا نستطيع تبرير جريمة

الكوهنو بحسن النيّة، كما لا يمكن تبرير جريمة الياس الشّامي في حقّ أمّي، بأنّ زوجته كانت مريضة، فلم يرد أن يكسر خاطرها.

هل تموت أمّي من أجل خاطر زوجته؟ وهل تموت جدّتي لأنّ الكوهنو كان طموحًا ويريد أن يصبح مطرانًا؟

ثمّ ما حكاية أبي؟ ادّعى جدّي أنّ الخواجة سليم رزق قال إنّ أبي ليس سريانيًّا، بل هو حلبيّ، شو يعني؟ أنا اشتغلت ثلاث صيفيّات مع المعلّم سليم وابنه المهندس وجيه، ولم يقل لي أحد هذا الكلام. أنا أعتقد أنّ جدّي لفّق هذه الحكاية عن أبي، لأنّه كان يعرف في قرارة نفسه أنّني ابن الياس الشامي. الخيّاط دمشقيّ، ودمشق لا تبعد كثيرًا عن حلب. هكذا أصبح أنا ابن الحلبيّ، أي بمعنى آخر، ابن الشاميّ. لكنّ السؤال ليس هنا. السؤال هو كيف قبل جورج جلعو أن يتزوّج فتاة لم تكن عذراء. ماذا فعل حين لم ينزف دم البكارة؟ أم أنّ غابي جرحت نفسها وصرخت من الألم الكاذب كي توحي للرّجل بأنّه فتحها؟ تصرّفت مثل قحبة من أجل أن توحي بأنّها عذراء. أنا لا أقول ذلك لأنّني أملك شيئًا ضدّ الفتاة غير العذراء، فأنا مقتنع بأنّ هناك عذراء واحدة في التاريخ البشريّ، هي سيّدتنا مريم والدة الإله لها المجد، فلا لزوم للعذريّة لأنّ مريم تعذّرت عن جميع النّساء. لكن عذريّة غابي الكاذبة أوقعت جورج جلعو في الفخّ. عاش الرّجل في بيت الكوهنو كالغريب، حتّى مضاجعته لزوجته كانت تتمّ في شكل سرّيّ وبصوت منخفض، كأنّ غابي ليست امرأته، كأنّها زوجة والدها. قال لها إنّها زوجة والدها قبل أن يدير لها ظهره ويختفي، وصدقت نبوءته، بمعنى أنّني أنا أيضًا

صرت ابن والدها. ولكن كيف استطاع الكوهنو تسجيلي ابنًا له، علمًا أنّ زوجته، أي جدّتي الحقيقيّة وأمّي في بطاقة الهويّة، ماتت قبل زواج أمّي. التفسير الوحيد هو أنّ جدّي قام بتأريخ ولادتي قبل وفاة زوجته. أي قام بعمليّة تزوير يُعاقب عليها القانون. من المرجّح أنّني لم أولد عام ١٩٦١، كما هو مسجّل، بل ولدت عام ١٩٦٢. وهذا يفسّر تأخّري المدرسيّ وتأتأتي صغيرًا وإلى آخره... أمّا كيف نجح في ذلك؟ ألم يلاحظ مأمور النفوس أنّه يكبرني بستّين عامًا؟ يعني كيف؟ هل هو النّبيّ زكريّا كما ادّعى، حين أخبر الجميع أنّه أصيب بالخرس قبل ميلادي بثلاثة أيّام؟ من أين أتى بهذا الخيال الإجراميّ؟

قلت إنّني أكره جدّي، وهذا ليس صحيحًا، كيف أكرهه، ويالو صار مثل جدّي، جسده فخّار وذاكرته تنسى. إنّه روح، والرّوح عادت إلى منبعها، ولم تعد مهتمّة بالحكايات. أنا سأروي الحكاية من أوّلها إلى آخرها. والأوّل هناك مع جدّي الذي عاد إلى البداية وتوقّف عن الأكل، وصار يتنفّس ذكرياته الناقصة. في هذه المرحلة من حياته أخبرني كلّ شيء، ولكنّي لم أصدّق شيئًا. كيف نصدّق رجلاً معتوهًا قام بربط الدّيك من قدمه إلى جذع شجرة التّين، ثمّ قتله، لأنّه يكره طريقته في امتطاء الدجاجات؟ الحكاية لا تصدّق، وأنا لا أطلب منك يا سيّدي تصديقها.

كنّا نعيش في المصيطبة، في بيت صغير له حديقة كبيرة. وكانت أمّي تربّي الدجاج في الحديقة من أجل البيض البلديّ. كنّا نمتلك حوالي عشر دجاجات وديكًا، لا أستطيع أن أتذكّر الرّقم بالضبط، لكنّني أذكر كيف ماتت، وهنا الموضوع.

في أحد الأيّام، عادت أمّي من عملها لتفاجأ بديكنا الكبير مربوطًا وذليلاً. كان ديكًا ضخمًا، ريشه أصفر وجناحاه ملوّنان، وصياحه يملأ العالم. لم تسأل أمّي من ربط الدّيك لأنّها عرفت. ذهبت إلى شجرة التّين وأطلقته. انتفض الدّيك وهجم على الدجاجات وكان ما كان. سمعت جلبة الدّيك، فركضت إلى الحديقة، ورأيت مشهدًا لا ينسى. كان الدّيك يضاجع كلّ الدّجاجات دفعة واحدة. لا أذكر كم كان عمري، ربّما كنت في الثامنة، وأنا بالطّبع كنت أحسب عمري بحسب بطاقة الهويّة، ولم أكن أعي عمليّة التزوير التي قام بها جدّي، التي لم أكتشفها إلاّ هنا في الحبس، وهذا بفضل مشروعكم بأن يفرض عليَّ كتابة قصّة حياتي، ممّا جعلني أتذكّر أشياء لم أكن أدري بوجودها في ذاكرتي. لذلك فإنّني يا سيّدي أقدّر لكم هذه الفكرة، فالكتابة هي الوسيلة الوحيدة للتذكّر، وإلاّ انحصرت حياة الإنسان في حاضره، وأصبح يعيش بلا ذاكرة مثل الحيوان. لقد اكتشفت أنّني حين أكتب، فإن أبواب الذاكرة تنفتح أمامي. أعرف أنّكم تطلبون منّي حكاية قصيرة، لذلك سوف أختصر، ولكنّني مصاب بالدّهشة أمام ذاكرتي التي انفتحت وصارت تضمّ ذاكرات أمّي وجدّي وأبي وطوني العتيق وألكسي وماريو وشيرين وكلّ الناس الذين عرفتهم في حياتي الشقيّة. ومفاجأتي الكبرى هي الحبر. فالحبر يسيل دون تردّد، الحبر لا يتأتئ يا سيّدي. الحبر يخرج من بين أصابعي، كأنّني صرت مثل الصبيدج الذي أكلته شيرين. شيرين تأكلني الآن، أراها تلتهم الصبيدج الذي يشعر بآلام فظيعة تمتدّ من أسفلي إلى أسفل العالم. الحبر يخرج من بين أصابعي ويعلّمني اللّغة العربيّة. أكتب الآن لأنّ جرجي زيدان

علّمني اللّغة والكتابة. لولاه لكنت مثل الكثيرين الذين لا يعرفون جمال اللّغة وسحرها. أمّي كانت تجلب روايات الهلال من عند الياس الشامي وأنا أقرأ. المعلّم الياس كان مغرمًا بكتب التاريخ وبأمّي، فأهداها الكتب، لكنّها لم تكن تقرأ. وجدتُ في القراءة تسلية لوحدتي. في البداية، كانت المسألة صعبة، ثمّ تحوّلت الأسطر التي تشبه كتل النمل إلى كلمات ودخلت في رأسي. وهذا هو سبب تفوّقي في اللّغة العربيّة في المدرسة. طلبت من الحارس هنا أن يجلب لي كتبًا، فلم يجلب سوى الإنجيل. الإنجيل على رأسي، لكنّي أريد كتب جرجي زيدان من أجل أن أستوحي منه. يعني صحيح أنّ الحكاية التي أكتبها الآن ليست تاريخيَّة، فيالو ليس بطلاً من أبطال التاريخ، لكنّه بطل، يعني هناك شيء من البطولة في حياته، وبعد مئة سنة سوف تصبح الحكاية جزءًا من التاريخ. لكن لا بأس، سوف أحاول أن أكتب كما أعرف، دون أن أنسى فضل جرجي زيدان عليّ. فلقد كشف لي هذا الكاتب أنّ ملوك الغساسنة كانوا سريانًا، أي كانوا يعاقبة من أتباع الطبيعة الواحدة. عندما عرفت هذه الحقيقة بهدلت جدّي. قلت له إنّ العرب أيضًا هم من السريان، وإنّه لا ضرورة لتعييري بأصلي وفصلي، وإنّني لن أدرس اللّغة السريانيّة لأنّ الغساسنة كانوا يصلّون باللّغة العربيّة، وكان إيمانهم مستقيمًا. وعندما لم يجاوب وحاول أن يلعب معي لعبة الصمت، قلت إنّه فقد حيله... وهنا، التقط الكوهنو كلمة حيلو وسألني شو يعني حيلو؟ حيلو يعني حيلو قلت له. قال اسمع: قديشات الوهو، قديشات حيلتونو، قديشات لويوموتو. ترجم إلى لغة ملوك الغساسنة يا شاطر. فترجمت، الحقيقة أنّني لم أكن أعرف أن

أترجم، لكنّني أعرف معنى الجملة لأنّنا نصلّيها كلّ أحد في الكنيسة. قلت: قدّوس الله، قدّوس القويّ، قدّوس الذي لا يموت. قال إنّ حيلتوفو جاءت من كلمة حيلو السريانيّة التي تعني القوّة. الآن أنتَ تستخدم كلمة سريانيّة من دون أن تدري. نصف الكلمات التي يحكيها الناس سريانيّة، هؤلاء الغساسنة لا يعرفون ماذا يقولون، وبدأ في تعداد الكلمات من أسماء الأشهر إلى القلاّية والسوكة والنحلو إلى آخره... لم يجد ما يدافع به عن نفسه وعن لغته التي ماتت سوى عبر تبنّي نظريّة أمّي عن الوردة التي تفتّحت.

الوردة تتفتّح الآن في الحبر الذي يغطّي أوراقي. الوردة تتفتّح داخل جسدي الذي يعلو مع يالو ويعانق أرواح الموتى، ويحنو على أمّي. يجب يا سيّدي أن أعيدها إلى بيتها في المصيطبة. إذا لم يُحكم عليّ بالإعدام بسبب قضيّة المتفجّرات التي سأحدّثكم عنها بالتفصيل، وخرجت من السجن، فإنّ أوّل ما سأقوم به هو إعادة أمّي إلى بيتها كي تعيش معزّزة مكرّمة، ثمّ العودة إلى عملي الأصلي في تعشيق الخشب. كنت أعتقد أنّني نسيت المهنة، لكنّ التعشيق مثل السباحة لا يُنسى. عليك أن تعرف كيف تقسم الخشب إلى نوعين: ذكر وأنثى وتدخلهما في بعضهما مثلما يدخل الذكر الأنثى. المسامير تقتل روح الخشب، بينما يعيد إليه التعشيق الحياة عبر تزويجه من نفسه، فيستعيد ماؤه الذي نزف حين قُطعت الأشجار. علّمني المهندس وجيه أنّ الخشب لا يفنى لأنّ التعشيق يصنع له حياة جديدة.

المعلّم سليم بدل أن يزعل من ابنه عرض نفسه لحلّ المشكلة، وهذا دليل على نُبل أخلاق الخواجة سليم الأعمى،

الذي كان نقيض الكوهنو أفرام. صحيح كيف كانا صديقين؟ بدل أن يربط سليم ابنه إلى جذع شجرة التّين، تطوّع للدّفاع عنه، ثمّ حاول إنقاذ الموقف، ممّا أوصله إلى البهدلة. أمّا جدّي، فعندما رأى أنّ أمّي فكّت الدّيك، صرخ وقال إنّه ربطه لأنّه لا يشبع. وعشنا ثلاثة أيّام من الخلافات، هو يربطه وهي تفكّه وتقول إنّه يغار منه. وفي اليوم الثالث عادت أمّي لتجد الدّيك يترنّح مربوطًا إلى شجرة التّين. ريشه الأصفر تساقط، والدّيك يموت. سألته ماذا فعل، فقال إنّه لم يضرب الدّيك كي يقتله، ضربه من أجل أن يربّيه ويخفّف من شراهته الجنسيّة.

تربّى الدّيك نهائيًا وأعطاكم عمره. مات الديك وحيدًا في زاوية القنّ. وفي الصباح الباكر صحونا على أصوات غريبة. كانت الدجاجات المذعورة تحوم حول الدّيك وتصيح. نعم صارت الدجاجات تصيح كأنّها ديوك مبحوحة. ولم يتوقّف الصياح إلاّ حين نزلت أمّي إلى القنّ وسحبت جثّة الدّيك ودفنتها في الحديقة.

بعد موت الدّيك، بدأت مأساة الدجاجات التي حوّلت حديقة بيتنا إلى مسلخ. المذبحة حدثت بعد موت الدّيك، لأنّ الدجاجات بدأت تترنّح وتدوخ وتسقط على الأرض. هل رأى أحد غيري دجاجة عاشقة تتعثّر في مشيتها ثمّ تفرد جناحيها مستعيدة بهما توازنها كي لا تسقط؟ صرت أخاف من عودة أمّي إلى البيت، لأنّ المساء كان يعني أنّ دجاجة سوف تُذبح. تقف أمّي في الحديقة مشمّرة عن ذراعيها، تمسك الدجاجة، تلوي عنقها وتشخطه بالسكّين، ثمّ ترميها وهي تفرفر بالدّم. وكانت حجّة أمّي أنّ الدجاجات مريضة وسوف تموت حزنًا على

الدّيك، لذلك يجب ذبحها وإلاّ ماتت فطيس وتعذّر أكلها.

بقينا شهرًا كاملاً لا نأكل غير الدجاج، وجدّي يبحلق في حساء الدّجاج ويتأفف من عيون الدهن المنتشرة في وسطه. وأنا الآن أتفهّم موقف جدّي الذي امتنع عن أكل اللّحوم، فرائحة الدّم مليئة بالزنخة. التجسيد الوحيد لموقفي التضامني مع جدّي حصل بعد موته مباشرة، إذ توقّفت نهائيًا عن شرب النبيذ، لأنّ النبيذ يأخذني إلى رائحة الدّم. أعرف الآن أنّ موقفي كان خاطئًا، وأنّ التوقّف عن شرب النبيذ والتركيز على العرق، أضرّ بمعدتي كثيرًا.

شيرين كانت تحبّ النبيذ، لكنّني أجبرتها على شرب العرق، وهذا خطأ. لقد أخطأت مع شيرين كثيرًا، كأنّ وحشًا استيقظ في داخلي، وفسّرت الأمور على ذوقي. فهمت خوفها منّي على أنّه تردّد المحبّين، واستنكافها عن الأكل على أنّه الشبع الذي يصاحب العشق. وهذا ما حصل معي عندما عشقت المدام رندة. لا أنكر أنّني عشقتها، لقد أفقدتني هذه السيّدة عقلي، والسّبب هو بطّة قدمها التي كانت تظهر وتختفي من شقّ عباءتها الطويلة. كنت أريدها كلّ يوم، في اللّيل وفي النهار. أنتظرها وأحترق. أمّا احتراقي الأكبر فكان حين يأتي الخواجة ميشال من باريس، عندها كانت تقطع لي ورقة وتغطّي صوتها بالفلّين وتعاملني كالخادم، ترفع أنفها إلى الأعلى كأنّها تشمّ رائحة كريهة، وأنا أقف بين يديها كالكلب.

لم يكن هدفي السّرقة يا سيّدي، كنت أبحث عن نفسي التي استولت عليها هذه المرأة. اكتشفت سيّارات العشّاق عن طريق الصدفة، ووجدت فيها تسليتي وعزائي. أنا لست كلبًا كي أقبل

تلك المعاملة. نعم، قبلت ما لا يُقبل وأنا في ظلّ بطّة قدمها السمراء التي يسيل عليها عرق الشهوة. في لعبة السيّارات في الحرج، بدأت الأمور تكوّع. حياتي كوّعت في الحرج، وبدأت أبتعد عن المدام تدريجيًا. لكن سبحان الله، شهوتي إليها لم تتوقّف إلاّ عندما علقت بحبّ شيرين.

أعرف يا سيّدي أنكم تريدون منّي ثلاثة أشياء: ماذا فعلت في باريس، والنساء في حرج بلّونة، وعصابة المتفجّرات التي انتميت إليها.

سوف أروي لكم حكايات يالو بالتفصيل، فأنا أريد لهذه الحكاية أن تكون عبرة لمن يعتبر. لذلك فحين أجلس على الكرسيّ أمام الطاولة ممسكًا قلم الحبر السائل من أجل أن أكتب، أشعر بالرّهبة. فهذا الحبر الذي يملأ الأوراق هو روحي. أريد لروحي أن تسيل. أنا لست مثل الصبيدج الذي يستخدم حبره من أجل خداع الصيّادين والأسماك المفترسة. أنا لا أريد خداع أحد. أعرف أنكم في النهاية سوف تطبخونني بهذا الحبر، لكنّني أذهب إلى مصيري برضىً كامل.

أنا لا أخاف الموت يا سيدي، ولا أستخدم حبري من أجل خداعكم. لكنّني سوف أكذب إذا اعترفت بما تطلبونه منّي. هل تقبلون أن أترك لكم بعض الصفحات البيضاء تقومون أنتم بكتابتها على ذوقكم، مع موافقتي على كلّ ما ستكتبون. بالطبع لن أفعل ذلك لأنّني أخاف غضبكم.

بعدما رأى يالو العالم من هذا العلوّ الشّاهق، صار من الحرام إنزاله عن عرشه من أجل تعذيبه. حاولت تطمينه، قلت له أن لا يخاف لأنّني سأكتب كلّ شيء، ولن أسمح بعد اليوم بإذاقته

عذاب الجسد.

ركعت أمام النّافذة حيث يجلس في العلوّ، وطلبت منه أن يساعدني قليلاً. أنا لا أستطيع كتابة هذه الأشياء بمفردي. الحفر في الجمجمة مؤلم، ويجعلك عاجزًا عن وضع الكلمات في جمل مفيدة.

الكوهنو كان يعرف ذلك، فأخذ الكلمات كما هي ونسخها. كان ينسخ الأشعار التي كتبها أفرام السريانيّ، أوالميامر التي كتبها حنّو العينوردي في رثاء شعب سيق إلى الذبح، وصار دمه خيطًا طويلاً يمتد من آمد إلى السّماء.

كان الكوهنو يكتب خيط الدم الأحمر بالحبر الأسود، ويقول إنّه حين ينسخ القصائد والميامر يصير مؤلّفها دون أن يسيء إلى الكلمات والجمل. يا ليتني أجد أمامي كتابًا يروي قصّة يالو، فأنسخه وأخلص من هذه العلقة. قلت في روحي إنّ على روحي أن تتذكّر، ولكن كلّما تذكّرت نسيت، واكتشفت أنّ عليّ أن أتذكّر من جديد، وأنّني لا أزال بعيدًا عن جوهر الموضوع الذي يجب أن أكتبه، أي الاعتراف الصريح بجرائمي، وإعلان الاستعداد لتحمّل المسؤوليّة عنها، والقبول بالحكم العادل الذي سيصدر في حقّي.

الحقيقة يا سيّدي أنّني لم أفعل شيئًا في باريس. قضيت هناك ثلاثة أسابيع كانت أطول من سنة، عرفت فيها الشحار والفقر والجوع. ولو لم يرسل لي الله الخواجة ميشال سلّوم المحامي، لمتّ مثل الكلاب على أرصفة أنفاق المترو. أعترف أنّ جريمتي الكبرى هي أنّني بصقت على اليد التي امتدّت لي بالمساعدة والعون. بدل أن أكون عبدًا لهذا الرّجل الشهم والشريف الذي

أنقذ حياتي، كنت خائنًا. نعم خنته، وهذه أولى جرائمي. أنا لا أقصد علاقتي بالسيّدة عقيلته، التي كُتبت لي ولم يكن لي يد فيها، فالخيانة حصلت قبل ذلك بكثير، الخيانة ارتكبت في باريس، وهي عمل يجب أن أندم عليه طوال حياتي. أنا لا يهمّني إذا كان الخواجة ميشال قد جمع ثروته بين أوروبا ولبنان والخليج من تجارة السّلاح، فهو حرّ وماله حلاله، وصحّتين على قلبه. ثمّ نحن في لبنان آخر من يحقّ له إدانة تجارة السّلاح. لولا تجّار السّلاح، كيف كان بإمكاننا أن نحارب؟ هو تاجر سلاح ونحن استخدمنا السّلاح. شو فيها يعني.

أقمت في منزل الخواجة ميشال في باريس، ٤٥ شارع فكتور هوغو، أسبوعًا واحدًا، حيث رأيت ما لا يصدّق، قبل أن يتمّ تسفيري إلى لبنان، من أجل أن أعمل حارسًا لڤيلّلا غاردينيا في قرية بلّونة في كسروان.

الخواجة ميشال سحبني من فم الموت. كنت أجلس في نفق مترو محطّة مونبرناس، أمام كرتونة كتبت عليها اسمي. وقف الخواجة ميشال طويلاً أمامي قبل أن يطلب منّي أن أنهض وأتبعه. لم أصدّق أذنيّ. سمعت كلامًا باللّغة العربيّة وفهمت. يا الله شو حلو أن نفهم. هناك في باريس كنت أشعر حين يتكلّمون معي بتلك اللّغة التي لا أفهمها، أنّهم يضربونني بالكلمات، وكنت أضع يديّ لا إراديًا على وجهي من أجل أن أتلافى الضربات.

طلب منّي أن أنهض وأتبعه، سألني في البداية من أكون، وكان ضجيج أصوات القطارات يحجب صوتي. أمرني أن أتبعه، فتذكّرت قول السيّد المسيح لأحد تلاميذه: احمل صليبك

واتبعني. وقلت إنّني سأتبع هذا الرّجل إلى آخر الدنيا ولن أتركه، وسأكون عبده وخادمه.

وقف الخواجة ميشال على رصيف نفق المترو، وسأل الشاب الطويل النحيل لماذا يجلس كالشحّاذين. حاول يالو أن يخبر حكايته، لكنّه لم يعرف ماذا يقول. فبكى. لا، لم يبك، لكن صوته غصّ بالبكاء. سأله الخواجة ابن من يكون؟ فأجاب أنّه ابن الخوري أفرام أبيض، فصرخ الخواجة: ابن خوري ومبطوح هون؟ قال يالو إنّ الخوري هو جدّه. فقال الرّجل: يلله، يلله، يا عيب الشّوم، هلّق بيّك أو جدّك بكون عم يبكي بالقبر. يلله، قوم والحقني. ولحقه. وجد يالو نفسه في بيت فخم، تحمّم ولبس ثيابًا نظيفة، والتقى بعطا. الخواجة ميشال لم يترك لضيفه مجالاً كي يسأل، أمر عطا أن يتقدّم ويبارك دانيال ابن الخوري أفرام أبيض. فتقدّم رجل قصير القامة، له كرش كبير ويدان صغيرتان، وسلّم على يالو. ثمّ طلب منه الخواجة ميشال زيتًا. تردّد عطا قليلاً قبل أن يدير ظهره، ويقف في مواجهة أيقونة الثالوث القدّوس، حيث يظهر ثلاثة أشخاص تحيط هالات القداسة برؤوسهم، يجلسون نصف دائرة حول مائدة وضعت عليها ثلاث كؤوس. أدار عطا ظهره ليالو وتقدّم من الأيقونة، فبدا كمن يقف على قفاه. كانت قدما عطا قصيرتين ومؤخّرته كبيرة بحيث تقيم توازنًا مع كرشه المنتفخ. مدّ عطا الواقف على مؤخّرته يديه، وبعد ثوانٍ بدأ الزيت يرشح من كفّيه، والخواجة ميشال يصرخ: قدّوس، قدّوس، قدّوس، شفت الزيت يا ابني، قوم حتّى نتبارك، صلّب إيدك على وجهك وقوم. تردّد يالو قليلاً، لكنّه تبع الخواجة ميشال الذي تقدّم محنيّ الرّأس، وأخذ

قليلاً من زيت عطا، ووضعه على جبينه راسمًا إشارة الصليب. تبع يالو سيّده الجديد، وفعل مثلما فعل، وهو لا يُصدّق عينيه كأنّه في منام. وحين استدار عطا توقّف الزيت عن يديه، نظر إلى يالو فرأى الدهشة على وجهه، فغمزه. فما كان من يالو إلاّ أن ردّ على الغمزة بمثلها.

هنا بدأت الخيانة، لم يخبر يالو سيّده عن الحقيقة التي يعرفها، لا لأنّ عطا أعطاه مصاري، بل لأنّه خاف. خاف أن يقول فلا يصدّقه سيّده، ويجد نفسه في الطّريق. هذه هي الخيانة التي ندم يالو كثيرًا لأنّه ارتكبها. يالو تعرّف إلى عطا في أزقّة الحرب في بيروت. كان عطا عطا، وهذا هو اسمه الكامل، يعمل في إطار مجموعة «شهود يهوه» وهي فرقة دينيّة انتشرت في شكل واسع خلال الحرب، قبل أن تتلاشى تدريجيًّا. إنّها فرقة تدّعي الانتماء إلى المذهب البروتستانتي، أعضاؤها يمتنعون عن شرب الخمر أو التدخين، كما يُحظر على نسائها التبرّج أو استخدام العطور ومستحضرات التجميل، وبشارتها الأساسيّة هي الاستعداد لأنّ نهاية العالم وشيكة. عطا كان يحمل الكتب الدينيّة ويوزّعها على البيوت، ويالو التقاه للمرّة الأولى في منزله في حي المراية، حين قامت غابي بطرد المبشّر ذي البشرة البنّيّة الغامقة من البيت، لأنّه أعوذ بالله، نحن أتباع يعقوب البرادعي ومار أفرام السرياني، ويأتي هؤلاء لتبشيرنا بالدّين الذي نشأ في بلادنا ونطق لغتنا؟ يا عيب الشّوم. ثمّ التقى به ثانية في سجن الكرنتينا، وقيل إنّه سجن لأنّه سرق مجوهرات من أحد البيوت التي دخلها من أجل التبشير، ولم يطلق سراحه إلاّ بعد توبته عن علاقته بشهود يهوه.

يالو ردّ على غمزة عطا بغمزة لاإراديّة، بعد أن شهد أعجوبة الزيت التي تكرّرت عند زيارة الأسقف ميخائيل صوايا منزل ميشال سلّوم في شارع ڤكتور هوغو.

في ذلك المساء، كان الخواجة ميشال مضطربًا. فالمطران ميخائيل سوف يأتي لزيارته من أجل إثبات أعجوبة الزيت التي ظهرت على خادمه عطا. جاءت طبّاخة فرنسيّة في الصباح وأعدّت العشاء، وقام خادم فيليبيني بقلب الشقّة رأسًا على عقب من أجل تنظيفها. وفي المساء وصل سيّدنا حاملاً عصاه، ولم يكن في البيت سوى الرّجال الثلاثة.

كنت أجلس وحيدا في غرفتي الصغيرة، عندما فتح الخواجة ميشال الباب، وطلب منّي أن أخرج وأسلّم على سيّدنا. شعرت بخجل شديد، لا بدّ أنّ الخواجة أخبر المطران قصّتي، والآن ستبدأ السين والجيم، وأنا لا أريد أن أحكي. فكّرت أن أهرب من البيت، أنا عايف حالي من أشباح الخوارنة، وهلّق طلعلي هالنصّاب يللّي بيعمل عجايب، وفوق الدكّة وصل المطران. بس وين بدّي روح؟ لقد فهمت يا سيّدي أنّ جدّي كان السّبب في إنقاذي من ذلّ باريس. الخواجة ميشال لو ما كان واقع تحت سحر العجايب ما كان التكش فيّي، شي عرف أنّ جدّي كان خوري، قال قوم والحقني. قمت، فوجدت نفسي أجلس وحيدًا في زاوية الصالون، بينما أدار عطا ظهره للخواجة والمطران الجالسين على الكنباية في مواجهة أيقونة الثالوث القدّوس. وفجأة بدأ الزيت يرشح من الكفّين الصغيرين الممدودين. فصرخ الخواجة: قدّوس، قدّوس، قدّوس، ورسم المطران إشارة الصّليب. أمّا عطا فبدأ يقصر، بينما خلقت الظلال التي رسمتها

الشموع على الحيطان أجواء غريبة. كانت الأضواء مطفأة بحسب أوامر عطا. أطفئت اللّمبات الكهربائيّة وأضيئت الشّموع، وانتشرت الظلال على الحيطان وبدأ الزيت. واختفت قدما عطا، ارتعش يالو عند اختفاء قدميّ عطا، وكاد أن يصدّق الأعجوبة، ثمّ انتبه إلى أنّ الرّجل جثا على ركبتيه، وصار الزّيت أكثر تدفّقًا. وقف عطا، لم يدر ظهره للأيقونة، بدأ يتراجع إلى الوراء ووجهه إلى الأيقونة وظهره للمطران، ثمّ حين وصل إليه استدار فجأة وانحنى أمام سيّدنا يقبّل يده، لكنّ المطران أخذ يد عطا بيديه، ثمّ رفع يديه إلى لحيته ومسّدها بالزيت المقدّس. عندها سقط الخواجة ميشال عن الكنباية وركع أمام عطا طالبًا منه وضع يديه على رأسه. وضع عطا يديه على رأس معلّمه، ثمّ رفعهما إلى الأعلى، تراجع خطوتين إلى الوراء وتكتّف.

سأل المطران لماذا توقّف الزيت، فأجابه الخواجة بأنّ الزيت يتوقّف عندما يدير عطا ظهره للأيقونة العجائبيّة.

وقف المطران، وتقدّم من الأيقونة، انحنى أمامها في مطانيّة جعلت أصابع كفّه اليمنى تمسّ الأرض، ثمّ قبّل الأيقونة وصرخ: قدّوس، قدّوس، قدّوس، وجثا على ركبتيه. فجثا الخواجة ميشال إلى جانبه، وسمعت المطران يقول إنّ الأيقونة ترشح زيتًا، ثمّ ارتفع صوته بهذه الصلاة: «الآن أطلق عبدك أيّها السيّد حسب قولك بسلام، لأنّ عينيّ قد أبصرتا خلاصك» ثمّ وقف المطران، وطلب من الخواجة إضاءة الكهرباء. اشتعلت الثريّا في سقف الصالون بالضّوء، ورأى يالو الرّجال الثلاثة يلتمعون بالزيت.

رأيت دموعًا في عيني المطران وهو يقول إنّه يريد أن يجلس. أمسك به عطا من ذراعه وساعده على العودة إلى الكنباية. قال المطران إنّه يشعر بدوخة، فعرض عليه الخواجة ميشال قليلاً من ماء الزهر، لكن سيّدنا رفض بإشارة من حاجبيه الرّفيعين، وطلب من الخواجة ومن عطا الجلوس إلى جانبه.

كنت أجلسُ وحيدًا في الزاوية، أراهم ولا يرونني، وجاءتني فكرة أنّ سيّدنا ينتف حاجبيه مثل النساء، وكدت أصاب بنوبة ضحك، لكن صوت المطران جعل الدم يجمد في عروقي. سمعت صوتًا عريضًا ثخينًا، كأنّه يخرج من الصدر: الآب، الآب، أرى الآب، انظر يا ميشال، انظروا يا أولادي، الآب الجالس في وسط الأيقونة يتحرّك، يحمل الكأس ويقرّبها من شفتيه. لا أحد رأى الآب إلاّ مات، الآب يدعونا إلى ملكوته ويبشّر بقرب مجيء السيّد الثاني. قال إنّ الآب رفع كأسه مرّة ثانية، فامّحت الأيقونة. الأيقونة ممحوّة، جعر بصوته الثخين، قبل أن يسقط أرضًا.

اعتقدت أنّ المطران سوف يموت. زحط عن الكنباية، وسقط جالسًا على السجّادة العجميّة التي تغطّي الأرض، ثمّ دبدب مقتربًا من الأيقونة، وركع واضعًا جبينه على الأرض. ركع ميشال وعطا، ووجدت نفسي أركع وأنظر إلى الأيقونة دون أن أرى أيّ تغيّر فيها. لا أعرف كم دام وقت الرّكوع، لكنّي شعرت أنّه لن ينتهي. ركعنا صامتين، لا نسمع سوى صوت تنفّس المطران الكهل الذي يشبه الشخير، ثمّ بدأ تنفّسه يهدأ. اعتقدت أنّنا سنركع هكذا إلى الأبد، وبدأت أشعر بألم في ركبتيّ، وصارت عيناي تؤلمانني، فأغمضتهما، وبعد وقت

طويل، سمعت صوت عطا يقول إنّ العشاء جاهز. يبدو أنّه تركنا راكعين وذهب وأعدّ المائدة. فتحت عيني، فرأيت أنّهما نهضا، مشيت خلفهما إلى غرفة الطعام. كانت المائدة قد أعدّت، ووضع عليها خمسة صحون وخمس كؤوس وقنينة نبيذ، ووعاء زجاجيّ تفوح منه رائحة لحم العجل، وجاط من سلطة الخصار. وبعد أن بارك المطران المائدة، التفت إلى الكرسيّ الفارغ، وسأل الخواجة ميشال إذا كان علينا أن ننتظر أحدًا على العشاء قبل أن نبدأ. نظر الخواجة ميشال صوب عطا الذي قال إنّ الصحن الإضافيّ متروك للنبيّ الياس الحيّ. هذا تقليد يهوديّ قال المطران، وطلب رفع الصّحن. لكن عطا اعترض قائلاً إنّ الصحن ظهر له في الرّؤية. قال إنّه سمع صوت مار الياس يطلب منه أن يترك له مكانًا على المائدة. ثمّ بدأ صوت عطا يرفع، حتّى صار مثل صوت فتاة صغيرة، وهو يرجو المطران السماح لإيليّا النبيّ بالجلوس معنا. ظهر الامتعاض على وجه المطران الذي كان يأكل لحم العجل كأنّه يبتلعه، فلم يقل شيئًا. وخيّم الصّمت، لم يشرب سيّدنا سوى بلعة واحدة من كأسه، لذلك لم يشرب أحد.

وحين رفعنا المائدة أنا وعطا، شاهدت الخواجة ميشال ينحني ويقبّل يد المطران، ورأيته وكأنّه أعطاه شيئًا، والمطران أخذ الشيء وقال الله يديم النعمة على هذا البيت. كنت أريد أن أقول للمطران والخواجة إنّ عطا نصّاب ولا علاقة له بالدّين، ولكنّني لم أكن متأكّدًا من أنّ صوتي سوف يخرج من حنجرتي. خفت أن يصيب صوتي ما أصاب صوت عطا، ويخرج رفيعًا مثل أصوات الفتيات الصغيرات، فلم أقل شيئًا.

في المطبخ، وبينما كنّا نشطّف الصحون، ابتلع عطا جميع كؤوس النبيذ، وهو يقول إنّ هذا أطيب نبيذ في العالم، ثمّ أجهز على القنّينة، وكانت شفتاه الرّفعيتان تتلمّظان، ثمّ أعطاني مالاً دون أن يجرؤ على النظر في عينيّ.

لم يُدعَ يالو إلى جلسات الزيت الإضافيّة التي أُقيمت ثلاث مرّات خلال أسبوع واحد في المنزل الباريسيّ. خمّن أنّ عطا قرّر استبعاده عنها، وشكر ربّه على ذلك، لأنّه كان متأكّدًا من أنّه لو دُعي إلى جلسة ثانية، لانفجر ضاحكًا وفضح العمليّة برمّتها. لكنّ العمليّة انفضحت في القيلّلا. غادة أخبرتني كيف نجح الشمّاس عصام مرقص في كشفها.

لقد استغلّ عطا إيمان الخواجة ميشال وحلبه. نعم حلبه. عطا كان نصّابًا والحمد لله أنّ فضيحته لم تكن على يديّ. رأيته كيف خرج من القيلّلا وسط برد شهر شباط. كان عاريًا من فوق وكأنّه يمشي على ركبتيه، اعتقدته راكعًا، وخمّنت أنّه نقل عجائبه من الصالون إلى الحديقة، لكنّني كنت على خطأ. وقف عطا تحت الشرفة المضاءة يحتمي من المطر، صرختُ له، التفت إلى الوراء، وحين رآني ارتسمت تكشيرة على وجهه الذي اندفع إلى الأمام وتبلّل بالمطر، ثمّ ركض في العتمة التي ابتلعته.

غادة أخبرتني أنّ الشمّاس عصام كشفه. أقيمت الحفلة كالعادة وسط العتمة والشموع المضاءة، وبدأ الزيت يرشح من الكفّين الممدودين، قفز الشمّاس وعبطه من الخلف وأمر بإضاءة الكهرباء. كان عصام قبل التحاقه بسلك الكهنوت أستاذًا للرياضة في مدرسة كلِّيَّة البشارة. حين عبط عطا لم يعد المسكين قادرًا على الحركة. أضيئت الكهرباء فطلب الشمّاس من عطا خلع

قميصه، عاند عطا، لكنّ الشمّاس لم يترك له أيّ مجال للحركة، مزّق القميص وأخرج من تحت الإبطين قنّينتين بلاستيكيّتين صغيرتين مليئتين زيتًا. ثمّ التفت إلى الخواجة ميشال، وقال إنّ هذه الزعبرة يجب أن تتوقّف.

ضحكت غادة من صغر عقل والدها، وقالت إنّ عطا نصّاب، سحب المصاري من والدها وهرب. لكنّني لم أخبرها بما كنت أعرفه عن عطا، خفت أن تخبر والدها، فيعتقد الخواجة أنّني شريك في العمليّة، وأنا لا يخصّني. كلّ ما أعرفه عن عطا أنّه كان من جماعة شهود يهوه، ولم تربطني به أيّ علاقة على الإطلاق. صحيح أنّه غمزني وأعطاني بعض المال ليشتري به سكوتي، لكنّني كنت سوف أسكت على أيّ حال. علاقتي به لا تتجاوز واقع أنّني شاهدته مثلما شاهده العشرات في منزل الخواجة ميشال في باريس، ورأيت كيف رأى المطران ميخايل صوايا الإله الآب، وهذا طبعًا مستحيل. أنا أعرف من جدّي أنّ لا أحد يستطيع أن يرى الإله الآب، حتّى النبيّ موسى لم يره في سيناء. وحده المسيح رآه. لا أحد رأى الآب إلاّ البرو، والمسيح هو الابن الحقيقيّ.

هذا كلّ ما جرى في باريس. أعرف أنّكم طلبتم منّي حكاية باريس لأنّكم تشكّون بأنّ علاقتي بعصابة المتفجّرات بدأت هناك. لكن والله العظيم هذا كلّ شيء. أمّا الخواجة ميشال فلا علاقة له.

كتب يالو في اعترافاته السابقة عن لقائه هيكل. الحقيقة أنّ حكاية المتفجّرات بدأت بهذا اللّقاء، الذي من المرجّح أن يكون قد تمّ في الأشرفيّة، عندما كان يالو في أسفل البناية التي يقع فيها

مكتب شركة عرايسي للإعلانات، في انتظار شيرين.

يالو تجاهل هيكل في البداية، لكن زعيم العصابة اقترب منه. وبعد السلام والعناق بدأ الكلام. وقام هيكل بابتزاز يالو وتهديده بسبب أموال ثكنة جورج عرموني. يالو لم يأخذ ويُعْطِ مع هذا الرّجل لأنّه كان ينتظر شيرين. شعر بالخوف عليها، لذلك وافق على كلّ شيء. أعطى هيكل موعدًا في مطعم «بدارو إن». قال نلتقي غدًا ظهرًا وسلّم عليه ومضى. ادّعى يالو أنّه غادر المكان، لكنّه برم خلف سينما أمبير في انتظار أن يختفي هيكل. عاد يالو إلى مكان انتظاره، ووقف تحت شجرة الكينا التي تظلّل الرّصيف، وفجأة أحسّ يدًا على كتفه، التفت إلى الوراء ليجد هيكل وأيقن أنّه علق. طلب منه هيكل عنوانه، فلم يجد يالو مهربًا من أن يعطيه عنوان الڤيلّلا. قال هيكل إنّه يفضّل أن يلتقي به في بلّونة، وألغى موعد شارع بدارو، وذهب، لكن يالو كان متأكّدًا من أنّه سيكمن في مكان قريب من أجل مراقبته. فقرّر أن يغادر هو أيضًا، نظر إلى ساعته وتأفّف كأنّه ينتظر شخصًا لم يأتِ، ثمّ مشى.

دخل يالو المقهى المجاور لسينما أمبير، شرب كأس بيرة مثلّجة، ثمّ عاد إلى أسفل البناية وانتظر. لكن شيرين لم تخرج من عملها. يبدو أنّها غادرت خلال فترة غيابه. ومرّة ثانية نظر إلى ساعته، وتأفّف وهزّ رأسه قبل أن يمضي.

هكذا يا سيّدي علق يالو في حبائل العصابة. أنا لا أقول إنّ شيرين هي السبب، بل أقول إنّه القضاء والقدر. علق يالو في القضاء والقدر، واضطر إلى تخزين المتفجّرات في كوخه، لكنّه لم يشارك في عمليّات التفجير، لأنّه كان مهتمًّا بشيء آخر. يالو كان عاشقًا يا سيّدي، وهذا كلّ شيء.

لقد وعدتكم ونفّذت وعدي. لكنّني لا أستطيع أن أزبّط موضوع المتفجّرات في شكل أفضل، ولا أن أجاوب على سؤالكم الذي كلّف يالو تحمّل الكثير من أصناف الضرب والتعذيب وهو أين خبّأت المتفجّرات؟

بعد أن اعترف يالو بناء على إلحاحكم بالمتفجّرات، قمتم بتفتيش كوخه، وقلبتم الڤيلّلا ونبشتم الحديقة، لكنّكم لم تعثروا على شيء. أنا لا أستطيع أن أدلّكم على مكانها، لا لأنّني لا أعرفه فقط، بل لأنّ خيالي لا يسمح لي بأن ألعب هذه اللّعبة. المطلوب منّي هو الحقيقة لا الخيال. وأنا قلت ما استطعت عن العصابة، لكنّني لا أستطيع أن أتخيّل أكثر. أنا الآن أتذكّر ولا أتخيّل، وهناك فرق كبير بين الاثنين، التذكّر خيال أيضًا، فالذكريات تأتيني مثل الخيالات وتدخلني في ليلٍ طويل، لكنّني لا أستطيع أن أدلّكم على مكان المتفجّرات، لأنّي لا أكتب قصّة بل أكتب الحقيقة. أعرف أنّني إذا أشرت إلى مكان معيّن، فإنّكم ستذهبون إليه وتبحثون، وإذا لم تعثروا على شيء، وأنتم بالطبع لن تعثروا، فإنّ العاقبة سوف تكون وخيمة عليّ.

والله أستطيع أن أتخيّل أيّ شيء تريدونه، لكنّني لا أستطيع أن أدلّكم على مكان المتفجّرات لأنّه لا وجود له. حتّى حكاية لقاء هيكل بيالو أمام البناية التي تعمل فيها شيرين لم أكن قادرًا على

تأليفها، لو لم يحصل معي شيء مماثل حين التقيت نجيب منصوراتي.

كنت أقف تحت شجرة الكينا في انتظار أن تخرج شيرين من عملها، حين لمست كتفي يد من الخلف. استدرت بسرعة فرأيت وجهًا يبتسم، لكنّني لم أعرفه، قال إنّه نجيب، لكنّني لم أتذكّر من هو نجيب هذا. اعتقدت أنّه واحد من عشرات الشحّادين المودرن الذين ينتشرون في شوارع بيروت. يقترب أحدهم منك ويتكلّم معك بتهذيب، فتعتقد أنّه سيسألك شيئًا، ثمّ تكتشف أنّه يقول ترجومة طويلة عن مرض أمّه أو زوجته أو ابنه ومفادها أنّه يطلب منك دولارًا أميركيًا. حيّرتني ظاهرة الدولار ولم أفهم مغزاها، لماذا لا يشحدون بالعملة اللبنانيّة؟ حتّى الشحّادون يا سيّدي فقدوا ثقتهم بالعملة الوطنيّة! قلت إنّه واحد منهم فبرمت من جديد. لكنّه قال اسمي، أسماني أستاذ يالو. وأنا لم يرتبط اسمي مرّة بلقب أستاذ أو سيّد. أنا يالو حاف أو دانيال حاف، من أين جاء هذا الفتى بالأستاذ ووضعه أمام اسمي. برمت صوبه من جديد فقال إنّه نجيب منصوراتي شقيق سعيد المطرب، وقرّب وجهه منّي من أجل أن يقبّلني، فقبّلته، ثمّ سألني إذا كنت أعرف شيئًا عن مصير شقيقه. فهمتُ منه أنّ سعيد قرّر أن يحترف الفنّ، فعاد بعد نهاية الحرب إلى القامشلي من أجل أن يعمل مطربًا في فندق الخابور الذي يملكه رجل كرديّ يدعى محمّد الهيطة، وأنّه اختفى. قال نجيب إنّهم بحثوا عنه في كلّ مكان، وإنّ أمّه ذهبت إلى سوريا وزارت جميع السّجون، لكنّها لم تعثر له على أثر.

سألني ماذا أعتقد، فقلت إنّني لا أعرف، يعني حدن بكون

بفرقة التيوس، وبعدين بروح على سوريا حتى يعمل مطرب؟ يا لطيف شو طلع حمار.

بكونوا لاكوه، قلت.

شو؟ سألني نجيب.

ماشي، ماشي، كنت عم بتذكّر الغنيّة، «للقمتها وللكتها»، بعدك متذكّر كيف كان خيّك يغنّيها:

«في الأشرفيّة يوم جئتِ وجئتها

نفسي على شفتيك قد جمّعتها.»

بدأ الأخ يرندح الأغنية، وكدت أنساق معه، لولا أنّني تذكّرت أنّنا نقف في ساحة التباريس وسط الأشرفيّة، وأنّ الناس سوف يعتقدون أنّنا مجنونان.

أردت أن أقول له العوض بسلامتك، لكنّني قلت إنّني لا أعرف شيئًا، فدعاني إلى زيارتهم في البيت، ووقف إلى جانبي، سحب علبة دخان من جيب بنطلونه وقدّم لي سيكارة، فقلت لا شكرًا. أشعل سيجارته ودخّنها بهدوء. كان ينتظر منّي أن أسأله عن أحواله من أجل أن يسألني عن أحوالي، لكنّني لم أقل شيئًا. فأنا كنت أريده أن يمضي كي لا تتداخل علاقتي بشيرين مع حياتي السابقة. شيرين يجب أن تكون بداية حياة جديدة لا علاقة لها بذكريات الحرب. لكن نجيب بقي واقفًا ببطلونه النيليّ الطويل المكويّ بعناية. رأيت من خلال البنطلون الفخذين الأبيضين الأجردين. ورأيته بعيني ذاكرتي، حين كان يأتي لابسًا الشورت، لزيارة شقيقه في الثكنة، وغمزات ألكسي وكلامه عن الصبيان ومتعة الحياة التي لا تقارن بأيّ متعة أخرى. أنهى سيجارته، وأنهيت بصبصتي على فخذيه، لكنه بقي واقفًا في

مكانه. عندها قرّرت أن أغادر. نظرت إلى ساعتي وتأففت، سألني إذا كنت في انتظار أحد، أجبته أنّ عليّ أن أذهب الآن، فألقى بنفسه عليَّ من أجل أن يقبّلني. أحسست بغضب جنونيّ، كنت قادرًا على عضّه بدل تقبيله، وبدأت الأصوات تضجّ في رأسي، لكنّني قبّلته بشفتين ترتجفان غضبًا، ومشيت مهرولاً، ودخلت إلى المقهى قرب سينما أمبير، حيث روّقت أعصابي بكأس بيرة مثلّجة، ثمّ عدت إلى الرّصيف وانتظرت، لكنّها لم تخرج من عملها، وهذا يعني أنّها ذهبت خلال فترة جلوسي في المقهى.

هذه هي القصّة الحقيقيّة يا سيّدي، لا أنا لم أتعاطَ مع المنصوراتي الصغير في الثكنة، فأنا أعرف أنَّ هذا ليس خطيئة فقط، بل جريمة أيضًا. حتّى مع الملفونو حليم أنا لم. الآخرون يمكن، أنا ما بعرف وما بحطّ بدمتي، بس أنا لا.

لذلك أقترح أن يتمَّ إقفال ملفّ المتفجّرات عند النقطة السابقة، أي عند لقاء يالو بهيكل قرب بناية عرايسي في الأشرفيّة، ساحة التباريس. وأعتقد أنّ هذا الاعتراف يكفي كي يكون مستمسكًا واضحًا في المحكمة. يستطيع القاضي استخدامه ضدّي، أو يستطيع إيجاد أسباب تخفيفيّة للمتهم، كأن يفترض بأنّ يالو وقع تحت ابتزاز رفاقه السّابقين، وأنّه خاف على علاقته بشيرين فتورّط في القضيّة، لكنّه لم يكن على علاقة مباشرة لا في التخطيط ولا في التنفيذ. كما أنّ علاقته أو علاقة الخواجة ميشال بالمدعو عطا عطا لا تتعدّى الأعجوبة. حرام الخواجة ميشال، كلّ شيء ولا الخواجة، هذا الإنسان النبيل الذي أنقذ حياتي وأعادني إنسانًا بعدما انحطّ بي الدّهر في باريس

إلى مرتبة أدنى من الحيوان. يكفيه أنّه صار أضحوكة، وأنّ زياراته خفّت إلى لبنان بعد فضيحة عطا في الفيلّلا. أعتقد أنّ حادثة عطا حطّمت نفوذه في بيته. تصوّر يا سيّدي أنّ ابنته غادة، التي كانت تنظر إليه بوصفه إلهًا، صارت تضحك عليه. إذا كان هذا هو حال ابنته، فكيف أصبح حال زوجته الست رندة، التي كانت في الأساس تسخر من ولعه بالأيقونات البيزنطيّة، ومن الطّناسة الصغيرة التي كان يرشّ بها الأيقونات من أجل المحافظة على نظافتها ونضارتها. من المؤكّد أنّ الست صارت تحتقره، وأنّها اختارتني عنوانًا للتعبير عن هذا الاحتقار. أنا كنت أداة يا سيّدي، ولقد ساعدني هذا الاكتشاف على الشفاء من الحبّ. أنا أداة لرندة وهي أداة لزوجها وهو أداة لعطا وهو أداة لمن لا أعرف. أو أنا أداة لجدّي وهو أداة لأمّي وهي أداة لاالياس الشامي وهو أداة لزوجته وهي أداة للمرض ولا أعرف. أو شيرين أداة ليالو وهو أداة للخواجة ميشال وهو أداة لتهريب السّلاح أو للحرب والحرب أداة لما لا أعرف...

كلّنا أدوات يا سيّدي. لا أحد يوجد بنفسه ولنفسه. لماذا خلقنا الله إذن؟ هل من أجل أن نتعذّب ونُعذّب؟

يالو لا يوافق معي أنّ الحياة لا معنى لها. كأنّه اكتشف معنى آخر للحياة لا يريد أن يقوله لأحد. حتّى أنا لا أعرف. أدنو منه وأقرأ له، يلتفت إليّ لحظة، ثمّ يشيح وجهه عنّي، ويعود إلى عالمه الخاصّ الذي يأخذه إلى حيث لا أدري.

يالو يا سيّدي اكتشف أنّ الإنسان لا يكون إلاّ حين يصير في أسفل السافلين. هناك في الأسفل، لا يعود أحد أداة أحد. هناك يصبح خروفًا ذُبح بدل الجميع، فطارت روحه فوق العالم لأنّها

صارت حرّة.

لكنني أخاف عليه. أكتب لأنني أخاف عليه، أشعر بألم عظيم يصعد من مؤخّرتي إلى عنقي ويخنقني. أجلس على مطرح الوجع، وأكتب عنه وله، وأرجوه أن ينزل ويعود إليّ. لكنّه هناك فوق، لا يسمع أو يرى، بلى يسمع أصواتًا تأتي من داخله، ويرى حين يغمض عينيه. أحسده وأخاف عليه وأخاف منه ولا أعرف. هل يحقّ لي أن أدعوه إلى النزول، كي يعود إليّ ونخرج من السجن معًا، ونبدأ حياتنا من جديد. أنا أريد أن أبدأ حياتي، الآن صرت أعرف معنى الحياة. حين سأخرج من هنا، سوف أفتح دكّانًا صغيرًا لتعشيق الخشب، وأهتمّ بأمّي المسكينة، وأعوّض لها حياتها، وأنسى شيرين وحكاية شيرين وحبّي لشيرين.

الحكاية صارت واضحة بالنّسبة لي ولكم وله. يا حرام يا يالو. هل تعلم يا سيّدي أنّ كلّ ما نُسب إليه من جرائم الاغتصاب لا يتعدّى عشر حالات أو أكثر قليلاً خلال سنة ونصف. بالطبع يجب أن يُضاف إليها حوالي عشرين حالة سرقة مقصودة أو غير مقصودة.

التهمة باطلة يا سيّدي.

أعرف أنّ حالة واحدة تكفي من أجل أن تدكّوني في الحبس، وتحرقوا سلاّفي، لكنّ المسائل يجب أن تؤخذ ضمن ظروفها، ويُراعى فيها الأسباب التخفيفيّة. وأنا أرى أنّ التهمة الوحيدة التي يجب أن يُحاكم على أساسها هي تهمة البصبصة.

وهنا أريد أن أدقّق قليلاً في تهمة الاغتصاب. من هو المتّهم الحقيقيّ يا سيّدي، يالو أم الرّجال والنساء الذين استخدموا سيّاراتهم في حرج بلّونة من أجل التعريس. القانون اللّبناني واضح وصريح، إنّه يمنع التعريس في الأماكن العامّة. قد يُقال إنّه قانون مجحف لأنّه يعتدي على الحرّيّات الفرديّة، وهذا صحيح لكنّه لا ينصرف قانونيًا. يقول القانون إنّ المرأة التي تُعتقل في وضع مشبوه داخل سيّارة في مكان عامّ، تُعامل بوصفها مومسًا حتّى إثبات العكس. لماذا إذن لا تطبّقون القانون إلاّ على يالو؟

أعرف أنّكم لا تريدونني أن أتفلسف. الضابط قال لي وأنا فوق العرش إنّه يريد قصّة بلا فلسفة وأكل خرا. وأنا أروي الحقائق كما عشتها وشاهدتها. ولكن ألا توافقون معي أنّني مظلوم في هذه القضيّة؟

لا أريد أن يُفهم من كلامي أنّني أريد توجيه التهمة إلى شيرين، شيرين بريئة وطاهرة، ولم تأتِ إلى الحرج مع الدكتور الديّوث سعيد الحلبي إلاّ لأنّها يئست من الحياة ومن تفاهة خطيبها. لقد رأيتموه يا سيّدي، كيف جلس في التحقيق بفخذيه السمينين المتلاصقين، وقال إنّه مهندس وخرِّيج الجامعة الأميركيّة. ماذا سيهندس هذا الحمار الذي يتفركش بفخذيه؟ كيف تختاره وتتركني؟ ألا يوجد في عينيها نظر؟ هل يُترك شابّ طويل رشيق يمشي على رؤوس أصابع قدميه كي لا يُزعج الموتى الذين يغطّون وجه الأرض، من أجل هذا النغل الذي يخاف من خياله. ثمّ كيف يدّعي أنّه كان معها في بلّونة. العمى شو كذّاب وحقير. رضي أن يتفاخر بقرينه من أجل أن يدّكني في الحبس. والله يا سيّدي لو رأيت هذا التافه معها لقوّصته وزرعت جثّته في الحرج، وتركت روحه تئنّ إلى الأبد وسط أشجار الصنوبر. لكنّني لم أقتل أحدًا. لو كان يالو مجرمًا لقتلهم كلّهم وصنع حُرجًا للموتى يشبه غابة عين ورد.

لن أشطّ عن الموضوع الآن، رغم أنّ ظلال جدّي تملأ رأسي، وصوته الذي بلعه في أيّامه الأخيرة يطنّ في أذنيّ. لن أشطّ وأخبركم عن صفصاف الموتى الذي كان يخرج منه نحيب الشّجر، بل سأخبركم الحقيقة عن غراميات يالو وسرقاته، وكيف كان ينزل إلى السيّارات العمياء المطفأة وسط ليل الصنوبر،

ويغنم ما قسمه له الله من مال أو ساعات أو خواتم. نعم، الخاتم الذي أهداه لشيرين كان إحدى غنائم بلّونة، وحين رآه داخل المحرمة التي فتحها المحقّق طفرت الدموع من عينيه، لا لأنّه شعر بالذنب، ولا لأنّه أراد أن يتمسكن مثلما اعتقدتم، بل لأنّه زعل من خيانة شيرين للعهد. كان هذا الخاتم الفضيّ العريض الذي رُسمت عليه رموز فرعونيّة، هو علامة الحبّ التي أعطاها لشيرين. كانا يجلسان في مقهى الرّوضة وكان البحر. يومها أخذت الخاتم وانفتح قلبها له، وشعر أنّ الفتاة تحبّه. أخذت الخاتم وقالت شكرًا وحكت كأنّها كتاب مفتوح. تحدّثت عن عائلتها وكيف هاجر أخواها إلى كندا. قالت إنّها تعبت من حياة هؤلاء النّاس الذين لا يعرفون أن يفرحوا بالحياة. قالت إنّها تحسد يالو، نعم قالت ليالو إنّها تحسده لأنّه يعيش الحياة ويتمتع بها. شكرته لأنّه علّمها كيف تأكل وتتمتّع. تحدّثت عن أمّها التي لا همّ لها سوى عمليّات التجميل وشدّ الوجه، وعن والدها المقاول الذي يذهب كلّ ليلة إلى كازينو لبنان ويقامر. وقالت إنّها قرّرت العودة إلى الجامعة من أجل دراسة الأدب الفرنسيّ، وأخبرته عن أشعار جاك بريفير التي تحبّها. رأى يالو نفسه يتسلّق كلماتها ويتدحرج عليها ويعانقها. ثمّ مدّت يدها ومدّ يده وتعانقت اليدان. قالت إنّها تشكره على كلّ شيء، قبل أن تنظر إلى ساعتها، وتقول إنّ عليها أن تعود الآن إلى البيت.

خاتم الحبّ صار خاتم اتهام. شيرين لم تعد تريد الخاتم وتفضّل أن تلبس بدلاً منه محبس خطيبها الذهبيّ، هي حرّة، وأنا لا أناقش حرّيّتها، ولكن لماذا أعطت الخاتم للمحقّق؟

المحقّق يعلم أنّ الخاتم لا يساوي شيئًا، لو كان ثمينًا لما

احتفظت به. لماذا لم يسألها حضرة المحقّق لماذا قبلت خاتمًا من رجل يلاحقها وتكرهه وتريد التخلّص منه؟ المحقّق اعتبر الخاتم دليلاً جرميًا، والحقّ معه، ولكن هل سأل شيرين متى أخذته من يالو؟ بالطبع لا. حتّى لو سألها فإنّها ستكذب ولن تعترف بأنّها أخذته قبل ستّة أشهر من رفعها الدعوى ضدّي. لن أطلب منكم أن تسألوها ماذا جرى خلال هذه الأشهر، وكم مرة أكلنا سمكًا وكبّة نيّة وشربنا العرق.

ولكن تمهّلوا قليلاً.

أعترف بأنّني سرقت، وجزاء السارق الحبس، وأعترف أنّني زنيت بالنّساء في بلّونة، وجزائي سوف يأتي من الله عزّ وجلّ. سوف أكتب كيف جرت الأمور وأحاول أن أتذكّر، وأرجوكم أن تسامحوني على فراغات ذاكرتي، فذاكرة الإنسان مليئة بالفراغات، ولا يمكن لأحد أن يملأها سوى الله. الله وحده يملك ذاكرة كاملة، أمّا الإنسان فلا يتذكّر إلاّ لينسى.

أنتم تريدون أوّل الحكاية، وأوّل الحكاية كانت بلّونة.

بدأت الحكاية حين شاهدت سيّارة تقف في الحرج ليلاً، وتطفئ محرّكها وأضواءها حوالي نصف ساعة، ثمّ تغادر المكان. وأنا بحكم عملي كحارس تشخشبت. الظلام كان كثيفًا، لكنّي رسمت في رأسي خطّة للدفاع عن الفيلّلا في حال تعرّضها لهجوم مسلّح. أنا أعرف، بحكم مسموعيّاتي عن الخواجة ميشال، أنّ الفيلّلا قد تكون مهدّدة. فالخواجة كما تعلمون يشتغل في تجارة الأسلحة، ويملك فندقًا في رأس الخيمة، ويتعاطى مع كبار مصمّمي الأزياء في لبنان، وينظّم زيارات لعارضات أزياء لبنانيّات إلى الخليج وخلافه من الأمور.

تربّعت في مكاني في الظلام استعدادًا لمواجهة الأسوأ، ولكن لم يحصل شيء والحمد لله.

في اللّيلة الثانية سمعت حركة مشابهة، ورأيت المشهد نفسه تقريبًا، غير أنّ الأمور اتّخذت شكلاً أكثر تعقيدًا. إذ بينما كانت السيّارة الأولى مطفأة، جاءت سيّارة ثانية ووقفت غير بعيد عنها، وأطفأت أيضًا محرّكها وأنوارها. السيّارة الأولى غادرت بعد حين، غير أنّ السيّارة الثانية انتظرت حوالي نصف ساعة إضافيّة قبل أن تغادر. وهذا أثار خوفي وشكوكي. قلت في نفسي إنّها سيّارات استطلاع، وإنّ وجود سيّارتين معًا، يعني أنّ العمليّة مدبّرة ومنسّقة.

خطر لي النزول إلى السيّارة الثانية، لكنّني خفت الوقوع ضحيّة كمين. فقرّرت التريّث والمراقبة ويدي على سلاحي. غير أنّ السيّارة الثانية أشعلت أضواءها فجأة وغادرت المكان. قرّرت أن أخبر المدام عن مشاهداتي، لكنّني عدلت عن هذا الرأي، الرّجل أمّنني على بيته وعياله، وأفهمني أنّه يتكل عليّ وحدي، فقرّرت عدم إثارة خوف المدام، والتصرّف بما تمليه عليّ الظروف.

بقيت هكذا حوالي الأسبوعين، أعلن الاستنفار كلّ ليلة وأبني الاستحكامات الوهميّة بين أشجار الصنوبر والصفصاف في رأسي، إلى أن فاجأتني الحقيقة.

كان القمر بدرًا. جاءت سيّارة وتوقّفت أمام شجرة صفصاف، وكأنّها تعمّدت الاختباء تحت الصفصافة الباكية. وكالعادة انطفأ المحرّك وانطفأت الأضواء. من مكمني خلف سور الفيلّلا كنت عاجزًا عن الرّؤية. فاحترت في أمري. هل أتقدّم نحو السيّارة،

تاركًا رشّاشي خلف السّور، وأمشي كأنّني عابر سبيل، كي لا أتورّط في معركة مبكرة مع هذه العصابة التي تخطّط لاغتيال الخواجة ميشال، أو خطف زوجته أو ابنته من أجل ابتزازه ماليًّا؟ أم أحمل رشّاشي وأتقدّم متخفّيًا بحيث لا يرونني، رغم ما في ذلك من مخاطرة؟ ثمّ تذكّرت قول مدرّبنا قسطا، عن علاقة المقاتل ببندقيّته، فهناك ثلاثة أشياء لا يتخلّى عنها المرء أو يعيرها لأقرب الناس إليه: امرأته وبندقيّته وحصانه.

حملت البندقيّة وتحرّكت ببطء وحذر. ابتعدت عن سور الڤيلّلا وتقدّمت وأنا في وضعيّة مشية البطّة التي تعلّمناها خلال التدريب العسكريّ. تقدّمت كالبطّة، وكمنت تحت شجرة صنوبر، بحيث صرت أرى السيّارة ومن في داخلها بوضوح.

وهنا حصلت المفاجأة.

كنت أتوقّع أن أرى رجالاً مسلّحين، لكنّي لم أشاهد سلاحًا ظاهرًا. وجدت رجلاً وامرأة. قلت هذه هي، إنّهم يستترون بالحبّ، عم يعملوا حالهم عشّاق حتّى يقدروا يراقبوا ويخطّطوا، بس هيدي مش رح تمرق على يالو. قلت أتفرّج حتّى أرى آخرتها معهم. العمى، كأنّي عم بحضر فيلم سينما.

لكن شيئًا فشيئًا بدأت أنسى موضوع العصابة، لأنّني أحسست أنّ الرّجل والمرأة لا يمثّلان دورًا، بل يمارسان ما يشبه الجنس، يعني مثل المراهقين. وبدأت أنسجم. لا، في البداية لم أتهيّج لأنّني كنت خائفًا، والخائف لا يستطيع، وتدريجيًّا زال خوفي وانتظم تنفّسي، وبدأت أتمتّع. كانت هذه هي المرّة الأولى في حياتي التي أشاهد فيها مشهدًا جنسيًّا حقيقيًّا. تهيّجت بشدّة، وخفت من السّقوط أرضًا، فأنا كنت مقرفصًا، وركبتاي

تؤلمانني، لكنّني قرّرت أن لا أقوم بأيّ حركة. يومها انتهيت قبل أن ينتهي الرّجل في السيّارة. إذ ما إن تركت بندقيّتي تستريح في حضني، وارتطم أخمصها الخشبيّ بعضوي المنتصب، حتى قذفت. أنا لم يسبق لي أن رأيت شيئًا كهذا. رجل يداعب امرأة في جميع أنحائها، وثديان خارجان من أعلى الفستان وإلى آخره... أخبرني رفاقي كيف كمشوا أهلهم في اللّيل، وكيف كانت تأتيهم اللّذة وسط وشوشات آبائهم فوق أمّهاتهم، أمّا أنا فيا حسرتي. أبي سافر من زمان، والياس الشامي لم يكن ينام مع أمّي في بيتنا، وجدّي كان جذع شجرة يابسة.

هناك تحت شجرة الصنوبر نهشتني الشهوة. رأيت ذلك الرّجل الذي لم أتبيّن ملامحه يمتصّ نهدين كبيرين ثمّ يتلاعب بهما ثم... ما بعرف كيف بدّي خبّر، لكنّ المشهد كان عجيبًا. بعد أن سمعت صوت المحرّك يدور، عدت إلى كوخي مهرولاً كي أغتسل. وحصل شيء غريب. إذ تهيّجت من جديد فلعبت بيدي، وحلّيتها بيني وبين نفسي تحت الدّوش، وصرت أتهيّج كلّما دخلت كي أتحمّم.

بعد ذلك اللّيل المقمر، وبفعل استمراري في المراقبة، فهمت اللّعبة كلّها. فالمسألة لا علاقة لها بالعصابات ومحاولات الاغتيال والخطف، كما تهيّأ لي في البداية، المسألة مجرّد حفلات تعريس تتمّ في السيّارات. وقرّرت المثابرة على التفرّج. بالطّبع لم أتخلّ عن رشّاشي، لكنّني استعنت ببطّاريّة أعطتني إيّاها مدام رندة ووضعت على رأسي قبّعة صوفيّة بيضاء.

القبّعة وجدتها في الكوخ، أمّا البطّاريّة فحكايتها مرتبطة بانقطاع التيّار الكهربائيّ. بعد مباشرتي عملي بشهرين، انقطعت

الكهرباء، وسمعت صراخ الست رندة. في العادة لا تنقطع الكهرباء في القيلّلا، لأنّها حين تنقطع في المنطقة، تأتي بشكل أوتوماتيكي من مولّد ضخم يوزّع الكهرباء على بيوت القرية. لكن يبدو أنّ المولّد كان معطّلاً، عمّ الظلام، وسمع يالو صوت الست رندة يطلب منه الصّعود. كانت تحمل في يدها شمعة مضاءة وبطّاريّة رفيعة سوداء. أعطته البطّارية وطلبت منه تشغيل مولّد الكهرباء الخاصّ بالقيلاّ والموجود في الحديقة. نزل يالو إلى الحديقة، عالج المولّد وأداره، واحتفظ بالبطاريّة لنفسه. لا، المدام طلبت منه الاحتفاظ بالبطّاريّة من أجل الطوارئ. فوضعها في جيب معطفه، وصارت رفيقه الدائم، بعد أن امتلأت حياته بالطوارئ.

يالو لم يبدأ المغامرة، المغامرة جاءته إلى كوخه فماذا يفعل؟ مغامرته كانت التفرّج على السيّارات العمياء التي تتوقّف بين الأشجار، ويصعد منها بخار الرّغبة الذي ينتشر فوق أغصان الصنوبر الخضراء.

الإنسان يذهب إلى قدره كما يقولون. وقدر يالو كان الحرج. صار يالو ينتظر اللّيل، ويعيش اللّيل، ويتنفّس اللّيل. وصارت السيّارات في عينيه، تشبه حيوانات أليفة تمارس الجنس في الظلام. أعجبته هذه الفكرة وقرّر أن لا يخبرها لأحد. وعندما أخبر حكاية المرّة الأولى لشيرين قام بحذف مشهد وضع البندقيّة الرشّاشة على فخذيه، وما جرى بعد ذلك. وشيرين صدّقته. يالو كان مقتنعًا أنّ شيرين صدّقت كلّ حرف قاله لها. لذلك كانت مفاجأته كبيرة حين رآها في غرفة التحقيق، ممّا قاد إلى انهياره السّريع واعترافه بكلّ شيء. يالو لم يكن جبانًا كي يعترف

بهذه السهولة، لكنّه اعترف لأنّ وجود شيرين أفقده توازنه. وهو رغم اعترافه بكلّ شيء، وجد نفسه داخل دوّامة لا يعرف كيف يخرج منها، ثمّ فهم أنّ المطلوب منه هو الاعتراف عن المتفجّرات، فاعترف. لكنّكم وجدتم اعترافاته ناقصة، وهذا صحيح. وسبب ذلك لم يكن محاولاته عرقلة التحقيق وتضليل القضاء، كما قالوا، بل لأنّه لا يعرف. وهذه حكاية شرحتها لكم يا سيّدي بالتفصيل، وأرجو أن لا يطلب منّي المزيد، فأنا سلّمت أمري لله ولكم.

المرّة الأولى كانت عن طريق المصادفة.

كان يالو مقرفصًا في مكانه المعتاد، خلف سور الفيلّلا، تحت شجرة الصنوبر، حين جاءت سيّارة وتوقّفت في الحرج. أطفأت السيّارة أنوارها، فلم يستطع أن يرى شيئًا. أكثريّة لياليه كانت هكذا، يجلس في العتمة، يحصي أنفاسه ويتخيّل. ولم يكن يرى فعلاً إلاّ حين يطلع القمر، فصار يحبّ أغنية فيروز «نحن والقمر جيران» ويغنّي معها: «بيتو خلف تلالنا بيطلع من قبالنا». لكنّ القمر ليس تحت أمر السيّدة فيروز، القمر لا يضيء إلاّ حين يكتمل. ولأنّ القمر يكبر ويصغر مثل ثديي حبيبته شيرين، أو هكذا تخيّلهما في تلك اللّيلة العجيبة حين طلعت رائحة البخّور، فلقد أطلق عليهما اسم القمر، وصار يدعوهما سهرو، وكان عليه في كلّ مرّة حين يذكر هذه الكلمة السريانيّة، أن يشرح لشيرين معناها.

في تلك اللّيلة، وبينما اللّون الأسود يغطّي بطليّ المشهد، سمع يالو صراخًا ورأى ما يشبه ظلال أيدٍ تتعارك، ثمّ ارتفع بكاء يمتزج بأنين امرأة. عندها ولد يالو النسر. لم يرَ نفسه إلاّ راكضًا، أخرج البطّاريّة من جيب معطفه وأطلق ضوءها، فأصاب الرّجل بين عينيه.

مشى يالو كأنّه يطير، وهبط على السيّارة بالهواء الذي امتلأ به معطفه المفتوح، فبدا كطائر يفرد جناحيه. وخلال ثوانٍ، لم تكن كافية كي يستردّ السائق توازنه ويهرب، وصل يالو، ورأى كيف سقط فكّ الرّجل من الخوف، ورأى ذراعين. نعم لقد أخرج الرّجل جذعه من نافذة السيّارة، ورفع يديه إلى الأعلى مستسلمًا. لكن يالو تابع اقترابه بالضوء المصوّب بين عينيّ الرّجل. وصل إلى السيّارة، ورسم إشارة ببندقيّته. الرّجل الجالس في السيّارة أدخل جذعه وانحنى، ثمّ فتح الباب وخرج رافعًا يديه وهو يقول: بأمرك، شو ما بتريد بصير، بدّك ياها خدها، هيدي شرموطة، خدها بس دخيل عرضك.

لم يخطر في بال يالو أن يأخذها، هبط لأنّه سمع صوت شجار وبكاء. لكنّ الرّجل الواقف أمامه كالمنحني لم يتوقّف عن الكلام: دخيلك شو ما بدّك، خدها إذا بدّك، بس خلّيني روح. أزاح يالو الرّجل من أمامه، اقترب من النافذة وسلّط الضّوء على المرأة. كانت شابّة صغيرة، أو هكذا بدت في عينيه الصقريّتين المفتوحتين في العتمة. شعرت بالضّوء فارتفع أنينها، وتأكّد يالو من أنّها ليست كما قال صديقها الذي كان في أوائل أربعينيّاته. تراجع يالو إلى الوراء قليلاً ولبط الرّجل بين فخذيه وبصق عليه. الرّجل المنحني على ألمه قام بإفراغ جيوبه من المصاري. ورفعها في يده كي يعطيها ليالو. رأى يالو المصاري، لكنّه بدلاً من أن يخطفها ويضعها في جيبه، لبط الرّجل من جديد على خصيتيه وبصق عليه، وحرّك يده اليسرى التي تحمل البطّاريّة من أجل أن يأمره بالذهاب. صعد الرّجل إلى السيّارة، أدار محرّكها ومضى، وبقيت الفتاة منحنية إلى جانبه.

فوجئ يالو كيف قبلت الفتاة بالبقاء مع رجل وصفها بالمومس. وشعر بالذنب، كان يجب أن يقوم بتخليص الفتاة من هذا الرّجل التافه. لكن ماذا يفعل بها؟

عاد إلى كوخه ثمّ قرّر أن يتحمّم، وتحت الدوش تخيّل الفتاة معه، وكان ما يجب أن يكون.

هكذا بدأت الأمور يا سيّدي.

في المرّة الأولى لم يسرق يالو أو يغتصب. في المرّة الأولى اكتشف بعد أن خرج من الحمّام وشرب كأس عرق مع سلطة البندورة والبصل والزيت أنّه كان حمارًا. كان يجب أن يأخذ المرأة والمال وربّما السيّارة أيضًا. سكر وتكلّم مع نفسه، وضحك من سذاجته.

بعد المرّة الأولى اتّخذت الأشياء أشكالها. لم يكن يالو يخطّط لعمليّاته، إذ بقي عمله الرئيسيّ محصورًا في التفرّج والبصبصة. لكنّه كان يهبط على العشّاق، بين حين وآخر، ويأخذ ما قسمه له الله من غنائم. يالو لم يكن طمّاعًا، إذ كان يستطيع لو أراد أن يسرق ما يشاء ويضاجع من يشاء، لكنّه كان مقتصدًا في عمليّاته، لأنّه كان يمزمز، ويأخذ الأمور على رواق، وهذا لا علاقة له بخوفه من الشرطة، فهو كان على يقين من أنّ لا أحد من هؤلاء سوف يشكوه إلى البوليس. يعني ماذا يقولون؟ هل يقولون إنّهم يعرسون في السيّارات، وماذا سيكون مصيرهم ومصير صديقاتهم في حال تمّ تطبيق القانون اللبناني؟

هؤلاء الذين قرأ له المحقّق إفاداتهم، لم يقولوا الحقيقة. أنا لا أقول إنّ إفاداتهم كانت كاذبة كلّها، بل أقول إنّها كانت ناقصة. البوليس يا سيّدي لم يحقّق معهم في شكل جدّي، شو

هالحكي، يعني كلّهم إجوا مع بنات ما بيعرفوهم، هذا كذب. والله لم أعثر خلال خبرتي الطويلة سوى على مومس واحدة اقتسمت معها المال الذي أخذته من الرّجل. أمّا بقيّة النساء فلم يكنّ مجهولات الهويّة، كنّا نساء عاديّات. لكنّ التحقيق لم يكن جدّيًّا، إذ يكفي، والله يكفي فلق واحد كي يهرّوا الحقيقة، ويعترفوا عن أسماء النّساء. أنا لا أقول أن يعذّبوا بالماء أو الكيس أو الكرسيّ أو القنّينة. هذا حرام. لو حُقّق معهم لعرفتم يا سيّدي حقيقة حرج العشّاق، لكنّكم لم تكونوا مهتمّين بالحقيقة في ذاتها، كنتم مهتمّين فقط بإدانتي وإلباسي جرائم التفجير والاغتصاب. لذلك تركتم الجميع يذهبون في حال سبيلهم، ولم يعلق سوى هذا العبد الفقير الصاعد إلى عرشه السماويّ.

حكاياتي في الحرج ليست متشابهة، لكنّني لن أرويها كلّها لأنّني لا أعرف أن أصف الفرق بين نكهة ونكهة ورائحة ورائحة، لذلك سأكتفي بأن أسرد عليكم العناوين، وهي كافية، لأنّني أكتب هنا اعترافاتي، ولا أكتب رواية خيالية.

أولاً:

أنا لا أعرف أسماء النّساء، لأنّني لم أكن أسأل عن الأسماء. لم أَسأل كي لا أُسأل، هذا هو قانون اللّعبة. لذلك فإنّ تعذيبي من أجل إجباري على ذكر الأسماء لن يفيدكم أبدًا، لأنّه سوف يجبرني على التفنيص. وهذا ما وعدت نفسي ووعدتكم ووعدت الله بأن لا ألجأ إليه.

ثانيًا:

لم أكن أسرق إلاّ ما يقدّم لي. كنت أكتفي بأن أهمس: هاتوا كلّ شيء، وآخذ ما يخرج من الجيوب. لم أطلب الساعات أو المجوهرات، لكنّني لم أرفضها. مرّة واحدة رميت ساعة لأنّها بدت ساعة أطفال لا تساوي شيئًا، فرأيت الرّجل ينحني ويلمّها، فأمرته بأن يعطيني إيّاها، ثمّ اكتشفت أنّ حدسي كان صحيحًا، وأنّها لا تساوي شيئًا.

ثالثًا:

لم أكن أتكلّم إلاّ قليلاً وبصوت هامس، لأنّني كنت حريصًا على أن لا يتذكّر أحد صوتي أو ملامحي. كنت أغطّي رأسي ووجهي بالقبّعة الصوفيّة البيضاء، وأتكلّم بصوت منخفض لأنّني أعتقد أنّ الصوت المنخفض يصيب السامعين بالرّعب.

رابعًا:

لم أغتصب بالمعنى الحقيقيّ للكلمة إلاّ مرّة واحدة. فالرّجل هدّدني وتخرين عليّ، ممّا جعلني أجبره على دخول صندوق السيّارة، الذي أقفلته عليه، ثمّ سحبت الفتاة إلى شجرة الصنوبر وحاولت معها، لكنّها رفضت بعناد ومزّقت قميصي، فهدّدتها بالسّلاح. التجربة كانت غير ممتعة لأنّ المرأة كانت شبه مقفلة.

شعرت أنّ عضوي ينزف، فقرّرت التوقّف عن مضاجعة النّساء، لكنّي لم أستطع تنفيذ قراري.

خامسًا:

هناك مرّة واحدة كانت ممتعة في شكلٍ خاصّ مع امرأة في الأربعين برفقة شابّ لا يتجاوز الخامسة والعشرين، أو هكذا قدّرت.

سادسًا:

حوادث السرقة كانت أكثر من حوادث المضاجعة.

سابعًا:

لم أحتفظ بشيء من المسروقات، لأنّني قرّرت من البداية أنّه من الخطأ الاحتفاظ بها. لذلك بعت كلّ شيء بأثمان بخسة وكيفما اتّفق. كنت أبيعها في سوق الصاغة في حيّ عائشة بكّار، قرب أتوستراد التلفزيون، لكنّني تعمّدت عدم التعامل مع صائغ واحد كي لا أنكشف، كما أنّني بدّدت الأموال التي كسبتها.

هذه باختصار حكايتي مع نساء الحرج. وكما ترون يا سيّدي، فإنّ ما قمت به ليس أكثر من واحد في المئة، ممّا كان سيقوم به أيّ شخص في مكاني، فالرّزق كان وفيرًا، وأفواج السيّارات

كانت تتدفّق على الحرج بكثافة.

أمّا القصّة التي رواها المهندس، الذي ادّعى أنّه كان مع شيرين في الحرج، فلا أساس لها من الصحّة. فهو لم يكن خطيبها ولم يأتِ معها. لو كان معها لتغيّرت الأمور كلّها. لا شكّ يا سيّدي أنّك لاحظت بخله ونتانته حين كان في غرفة التحقيق جالسًا كالأطرش في الزفّة. كان يسحب السّيجارة من جيب سترته كأنّه يسرقها، بدل أن يضع علبة السجائر على الطاولة أمامه مثلما يفعل جميع الناس. أنت يا سيّدي وضعت علبتك أمامك على الطاولة، وقدّمت السجائر لمعاونيك وزوّارك، حتّى إنّك قدّمت سيجارة لي، لكنّني لم ألاحظها، لأنّني كنت مُغمض العينين، وهذه عادة مرتبطة بطفولتي. أمّا هو يا سيّدي فكان يمدّ يده إلى جيب سترته الداخليّ ويسحب السيجارة لأنّه حقير. والله لو رأيت هذا السّفيه في الحرج لتغيّر كلّ شيء لأنّني كنت سأقتله. لكنّ الله ستر. إذ لو قتلت شخصًا واحدًا وزرعته في الحرج تحت شجرة الصفصاف لما كان القتل قد توقّف، ولتحوّلت الغابة مقبرة تشبه غابة عين ورد التي كان يُمنع الأطفال من اللعب فيها، بسبب الأنين الذي ينبعث من أغصانها.

قال جدّي إنّ السبب الذي دفعه إلى الموافقة على الذهاب مع خاله عبد المسيح، عندما عاد الخال إلى القرية من أجل أن يشتري ابن شقيقته، هو نحيب غابة الصفصاف والحور التي نبتت على ضفاف نهر صغير لا أعرف اسمه، هناك بدأت الحكاية كلّها، وتمّ ربطي أنا العبد الفقير دانيال هابيل أبيض، المعروف بيالو إلى خيط الدم الذي يمتدّ من طور عابدين إلى آخر العالم.

قال جدّي إنّني ولدت تحت علامة الموت، لأنّ مصراني كان يلتفّ حول عنقي. القابلة ليندا صليبا أنقذتني من الموت بأعجوبة. تركت أمّي تصرخ بالألم لأنّها نسيت الخلاص في بطنها، وقامت بفكّ المصران عن عنقي ممّا حجب صرختي، فاعتقد الجميع أنّني ولدت ميتًا.

ولدت مشنوقًا، وحبل الدّم هو ميراثي الوحيد. لذلك لن أُفاجأ إذا التفّ الحبل حول عنقي في النهاية، وبذلك تكون نهايتي بدايتي، ولا تكون حياتي أكثر من مجرّد منام.

الحكاية لم تولد في ذاكرتي إلاّ هنا في الحبس، حين حصل جلوسي على القنّينة، الذي جعلني أذوق طعم أن يعيش الإنسان خارج الزمن. صحيح أنّ الألم كان كبيرًا، لكنّ العيش خارج الزمن متعة لا مثيل لها. وهذا يفسّر في رأيي إصرار يالو على البقاء هناك في ذاكرة الموتى.

لا أعرف يا سيّدي لماذا أكتب هذه الحكاية الآن، رغم علمي أنّها لا تهمّكم ولن تضيف جديدًا إلى التحقيق. فالجرائم تمّ الاعتراف بها كلّها، وما عليكم سوى إصدار الحكم، لكنّني أكتبها من أجل يالو المسكين، فتكون هذه هي المرّة الأولى التي يستمع فيها إلى حكاية جدّه كاملة.

أوّل القصّة طفلٌ يدعى هابيل جبرائيل أبيض، وُلد في قرية عين ورد المجاورة لطور عابدين، في بلاد لا اسم لها، لأنّها بلاد شعب لم يعد موجودًا. هناك، في بداية القرن العشرين حصلت مذبحة هائلة قام بها الأتراك وحصدت حوالي مليون ونصف مليون أرمني. إنّها المذبحة التي يتذكّرها إخواننا الأرمن كلّ عام، ويقيمون لها الاحتفالات، أمّا مذبحة جدّي فلا يتذكّرها

أحد، لأنّها كانت مذبحة صغيرة ملحقة بمذبحة كبيرة. ويلٌ لشعب يُذبح في مذبحة جانبيّة، لأنّ الجزّار لن يجد من الضروريّ مسح الدم عن سكاكينه. وهذا ما حصل في بداية القرن، حين ذبح الشعب السريانيّ الصغير.

اقتحمت الجحافل المسلّحة قرية صغيرة تدعى عين ورد، لأنّ الورد الجوريّ الأحمر ينبت على ضفاف نبعها الذي يفيض ماء ذهبيًا ملوّنًا بالشمس. (هكذا كان جدّي يصف قريته، ثمّ يقول لابنته إنّه يحكي مثل الشعراء، وإنّه أضاع حياته لأنّه لم يصقل موهبته الشعريّة). هناك ارتكبت المذبحة التي ذهب ضحيّتها جميع سكّان القرية. عندما شعر سكّان القرية بالخطر، التجأوا إلى دير مار يوحنّا، على مسافة ثلاثة كيلومترات من قريتهم، لكنّ المهاجمين الذين طوّقوا الدير، لم يرضوا بغير استسلام الجميع. بعد مفاوضات قادها الكوهنو دنحو، أعطي السكّان الأمان، فخرجوا رافعين أيديهم، بعد أن رموا بنادقهم أرضًا، وبدأت المذبحة. أعمل المهاجمون السيوف في رقاب الجميع، نساءً ورجالاً، ولم ينجُ إلاّ نفر ضئيل من السكّان، تسلّلوا إلى الوديان وهربوا في اتجاه مدينة القامشلي.

جدّي لا يتذكر المذبحة، لأنّه كان دون الثالثة من عمره. وهو يروي المذبحة على لسان خاله الذي يكرهه. لذلك لست مضطرًّا إلى تصديق الحكاية، لا حكاية اللجوء إلى الدّير، ولا حكاية ذبح أهل القرية ودفنهم في قبر جماعيّ حُفر بين أشجار الصفصاف. ما يمكن تصديقه هو أنّ الأطفال الذين كانوا دون الثالثة لم يتعرّضوا للأذى، وأنّ المهاجمين نهبوا بيوت القرية قبل أن يقرّروا الإقامة فيها. لذلك فإنّ صورة الدم الذي صار كوكينة

على شعر والدة جدّي، قد يكون مجرّد صورة أدبيّة، أراد جدّي من خلالها إثبات شاعريّته.

هام الأطفال في شوارع قريتهم يتسوّلون، ولم يترك لهم الخوف والجوع متّسعًا من أجل بكاء أهلهم القتلى.

وصدر قرار الملاّ مصطفى.

أنا لا أعرف غير اسمه الأوّل، لأنّ جدّي كان يرفض التحدّث عنه. قرّر الملاّ أنّه يجب عدم ترك الأطفال هائمين في الشوارع، وأصدر أوامره بتوزيعهم على العائلات الكرديّة التي استولت على بيوت القرية. وكان حظّ جدّي كبيرًا، لأنّه أخذ إلى بيت الملاّ مصطفى. تغيّر اسم الطفل من هابيل إلى أحمد، وصار فتى كرديًّا يتكلّم الكرديّة والعربيّة والتركيّة، ويعيش في كنف عائلة الملاّ، كأنّ شيئًا لم يكن. وحدها غابة الصفصاف كانت شاهدًا يذكّر بالذي كان، ومنع الأطفال من اللّعب فيها، بسبب الأنين الذي يتسرّب من بين أغصان الأشجار التي نمت بشكل غريب بعد المذبحة.

كان يمكن للحكاية أن تنتهي هنا، وينسى هابيل أبيض أصله وفصله، بل ربّما يصبح ضابطًا في الجيش التركيّ، مثل الكثيرين الذين خُطفوا صغارًا من أحضان أمّهاتهم وتربّوا في الجيش العثماني وصاروا عماد الفرقة الانكشاريّة التي كان اسمها يثير الهلع.

لكنّ القدر كان له رأي آخر.

بعد عشر سنوات على المذبحة، وبعد الهزيمة العثمانيّة في الحرب العالميّة الأولى وانحلال الدولة، بدأ بعض سريان مناطق طور عابدين الذين لجأوا إلى القامشلي في شمالي سوريا،

بالبحث عن أولادهم. وهنا ظهر خال جدّي المدعو عبد المسيح أبيض.

وصل عبد المسيح إلى عين ورد، وذهب إلى منزل الملاّ مصطفى وقال إنّه يشتري الولد بالمال الذي يطلبونه، واستحلف الملاّ أن يعيد الولد إلى أهله وملّته وعشيرته. قال الملاّ إنّه مستعدّ أن يهب الولد أحمد لخاله مجّانًا ودون مقابل، شرط أن يبدي الولد رغبة في ذلك.

نده الملاّ على أحمد الذي وقف بين والده الكرديّ وخاله السرياني. سمع قصّته من فم والده وفهم أنّ الملاّ يخيّره بين الذهاب مع عبد المسيح أبيض أو البقاء هنا.

حين كان جدّي يصل إلى هذا الموضع من حكايته، تتساقط دموعه ويختنق صوته، ويبدأ في التلعثم والتأتأة. يسكت طويلاً ويطلب كبّاية شاي، قبل أن يروي كيف مضى مع خاله دون أن يلتفت إلى الوراء.

بدل أن تنتهي الحكاية هنا، فإنّها اتّخذت في القامشلي مسارًا جديدًا، لأنّ الفتى أحسّ في منزل خاله بغربة مضاعفة. فهو لم يكن يعرف السريانيّة، كما كان يكره العمل الذي وجده له خاله كشغّيل في فرن، وكان يشعر أنّ النّاس يتعاملون معه بوصفه كرديًا.

في القامشلي استردّ جدّي اسمه الأصليّ لكنّه فقد هويّته لأنّه صار كرديًا في نظر النّاس، وشعر بالغُربة، وأقفلت الدنيا في وجهه، وفقد رائحة الأشجار التي كانت تملأ عليه حياته في عين ورد. كما كان مضطهدًا في البيت، يتعرّض لنوبات جنون خاله، الذي كان حين يشرب العرق ينقض على زوجته وبناته الثلاث

ضربًا، ثمّ يتفرّغ لابن أخته الذي أراده ابنًا له، لأنّ الله لم يرزقه صبيًّا، ويضربه بشكل وحشيّ.

لم يعرف هابيل ماذا يفعل، فهو لا يستطيع العودة إلى عين ورد، كما أنّه لم يعد يحتمل البقاء في هذا البيت الصغير المعتم، ولا يستطيع التوقّف عن العمل المضني في الفرن، لأنّ هذا سوف يعني موته جوعًا. لذلك لم يجد ملجأ له سوى في كنيسة مار أفرام. فصار يواظب على حضور قداديس يوم الأحد، ويشارك في تنظيف الكنيسة بعد القدّاس، ممّا لفت إليه نظر الشمّاس شمعون، الذي ضمّه إلى مدرسة الأحد التي أقامها في قبو الكنيسة، حيث كان يدرّس تلاميذه الطقوس الدينيّة.

هنا، يقول جدّي إنّ الله أنقذه. قذف في قلبه حبّ الدراسة، فبرع بين أقرانه، وحفظ جميع الصلوات السريانيّة دون أن يفهم معناها.

ومرّة جديدة تدخّل القدر، لأنّ الشمّاس شمعون، نصح هابيل بالذهاب إلى بيروت حيث ستنفتح الدنيا أمامه. فاتّخذ الفتى قراره، قبض أجره الأسبوعي من الفرن، وبدل أن يعود إلى البيت ركب الباص من القامشلي إلى حلب فطرابلس فبيروت. وصل هابيل إلى بيروت وهو لا يحمل معه سوى عنوان كنيسة القدّيس ساويروس في حيّ المصيطبة. بحث عن الكنيسة طويلاً قبل أن يجد نفسه أمام بابها المقفل حيث أمضى ليلته.

في الصباح، بدأ فصل جديد من الحكاية. وصل الكوهنو حنّا الدينوحي إلى الكنيسة، فرأى الفتى نائمًا على الرّصيف، أيقظه برفق وسأله عن خبره، فأعطاه هابيل رسالة الشمّاس شمعون. قرأ الكوهنو الرّسالة باهتمام، أدخل الفتى إلى الكنيسة وقاده إلى

غرفة جانبيّة تصلح أن تكون مأوىً له في انتظار أن يدبّر حاله. في اليوم التالي أعطاه رسالة توصية إلى الخواجة متري، صاحب معمل يزبك للبلاط، وطلب منه أن لا يتكلّم كثيرًا لأنّ لهجته تبدو غريبة على الأذن اللبنانيّة.

هنا يا سيّدي بدأ جدّي الذي عرفته. أي صار هابيل أبيض. اشتغل في معمل البلاط وساعد في الكنيسة. درس السريانيّة والدّين، وأعجب الملفونو بقدرته على حفظ الدروس بسرعة قياسيّة. كان جدّي أفضل تلميذ في مدرسة الكوهنو حنّا الليليّة، التي كان يدرس فيها مجموعة من عمّال البلاط السريان الآتين من سوريا. ثمّ زوّجه الكوهنو ابنة أخته، هكذا تقول الرواية العائليّة الرسميّة. أمّا الحقيقة فهي أنّ ابنة أخت الكوهنو أُغرمت بجدّي وأضربت عن الطعام من أجله، ممّا أجبر أهلها على الموافقة على زواجها من الفتى الكرديّ الذي صار، عبر الزواج، ابنًا شرعيًّا للطائفة في بيروت، وتطوّرت الأمور حين طلب الكوهنو من هابيل التوقّف عن العمل في البلاط ومساعدته في إدارة شؤون الرعيّة لأنّه صار كهلاً. ونما جدّي في القامة والمعرفة، وانصرف إلى تمجيد الخالق، ممّا أهّله بحسب رأي المثلّث الرحمات المطران داود كرجو لأن يصبح كوهنو مساعدًا في كنيسة القدّيس ساويروس، ثمّ يرث المنصب بعد وفاة الكوهنو حنا.

جدّي درس كثيرًا وتعب كثيرًا. قالت أمّي إنّ جدّي درس السريانيّة حين كان في الخامسة عشرة، واستهواه اللاّهوت والجدل حول الطبيعة الواحدة والطبيعتين، وذهب للدراسة في دمشق الشام، وعاد بأعلى الشهادات اللاّهوتيّة، ثمّ بدأ طموحه

يظهر، موحيًا بأنّ الله اختاره من أسفل الأرض. وكما اختار المسيح تلامذته من الصيّادين، اختار السيّد تلميذه أفرام من بين أطفال المذابح.

الحكاية يجب أن تنتهي هنا. فحكاية جدّي تنتهي مثل كلّ الحكايات بموت بطلها. وجدّي مات وشبع موتًا. الحكاية انتهت هنا فعلاً، لأنّ جميع الأحداث التي ستحصل بعد موت زوجته، متوقّعة. الرّجل اكتهل دفعة واحدة، واكتشف أنّه أضاع حياته سدىً، وبدأ في اختراع كتب لم يكتبها، وفي فرض طقوس غريبة على ابنته وحفيده.

غير أنّ غابي تعتقد أنّ المسألة يجب أن لا تتلخّص بموت الزوجة. فالرّجل بدأ يتغيّر قبل وفاة زوجته، ولم تكن الوفاة سوى عامل إضافي في تغيّر بدأ بسبب تلك الزيارة الغريبة التي قام بها الملاّ مصطفى إلى بيت الكوهنو في المصيطبة. الحكاية تبدو غريبة. لماذا يأتي الملاّ الكرديّ إلى بيت الكوهنو السريانيّ؟ هل صحيح أنّه طلب منه العودة إلى عين ورد، ووعده بميراثه، وعرض عليه تزويجه ابنة عمّه بعد أن يتوب إلى ربّه ويرجع إلى دينه؟

قالت أمّي إنّها لو سمعت هذه الحكاية لما صدّقتها، لكنّها رأت بعينيها وسمعت بأذنيها. سمعت قرعًا على الباب، ورأت الرّجل الكهل بلحيته البيضاء وعباءته السوداء، يتكلّم مع أمّها بلغة عربيّة غريبة، ويسأل عن هابيل. طلبت منه المرأة أن يتفضّل بالجلوس وذهبت تنده زوجها الذي كان في غرفته يلبس قمبازه الكهنوتيّ استعدادًا للخروج. أمّي وأختها سارة دخلتا إلى الصالون من أجل التفرّج على الرّجل الغريب الذي احتضنهما

وقبّلهما.

دخل جدّي إلى الصالون، ورأى الشّيخ يتململ في جلسته استعدادًا للوقوف، ركض الكوهنو نحوه كأنّه طفل صغير، أخذ يده وقبّلها ووضعها على رأسه. قبّلها على الوجه والقفا، فقبّله الشيخ على كتفه وعاد إلى جلسته. بقي الكوهنو واقفًا محنيّ الرّأس بين يديّ الشيخ. أمره الملاّ بالجلوس، فجلس هابيل على طرف الكنباية كأنّه كان على استعداد للوقوف في أيّ لحظة. ودار بين الرّجلين حديث غريب بلغة غريبة. شربا الشاي، ودخّنا سجاير لفّ كان يحملها الملاّ في جيب عباءته. الكوهنو الذي لم تمسّ سيجارة شفتيه منذ دخوله سلك الكهنوت، دخّن مثل المدخّنين. بكى الكوهنو وبكى الملاّ. ثمّ حين وقف الملاّ استعدادًا للمغادرة، انحنى الكوهنو مرّة ثانية على يده وقبّلها.

قالت أمّي إنّ الملاّ عرض على ابنه العودة إلى عين ورد، لأنّه يريده أن يرث الأرض، كما عرض عليه تزويجه ابنه عمّه. لكنّ جدّي رفض العرض، وقال إنّه لا يستطيع.

لم يتكلّما كثيرًا، فرجل مثل الملاّ، كانت سطوته تمتدّ على كلّ بلاد طور عابدين، لم يكن ليتكلّم. يكفي أنّه حمل حاله وجاء. مجرّد مجيئه وتشريفه لا يُردّ. هكذا قال جدّي، ومع ذلك أجابه أنّه لا يستطيع.

بكى الكوهنو بكاءً مرًّا، قالت أمّي. وبكى الملاّ بهدوء. كانت دموع الرّجلين تكرج على لحيتيهما، ثمّ مضى الملاّ وبقي الكوهنو ذاهلاً كأنّه لا يرى ولا يسمع.

قالت أمّي إنّ والدها بقي شبه أخرس سبعة أيّام، وإنّه في الأحد الذي جاء بعد الزيارة، لم يذهب إلى الكنيسة بحجّة

المرض. وإنّه رفض استقبال أحد من أبناء رعيّته، وقضى أسبوعًا كاملاً في سريره لا يأكل سوى الخبز والماء.

أمّي قالت إنّها اكتشفت يومها أنّ والدها كان كرديًا، وإنّها حين رأته يتكلّم بالكرديّة مع الملاّ، رأت وجهه الحقيقيّ الذي لم يعد إليه إلاّ لحظة موته.

بعد الزيارة تغيّر الكوهنو كثيرًا، كأنّ روحًا غريبة دخلت في جسده، وركبته اللّغة السريانيّة، وصار مهووسًا بجمع أسماء القرى اللبنانيّة والسوريّة والفلسطينيّة التي تبدأ بكلمة كفر، يوقف محدّثيه مرّات لا تحصى من أجل أن يعيد الكلمات العربيّة إلى أصولها السريانيّة، ويقول إنّ الهواء يتكلّم اللّغة السريانيّة، ويقف أمام أيقونة المسيح ويخاطبه باللّغة التي لا يفهمها أحد سواهما.

لم يروِ جدّي حواره مع أبيه الكرديّ لزوجته سوى مرّة واحدة. قال إنّها كانت تجربته. مثلما جُرِّب المسيح من قبل الشيطان، أُرسل لي الملاّ كي يُجرّب إيماني. قال إنّه خاف من نفسه، وخصوصًا عندما حدّثه والده الكرديّ عن العذابات التي يذوقها الأكراد في تركيا، وكيف يشعرون بالاضطهاد، وتنتهك قراهم كلّ يوم. الملاّ الذي كان يرتجف كلّ النّاس من وقع قدميه على الأرض، بدا متردّدًا وحزينًا، كأنّه جاء يستنجد بابنه. بكى الرّجلان كثيرًا، ولم يضحكا إلاّ حين ذكّر الملاّ ابنه كيف حفظ القرآن الكريم حين كان في السابعة من عمره، واعتبر ذلك في نواحي عين ورد بمثابة أعجوبة.

لكنّ الأعجوبة الأكبر، قال الكوهنو لزوجته، هي أنّه استطاع أن ينسى. فجاء الملاّ ليوقظ في قلبه كلّ الأشياء التي نسيها.

يالو هناك يرفض أن ينزل عن عرشه ويأتي إليّ. أقول له أن لا

يخف لأنّ الحقّ معه. يالو لم يرتكب سوى خطيئة واحدة ندم عليها كثيرًا، لكنّه لم يستطع إصلاحها، ولم يفهم أنها ستقوده إلى نهايته.

الخطيئة لم تكن شيرين، بل كانت صوتها.

الفتاة التي عشقها حتّى الموت لم تستطع أن تنسى. خرجت معه مرّات عديدة، ضحكت وبكت وأكلت وشربت. أمسكت بيده وقبّلته ونامت معه في فندق صغير في مدينة جونيه. أحبّته ولم تحبّه، لكنّها لم تستطع أن تنسى أنّه كسر صوتها.

قالت انكسر صوتي هونيك بالبلّونة، منشان هيك ما بقدر حبّك مزبوط، فلم يفهم معنى هذا الكلام. تخيّل آنية فخّاريّة تسقط على الأرض وتنكسر. لكنّه لم يفهم أنّه حين صوت المرأة ينكسر، فهذا يعني أنّ قلبها أصيب ببحّة عميقة لا دواء لها. والقلب المبحوح لا يستطيع أن يحبّ.

قالت إنّه عندما هناك، عندما هرب الدكتور سعيد بالسيّارة، وبقيت وحدها في الحرج مع الرّجل الطويل، حاولت أن تصرخ وصرخت، لكنّ الرّعب شلّها، فلم يخرج صوتها من حنجرتها. انكسر الصّوت في حنجرتها وكسرها.

قالت إنّها مستعدّة أن تفعل كلّ شيء من أجله، لكنّها عاجزة عن استعادة صوتها المكسور، لذلك فهي لا تستطيع الاستمرار في العلاقة معه، وإنّها قرّرت العودة إلى خطيبها السابق، وطلبت من يالو أن يفهم.

يالو لم يفهم، وهذه خطيئته الكبرى. تعلّق بحبال صوت مكسور، وتابع لعبته مع امرأة مكسورة.

لذلك وصل إلى السّجن، وصعد إلى عذاباته وأضاع روحه.

اقتربت منه، حاولت أن أقرأ له، لكنّني توقّفت عن القراءة لأنّني رأيت دموعه. قرأت له عن جدّه والملاّ الكرديّ والصوت المكسور، فكرجت دموعه على خدّيه، وابتلّ نحره.

كيف أنزله عن عرشه وأضمّه إلى صدري؟

يالو يهبط الآن يا سيّدي، أراه يهبط عن العرش ويمشي في اتّجاهي. أراه في محاذاة النافذة، أراه يقترب. أنهض، أفتح له ذراعيّ وأدخله في عينيّ.

نظر يالو إلى الأوراق، قرأ قليلاً وطلب منّي أن أتوقّف عن الكتابة لأنّ القصّة انتهت.

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا.

دخل ضابط إلى الزنزانة الانفراديّة وأمر يالو باللّحاق به. حمل الشاب أوراقه ومشى وسط دهاليز معتمة. نزل درجًا طويلاً قبل أن يجد نفسه داخل قاعة كبيرة تحت الأرض. وقف الشاب ذو الحاجبين المقفلين والوجه الأسمر المستطيل والقامة الطويلة النحيلة في القاعة شبه المعتمة، حاملاً أوراقه بيديه في انتظار أن يقدّم حكايته إلى المحقّق، ويكون بذلك قد اجتاز رحلة العذاب الطويلة ووصل إلى النهاية.

وقفتُ ولم أرَ.

كانت الظلمة كثيفة، لا، ليست الظلمة، كانت الأضواء التي حملتها في عينيّ تحجب عنّي الرّؤية، وترسم على المكان بقعًا من العتمة والضّوء. أغمضتُ عينيّ كي أرى، وكذلك كنت أفعل دائمًا، أغمضت عيني كي أسمح للضوء بالانسحاب منهما، ثمّ أفتحهما فأرى.

وقفتُ في صمت ثقيل يشبه العتمة. وقفتُ وانتظرت وأنا أحمل الأوراق في يدي. فأنا متأكّد من أنّ كلّ ما كتبته كان صحيحًا، وأنّني كتبت قصّة حياتي من أوّلها إلى آخرها، ولن أُساق بعد اليوم إلى التعذيب.

وسمعت صوته: «افتح عينيك يا رجل.»

فتحتهما وانتظرت أن يطلب منّي أوراقي. غير أنّ الرّجل الأبيض الذي كان يجلس خلف المكتب الحديديّ لم يطلب منّي شيئًا. رأيت بقع الماء المنتشرة على الأرض وشممت الرّائحة العفنة التي تملأ المكان، فشعرت أنّه يجب أن أعود إلى فوق. ما كان يجب أن أصدّقهم وأنزل عن عرشي.

أحسست أنّني على وشك السقوط وسمعت صوته يقول أشياء لم أفهمها. كانت كلماته متراكبة، ولم أكن قادرًا على فكّ الأحرف عن بعضها. سمعتُ أسئلة عن رجل يدعى ريشار صوان وامرأة تدعى ماري، ولم أجاوب سوى بأنّني لم أسمع هذين الاسمين من قبل. فهمتُ أنّه سيتمّ نقلي إلى سجن رومية، وأنّني الآن في أسفل مبنى التحقيق التابع للمخابرات في سنّ الفيل.

قال المحقّق إنّ حكايتي مُضحكة، ورنّت ضحكته في أذنيّ. تقدّمت منه ومددت يدي بالأوراق.

يدي معلّقة في الهواء. قصّة حياتي من أوّلها إلى آخرها في يدي، ويدي في الهواء، والمحقّق يضحك.

«قرّب لشوف»، قال المحقّق، «شو هيدا يلّلي بإيدك؟»

لماذا يسألني وهو يعرف الجواب، فكّر يالو، ثمّ قال في نفسه إنّ هذا هو التحقيق. يسألونك أشياء سبق لك أن اعترفت بها، وحين تعيد اعترافاتك تخطئ، وهذا أمر لا مفرّ منه، لأنّك لا تستطيع أن تروي الحكاية نفسها مرّتين. لكن هذه المرّة لا. لن أجاوب على أيّ سؤال. جميع أجوبتي مكتوبة في الأوراق. لن أخبر القصّة من جديد. كتبتها كلّها من أوّلها إلى آخرها، ولم يعد هناك أيّ مجال للخطأ. أسود على أبيض، وكلّ شيء هنا. لن

أعيد الكتابة ولن أحكي. هذه قصّتي فليأخذوها ويفعلوا بي وبها ما يريدون، لكنّي لن. . .

قبل أن يكمل يالو جملته في رأسه، شعر بألم في لسانه، وشعر بالجواب يتكوّر في حلقه، وبالكلمات تتخشّب على شفتيه، وأراد أن يجاوب، لكنّه لم يستطع. مدّ يديه بالأوراق وتقدّم.

«عم بسألك شو هيدا؟» صرخ المحقّق.

«هيدا. . . هيدا. . .» قال يالو.

«شو؟»

«هيدا القصّة.»

«القصّة!»

«نعم، نعم، القصّة.»

«قصّة شو؟»

«القصّة، هيدي القصّة تبعي، هيدي قصّة حياتي.»

لوّح بالأوراق وهو قابض عليها، لكنّ المحقّق لم يمدّ يده من أجل أن يأخذها.

«قصّة حياتك!» قال المحقّق بتعجّب، وخرج من خلف الطاولة.

«نعم يا سيّدنا، إنتو طلبتوا منّي أكتبها، وأنا كتبتها من الأوّل للآخر.»

هنا انفجر المحقّق ضاحكًا، وطلب من يالو أن يقترب منه.

تقدّم يالو فوق الحفر المليئة بالماء والرّوائح، رأى يد المحقّق تمتدّ كي تختطف الأوراق فتراجعت يده إلى الخلف بحركة غريزيّة، وشدّ على أوراقه.

«هيدول هنّي الأوراق؟» سأل المحقّق.

«نعم، نعم، هيدول كلّ شي.»

«ولشو عذّبت حالك هلقد؟»

«إنتو سيّدنا، إنتو طلبتوا منّي كلّ شي، وأنا كتبت كلّ شي، بالأوّل كان حضرة الضابط يبعتني عالتعذيب لأنّهم ناقصين، هيدول مش ناقصين.»

«عظيم، عظيم، والله أنتَ مش قليل.»

«ولا حمار»، قال المحقّق، «أنت حمار.»

«أنا حمار»، قال يالو.

«شو عم تتجولق عليّي؟»

...

«مين مفكّر حالك؟»

...

«إنشالله مفكّرنا ناطرين قصّة حياتك حتّى نعرف الحقيقة، نحن منعرف كلّ شي، وبعدين مين مفكّر حالك حتّى تتعربط بهالأوراق. ولي أنت ولا شي. عارف أنّك ولا شي. هات الأوراق تنشوف.»

مدّ يالو يده بالأوراق وسمع ضحكة مجلجلة.

«إنت حمار وهبيلة، عارف مين أنت؟»

...

«جاوب لمّن بسألك.»

«نعم، عارف.»

ورأيت. أغمضت عينيّ كي أرى ورأيت. كانت الأوراق تتطاير قبل أن تسقط فوق الحفر المليئة بالمياه الآسنة، وسمعت

صوت المحقّق يقول:

«ما تآخذنا يا مسيو يالو، ما تآخذنا، عذبناك معنا، قصّتك سخيفة وما بتستاهل، اكتشفنا عصابة المتفجّرات واعترفوا بكلّ شي، وأنت ما إلك علاقة. إنت مجرّد واحد عرس. ليش تذاكيت علينا وكتبت قصص ما إلها نهاية، وهيدا يلّلي خلّلينا نشكّ فيك، بينما أنت أهبل. أنت مجرّد عرس وتافه، وتهمتك يللّي رح تتحاكم عليها هي السرقة والتعريس بنسوان العالم بحرش بلّونة. منشان هيك ما كان في لزوم لكلّ هالاعترافات.»

رأى يالو الأوراق تسقط أرضًا، وسمع صوت المحقّق يقول:

«يلّله خدوه من هون.»

الأوراق على الأرض، قصّة حياتي من أوّلها إلى آخرها على الأرض. الماء والحبر والحكاية التي تسيل. صوته يقول: «يلّله من هون»، وأنا هنا، أردت أن أرجوه أن لا يدعس عليها، لكنّه دعس على صوتي. الكلام عالق في حلقي، والمحقّق يقول:

«ليكو الخرا، مفكّر حالو خرية كبيرة الخرا... يلّله خدوه من وجهي.»

رأيت نفسي أسقط. رأيت نفسي أدبدب وأحاول لمّ الأوراق. رأيت قدميه، كان يدعس على يديّ وأصابعي ويفرك الأوراق بكعب حذائه، وأنا أحاول أن ألمّها، فأغرق في الماء والرّائحة، وأشعر بركلات في مؤخّرتي، وأسمع قهقهات عالية. رأيت جبيني يرتطم بالأرض، وكانت رائحة دموعي تشبه الرّائحة النتنة التي تخرج من الحفر المليئة بالماء.

...

ورأيته.

خرج من ثيابي، تسلّق المكتب الحديديّ وقفز إلى النافذة. رأيته هناك فوق، وقد وجد عرشه من جديد.

جَرّوني على الأرض.

برز رجلان مفتولا العضلات وجرّاني. تشبّثت بالأرض، فأنا لا أستطيع أن أترك يالو هنا. لن أترك قصّة حياتي تتمزّق تحت أحذيتهم.

رأيت نفسي محمولاً، ورأيتني داخل سيّارة جيب عسكريّة أخذتني إلى السّجن، وكانت دموعي تخرج من عينيّ ويدي وأذني وأنفي ووجهي وصدري.

دخلت إلى القاووش، وضعوا لي بطّانيّة على الأرض قرب الباب. نظرت إلى النافذة الصغيرة العالية المسيّجة بالحديد. وحين رأيته توقّفت دموعي.

كان يالو هناك في انتظاري.

حُكم

باسم الشعب اللبنانيّ

إنّ محكمة الجنايات في جبل لبنان، المؤلّفة من الرّئيس المنتدب غسّان دياب والمستشارين نديم جحا ونقولا عبد النّور.

بعد اطّلاعها على مضبطة الاتهام عدد ٢٢٣ / بتاريخ ١٨/ ٣/ ٩٤، وعلى ادّعاء النيابة الاستشاريّة في جبل لبنان عدد ٩٣٥٥ تاريخ ٢/٨/ ٩٣، وعلى أوراق الدعوى كافّة.

تبيّن أنّه أحيل أمام هذه المحكمة، المتّهم:

دانيال هابيل أبيض، المعروف باسم يالو، والدته ماري، مواليد ١٩٦١ بيروت، لبنانيّ. أوقف وجاهيًا بتاريخ ٨ ـ ٦ـ ٩٢، ولايزال موقوفًا.

ليُحاكم بمقتضى أحكام المواد ٦٤٠ / ٦٩٣ عقوبات، و٦٣٩ عقوبات، لإقدامه في محلّة بلّونة، وبتاريخ لم يمرّ عليه الزمن على ارتكاب عدّة عمليّات سلب واغتصاب ليلاً وبقوّة السلاح.

ونتيجة المحاكمة العلنيّة والوجاهيّة، تبيّن ما يلي:

أوّلاً: في الوقائع

تبيّن أنّ المتّهم دانيال أبيض كان يعمل خلال عامي ١٩٩١ و١٩٩٢، ناطورًا في ڤيلّلا تقع في بلدة بلّونة، خاصّة السيّد ميشال سلّوم المحامي، مرتفعة على تلّة كاشفة للطرقات الفرعيّة التي تحيط بها، التي كانت بدورها مرتعًا للعشّاق، إذ غالبًا ما كان يتواجد شاب وفتاة داخل سيّارة أنوارها مطفأة يتبادلان العناق والقبلات. وبحكم كون موقع الڤيلّلا مشرفًا على الطرقات الفرعيّة، كان المتّهم يشاهد بشكل مستمرّ ما يحصل داخل أيّة سيّارة تتوقّف على إحدى هذه الطرقات.

وتبيّن أنّ المتهم دانيال هابيل أبيض، كرّر عمليّة السلب بالأسلوب المذكور حوالي ثلاثين مرّة، كما قام باغتصاب حوالي ثلاث عشرة امرأة، ومن بين ضحاياه: ن .س وأ .ف. وم .د. . . .

وتبيّن أنّ المتّهم دانيال هابيل أبيض، كان قد استلم من مخدومه ميشال سلّوم المحامي رشّاشًا حربيًّا من نوع كلاشينكوف مرخّص به ليستعين به على حراسة الڤيلّلا ضمن حرمها، كما كان بإمكانه استعمال المسدّس الحربيّ خاصّ مخدومه، والذي كان هذا الأخير يضعه في تابلو سيّارته بشكل دائم، ويسلّم مفاتيح سيّارته للمتّهم دانيال للاعتناء بالسيّارة وتنظيفها، على أنّ المسدّس المذكور مرخّص به. وقد ضبط عناصر مفرزة جونية الرشّاش والمسدّس وأعادوهما إلى مالكهما.

وتبيّن أنّ المتهم دانيال هابيل أبيض، اعترف بالوقائع

المسرودة آنفًا. وذلك أمام مفرزة جونية القضائيّة، وأمام قاضي التحقيق، وكتب نصّ اعترافاته بيده. إلاّ أنّه عاد عن اعترافاته أمام هذه المحكمة، مدّعيًا أنّه اعترف تحت التعذيب، غير أنّ تقرير الطبيب الشرعي لم يثبت وجود أيّ تعذيب جسديّ أو نفسيّ تعرّض له المتهم. وقد أفاد دانيال أنّ المدعو ريشار صوان كان يحاول اغتصاب الفتاة التي كانت برفقته، وأنّه منعه من ذلك ولم يُقدم على سلبه.

ولقد استجوب ريشار صوان بصفته مدّعيًا، وأكّد أنّ المتّهم دانيال هو الذي أقدم على سلبه واغتصاب ماري مجهولة باقي الهويّة التي كانت معه في سيّارته.

وقد أفاد دانيال أنّه لم يغتصب المدعوّة شيرين رعد. بل إنّها طلبت بملء إرادتها أن تبيت عنده، بعد هرب خطيبها إميل شاهين. وتبيّن أنّ المدعوين شيرين رعد وإميل شاهين، أسقطا حقوقهما الشخصيّة عن المتّهم دانيال أبيض، واستجوبا بصفتهما شاهدين، وأكّدا أنّ المتهم هدّد إميل شاهين بالقتل قبل أن يأمره بمغادرة الحرج، ثمّ قام باغتصاب شيرين رعد ثلاث مرّات في كوخه الكائن أسفل فيلّلا سلّوم.

وتبيّن أنّ ممثّل النيابة العامّة قد ترافع وطلب تجريم المتهم، كما ترافع وكيل المتهم الذي عيّنته المحكمة طالبًا براءته لعدم كفاية الدليل، وأُعطي الكلام الأخير للمتهم دانيال هابيل أبيض، فترك أمره للمحكمة.

وقد تأيّدت هذه الوقائع:

١ ـ بالادّعاء والإسقاط.

٢ ـ بمحضر التحقيق الأوّلي، وضبط المعطف والبطّاريّة من

منزل دانيال.

٣ ـ بمحضر التحقيق الاستنطاقي.

٤ ـ باعتراف المتّهم خلال التحقيق الأوّلي، وأمام قاضي التحقيق، وباعترافاته المكتوبة بخطّ يده.

٥ ـ بمدلول أقواله أمام المحكمة.

٦ ـ بأقوال الشهود.

٧ ـ بضبط الرشّاش والمسدّس الحربيّ، وإعادتهما إلى مالكهما كونهما مرخّصين.

٨ ـ بمحضر المحاكمة، ومجمل أوراق الدعوى.

ثانيًا: في القانون

حيث إنّه بات من الثابت لهذه المحكمة، من خلال اعتراف المتهم دانيال هابيل أبيض أمام مفرزة جونية القضائيّة، وأمام قاضي التحقيق، ومن خلال اعترافاته المكتوبة، ومن خلال ضبط الرشّاش والمسدّس وإعادتهما إلى مالكهما، ومن خلال ضبط المعطف والقبّعة الصوفيّة والبطّاريّة، أنّ المتّهم دانيال هابيل أبيض قد أقدم منفردًا على عدّة عمليّات سلب ليلاً بقوّة السلاح، وعلى عدّة عمليّات اغتصاب ليلاً بقوّة السّلاح.

وحيث إنّ قناعة هذه المحكمة قد تقرّرت بمدلول أقوال المتهم، وبأقوال الشهود ميشال سلّوم ورندة سلّوم وشيرين رعد وإميل شاهين أمامها. والمدّعي ريشار صوان.

وحيث بالتالي، فإنّ إقدام المتهم دانيال هابيل أبيض على عدّة عمليّات سلب واغتصاب ليلاً بقوّة السلاح هو من قبيل الجناية

المنصوص عنها في المادة ٦٣٩ عقوبات معطوفة على المادة ٦٤٠ منه.

وحيث إنّ المحكمة بما لها من التقدير، ترى منح المتهم الأسباب التخفيفيّة سندًا للمادة ٢٥٣ عقوبات.

لذلك،

وبعد سماع مطالعة النيابة العامّة والدفاع والمتهم.

١ ـ بتجريم المتهم دانيال هابيل أبيض بجناية المادة ٦٣٩ عقوبات معطوفة على المادة ٦٤٠ منه، وبإنزال عقوبة الأشغال الشاقّة المؤقّتة لمدّة عشرين سنة، سندًا للنصّ الأوّل، وبتشديد هذه العقوبة ورفعها إلى الأشغال الشاقة المؤبّدة سندًا للنصّ الثاني، وبتخفيضها سندًا للمادّة ٢٥٣ عقوبات إلى عشر سنوات أشغال شاقّة على أن تحسب له مدّة توقيفه.

٢ ـ تضمين المحكوم عليه الرّسوم والنفقات القانونيّة.

حكمًا وجاهيًّا بحقّ المحكوم عليه، صدر وأُفهم علنًا بحضور ممثل النيابة العامّة بتاريخ ٦/٦/١٩٩٤.

آذار ١٩٩٥ ـ سجن رومية ـ القاووش رقم ١٢

أعيش في هذا القاووش مع مجموعة كبيرة من السّجناء. لكنّني وحدي ولا أتعاطى مع أحد. طلبت من الحرّاس أوراقًا وأقلامًا لكنّهم رفضوا. أحد الحرّاس ويدعى نبيل زيتون أشفق عليّ. كلّ السجناء هنا يطلبون الطعام والدخان، أمّا أنا فلا. نفسي عافت الطعام والدخان أشتهيه لكنّني لا أطلبه. طلبت أوراقًا بيضاء. أريد أوراقًا تشبه أوراقي التي امّحت في قبو التحقيق. فأنا حين أنظر إلى حياتي أشعر أنّها قصّة. أريد أن أقرأ القصّة من أجل أن أستطيع احتمال الآلام التي تعاودني. لا أستطيع أن أخبر قصّتي لأحد، لأنّهم سيعتقدونني مجنونًا، ثمّ لن يفهم أحد. قصّتي كتبتها بنفسي ومن أجل نفسي.

ينظر السّجناء هنا بعيون غريبة إليّ. فهم يعتقدون أنّني «ملك السكس»، هكذا أسماني رئيس القاووش، وهو مهرّب حشيشة محترف، يعيش هنا كأنّه في قصر. يقوم السّجناء بخدمته كأنّه ليس سجينًا مثلهم. عندما دخلت القاووش رقم ١٢، أعطاني السيّد أبو طارق الأرناؤوط، وهذا هو اسم رئيس القاووش، فرشة في طرف الغرفة قُرب الباب، وطلب من السّجناء أخذ

حذرهم منّي لأنّني وحش جنسيّ لا يشبع.

أنا لا أريد أحدًا منهم. أنظر إلى النافذة المسيّجة بالحديد، فأراه، وأشعر بحاجة إلى البكاء.

بعد صدور الحكم بسجني عشر سنوات، نُقلت إلى هذا القاووش المستطيل الذي تفوح منه رائحة عرق الرّجال. الرّائحة لا الخوف. فأنا لم أعد أخشى شيئًا. لقد أُعلنت براءتي من جرائم المتفجّرات، على رؤوس الأشهاد. أمّا أحداث حرج العشّاق وملابساتها فقد أثارت ضحك رئيس المحكمة عدّة مرّات، وخصوصًا حين طُلب منّي رواية التفاصيل. وتأكّدت يومها من أنّ الحكم عليّ سوف يكون خفيفًا. لكن حين أبلغوني أنّ مدّة الحكم هي عشر سنوات، أُصبت بضربة حزن لم تفارقني. طلبي الوحيد من المحكمة كان أوراقي التي دعس عليها المحقّق. وهذا أيضًا أثار الضحك.

لم أستطع أن أشرح لهم أنّني أريد أوراقي من أجله. كيف أخبرهم عن يالو الذي عاد إلى عرشه السماويّ، يجلس قرب النافذة ولا يجاوبني.

ينظر إليّ السجناء هنا بشكل غريب، لأنّهم يتشوّقون إلى سماع قصّتي، بعد كلّ ما قيل عن بطولاتي الجنسيّة، وأنّني لم أغتصب النّساء فقط، بل كنت أغتصب الرّجال أيضًا! يا للهول! أرى عيون السجناء المفتوحة بالشهوة إلى القصص دون أن يجرؤ أحد منهم على الاقتراب منّي كي لا يُتّهم بي.

أنا لا أريدهم، ولا أملك أيّ رغبة في التحدّث إلى أحد. أنا أريد أن أحكي مع روحي وأشفيها من آلامها. أنظر صوب النافذة وأخاطب شخصًا لا يراه أحد غيري، وأحاول أن أتذكّر

الحكايات التي كتبتها، لكن ذاكرتي لا تسعفني.

لا يحقّ لأحد القول إنّه مفضل عليّ. لقد دفعت ثمن كلّ شيء. أنا والحياة متساويان الآن. إذا وضعنا على كفّتي ميزان لتعادلت الكفّتان. لذلك لا أشعر بأيّ عذاب ضمير أو ندم على كلّ ما فعلته، لا لأنّني راضٍ عمّا فعلته، بل لأنّه اشتُريَ بعذابي ودمي.

أشتاق إلى روائح صمغ الصنوبر وإلى رائحة البخّور التي تحيط بفيلّلا غاردينيا. أشتاق إلى هاتين الرّائحتين فقط، أمّا الأشخاص الذين عبروا حياتي وعبرت حياتهم فلا أشعر شيئًا نحوهم. حتّى أمّي لا أشتاق إليها بالمعنى الحقيقيّ لكلمة شوق. أنا عرفت الشوق عندما كنت مغرومًا وأبله. الشوق يعضّ ويوجع. الآن أشتاق إلى أمّي دون وجع. أشتاق إليها لأنّني أشفق عليها. زارتني المسكينة مرّة واحدة في السجن. الزيارات هنا غريبة، يقف السّجناء خلف قضبان حديديّة بينما يقف الأهل في الجهة المقابلة ويبدأ الصراخ. جاءت أمّي مرّة واحدة ولم تجلب لي شيئًا مثل بقيّة الأهالي الذين يجلبون الطعام والدخان لأبنائهم السجناء. جاءت ووقفت مع الواقفين ولم ترني. عجيب أمرها، أنا أطول سجين هنا، وأشعر أنّني أزداد طولاً رغم أنّ هذا مستحيل علميًا، فالإنسان يتوقّف عن النموّ في سنّ المراهقة، لكنّني ازددت طولاً ونحولاً، أعرف هذا وأستغربه، ومع ذلك لم ترني أمّي. كانت تقف بكوكيتها غير المرتّبة بعناية وتنظر يمينًا وشمالاً بحثًا عنّي بينما وقفتُ في مواجهتها تمامًا. صرختُ لها فرأتني وبكت. وضعت كفّيها على أذنيها وأحنت رأسها. أغلقت أذنيها بكفّيها لأنّ الأصوات العالية تؤلمانهما، مثل جدّي الذي

كبرت أذناه في أيّامه الأخيرة، فصار يفتح كفّيه ويغطّيهما كي لا تدخل الأصوات إلى دماغه وتسحقه.

صرخت لها فغطّت أذنيها وطلبت منّي أن أتكلّم بصوت منخفض. سألتها عن أحوالها فجاوبتني بصوت منخفض لكنّني سمعته. سمعت صوتها رغم كلّ الأصوات، وفهمت أنّهم طردوها من بيت حيّ المراية في عين الرمّانة، وحين عادت إلى منزلها في المصيطبة وجدته مسكونًا بعائلة لا تعرفها. قالت إنّ هذا بيتها فطردوها وهدّدوها بالبوليس. قالت إنّها تعيش الآن في وطى المصيطبة. استأجرت غرفة صغيرة في حيّ الأكواخ الذي يسكنه خادمات المنازل وعمّال الباطون السوريّون والأكراد. قالت إنّها تدفع مئة ألف ليرة إيجارًا شهريًّا لغرفتها، وإنّها سوف تصير شحّادة من أجل أن تستطيع أن تأكل، لأنّها لا تملك قرشًا.

نبيل زيتون، أحد حرّاس السجن هنا، أشفق عليّ. رأى أنّ لا أحد يزورني، وأنّني لم أضع شيئًا في الأمانات، وشاهد إصراري على طلبي. نبيل زيتون أعطاني عشرين ورقة بيضاء، وقلم حبر ناشف، وقال إنّه لا يستطيع أن يدبّر لي أكثر من ذلك. قرّرت أن أكتب قصّة حياتي من جديد بخطّ صغير، بحيث تكون الكلمات مثل النمل، لا يستطيع أحد قراءتها. لا أريد أن يقرأ أحد سواي هذه القصّة. رأيت بعينيّ هاتين كيف داس المحقّق على أوراقي. قرأ بحذائه وأغرق الأوراق في مياه مبتذلة ونتنة الرّائحة. لاتزال هذه الرّائحة في أنفي، تختلط برائحة عرق الرّجال وبولهم، ممّا يمنعني من التذكّر. أريد أن أتذكّر كلّ شيء. أحاول فأرى كلّ شيء أسود على أبيض، لكنّني لا أستطيع أن أقرأ. كأنّني أقرأ في منام. أرى حروفًا لا أستطيع فكّ رموزها.

سوف أكتب على هذه الأوراق كلمات صغيرة جدًا، بحيث أضع في السطر الواحد صفحة كاملة. آلامي لا تفارقني. شخّص طبيب السّجن بأنّني مُصاب بفتق في أسفل المصران الغليظ بسبب القنّينة، وأنّه قد يستدعي إجراء جراحة. لكنّ الطبيب نصحني بالصّبر وعدم إجراء الجراحة في مستشفى السّجن لأنّها ليست مضمونة النتائج.

أنا لا أكتب من أجلي، بل من أجله وأجل أمّه. أريد أن يعود إليّ من أجل أمّه المسكينة، وعلينا أن نجد لها حلًّا لأنّها سوف تكون بطلة القصّة. أنا لا أحبّ القصص التي يكون أبطالها رجالاً. بطلة قصّتي سوف تكون غابي، بكوكينتها وشعرها الطويل الذي يتذهّب أمام البحر وعشيقها الخيّاط، ووالدها الكوهنو، وابنها الذي ضيّع حياته.

أمّي زارتني مرّة واحدة فقط. بالي مشغول عليها. أخبارها انقطعت من سنة، ولا أعرف وسيلة للاتصال بها. لذلك لم أكتب سوى صفحة واحدة. سنة كاملة لم أكتب خلالها سوى صفحة، وهذا لا يعود إلى كسلي بل إلى حيرتي. أريد نهاية سعيدة للقصّة. لا أريد لقصّتي أن تنتهي وبطلتها غابي هابيل أبيض، أمّي وأختي، تمشي وحيدة في شوارع المدينة وتتعثّر بظلّها.

أريد نهاية أخرى.

أحاول أن أتخيّل النهاية المختلفة، لكن خيالي لا يساعدني. أنا لا أملك خيالاً كافيًا كي أجد نهاية لغابي تليق بقصّة حبّها. وإذا لم أجد نهاية القصّة فكيف أكتب؟

صدر للمؤلف

روايات

عن علاقات الدائرة، ١٩٧٥، ١٩٨٥ .
الجبل الصغير، ١١٩٧٧، ١٩٨٤ .
أبواب المدينة، ١٩٨١، ١٩٩٠ .
الوجوه البيضاء، ١٩٨١، ١٩٨٦ .
المبتدأ والخبر (قصص)، ١٩٨٤ .
رحلة غاندي الصغير، ١٩٨٩، ٢٠٠٠ .
مملكة الغرباء، ١٩٩٣ .
مجمع الأسرار، ١٩٩٤ .
باب الشمس، طبعة أولى ١٩٩٨، طبعة ثانية ١٩٩٨ .
رائحة الصابون، ٢٠٠٠ .

دراسات

تجربة البحث عن أفق، ١٩٧٤ .
دراسات في نقد الشعر، ١٩٧٩، ١٩٨١، ١٩٨٦ .
الذاكرة المفقودة، ١٩٨٢، ١٩٩٠ .
زمن الاحتلال، ١٩٨٥ .

... وأنا الآن أكتب عن يالو الذي رفعتموه إلى أعلى قنّينة وأسميتموها العرش. يالو على العرش، كأنَّه ملك الموتى. نعم يا سيّدي، أراه ميتًا، والميت لا يكتب لأنَّه يموت.

عندما طلبتم منه كتابة قصّة حياته كنتم مخطئين. لا يستطيع يالو أن يكتب لأنَّه صار في مكان آخر، حيث لا يكتبون. أنا دانيال أكتب، وسأكتب كلّ ما تريدونه عنه وعنّي وعن جميع النّاس. أمّا يالو فلا. أريد أن أكون صريحًا معكم وأقول إنَّ يالو تركني وذهب إلى البعيد. أنا جسد وهو روح. أنا أتألّم وهو يطير. أنا نزلت عن القنّينة، أمّا هو فيجلس على العرش.

ولد الياس خوري في بيروت عام ١٩٤٨. يعمل حاليّاً رئيسًا لتحرير «الملحق» الثقافيّ لجريدة النهار في بيروت. درّس في جامعتي كولومبيا ونيويورك في أميركا وفي الجامعتين اللبنانيَّة والأميركيَّة في بيروت. تُرجمت أعماله إلى الإنكليزيَّة والفرنسيَّة والألمانيَّة والسويديَّة.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨-٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت